19841

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة وهران

كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية
قسم الحضارة الإسلامية

المساهمة العلمية للمختار الكبير الكنتي بأزواد
1142-1226 هـ / 1729-1811 م

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ و الحضارة الإسلامية

إعداد الطالب :
أحمد الحمدي

تحت إشراف:
أ/د عبد المجيد بن نعمية

* السنة الجامعية *

1427-1428هـ/ 2007 - 2008 م

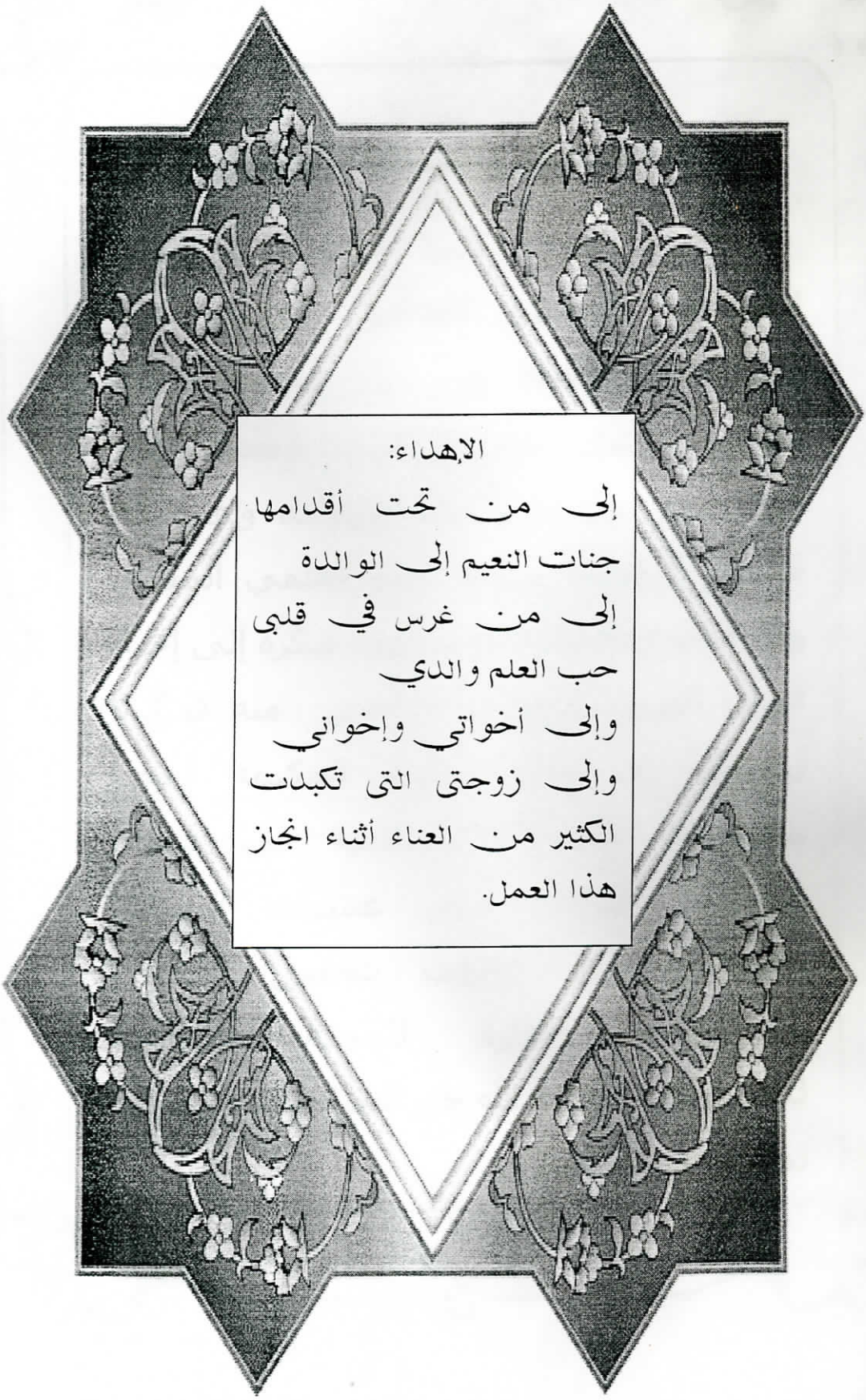
بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ
ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ
كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ .

27 ــ 28 سورة فاطر.



الإهداء:

إلى من تحت أقدامها
جنات النعيم إلى الوالدة
إلى من غرس في قلبى
حب العلم والدي
وإلى أخواتي وإخواني
وإلى زوجتى التى تكبدت
الكثير من العناء أثناء انجاز
هذا العمل.

كلمة شكر واعتراف بالجميل

أجدني ممتنا كثيرا خلال فترة البحث **لشيخي الأستاذ الفاضل الدكتور عبد المجيد بن نعمية**، من خلال نصائحه الكثيرة والمفيدة، وبتوفير جميع الإمكانيات المادية لإتمام هذا العمل من تصوير للمخطوطات، وإعارة آلة التصوير الرقمية، وتهيئة الجو العلمي الملائم. وهو الذي وجَّه عنايته في عهود مبكرة إلى إحياء التراث العربي المخطوط، فأحيى منه قدرًا لا يستهان به. وذلك بإدارته الحكيمة لمخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، وبإشرافه على عشرات الرسائل الجامعية، التي اهتمت بتحقيق النصوص وإخراجها، وبإصداره للمجلة الجزائرية للمخطوطات. فجزاه الله خير الجزاء ومتعه بصحته لمتابعة جهاده العلمي.

كلمة شكر وتقدير

أتقدم بالشكر إلى أساتذة كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، الذين حرصوا على تشجيعي لإنهاء هذا العمل، وأخص منهم بالذكر الأساتذة: أ. د. بوعلام بلقـــاسمي، وأ. د. ومحمد بن معمر، وأ. د.الجيلالي سلطاني، ود. سليماني عبد القادر، وأ. د. أحسن زقور. كما أثني على أ. د. حساني مختار الذي أمدني ببعض وثائق هذا البحث. ولا يسعني إلا أن أنوه بجميع الشيوخ والأساتذة الذين قدَّموا لي يد العون لإنجاز هذا العمل، وبالخصوص الشيخ الفاضل محمد باي بالعالم، الذي أطلعني على العديد من المخطوطات التي تخص الموضوع. وأحمد الأزمي وعبد الإله بن مليح من جامعة فاس، وفيلي موسى، والشيخ عبد الوهاب التهامي، والشيخ أولاد البكاي بتمنراست على نصائحهم وتفهمهم. وأجدني ممتنا للزميل الأستاذ محمد بوركبة الذي رافقني خلال الرحلة في صحراء الجزائر ومالي، من أجل بلوغ مركز الشيخ المختار الكبير الكنتي بجاو، فلهم جميعا جزيل احترامي وتقديري.

المقدمة

حظيت قبيلة كنته باهتمام بعض الباحثين، سواء من حيث تطورها التاريخي، أو من حيث دورها في مجالها الجغرافي. لكن في المقابل بقي أعلامها ــ رغم إنتاجهم العلمي الغزير ــ مغمورين لم تسلط عليهم الأضواء، ولم توجد بحوث تشفي الغليل تبين حضورهم الفكري وتطوره، وتوضح مراحل ذلك الحضور والتطور. ولست مبالغا إذا قلت إن الجوانب العلمية من تاريخ كنته لم يعرض لها بالشكل المطلوب ، ولم يكتب فيها إلا ما ورد عفوا في تاريخ القبيلة عامة. وبقيت ذخائر المخطوطات ــ التي تعطي صورة واضحة عن الحضور العلمي لعلماء القبيلة ــ كَمًا هائلا لا يُلتفت إليه كثيرا.

بيد أن ما دفع الباحث أكثر إلى الاهتمام بحياة المختار الكنتي الكبير العلمية، يعود بالأساس إلى كثرة ورود ذكره والاستشهاد به عند فقهاء: توات، وتيديكلت، وهقار، وأغلب مناطق الصحراء الكبرى، في ومؤلفاتهم، ومدوناتهم النوازلية، ومنظوماتهم. لدرجة أصبح معها المختار الكبير يشكل سلطة مرجعية هامة يؤخذ بعين الاعتبار، ومتنا علميا معروفا، يُكثر النظّامة، والمفتون، من نقله وتضمينه في نصوصهم وفتواهم ــ تماما كحال ــ أصحاب الكتب المعتمدة في أغلب الفنون. ولا شك أن الأمثلة على ذلك أكثر من أن تُستقصى أو أن تُحصر.

إن هذا الموضوع يتعلق بالحياة العلمية، والقضايا التي يطرحها تعتمد في مرجعيتها على مادة المخطوطات. وأغلب الذين اقتحموا مجال البحث في مخطوطات المختار الكبير، اكتفوا بتقديم ملاحظات وصفية أو نقدية عنها من خارج النص المرجعي لها لا من داخله. ومن خلال تناول إسهام هذه الشخصية أحاول أن أجيب عن فكرة أساسية مفادها هل أزواد والصحراء عموما، كانت تعاني على امتداد تاريخها الحضاري من أزمة فيما يخص الإنتاج العلمي؟

وكذلك من أجل فهم الخطاب العلمي للمختار الكبير ومعرفة ضوابط وقوانين مفاهيمه، وهذا يتطلب موقفا علميا صحيحا يقوم على التجرد والتحرر من تأثيرات المناهج غير اللائقة بالموضوع، والتعامل مع مفاهيمه بحسب مجالها العلمي.

صحيح أن هناك بعض الدراسات التي اهتمت بهذه الشخصية، لكنها دراسات ظلت ناقصة، ما دامت لا تجيب عن الإشكال المركزي الذي يطرحه هذا الموضوع، وأعني به: قيمة ما كتبه المختار الكبير ــ وهو كثير ــ ومراحل تطور فكره. وأمام هذه الثغرة الواضحة، وجدت نفسي أواجه بحثا مغريا، وطموحا، يسعى إلى محاولة الكشف عن الدور العلمي للمختار بمنطقة أزواد، ووجوه التميز، وربط ذلك بخصوصية الصحراء الكبرى، والملابسات التاريخية، والاجتماعية، والسياسية، التي عرفتها. وتأتي هذه الدراسة إذن، محاولة لسد النقص الحاصل فيما سكت عنه الباحثون، وأهمله الدارسون.

ولم يكن الحضور العلمي للمختار الكبير بأزواد شبيها بحضور غيره من الأعلام، بل إنه تميز بكونه عرف تأصيلا، وترسيما، استمر فترة طويلة، وهذا ما جعل مساهمته العلمية حَرية بالدراسة، وجديرة بأن تكون موضوعا للبحث. فقد كانت مؤلفاته العديدة ــ والتي لا يزال أغلبها مخطوطا ــ مقوما من مقومات هذه المنطقة الفكرية، حيث مثلت المرجعية العلمية لأعيان الزوايا والمحاضر بها. ولا شك أن مؤلفاته تدعو إلى كثير من التأمل، والتفكير.

وظلت هذه الشخصية مجهولة لدى الباحثين، إلى غاية بداية السبعينات من القرن الماضي، حين أنجز حوله عبد العزيز بطران رسالة دكتوراه بجامعة لندن باللغة الانجليزية. هذه الرسالة التي كان موضوعها: الطريقة القادرية بغرب إفريقيا حياة المختار الكنتي. كما كتب محمد المهداوي بحثا عن المختار الكبير، من خلال كتابه

نزهة الراوي وبغية الحاوي. وذلك لنيل دبلوم الدراسات المعمقة من دار الحديث الحسنية بالرباط، وقد تمكنت من الحصول على نسخة مصورة عن ذلك البحث.

وتجلى من خلال أعمال البحث التي أنجزت حول المختار، مدى إهمال أصحابها – بمختلف مشاربهم – استغلال المخطوطات والوثائق. ولم يتوقف رواد البحث في تاريخ كنته والمختار الكنتي – ومن سار في ركبهم من المقلدين – عن ترديد عبارة شح المادة العلمية، وعدم مسايرتها لطموحات الدارسين، خاصة عندما يتعلق الأمر بالبحث في عمق التاريخ الحضاري. وبالرغم من سوء المصير الذي آلت إليه العديد من المخطوطات والوثائق، ما زال بعضها يحتفظ بقيمته العلمية. ومن المفيد تنبيه الدارسين، إلى الثروة التي يختزنها هذا الإرث المعرفي من معلومات دفينة، غير متاحة في المصادر، والمراجع المعروفة.

وفي خضم البحث عن المادة التاريخية ذهبت إلى تمنراست مرارا، للحصول على نسخ مصورة لمخطوطات المختار الكبير، وتحصلت على بعضها من خزانة فيلي موسى، وكنت دائم التردد بأولف على الشيخ محمد باي بلعالم، الذي زودني بالكثير من الوثائق. وبإنغر زرت زاوية الشيخ باي بن عمر الكنتي بأقبور، كما تعددت زياراتي لخزانة زاوية الشيخ أبي نعامة الكنتي بأقبلي، وتحصلت منها على نسخ مصوَّرة لمخطوطات المختار المتواجدة بها. غير أن أفضل خزانة أفادت الباحث بأقبلي هي خزانة الطالب التهامي بأركشاش، ونظرا لكون زاوية كنته تعد حلقة الوصل بين الزوايا الكنتية، فقد كنت دائم التردد عليها على امتداد فترة البحث.

وفي الرباط قمت بزيارات متكررة للخزانة العامة، حيث تتواجد نسخ عديدة لمخطوطات المختار الكبير الكنتي، والشيء نفسه قمت به في الخزانة الحسنية بالقصر الملكي.

ونظرا للأهمية الخاصة التي يتميز بها معهد الدراسات الإفريقية بالرباط فقد خصصت له الكثير من الوقت، حيث عقدت لقاءات مع أساتذته، واستفدت من مكتبته. وخلال تواجدي بالمغرب زرت الزاوية المختارية القادرية بمكناس القديمة، أين اطلعت على بعض الوثائق، والمخطوطات. ثم زرت خزانة القرويين بفاس، ووقفت على مصادر، ومراجع، تخص الموضوع. وفي الدار البيضاء قمت بزيارة لمؤسسة الملك عبد العزيز بن سعود، حيث تمكنت من الاستفادة من المخطوطات، والوثائق، والمصادر والمراجع، التي تخص الموضوع.

وتعتبر زيارتي إلى مالي، من أهم المراحل في جمع المادة العلمية، حيث ذهبت إلى قاو واطلعت على مراجع جديدة في المكتبة العمومية، ومكتبة دياكوزي. وفي متحف الساحل استفدت من بعض الخرائط الخاصة بشمال مالي، حيث تحدد بعض المناطق بأزواد بوضوح ودقة. وبهذه المدينة أطلعت على مجموعة من المخطوطات والوثائق بمركز المختار الكبير الكنتي، وأغلبها ــ للأسف ــ في وضعية سيئة للغاية وغير مفهرسة.

ومن المصادر الهامة في الدراسة ــ دون شك ــ كتاب الطرائف والتلائد في مناقب الشيخين الوالدة والوالد، لمحمد الخليفة الكنتي. هذا التأليف الذي كرّسه صاحبه للتعريف بوالديه، وعد فيه بمقدمة وسبعة فصول وملحق في حياة الشيخة ومناقبها. وهو كتاب مليء بالكرامات ومشوش للغاية. حيث يضم العديد من المعلومات عن حياة المختار الكبير، وبالخصوص الصوفية، في معالجة تبعث على السآمة. وربما ما ينقص من قيمته كمصدر نزيه، كونه اقتصر على ذكر خلال، ومحاسن والده، وهذا ما يجعل الكتاب يسير على قدم واحدة، هي إظهار المناقب، ويفتقر إلى القدم أخرى هي النقد البناء حتى يعتدل في مشيته ويتوجه الوجهة السليمة.

غير أن الباحث يمكنه أن يجد في ذلك الكتاب، عددا كبيرا من المعلومات المفيدة حول انتشار الإسلام، والطريقة القادرية، في السودان الغربي. وعن تاريخ كنته، وعلاقاتها مع القبائل الصحراوية، خاصة العرب، والطوارق، وفلان، والزنوج. لكن ما يؤسف له أن الموت المبكر تخطف صاحبه قبل إتمامه، وبذلك حُرِمَ الباحث من الاطلاع على الباب السادس، والسابع منه. فكل النسخ المتاحة الآن، تنتهي عند الباب الخامس بهذه الجملة: «... هذا هو نهاية ما جمعه الشيخ سيدي محمد».

ومن المصادر الهامة الرسالة الغلاوية لمحمد الخليفة أيضا، وقد صدّر رسالته بمقدمة طويلة في التحذير من الفتن، ومواردها، وفي مقدمتها أهواء النفس البشرية، ووساوس الشيطان. ثم قدّم عرضا عن تاريخ كنته، وأدو الحاج، وأولية كل منهما، ثم سعى إلى بيان رأي الشرع في الصراع المحتدم بين القبيلتين، ليُتم الرسالة بنقد بارع للطريقة الأغظفية البُصادية.

ومن الملاحظات الهامة حول مؤلفات المختار الكبير المخطوطة عمل النسخ أو النقل المُتعَب، ويبدو أن بعض الذين نسخوا مخطوطاته شعروا بذلك، وهجروا كل فكر نقدي. ومن هنا تتضح أن الأخطاء تصدر إما عن قراءة مغلوطة للأصل، أو نسيان الناسخ، أو تحريفه أثناء الكتابة قسما مما قرأ، أو دسّه لأشياء من عنده ليست في الأصل. وبذلك تتكاثر تحت قلمه الأخطاء الغريبة والعديدة. وهذا ما يفسر ربما عدم رضا المختار عن بعض الزيادات، التي أضافها النسّاخ إلى مؤلفاته التي نسخت في حياته، ولم تؤدي المعنى الذي كان يريده. وتجب الإشارة إلى أن أغلب كتبه لم يقابل، ولم يخرّج من مبيضته، فكثر فيها لأجل ذلك التحريف. وذكر الشيخ باي بن عمر الكنتي، نقلا عن حفيد الشيخ المختار، وهو أحمد البكاي قوله: «... إن بعض أصحاب الشيخ كان يدسّ في كتب الشيخ ما لا يرتضيه، وأن الشيخ كان يتغيّظ عليه لأجل ذلك».

ومن مؤلفات المختار الكبير المقابلة نزهة الراوي وبغية الحاوي، هذا السفر الضخم تحدث فيه صاحبه عن التوحيد، وبدء الدهور، وعلم الهيئة، والسيرة النبوية، والفقه الإسلامي، والتصوف والأخلاق. وهو موسوعة بحق غير أنه متعب جدا عند تتبع المسائل، لأن المختار يكثر من الاستطرادات الخارجة عن الفكرة المتناولة في صفحات طويلة، يضيع معها ذهن الباحث ويشرد، ويصبح من الصعب تحديد فكر صاحبها بسهولة.

ويعتبر مخطوط نضار الذهب من كل فن منتخب، من أهم مؤلفات المختار فهو كتاب يجمع بين اللغة العربية، والتاريخ والسير، والتصوف، والعقيدة. ومن المصادر الهامة التي تحدث فيها المختار عن الفقه الإسلامي، وذم الرشوة، وتبيان أبواب الحلال، والحث في طلبه، مخطوط البرد الموشا في قطع المطامع والرشا.

وفي العقيدة خلّف المختار كتاب المِنَّة في اعتقاد أهل السنة، هذا المؤلف الذي يُعدّ من أهم كتبه، وضَّح فيه صاحبه منهج السلف في تلقين العقائد، غير أنه استطرد فيه كثيرا إلى بيان درجات الولاية، ومنزلتها، ووقف عند مجموعة من الأولياء الذين ينتمون لقبيلة كنته، وغيرهم من رواد القادرية الشاذلية. ويفيض المختار في الحديث عن الأولياء ويدافع عنهم في كتابه: جذوة الأنوار في الذَّبّ عن مناصب أولياء الله الأخيار، وواضح أن المختار في هذا التأليف يحاول أن يصل بالأولياء إلى مرتبة كبيرة تقترب ــ في كثير من الأحيان ــ من درجة النبوة! ومن التآليف التي سار فيها على هذا المنوال: الجرعة الصافية والنفحة الكافية، وكذلك التذييل الجليل العادم المثيل.

ووضع في الأوراد كتابه نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب، الذي شرحه ابنه محمد ــ لاحقا ــ في كتابه: الروض الخصيب في شرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب. وهناك من يسمي كتاب المختار بالصلاة الكنتية، وهو في مجمله

أدعية، واستغاثات مطولة، ومملة، يشعر الباحث أثناء قراءتها بالغثيان، خاصة وأن أسلوبها مسجوع، وملئ بالزخرفة اللفظية، الغرض منها شدّ انتباه المريد.

ومن مؤلفاته الهامة كتابه: فتح الودود في شرح المقصور والممدود، وهو كتاب في اللغة العربية. غير أن المختار ــ وكعادته دائما ــ لم يلتزم بالحديث في مجال الكتاب، بل تعداه إلى مواضيع أخرى كثيرة متعلقة: بالفقه، والقصص القرآني، والنصح والإرشاد. خاصة وأن هذا الكتاب كان من المقررات العلمية في الزاوية الكنتية.

ويعد كتاب الرحالة ابن بطوطة ــ خاصة الجزء المتعلق بمناطق أزواد ــ من أهم المصادر التاريخية والجغرافية، التي تتناول هذه المنطقة، حيث تمكن صاحبها من الإقامة بها مدة من الزمن، وسارع في البحث عن كل ما يتصل بماضي هذا المجتمع القريب منه والبعيد، كشكل المباني، وأدوات الإنتاج وبعض العادات والنظم الاقتصادية. فشكّل من ذلك دراسة وصفية، وتأويلية، فيها الكثير من الصحة. وكذلك الكثير من الغلو، والمبالغة، التي لا يقبلها المتصفح العاقل.

ومن المراجع الهامة في الموضوع الكتاب الذي وضعه بول مارتي في تاريخ كنته وسماه: كنته الشرقيون. هذا الكتاب الذي ظلّ ــ إلى عهد قريب ــ هو المرجع الوحيد عن هذه القبيلة منذ التأسيس، وإلى التشكّل، ووصولا إلى الانتشار. فقد احتوى على مقدمة عن كنته وأهم أعلامها، والشيء الملاحظ على هذا الكتاب أن صاحبه نقل حرفيا عن صاحب الطرائف، كما أنه حاول في كثير من جوانب الكتاب توجيهه لخدمة مصالح السلطات الاستعمارية لأنه وُضع لهذا الغرض. كما أن الكتاب يعوزه التحليل، والنقاش، فقد اكتفى صاحبه بالنقل من الطرائف، والغلاوية، وفي بعض الأحيان النقل بدون فهم جيد للنصوص العربية.

وقد خصّص المختار بن حامد في كتابه التاريخ السياسي فصلا هاما للإمارات التي قامت بأزواد، وبيَّن تنظيمها السياسي، كما تعرض إلى الوقائع التي قامت بين

القبائل. وعرّج على إمامة الزوايا. وهو بحق كتاب لا غنى للباحث عنه. غير أنه تميَّز بالاختصار، والاقتضاب. فما إن يبدأ بالفكرة حتى ينتهي منها بسرعة، دون تفصيل ولا تحليل. وواضح أن هذا الكتاب وضع للمتخصصين، الذين هم على دراية بتاريخ تلك المنطقة.

ومن المراجع الهامة كتاب الوسيط في أدباء شنقيط لابن الأمين الشنقيطي. وهو يحتوي على تراجم لبعض علماء وأدباء أزواد. وقد تناول صاحبه أيضا تاريخ القبائل، كما تحدث عن العادات والتقاليد، والمناظرات بين العلماء، وكذا النثر الفني، والشعر، والأمثال، والحكم، بطريقة نقدية متميزة.

وترك غوتي وصفا لأزواد، في كتابه الصحراء. وخصص القسم الأول منه لما بين غات والهقار، وتحدث في الفصول الأخرى عن الصحراء الكبرى ونهر النيجر. لكن المؤلف لم ير الشواطئ بنفسه، وإنما ينقل عن بحارة وموظفين زاروها وعن كُتّاب آخرين سبقوه. لذلك لم يسلم كتابه من أخبار يعوزها التدقيق أحيانا. ومع ذلك فالكتاب يكتسي أهمية خاصة، لأنه عاصر فترة هامة من تاريخ أزواد.

ومن الرسائل الجامعية التي أفادت الباحث، رسالة حوتية محمد حول قبيلة كنته بين إقليمي توات والأزواد، خاصة الفصل الخاص بالقبيلة في فترة التأسيس. لكن ما يؤخذ عليها أن صاحبها أعتمد كثيرا على الروايات الشفوية، التي تسيء كثيرا للوقائع؛ خاصة أن تلك الروايات رواها شيوخ كنته، وهو ما يجعل الواقعة التاريخية تسير في اتجاه واحد خال من النقد. وخصص صاحب هذه الرسالة فصلا للحياة الثقافية لقبيلة كنته، غير أن هذا الفصل طغت عليه العموميات، حيث أفرد للمختار الكبير صفحة ونصف الصفحة فقط ! كما تناوله في قسم النثر ضمن دراسة سطحية جدا، لا تعكس الأهمية التي تمثلها النصوص النثرية للمختار وهي عديدة.

ومن الصعوبات التي واجهت الباحث هو اتساع مجال الدراسة المعرفي، حيث شملت العديد من العلوم التي تتطلب الكثير من الجهد الفكري، لمسايرة أراء العلماء ومقاصدهم. كما أن العديد من أصحاب خزائن المخطوطات لم يبدوا أي تعاون، في تسليم بعض النسخ الخاصة بهم للاطلاع عليها. بالإضافة إلى أن العديد من مخطوطات المختار لم يقابل، وهذا أمر أثقل كاهل الباحث الذي اضطر إلى التفتيش وبجدية للحصول على نسخ مخطوطة ومقابلة. ومن المشاكل التي تخص مخطوطات المختار هو صعوبة قراءة بعضها، بسبب وضعيتها المتآكلة وانتشار بقع سوداء من الحبر على أوراقها. كما أن بعض الخزائن العامة لا تتيح تصوير المخطوطات المراد الاستفادة منها، وهذا ما اضطرني إلى نسخ معلومات كثيرة من مخطوطاتها الأصلية، وهو عمل مضني يأخذ الكثير من الوقت والجهد

وقد اتبعت في تناول هذا الموضوع المنهج التحليلي، الذي يعتمد على الانتقال من الخاص إلى العام، وذلك بإعطاء أفكار المختار في مختلف القضايا والمسائل المراد معالجتها ثم مقارنتها مع غيرها من آراء العلماء، ومناقشة تلك الأفكار والآراء وإعطاء نقاط الفروق والالتقاء، ثم إبداء الرأي ما أمكنني إلى ذلك سبيلا.

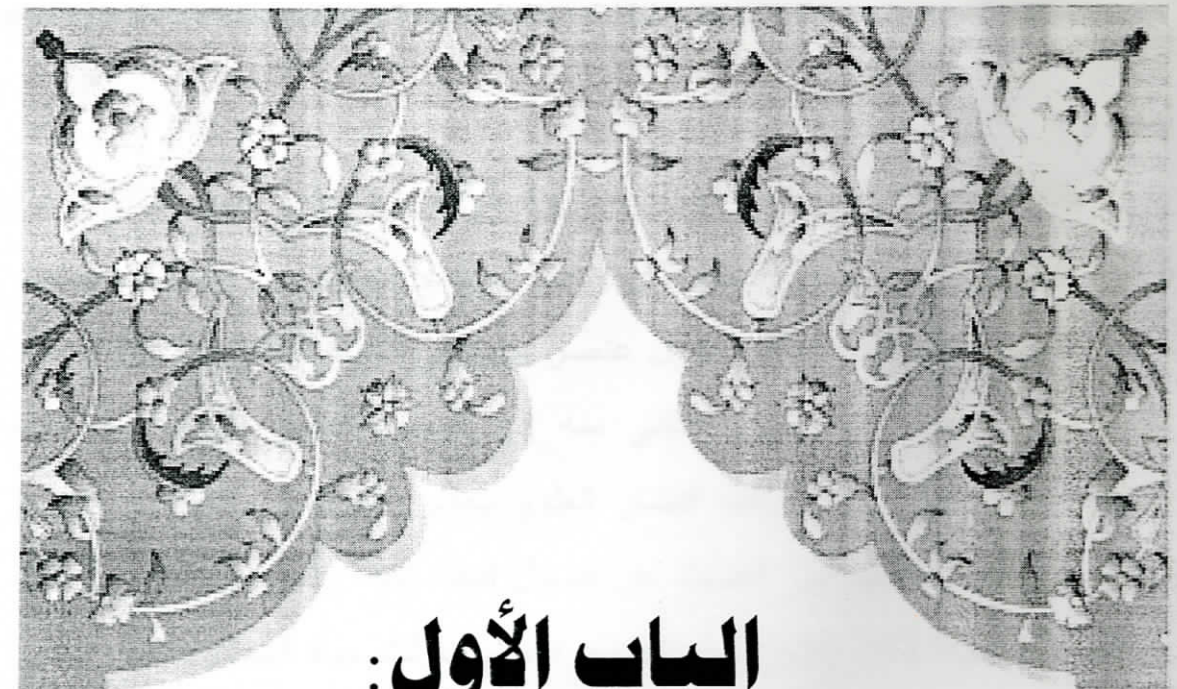
وللإجابة عن الإشكالية التي تم عرضها سابقا تم تقسيم الموضوع إلى ثلاثة أبواب، وقُسِّم كل واحد منها بدوره إلى ثلاثة فصول. خُصّص الباب الأول للحديث عن أزواد والمختار الكبير الكنتي، وضم الفصل الأول منه أوضاع أزواد في فترة المختار. أما الفصل الثاني فقد اهتم بالحياة العلمية بأزواد قبيل فترة المختار. وخص الفصل الأخير من هذا الباب قبيلة كنته والمختار الكنتي..

وفي الباب الثاني تتبعت جهوده في العلوم الشرعية، فأدرجت الحديث عن جهود المختار العلمية في العقيدة الإسلامية في الفصل الأول منه، وتناولت الإنتاج الفكري للمختار في التفسير والفقه في الفصل الثاني، ولما كان منتوجه الصوفي غزيرا

خصصت له الفصل الثالث من هذا الباب حيث تكلمت عن الإطار الفكري لتصوف المختار.

ولما كانت مساهمته قد شملت علوم أخرى، فقد خصصتُ الباب الثالث للتاريخ واللغة وآدابها. وتعلق الفصل الأول من هذا الباب بالأهمية التاريخية لكتابات المختار، واستوعب الفصل الثاني منه النظم الإسلامية التي تحدث عنها المختار، وتطرق الأخير إلى اللغة العربية وآدابها.

أما الخاتمة فكانت عبارة عن حوصلة لما تم نقاشه ضمن الفصول السالفة الذكر، وانتهت بجملة من الاستنتاجات المرتبطة بموضوع البحث.



الباب الأول:

أزواد والمختـــــــار الكبير الكنتي

الفصل الأول: أزواد وأوضاعها في عهد المختار.

الفصل الثاني: الحياة العلمية بأزواد قبيل فترة المختار.

الفصل الثالث: قبيلة كنتة والمختار الكنتي.

تمهيد:

يتناول هذا الباب الأوضاع السياسية بأزواد في فترة المختار الكبير الكنتي، وكذا تركيبة المجتمع. وفي المجال الاقتصادي يبحث أساليب التعامل بين القبائل، ومختلف التجار القادمين للأسواق، ويناقش دخول عنصر جديد في الحياة الاقتصادية بأزواد وهم النصارى. وتعرضت في الفصل الثاني منه إلى الوضع العلمي بأزواد قبيل فترة المختار، وهي الفترة التي عرفت انتشار العلوم ببعض الحواضر والبوادي. ويعرج الباحث في الفصل الثالث إلى الحديث عن أصول قبيلة كنته، والمراحل التاريخية التي عرفتها هذه القبيلة خلال انتشارها في الصحراء، ثم تناولت حياة المختار الكبير الكنتي من مولده إلى فترة النشأة، وذكرت أبرز شيوخه وتلامذته.

الفصل الأول :

أزواد وأوضاعها

في عهد المختار

تمهيد:

إن المنطقة التي سأتحدث عنها هي ذلك الجزء المعمور بين السودان الغربي، والصحراء الكبرى، وبلاد شنقيط، وبلاد الهوسا. وهي تلك الوحدة الجغرافية، والتاريخية، التي عرفت مؤثرات تاريخية واحدة، غير أنها لا تشكل وحدة بشرية، حيث تسكنها العديد من القبائل، والأجناس، لكل منها لغته، ولسانه.

1ـ أزواد وموقعها:

أزواد هي جمع زاد بالعربية، وهو ما يأخذه المسافر معه من طعام وغيره. وقد جعل البعض، أزواد ضمن الصحاري الواقعة بين نوميديا، وأرض السودان، حيث قال: «... وتوجد في هذه المناطق أمكن تحمل أسماء خاصة حسنة أو قبيحة بحسب حال البلاد، كالأزواد المسماة هكذا لمحلها وجفافها، وهير[1] التي هي، وإن كانت أيضا صحراء، فإن هواءها طيب معتدل».[2] بينما أرجعها آخرون[3] إلى أن هذه الكلمة تحريف عربي للاسم البربري أزواغ، وأعتبرها غيرهم[4] بأنها مسمى خاصا بكل أهقار، وهي عندهم باسم أزوا. و بلاد[5] أزواد مجالها واسع عند الرحالة والجغرافيين.

ومن القلائل الذين زاروها ليون الأفريقي، حيث وصف بعض مشاهدها حيث قال: «ويشاهد في صحراء أزواد قبران، مبنيان بنوع من الحجر لا أعرفه، نقشت عليه

---

[1] ــ أهير: مدينة بالنيجر تقع إلى الغرب من أقدس، وتضم عنصرين من السكان هم: الطوارق، والسودان. وهي تنقسم إلى عدد من القرى ومساكنهم بعضها بالطوب والبعض الآخر عبارة عن أكواخ، وقد بلغت المدينة أوج ازدهارها عام 926 هـ / 1519 م، عندما استولى عليها أسكيا الحاج محمد. ينظر: الهادي المبروك الدالي، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما الصحراء، مطابع الوحدة العربية الزاوية ليبيا، ط الأولى 2000، ص: 134.

[2]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط، ط الثانية 1983،ج 1، ص ص: 32-33.

[3] _ *SABATIER (C). Touat, Sahara et Soudan. Société d' édisions scientifiques. Paris., 1891. p. 250.*

[4] _ *GUOTIER (E.F). Et CHUDEAU (R), Sahara Soudanais. librairies Armond Colin. Paris., T 2. 1909. p. 108.*

[5] ــ محمد بن عثمان الحشائشي، الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق، قدم لها وعلق عليها محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، ط 1988، ص: 140.

كتابة تقول: بأن رجلين دفنا ها هنا. كان أحدهما تاجرا غنيا، مرّ بهذه الصحراء فاشتد عطشه واشترى من الآخر، وهو الدليل، قدحا من الماء بعشرة آلاف مثقال، لكنهما ماتا معا من العطش، سواء التاجر الذي اشترى الماء، أو الدليل الذي باعه إياه!».[1] والشيء الذي جعل السكان يسمونها بأزواد هو موقعها، الذي يشمل المراعي والآبار، التي توجد ضمن أملاك القبائل، وهي تحتوي على بعض متطلبات الحياة التي تؤمن الطريق للمسافر. وعلى العكس من ذلك تنزروفت[2] التي تحد أزواد من الشمال، فهي صحراء خالية من مظاهر العيش، ولذلك دعيت عند العرب االرحل ببلاد الرعب والعطش.

وكثيرا ما يصطدم الباحث عند قراءته للمراجع التاريخية، والجغرافية، بأسماء معالم، أو قبائل، أو مناطق جغرافية، لا يتمكن من تحديد موقعها بدقة. حيث تشير تلك المراجع إلى مناطق يختلف امتدادها باختلاف الحقب التاريخية، بحيث لا يتيح ذلك التعرف على المنطقة المعنية، وعلى حدودها ببعض التفاصيل، وينطبق هذا بشكل خاص على أزواد، والتي تتغير عبر مراحل التاريخ، نظرا للتنقلات التي عرفتها القبائل إما لأسباب محلية، أو لدوافع تتعلق بالممالك المجاورة وسياستها حيال تلك القبائل. فقد كان مجال أزواد يتمدد عن طريق زحف بطيء أو بصفة مفاجئة تارة، ثم يتقلص بحيث يصعب على الجغرافي ــ وبالتالي على المؤرخ ــ الذي يريد تتبع مراحل تنقل بعض القبائل، من مطابقة اسم القبيلة مع مجالها.

ويعني هذا أن التصورات التي يتخذها مجال أزواد عبر الوثائق التاريخية، والمعالم الجغرافية، لا يتيح التعرف بدقة على مكان ما، وأحيانا لا يمكن معرفة بعض المخيمات، والمداشر قطعا لعدم وجود مصادر معلمية، قادرة على استجلاء مختلف

---

[1]- الوزان، المصدر السابق، ج1، ص: 76.

[2] ــ سليمان داود بن يوسف، «انتشار الحضارة الإسلامية في إفريقيا السوداء»، محاضرات الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي، تمنغست 7 ــ 16 شوال 1399 هـ / 30 أغسطس 8 سبتمبر 1979 م، كتاب الأصالة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الرغاية الجزائر، ط 1995، ج 1، ص: 120.

المعالم الجغرافية، والبشرية. فكثيرا ما يصطدم الباحث باختلاف أسماء الوادي الواحد، الذي يخترق مناطق بشرية متعددة، يحمل أثناء اجتيازها اسما معينا. ويدل هذا على تنوع الوحدات الطبيعية، والبشرية بها، بحيث تعكس الخرائط الموجودة بعض الأمثلة الحية على هذه الظاهرة.

وعند الرجوع للمصادر يمكن ملامسة حدود أزواد، والتي تدخل في إطار صحراء صنهاجة، التي تمتد ــ حسب الحسن الوزان ــ من المحيط غربا، وتمتد شرقا إلى ملاحات تغزة.[1] وتنتهي شمالا في تخوم نوميديا، أي إقليم سوس عند أقا ودرعه. وتسير جنوبا حتى أرض السودان، عند مملكتي ولاته[2] وتنبكتو. حيث قال: « ...وفي هذه المنطقة، فلاة خاصة وعرة جدا لا تسلك إلا بمشقة عظمى تسمى أزواد، لا ماء فيها ولا منزل طوال مسافة مائتي ميل بين بئر أزواد وبئر أروان، الذي هو على بعد مائة وخمسين ميلا من تنبكتو، يموت فيها كثير من الناس حرا وعطشا».[3] والحسن الوزان، يشير هنا إلى الصحراء القاحلة التي توجد في تنزروفت، والقرى الواقعة شمال[4] أزواد، فهي فعلا خاوية من أي غطاء نباتي. كما تشتهر بقلة النقاط المائية، بل انعدامها في كثير من الأحيان، لأن المسافر[5] بأزواد لا يحتاج إلى الزاد أو الإدام.

---

[1] ــ تغزة: وتكتب أيضا تغازى وهي مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام. يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح، ومنها يحمل إلى تنبكتو التي يعوزها الملح كثيرا. وليس للعاملين في ملح تغزة قوت إلا ما يحمل إليهم من تنبكتو ودرعة، وكلاهما على مسيرة عشرين يوما من تغزة. ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص ص: 108 ــ 109.

[2] – ولاته: لا يعلم بالضبط تاريخ تأسيسها، ولكن يستفاد مما ذكر الزياتي أنها أنشأت قبل تنبكتو بسنوات وقد كانت مركزا تجاريا وحضاريا مهما حتى حدود القرن الثالث عشر الميلادي حيث بدأت تضعف وذلك لنمو وازدهار منافستها مدينة تنبكتو فهاجر إليها العلماء تاركين ولاته للانحسار. وتقع ولاته على مسافة 450 كم شمال غرب تنبكتو. ينظر: دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن 4-10 هـ/ 10- 16 م، المكتبة الوطنية بغداد، ط 1985، ص: 302.

[3] – الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص ص: 148- 149.

[4] ــ وهذا ما يؤكده ابن بطوطة، حين قال: «لا يوجد الطعام بين تكدا، وتوات». ينظر: محمد بن عبد الله بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق محمد عبد الرحيم، مؤسسة الكتب الثقافية ودار الفكر بيروت، ط الأولى 2003، ج 2، ص: 380.

[5] ــ ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 2، ص: 371.

ويعثر الباحث عند أبي حامد الأندلسي على وصف لبعض المناطق ونماذج من الشعوب السودانية مثل: التكرور[1]، ومالي[2]، وكوكو[3]. لكن ذلك الوصف يتسم بالسطحية، ولعل عذر أبي حامد في ذلك، كونه لم يتجول في تلك الأصقاع، فهو يعترف بأنه رأى سهام السودان في المغرب.[4] غير أن معلوماته في مجموعها دقيقة، وصحيحة، في الوقت نفسه.

ويرد اسم أزواد في رسالة إلى أحمد بابا[5] التنبكتي: «... يعطوكم آل أزواد دياتهم، تطالبهم بها... ونحن والله ما لنا علم سوى هذه الأمور، ولكن سلم على أهل أزواد أولاد البرابيش...».[6] وهي رسالة من محمد البشير العبيد، بعثها إلى أحمد بابا تتناول بعض الأحداث، والوقائع.

وعند استجلاء أغلب المصادر يمكن تتبع موقع هذه المنطقة والتي تقع إلى الجنوب من تنزروفت[7]، في المنطقة الأقل جفافا في الصحراء الكبرى، وهي تقارب

---

[1] ــ التكرور: وهي تلي مدينة صنغانة وتقع ما بين الغرب والقبلة، وأهلها سودان وكانوا على المجوسية، وحتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها، فهم من ذلك الحين مسلمون. ينظر: أبو عبيد البكري، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات تونس، ط 1992، ج 2، ص: 868.

[2] ــ مالي: تقع في شمال السودان الغربي، وقد أسس بها شعب الماندنجو سلطنة. وهذا الشعب اعتنق الإسلام في آخر القرن الحادي عشر الميلادي، في الحركة الدافعة التي صحبت قيام دولة المرابطين وعكوفهم على الجهاد في منطقة السودان الغربي. ينظر: حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي القاهرة، ط 2001، ص ص: 186 ــ 187.

[3] ــ كوكو: وهي مدينة عظيمة فيها خلق كثير من السودان لا يحصى لهم عدد، وهي على نهر النيجر، ويقال إنما سموا كوكو، لأن الذي يفهم من نغمة طبولهم كوكو. ينظر: مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية الدار البيضاء، ط 1985، ص: 225.

[4] – أبو حامد الأندلسي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة المغرب، ط الثانية 1993، ص: 22.

[5] ــ أحمد بابا: الفقيه والمؤرخ التنبكتي، ولد بأروان في ذي الحجة عام 963 هـ / أكتوبر 1556 م. وتوفي في شعبان سنة 1036 هـ / أبريل 1627 م. ومن أهم مؤلفاته: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، والكشف والبيان في حكم مجلوب السودان. ينظر: محمد البرتلي الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 19881، ص ص: 31 ــ 37.

[6] ــ وثيقة توجد بالمكتبة الوطنية بجاو جمهورية مالي، رقمها 12، و2 ظ.

[7] ــ تنزروفت: صحراء قاحلة في أسفل توات، وهي خالية من أي غطاء نباتي، وقد مات بها العديد عطشا لخلوها من أي نقاط مائية. ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص: 204.

السودان الغربي من جهته الشمالية.[1] وتتجه أزواد شرقا حتى تقارب أو تكاد تلامس منطقة هكار، في سفوح جباله من الجنوب. وهذا ما يؤكده البعض[2] الذي يشير إلى أن أزواد هي المجال الممتد من شرق حوض نهر النيجر إلى كدال، وتصل إلى ماسنة وتنبكتو جنوبا.

وهذه المنطقة تتوفر بها نقاط مائية كثيرة في الجهة الشرقية، والغربية، وبالإمكان الحصول عليها دون عناء بالخصوص في وادي تلمسي الرابط بين آدرار إفوغاس[3] وجاو، وفي منطقة تاودني[4] في الشمال. وتنتشر في هذا المجال الواسع الحشائش الخضراء والغابات، وكذا السهول الصخرية الملساء.وأزواد تمتد من صحراء تنزروفت شمالا إلى المناطق المحاذية لنهر النيجر جنوبا، وبذلك فأزواد أرض شاسعة كبيرة، وهي مما يلي أروان.[5] وهذا ما جعل بعض المستكشفين[6] يحددونها بخطوط الطول شمالا بكثبان عرق بورقبة، والستلة، ومناجم تاودني، ما بين 18 و^{0}20.15 . وشرقا تحدد بآبار أبلبود، وانشاق ألول، وغربا بالعكلة.[7]

---

[1] ــ سام وبريل إشتين، الصحراء، ترجمة مصطفى بدران، دار المعارف مصر، ط الثانية 1966، ص ص: 76 ــ 79.

[2] – البكاي ديدي، الحق الظاهر لكل قلب طاهر، مخطوط بقصبة سيد العابد بأقبلي في أولف، ص: 31.

[3] ــ آدرار أفوغاس: هي كتلة جبلية ومرتفعات تقع في أقصى شرق السودان الغربي، وتمتاز نباتاته بالصبغة الساحلية على الأقل في الأودية، وتقطن قبائل الطوارق هذه الجبال. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، ط 1977، ج 2، ص: 19.

[4] ــ تاودني: ملاحة تقع إلى الجنوب الشرقي من ملاحة تغازى، وهي في الشمال الغربي من مالي. وقد بدأ استغلالها في فترة متقدمة ترجع إلى القرن 8 م. ينظر: الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، دار المدار الإسلامي بيروت، ط 2007، ص: 433.

[5] ــ أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء ومؤسسة الخانجي بمصر، ط الثانية 1958، ص: 458.

[6] ــ من جملتهم: كورتيه، وجوفر، وبرييه، ولاجي باري.

[7] ــ وهناك من اعتمد تحديد أزواد ببعض النباتات الصحراوية مثل نبات: كرام كرام، وسبوط، والتيجاوة. ينظر: محمد حوتية، قبيلة كنته بين إقليمي توات والأزواد دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ق 18 ــ 19 م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، المشرف ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر معهد التاريخ سنة 1992 ــ 1993، ص: 16.

وفي إشارة بديعة يذكر ابن مخلوف أن: «أرض أزواد[1] بالقرب من تنبكتو».[2] وتتشكل منطقة أزواد من: جاو[3]، وجني[4]، وكيدال[5]، والسوق[6]، وأروان[7]، وتاودني، وولاته، والمبروك[8]، والحلة[9]، وتنبكتو. لقول ابن حامد عند حديثه عن فروع البرابيش: «وجميعهم في أزواد، أي تنبكتو وأروان».[10] على اعتبار أن القرى الأخرى، تقع وسط المجال الذي أشار إليه.

وأغلب أراضي أزواد في مملكة مالي،[11] هذه الأخيرة التي لم يرد لها ذكرا إلا في نصوص القرن الثامن للهجرة، أي بعد ظهور الإمبراطورية واشتداد أمرها، وزيارة ملوكها المشرق وحجهم إلى بيت الله الحرام. وأعظم ما كتب عن مالي، تجده عند ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار. حيث يذكر قبائلها إذ يقول: «... وفي شمال بلاد مالي قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها، وهم: ينتصر، وشغراسن، ومديونة، ولمتونه، ولهم أشياخ تحكم عليهم، إلا ينتصر فإنهم يتداولهم ملوك منهم تحت

---

[1] ــ في الأصل: أزوات.

[2] ــ ابن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، د ت، ص: 377.

[3] ــ جاو: هي المدينة التي اتخذت عاصمة بدولة الصنغاي منذ أيام الضياء الأول بعد أن كانت عاصمتها الأولى هي مدينة كوكيا وانتقلت العاصمة إلى جاو في سنة 400 هـ / 1009 م، وبلغت جاو مجدها وأقصى شهرتها في أيام الأساكي فقد كانت قبلة التجار والقوافل التي تأتي من ناحية الشرق والقوافل القادمة من بلاد الهوسا وكلها تقصد جاو. ينظر: دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ص:293.

[4] ــ جني: تقع إلى الغرب من تنبكتو، وطولها يصل إلى تني وهي بلد في أرض سلطان كابر وراء جبال تنبلا، وعرضها إلى دبوص وهي مجاورة لأرض ورن كي. ينظر: أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط مكتبة الساحل بجاو، بدون رقم، و 10 و.

[5] ــ كيدال: مدينة شمال شرق تنبكتو، وتقطن بها قبائل عربية عديدة أشهرها كنته، وهي عاصمة الشمال في أزواد.

[6] ــ هي نفسها كل السوق التي تقدم تخريجها.

[7] ــ أروان: وهي قرية مشهورة، بينها وبين تنبكتو عشرة أيام، واقعة في رمال ولا نبات فيها، وليس بها شجر ولا زرع ولا نخل. ودورها مبنية من الطين فقط، والناس يقولون: إن المطر لا ينزل على البيوت بسبب دعاء رجل صالح، دعا لهم بذلك. ينظر: أحمد بن الأمين الشنقيطي، المرجع السابق، ص: 458.

[8] ــ المبروك: مدينة أسسها كنته وهي شمال جاو. ينظر: المختار بن حامد، حياة موريتانيا الجغرافيا، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1994، ص: 214.

[9] ــ الحلة: وهي تعرف بحلة سيد المختار، وهو المختار الكبير الكنتي وهي المكان الذي استقر به خاصة في فترة الدور التاريخي. والحلة هي كلمة مستعملة بأزواد على المكان الذي يقيم فيه الشيخ أو الأمير حيث يجير وينفق ويكسي مجموعة من البيوتات، وعندما تتكاثر الخيام يطلق عليها الحلة. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف، و 7 ظ.

[10] ــ المختار بن حامد، المرجع السابق، ص: 85.

[11] ــ الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص: 164.

حكم صاحب مالي».[1] فقد قدم العمري وصفا هاما جدا ودقيقا للملكة، وأقاليمها، ومدنها، وقبائلها، وبناء دورها، وأقواتها، وثمارها وحيواناتها، ووحوشها، وعادتها، وتقاليدها، وأزيائها، وعساكرها، ومعادنها، وصلات ملوكها بمن يجاورهم، وساق طرفا من سير ملوكها.

وتحتل أزواد مجالا واسعا من جنوب الصحراء،[2] وتصل حدودها من جهة الغرب إلى مدينة ولاته،[3] ومن الشرق تتداخل مع سلطنة تكريقريت،[4] ومن جهة الشمال ــ كما أشرت سابقا ــ تحدها تنزروفت تجاه منطقة توات، ومن الجنوب تحدها بلاد المالنكي، التي تقطنها قبائل الزنوج البامبارا.

وتدخل أزواد، ضمن نطاق ما يسمى ببلاد السيبة. وهذا ما يفهم من حديث صاحب تاريخ ولاته عند تناوله لهذه المنطقة: «... ونحن كثير زللنا قليل أدبنا مع الملوك، لأننا نشأنا في السيبة، وعدم الملك، فلا يليق بنا إلاّ من يعرف حالنا ويعذرنا في أول الأمر، حتى ندخل على القانون، ونتأدب بأدبه».[5] ومن الذين استخدموا مصطلح البلاد السائبة الشيخ محمد بن المختار الكنتي، الذي تحدث عن أزواد وعدّها من: «البلاد السائبة، الخالية من سلطان، أو أمير، أو رئيس خيّر، يدفع من ظلم الظلمة، وجور الجورة، وعدوان العادين».[6]

---

[1] ــ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية، ط 1924، ص: 76.

[2] ــ ينظر الملحق رقم 1.

[3] _ *C. Sabatier , Op. Cit. p. 05.*

[4] – محمد سعيد القشاط، التوارق عرب الصحراء، مركز شؤون وأبحاث الصحراء طرابلس، ط الثانية 1989، ص: 40.

[5] ــ مجهول، تاريخ ولاته، تحقيق رحال بوبريك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة الرباط، ط الأولى 2002، ص: 89.

[6] ــ محمد الخليفة الكنتي، الرسالة الغلاوية، تحقيق حماه الله ولد السالم، مطبعة كوثر الرباط، ط الأولى 2003، ص: 18.

2ـ انتشار الإسلام بأزواد:

انتشر الإسلام في أزواد، وغيرها من مناطق الصحراء بعدة وسائل، تمثلت: في حركات الفتح، والتجارة، ونشاط الدعاة. بالإضافة إلى الخدمات الجليلة التي قدمتها الرباطات، والزوايا، لأجل إيصال المباديء الإسلامية إلى سكان تلك البلاد.

دور الفاتحين:

إن الجهد العربي العسكري المكثف للقادة المسلمين الأوائل، كعقبة بن نافع الفهري، وغيره، هو الذي أتاح لهم بلوغ صحراء ودان، وفزان[1]، إلى مدينة زويلة[2] (عاصمة فزان) في عام 22هـ/ 643م. ويشير صاحب الاستبصار، أن عمرو بن العاص لما فتح: «برقة، وجبل نفوسة، بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وافتتحها».[3] وهكذا صار ما بين برقة[4] وزويلة للمسلمين، وبذلك دخل الإسلام إلى حدود السودان الأوسط.[5]

كما ارتبط اسم عقبة بمناطق الصحراء الغربية، فقد وصل مع جنده إلى وادي درعة[6] (الحافات الشمالية للصحراء الغربية)، وتبعه موسى بن نصير، في حملة إلى

---

[1] ـ فزان: يسميها ابن مليح بلاد فزان، وهي مرحلة هامة في طريق الحج. وتوصف بالحسن والجياد، وأكثر لحومها الدجاج، وهي بلاد كثيرة الخصب واسعة، إلا أنها صحراء. ينظر: أبي عبد الله محمد بن مليح، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس فاس المغرب، ط 1970، ص:32.

[2] ـ زويلة: وهي أكبر مدن فزان، وهي تقرب من بلاد كانم، وإليها يجلب الرقيق، ومنها يخرج إلى بلاد إفريقية وغيرها من البلاد. يوجد باب زويلة بالقاهرة وهو أكبر أبوابها. ينظر: ابن مليح، المصدر السابق، ص:35.

[3] ـ مجهول، كتاب الاستبصار، ص:146.

[4] ـ برقة: وهي بالرومية الإغريقية بنطابلس وتعني خمس مدن، وسكنتها لواتة وقد صالح عمرو بن العاص أهلها على ثلاثة عشر ألفا يؤدونها إليه جزية. ينظر: أبو عبيد البكري، كتاب المسالك والممالك، ج 2، ص ص: 649 ـ 650.

[5] - *LHOTE (H), les touaregs du Hoggar, Payot Paris., 1955. p. 125.*

[6] ـ درعة: وتعرف درعة بواديها فإنه نهر كبير يجري من المشرق إلى المغرب ومنبعه من جبل درن، وعليه عمارة متصلة نحو سبعة أيام وفيه أسواق كثيرة، وعليه الجنات الكبيرة فيها جميع الفواكه من النخل والزيتون وغيرها. والحناء بدرعة كثيرة ومنها تجلب إلى جميع البلاد لطيبها، وبوادي درعة شجر التاكوت وهو شجر يشبه الطرفاء وبه يدبغ الجلد الغدامسي. ينظر: مجهول، الاستبصار، ص ص: 206 ـ 207.

تلك الجهة[1]، حيث قبائل صنهاجة الصحراء.[2]

وتشير بعض الكتابات[3]، أن فرقة صغيرة من جيش عقبة بن نافع، وصلت إلى قرية ماشز،[4] ثم واستمرت في طريقها حتى مدينة كل السوق[5]، وكان ذلك في عام 61 هـ/680م.[6] ومكثت هذه الفرقة، مدة من الزمن بتلك النواحي. وكانت كل السوق، تدين بالوثنية قبل الفتح، وبعد ذلك دخلت في الإسلام، وحمل أهلها لواء هذا الدين الجديد، للمناطق المجاورة لها.

وحريّ بالقول أن الجهد العسكري المبكر للعرب المسلمين، في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، فتح الطريق أمامهم للوصول إلى مناطق ببلاد السودان في القرون التالية. ومن الحملات الأولى التي قادها المسلمون إلى تلك النواحي، الحملة التي أرسلها الوالي الأموي عبيد الله بن الحبحاب، بقيادة حبيب بن عبد الله الفهري (حفيد عقبة بن نافع) وذلك عام 116هـ/ 734م، فوصلت إلى الصحراء الغربية،[7]

---

[1] _ *DE LA CHAPELLE (F), Esquisse d 'une histoire de Sahara occidental , Hesperis., année 1913 T . XI. p . 24.*

[2] – إن بعض الدارسين يتحفظون على هذه الرواية الشائعة عن الحملات التي قام بها عقبة بن نافع في المغرب. ينظر:

_ *PROVENÇAL (L), Un nouveau récit de la conquête de l' Afrique du nord par les arabe. Dans Arabica., T1. 1954. pp.19-53.*

[3] ــ آمن بن بوغتو، جوامع التواريخ، مخطوط مكتبة دياكوزي بجاو، رقمه 18، و8 و.

[4] ــ ماشز: قرية من قرى أزواد، تقع إلى الغرب من مدينة كل السوق، وقد أورد محمد المفتي أن العالم شعيب بن يوسف هو الذي اسسها، فيكون عمرها ثمانمائة وأربعين سنة ويورد صاحب المخطوط أنه من أبناء القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. ينظر: محمد المفتي، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط متحف الساحل بجاو، دون رقم، و23 و.

[5] ــ كل السوق: حاضرة من حواضر أزواد، تقع إلى الشرق من مدينة جاو، وعرفت بأنها مدينة علم وصلاح، كان بها عدد من العلماء، منهم أبو عمر الداني، تعرضت للتخريب زمن السلطان أسكيا داوود، قبل مجيء الحملة المغربية. ينظر: الهادي المبروك الدالي، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص ص: 116 ــ 117.

[6] ــ مجهول، خبر السوق، مخطوط خزانة بيت العود بأقبلي، دون رقم، و4 ظ.

[7] ــ حماه الله ولد السالم، «الإطار الفكري للحركة المرابطية»، أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين، من 15 إلى 17 أفريل 1996م، جامعة نواكشوط، قسم التاريخ ، 1999م، ج2، ص: 44.

والسودان الغربي، وبالضبط إلى أداغست.[1] ومع أن هذه الحملة كانت استطلاعية، إلا أنها قادت العرب المسلمين إلى مشارف نهر السنغال.[2]

التجار ودوهم في نشر الإسلام:

وضع الإسلام أصولا أخلاقية لعملية التجارة، كي تحافظ على الوشائج الأخوية التي تربط بين الناس. فقد أمر بالصدق، والأمانة، وعدم الغش في البيع. كما حثّ التجار على تخفيض الأسعار، للتيسير على الناس، بعد أن شجّع الجالب وحارب المحتكر. هذا بالإضافة إلى أنه أمر بحسن الكيل، والميزان، بعد تحريمه للتزييف، وترويج البضاعة المغشوشة.[3] وكان على التاجر المسلم في بيعه، وشرائه كله، أن يذكر الله. ولذلك فالهدف العام من التجارة، ليس تحقيق المصالح الشخصية فحسب، وإنما إقامة المصالح الشرعية، وبالتالي تحقيق المصالح العامة لمجموع المسلمين.

ومن خلال تطبيق القواعد الخلقية للإسلام في التجارة، جعل هذه الحرفة إحدى أهم الوسائل في الدعوة إلى الإسلام. وقد حصل بأزواد، والصحراء، نوع من «التوافق الغريب إلى درجة الاتحاد بين مهنة التجارة، ومهنة الداعية إلى الله».[4]

وما يمكن ملاحظته أن التجار العرب المسلمين وقوافلهم، التي كانت تصل إلى أزواد وجنوب الصحراء، كثيرا ما رافقها بعض الفقهاء، والعلماء. وتلك القوافل بشكل عام، كانت تحمل معها إلى جانب السلع التجارية، أخبارا وأفكارا جديدة إلى المنطقة تتصل بواقع المسلمين، وأحوالهم الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية. بالإضافة إلى أن

---

[1] – أداغست: وهي مدينة عظيمة آهلة وتوجد بين صحراء لمتونة وبلاد السودان، وأهلها يزرعون فيها القمح بالحفر بالفؤوس ويسقونه بالدلاء، وكذلك يسقون بساتينهم، وهم أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة ولهم أسواق حافلة عامرة الدهر كله، وبها مبان حسنة ومنازل رفيعة وأهلها أخلاط من جميع الأمصار. ينظر: مجهول، الإستبصار، ص ص: 215 ــ 216.

[2] – صباح الشيخلي، «ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء»، مجلة أفاق الثقافة والتراث، مجلة فصلية ثقافية تراثية تصدر عن قسم الدراسات والمجلة بمركز جمعة الماجد لثقافة والتراث، دولة الإمارات العربية المتحدة، السنة العاشرة العدد 38، ربيع الآخرة 1423هـ/يوليو2002م، ص: 20.

[3] – عبد السميع المصري، التجارة في الإسلام، دار النهضة القاهرة، ط 1976، ص ص: 14– 25.

[4] - *TRIMINGHAM (J.S), the influence of Islam upon Africa. London., 1980. p., 39.*

التجار كانوا بحاجة إلى توثيق الصلات التجارية باعتماد عملاء، وممثلين لهم، بين جماعات السكان.[1] ومنهم من تزوج بأزواد، وهذا ما وطّد الأخوة الاجتماعية، لعدم شعورهم بالطبقية، والتعالي على الغير.

دور الدعاة والعلماء:

إن انتشار الإسلام لا يتحقق في الأرض بكونه تنزل من عند الله تعالى، ولا بمجرد تبليغه وبيانه للناس، وكذلك لا يتحقق بالقهر الإلهي، إنما بتحمل جماعة من البشر تؤمن به إيمانا كاملا، وتجتهد لتحقيقه. ومما يسَّر مهمة الدعاة أنهم احترموا العادات، والتقاليد، المحلية ــ التي لا تتعارض مع الدين ــ ولم يحتقروها مقابل ما تمتعوا به من تسامح، وتقدير، من قبل سكان أزواد. ولذلك فمهمة الدعاة، كانت تقوم على السلام، والرفق، والأناة، ومما يسرها أنهم امتزجوا بالسكان بالمصاهرة دون ضغط. فتقبل سكان تلك البلاد الإسلام، ثم قاموا بعد ذلك بنشره بأنفسهم. حيث فتحوا المدارس، والمساجد، وجلبوا العلماء، والفقهاء، مثل السلطان منسا موسى، الذي وصفه العمري، بقوله: «بنى المساجد، والجوامع، والمآذن، وأقام بها الجُمَع، والجماعات، والآذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء».[2]

وحمل الإسلام عوامل قوته في ذاته، ولم يكتسح القبائل، والشعوب، اكتساحا. فقد عُرف الملوك الوثنيون بتسامحهم مع الإسلام وأهله، وكانوا يشهدون الأعياد الإسلامية، ويتقدمون بالهبات، إلى الدعاة، والعلماء.[3] وفتح هذا التسامح، وعدم الإكراه، قلوب كثير من سكان أزواد، وشرح صدورهم، حتى اعتنقوا الإسلام عن طواعية واختيار. وبذلك انتشر هذا الدين في تلك الربوع بقوته الروحية، وكانت النفوس تنجذب إليه بشكل طبيعي، لا بقوة الأموال والأسلحة.

---

[1] – دريد عبد القادر نوري،المرجع السابق، ص: 129.
[2] – ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص:21.
[3] – دريد عبد القادر نوري، المرجع السابق، ص: 123.

الزوايا مراكز لنشر الإسلام:

وبالنسبة للفترة موضوع البحث، فإن زاوية المختار الكبير، تعتبر المركز العلمي، والديني، الأشهر بأزواد. ونظرا لأهمية الزوايا من الناحية الدينية، والتجارية، فقد استمر تأسيسها على ربوع الصحراء الكبرى، فصار طلاب العلم، والرحلات، ينتقلون من زاوية إلى أخرى طلبا للعلم، إلى أن يبلغوا مكة المكرمة للحج والعلم معا.[1] وصار لفظ الزوايا علما على قبائل كثيرة، منها قبيلة كنته، لأن أغلب سيرتها في طلب العلم وتعليمه، وتعمير الأرض، وحفر الآبار، وتسيير القوافل، وقري الضيف.

وقد تحرّجت قبائل الزوايا من أخذ مال الغير، كما أن التعليم، والإمامة، عندهم يكونان مجانا. أما القرآن، فلا يرون بأسا بأخذ الأجرة على تعليمه.[2] وقد كان المختار الكبير، لا يأخذ الأجرة على تعليمه، تأسيا بعلماء السلف، الذين كرّهوا ذلك: «فأخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات كغسل الأموات، ودفنهم، وكذلك الآذان، وصلاة التراويح، وتعليم القرآن، وتعليم الشرع مكروه... لأن من حق هذه الأعمال أن يتاجر بها للآخرة، وأخذ شيء عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة».[3] وهو رأي مالك بن أنس، الذي صرح بأن أخذ الأجرة على رعاية الإبل، أحب إليه من أن يعمل عملا لله بإجارة. وكان للزاوية المختارية، ولقبيلة كنته،[4] الدور الرئيس في نشر الإسلام، واللغة العربية، في أزواد، وغيرها من المناطق المحيطة.

---

[1] – محمد الهيلة، «الزاوية وأثرها في المجتمع»، بحث منشور في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية تونس، عدد 40- 43، سنة 1975، ص: 100.

[2] ــ أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط ، ص: 478.

[3] ــ المختار الكبير الكنتي، البرد الموشا في قطع المطامع والرشا، مخطوط بخزانة فيلي موسى بتمنراست، دون رقم، ج 1، ص ص: 8 ــ 9.

[4] ــ حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ط الثانية 1963، ص: 43.

3ـ الكشف الجغرافي بأزاود:

ازداد الاهتمام بأزواد منذ سنة 1203 هـ / 1788 م،[1] بعد أن أسست بلندن مجموعة من الباحثين، والتجار، رابطة النهوض بكشف الأجزاء الداخلية من إفريقيا. وكان هدف هذه الرابطة في البداية، وكما هو واضح من تسميتها تطوير الكشوفات الجغرافية إلى دواخل إفريقيا،[2] التي لم يكن أحد في أوروبا يعرف عنها شيئا، باستثناء ما نقله عنها بعض الرحالة، والعلماء، والجغرافيين المسلمين، من أمثال: ابن بطوطة، الذي عبر الصحراء الكبرى في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وزار تنبكتو وأجزاء عديدة من السودان الغربي. وكذلك ما ذكره: البكري، والإدريسي، وابن حوقل وابن خلدون، والحسن الوزان، والسعدي. واستمرت هذه الرابطة، في ممارسة عملها الخاص بجمع المعلومات.

وفي هذه الفترة وقبل انقضاء القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، تمكنت تلك الرابطة بلندن، من الاتصال برجل عربي يدعى الحاج عبد السلام شعبيني[3] من سكان تطوان بالمغرب، والذي كان يعيش يومها في تلك المدينة، وهذا العربي زار تنبكتو، وأحوازها، مع والده عام 1202 هـ / 1787 م، وقدّم معلومات وافية عن تلك الزيارة للرابطة، والتي كان من بينها: «أن تنبكتو، هي من

---

[1] _ *FOUREAU (F), mission chez les touareg, librairie maritime et colonial Paris., 1985. p. 62.*

[2] – بلغ التضليل والتدليس في جهود الجمعية الإفريقية إلى حد أنها جعلت من بين أهداف الاستكشاف الذي تنوي القيام به وتشجيعه، مقاومة الرق ومحاربة التجارة في اللحم البشري في إفريقية نفسها. وهذه الفقرة من برنامجها ستضمن لها تأييد الكنيسة ومساندة الضمائر الحساسة التي لم تكن في المخطط العام إلا الزاوية التي يروق لها أن تراها. ينظر: إسماعيل العربي، تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1986، ص: 289.

[3] – تمكنت تلك الرابطة من الحصول على معلومات متتابعة عن وسط الصحراء الكبرى من رجل مغربي آخر يدعى ابن علي، كان هو أيضا في لندن في تلك الفترة 1205 ـ 1208 هـ / 1790– 1793 م، وهي معلومات ضاعفت من اهتمام هذه الرابطة بمنطقة أزواد، وأدت إلى حثهم على مواصلة العمل بشكل أكبر بهدف اختراق الصحراء. ينظر: علي محمد عبد اللطيف، تنبكتو أسطورة التاريخ، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط الأولى 2001، ص ص: 27– 28.

أغنى مدن السودان الغربي».[1] بالإضافة إلى أن سكان أزواد يتعاملون بالذهب، في كافة معاملاتهم التجارية.

وفي السنة نفسها التي تشكلت فيها الجمعية الإفريقية في لندن، ارتبطت بسائح اسمه ليديارد، الذي سيقوم برحلة لحسابها، ويخترق خلالها المجال الإفريقي، غير أنه توفي قبل أن يبدأ ما سطّر له، ضحية للحمى بمصر، وذلك بعد أن أتم استعداداته للسفر. ويعتبر مونجو بارك الاسكتلندي، أول من وصل إلى نهر النيجر في سنة 1211 هـ / 1796 م، وعمره آنذاك لا يتجاوز 25 سنة. وكان هورنمان المتطوع التالي، الذي ارتبطت معه الجمعية الإفريقية للقيام بعمليات استكشاف في الصحراء، وبدأ رحلته في شهر سبتمبر 1213 هـ / 1798 م.[2] ووصل إلى نهر النيجر، بعدما استعان بالعديد من الأصدقاء، وشبكة من العملاء.

وشكلت أزواد الميدان الأساسي للفرنسيين للتوسع بعد فشل حملتهم على مصر، لتكون أحد نقاط نفوذهم في الساحل الصحراوي،[3] وإفريقيا الغربية، على اعتبار أن السياسة الفرنسية، حكمتها لفترة طويلة نظرية (نقاط الارتكاز)[4] التي صاغها غيزو. وسلكوا لتحقيق أهدافهم، مسلك التفريق بين القبائل الواقعة على حوض نهر النيجر، والمناطق المتاخمة له، وصولا إلى بحيرة تشاد.

4ـ أوضاع أزواد السياسية:

وتشمل أرض أزواد العديد من القبائل، تتشكل في إمارات كبرى هي: إمارة كل انتصر في غرب وجنوب تنبكتو، وإمارة تنكريقيف في منحنى نهر النيجر، وإمارة كنته

---

[1] ـ محمد عبد اللطيف، المرجع نفسه، ص: 28.

[2] - إسماعيل العربي، تاريخ الرحلة والاستكشاف، ص ص: 289- 292.

[3] _ *FOUREAU , Op. Cit. p.89.*

[4] _ *YACONO (X), Histoire de la colonisation Française , 2 eme éd . Paris., 1988. p . 354.*

حول مدينة جاو، وإمارة إفوغاس في آدرار حول جبال إفوغاس، وإمارة البرابيش[1] في شمال وشرق أزواد.

نظام الحكم بأزواد: ويتكون نظام الحكم بأزواد من الهياكل التالية:

منصب الأمير:

ويتولى هذا المنصب، شيخ أقوى قبيلة من القبائل التي تشكل الاتحاد. ويساعده في الحكم مجموعة من رؤساء القبائل، أو بالأصح رؤساء مجموعات القبائل[2]، لأن كل شخص من أولئك الرؤساء، تحت إمرته مجموعة من شيوخ القبائل. والأمير هو الذي يملك الحق في إعلان الحرب، أو نشر السلم.

ومن أجل القيام بمهامه فإن الأمير محاط بمجموعة من الحكماء، والعلماء، يقومون بوظائف المستشارين، والقضاة، والأئمة في المساجد، والمكلفين بالبعثات والسفراء.

منصب شيخ القبيلة:

وإلى جانب الأمير يوجد شيخ على رأس كل قبيلة، يتولى الإشراف على شؤون قبيلته، ويمثلها في الاجتماعات العامة، ويحمي مصالحها، ويجمع منها حصتها من أموال الجباية المطلوبة لخزانة السلطنة أو لتمويل الحرب. ويقود رجال قبيلته في حالة الحرب، أو للغارة على إحدى الجهات المعادية.

منصب الإمام:

ويأتي في الأهمية بعد الأمير وشيخ القبيلة، شخصية دينية مرموقة هي شخصية الإمام. وفي العادة يتولاه أحد الفقهاء المتضلعين في الشريعة الإسلامية، ومهمته الإرشاد وتنوير الناس في أمور دينهم الحنيف. كما يشرف على القضاء، ويصادق على

---

[1] – المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 2000، ص: 98.

[2] – محمد سعيد القشاط، التوارق عرب الصحراء الكبرى، ص: 49.

أحكام القضاة. بالاضافة إلى اعتنائه بأمور التعليم في الكتاتيب، والمساجد.[1] وإليه يعود الرأي في حل النزاعات، والخصومات القبلية.

وكان لفخذ أولاد الوافي من قبيلة كنته، إمامة دينية على كثير من القبائل في مجالاتهم، وذلك من أزواد، إلى منتهى بلاد التوارق[2] من جهة الجنوب. واليها ترجع أمورهم الدينية من التعليم، والقضاء، وأخذ الزكوات منهم، وصرفها في مصارفها الشرعية، التي توارثوها خلفا عن سلف[3]. ولهم إمامة دنيوية على كثير من الرعايا، والأتباع، وعلى أحياء إخوانهم الكنتيين، وغيرهم من أمثال: ابكاك[4]، وأولاد الناصر[5].

علاقة كنته بغيرها من القبائل:

كان لقبيلة كنته دور فعّال وكبير في الأوضاع السياسية بأزواد، خلال الفترة المعنية بالدراسة، والبحث. نظرا لانتمائها لقبائل الزوايا، التي تهتم بتعليم القرآن، والقضاء في الأحكام. بالإضافة إلى بروز شخصية المختار الكبير، كزعيم ديني وسياسي محنك، ومقتدر، وهذا ما جعله يتمتع باحترام القبائل الأخرى. وتمكن بذكائه من استغلال التناقضات، التي كانت توجد ــ في العادة ــ داخل البيوتات الأميرية،

---

[1] – محمد سعيد القشاط، المرجع السابق، ص: 53.

[2] ــ التوارق: أو الطوارق ينتسبون إلى صنهاجة، وصنهاجة يرفعون نسبهم إلى حمير، وهم قبائل عديدة: لمتونة، وجدالة، ومسوفة، ولمط مغيرهم. وهم ظواعن في الصحراء لا يطمئن بهم منزل، وليس لهم مدينة يأوون إليها. ومراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين. ينظر: عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، وقف على طبعه هوداس، مطبعة الأمريكان والشرق باريس، د ت، ص: 25.

[3] – عتيق بن سعد الدين السوقي، الجوهر الثمين في أخبار صحراء الملثمين، نسخة مخطوطة مصورة بحوزة بن بلال محمد بحي الحفرة بتمنراست، بدون رقم، ص: 138.

[4] ــ أبكاك: هم من قبيلة إدوعيش، وهم الفرقة الأولى أتباع أسويد أحمد وإخوته وبنيه، والفرق الثانية هم اشراتيت وهو شيعة عمه المختار وإخوته وبنيه. وقد سموا أبكاك نسبة إلى نوع من الصمغ الرديء، وقد اطلقت عليهم هذه التسمية سخرية من الجانب الآخر، على اعتبار أن الحرب اضطرتهم أن يأكلوا هذا النوع من الصمغ ولونه أحمر. ينظر: سيدي بابه ولد الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش ومشظوف، دراسة وتحقيق إزيد بية بن محمد محمود، المعهد التربوي الوطني وشركة الكتب الإسلامية موريتانيا، ط الثانية 1994، ص: 145.

[5] ــ أولاد الناصر: ينتسبون إلى ناصر بن مغفر بن أدي بن حسان، وهي قبيلة ذات تأثير هام وكبير في موريتانيا وبلاد الساحل خاصة في الحوضين وتكانت حيث أسست رئاسات. ومن هذه القبيلة المؤرخ العالم والقاضي صالح بن عبد الوهاب. ينظر: ابن طوير الجنة الوادايي، تاريخ ابن طوير الجنة، تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ط 1995، ص: 60.

وبين القبائل. ومكنه ذلك من المشاركة في إدارة الأحداث في وقت الحرب، والسلم على حد سواء.

لقاء المختار بأمير عشائر هوقار:

وقبيل نهاية حياة للمختار، كان له لقاء ودي للغاية مع محمد الخير[1]، أمير عشائر هقار. والذي استطاع على إثره استرداد جميع المسلوبات، التي نهبت من قبائل كنته. وقال له الأمير يومئذ: «كنته قوم من السفهاء! أنصحهم بالكفّ عن المجيء إلى بلادنا».[2] وطمأنه المختار على نواياه الطيبة، ووعده أن يعمل كل ما في مقدوره فيما يخص هذه المسألة، قائلا له: «إذا لم يطيعوني ووقعوا بين يديك، فإني سأتركهم لتفعل بهم ما تشاء».[3] وهذه أول مرة يجرؤ أمير عشائر هقار على مواجهة المختار، لأن غارات كنته كانت شبه متواصلة على المراعي الجنوبية لهقار.

وعلى اثر عودة المختار، وعند وصوله إلى المبروك، اصطدم بجماعة كنته، وكانت تستعد لشن غارة، وتتهيأ للزحف ومهاجمة عشيرة هوقار. وأفلحت فصاحته، وبلاغته، ومنطقه، في إقناع أكثرهم بالبقاء حيث هم. غير أن ثلاث عشائر وهم: درماشة، وياداس، وأولاد ملوك[4] ــ وانضم إليهم بعض أولاد الوافي ــ لم يعيروه أذنا صاغية وانطلقوا لشن الغارة. وكان من بينهم محمد بن الحاج حبيب الله، والمختار بن سيدي، وعمّه محمد. أما القادة فكانا علي بن عبد الله، من قبيلة درماشة، وعلي بن الطالب ياسين من ياداس. واشتبكوا بقبيلة هوقار، وكانت المعركة حامية الوطيس،

---

[1] ــ محمد الخير: هو أمير سلطنة تكريكريت، عرف عنه العداء الشديد للكفار، ونشب الخلاف بين ورثته: ابن عمه إسماعيل، وابن أخته أخزى، ونشبت حروب بينهم انتهت بتقسيم السلطة: الأول له الطبل وهو الحكم، والثاني له الأموال والممتلكات المادية. ينظر: القشاط، التوارق، ص ص: 189 ــ 190.

[2] ــ محمد الخليفة، الطرائف، و32 ظ.

[3] ــ بول مارتي، كنتة الشرقيون، عربه محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق، د ت، ص: 55.

[4] _ *BATRAN (A), the qadiryya brotherhood in west Africa and the western Sahara the life and times of shaykh al-mukhtar al-kunti, Imprimerie Kawthar Rabat., 2001. p. 189.*

دارت فيها الدائرة على كنته، الذين خسروا أكثر من سبعين قتيلا، كان في عدادهم زعيم قبيلة ياداس،[1] هذا فضلا عن العديد من الأسرى.

وهنا يُلاحظ أن المختار، لم يكن ليمارس سلطته السياسية ــ في بعض الأحيان ــ في حدود نفوذه. وهذا ما يتضح من خلال عدم رضوخ أفخاذ من كنته، لأوامره في بسط الهدنة. ورغم ذلك فقد أثر تدخله في عودة السلام، وتم تحرير الأسرى، وتعهدت كنته إثر تلك الغارة، بأن تدفع لهوقار إتاوة سنوية قدرها ثمانية رؤوس من البقر، واستتب السلام.[2] وكدليل على حسن النوايا، منح بعض زعماء هوقار لأبنائهم أسماء كنتية، من قبيل التبرك!

وترجع الروايات التاريخية[3] سبب العداء بين كنته، والتوارق، إلى موقعة تهوده، التي استشهد خلالها عقبة بن نافع رضي الله عنه على يد كسيلة. على اعتبار أن كسيلة من قبيلة هوارة، التي ينحدر منها التوارق. غير أن الوقائع تشير إلى عكس ذلك، فالعديد من العشائر التارقية، دخلت في أحلاف مع أفخاذ من كنته. وهناك من رضي منهم بالانضواء تحت ولاء كنته، حتى أصبح من الصعب التفريق بينهم.

المختار وتوارق الميدن:

تميزت علاقة المختار مع جيرانه ألميدن[4] بكونها أقل جودة، فعاملهم دائما بصفتهم معتدين ظالمين. وعند عودته من رحلة زار فيها أوقادود[5]، أخبر أنه خلال إقامته عنده، لم يتذوّق أي طعام، بل كان يقنع بشرب بعض الحليب في الصباح لدى

---

[1] ــ محمد الخليفة، المصدر السابق، و43 و.

[2] - *LHOTE, Op. Cit. p. 220.*

[3] _ *Ibid , p. 348.*

[4] ــ ألميدن: ومعناها أهل الغرب، وقد أسسوا سلطنة في منطقة أزواغ الغربي ومنحنى نهر النيجر، وتحيط بها السلطنات التارقية الأخرى من الجهات الأربع. وأشهر القبائل التي تشكلت منها هذه السلطنة هي: كل إهارا، كل تيينات، أغطفانن، إلوغمان، أودالن، إمنّان، إمغران، إشدنهارن، إمضّغن، كل ولّي. ينظر: القشاط، التوارق، ص ص: 40 ــ 41.

[5] ــ أقادود: هو كبير عقال ألميدن (أمنوكال)، اشتهر بحنكته السياسية وبصيرته في إدارة أمور التوارق. وقد عرف عهده بالاستقرار والتنظيم المحكم للقبائل التارقية التي حكمها. ينظر: الأرواني، الجواهر الحسان، و18 ظ.

شخص من قبيلة أدو إسحاق.[1] وكان يضيف إلى ذلك قائلا: «تلك هي عادتي، لأن الطعام الذي كان يقدمه لي قطاع الطرق هؤلاء، لا فائدة منه لمعدتي».[2] وعندما كان يتلقى بعض الهدايا كان يعيد توزيعها على الفقراء والأيتام، إذ لم يكن يرغب لنفسه بشيء من مصدر غير طاهر. ولم يكن ورعه هذا يمرّ دون أن يذهل هؤلاء إعجابا، حتى أن بعضهم مثل أوقادود، وقاضيهم صالح بن محمد البشير[3]، عرض عليه تولي الزعامة الروحية لعشائرهم.[4]

وخلال الفترة التي كان فيها المختار يمارس زعامته الدينية في شمال عقفة نهر النيجر(في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي)، كانت الهيمنة السياسية من نصيب التوارق، وعلى وجه الخصوص قبيلة كل تادمكت[5] وأفخاذها: تنقريقف[6]، وايريقناتن، وكل تيمولايت. الذين يرتحلون في مرابعهم، بين فاقيين حتى غرغو، في شمال النهر وجنوبه. وقد كان هؤلاء ذاتهم واقعين تحت نوع من الخضوع تجاه قبيلة ألميدن، وكانت تنبكتو ذاتها تحت تبعيتهم الكاملة. ولم يتورعوا عن نهب هذه المدينة دون هوادة، مثلما كانوا يرهقون سكانها بالضرائب، وبابتزازهم، وينكّدون عليهم معيشتهم.

---

[1] ــ أدو إسحاق: هي إحدى القبائل الكبيرة التي تشكلت منها سلطنة ألميدن التارقية. ينظر: القشاط، المرجع السابق، ص: 41.

[2] ــ محمد الخليفة، المصدر السابق، و42 ظ.

[3] ــ صالح بن محمد البشير: فقيه عربي درّس الفقه مدة في الجهة الغربية من نهر النيجر، وكانت له محضرة خاصة به. وتولى خطة القضاء لأوقادود، وكان بمثابة مستشاره الخاص، اشتهر بالعدل وإنصاف المظلومين في بيئة لطالما عرفت التعدي والسطو والإغارة. ينظر: آمن بن بوغتو، جوامع التواريخ، و21 ظ.

[4] – بول مارتي، كنته الشرقيون، ص: 56.

[5] ــ كل تادمكت: وتكتب تادمكة، وأسسوا مدينة حملت إسمهم، ومعناها: هذه مكة! ونفوذ هذه القبيلة من جهة الغرب من ألميدن وهي خاضعة لهم. ينظر: بن عبد الله، الموسوعة المغربية، ج 1، ص: 124.

[6] ــ هناك من يضيف هذا الفخذ إلى كل انتصر. ينظر: القشاط، التوارق، ص:41.

حصار تنبكتو:

وخلال حالة تمرد، أوقع الرماة[1] في سنة 1184 هـ / 1770 م، وبالضبط في يوم 24 أوت، بزعيم القبيلة وهو بتيتي بن محمد[2]، في كمين واغتالوه غدرا.[3] وهنا جُرحت كرامة قبيلة كَل تَادَمكَت في الصميم، فهرعوا على عجل، وضربوا الحصار على تنبكتو، دون أن يطوّقوا المدينة بالكامل، والتي كانت محاطة في ذلك التاريخ بأسوار عالية من الطين.

وقد منع الحصار دخول وخروج القوافل إليها، ومنعت أي ملاحة نهرية، وسرعان ما ظهرت المجاعة. إذ راح الناس يأكلون الجيف، والكلاب، والحمير، ووقعت عدة حالات من أكل لحوم البشر! وكان السكان المحاصرون يتساقطون صرعى في الشوارع،[4] وظلوا هكذا دونما دفن لمدة طويلة، وأصبحت المعيشة لا تطاق، وبيع الحمل من الحبوب بأربعين قطعة من الذهب.

موقف المختار:

وفي تلك الأثناء أرسل المختار إلى الرماة بعثة من وجهاء عشيرته، لكي ينصحهم بإرضاء عشيرة كل تادمكت بدفع إتاوة سنوية تبلغ ألف قطعة ذهبية، وألف ثوب، وعشرة من الخيول. كما بذل جهده من ناحية أخرى كي يجعل التوارق يقبلون

---

[1] ــ الرماة: هم سلالة الفاتحين المراكشيين من المغاربة، الذين تزوجوا نساء الطبقة الغنية المحلية في السودان الغربي. وقد نالوا مميزات خاصة بمرور الزمن، وأصبحت لهم سلطة فعلية في البلاد وانفصلوا تماما عن مراكش. ويشبهون إلى حد ما بالمولدين في الأندلس. ينظر: دريد عبد القادر نوري، المرجع السابق، ص: 279.

[2] ــ بتيتي بن محمد: واسمه الكامل بتيتي بن محمد المختار بن عمير بن علاد، زعيم قبيلة تادمكت. وهو الذي استطاع جمع أفخاذ هذه القبيلة في وحدة سياسية نادرة، حيث أنها نعمت خلال زعامته بنوع كبير من التحرر من التبعية التاريخية لكل إنتصر، غير أن ذلك لم يطل فقد أغتيل بطريقة بشعة على أحواز تنبكتو. ينظر: بن بوغتو، جوامع التواريخ، و25 و.

[3] - *ABITBOL (M), Tombouctou et les Armas, Maisonneuve et La Rose, Paris.,1979. p. 261.*

[4] ــ مجهول، خبر السوق، و19 ظ.

بهذه التسوية، والذين لم يكن من عادتهم قبول دية الدم. وبعد أن لام باشا تنبكتو[1] الشيخ المختار على وساطته[2] بعبارات قاسية، انحنى للأمر الواقع وان ظلّ يجادل طويلا. واستتبّ السلام بتاريخ يوم 14 أوت 1185 هـ / 1771 م، ويرجع الفضل الكبير في عقد هذا الاتفاق إلى الشيخ المختار.[3] وأظهر بعض التوارق المتطرفين معارضة مماثلة، وحاولوا أن يلحقوا الأذى بالشيخ ذاته، ولم ينس أهالي تنبكتو هذا الإذعان المذلّ وكادوا يفتكون به.

وبعد ذلك بقليل كان المختار يخيّم على مقربة من أبواب المدينة، وبينما اثنان من تلامذته يتجولان بداخلها، فوجئا بالنوايا السيئة لرجال الرماة. فهرعوا مسرعين إلى المخيم، وانذروا شيخهم بضرورة الهرب. غير أنه لم يتحرك من مكانه، ووصل رجال الرماة وعلى رأسهم نُوهَم[4]، وهو رجل فظّ، لا عهد له. ولم يظهر على المختار أي اكتراث لوجودهم، وبعد هنيهة تسمّر المعتدون الفزعون من الرهبة، وتقدم نوهم قائلا: «أيها الشيخ، لقد بطلت التقاليد، ففي الماضي كان رجال الرماة ينقذون ما سبق أن قرّروا فعله مهما كلفهم الأمر. أما اليوم، فقد بقيتُ وحيدا من تلك الطينة، واليد الواحدة لا تقوى على التصفيق».[5]

ولم يظهر على المختار ما يفيد أنه شعر بهذه الأحاسيس الشخصية السيئة، التي تكشف عنها هذه الأقوال الصادرة عن نوهم، وبرهن من خلال خطبة طويلة، أن

---

[1] ــ كان الباشا في تلك الفترة هو أبا حدي بن أبي بكر بن مبارك، وقد كانت فترته من فيفري 1181 هـ / 1767م، إلى غاية مارس من عام 1189 هـ/1775 م . ينظر:
ABITBOL. Op. cit. p. 254.

[2] ــ يصف بول مارتي وساطة المختار بين: التوارق، والرماة، بالمكشوفة! وكأنه لم يكن راض عن الدور الذي أداه خلال هذه المهمة الصعبة. ينظر: بول مارتي، كنتة الشرقيون، ص: 58.

[3] ــ *ABITBOL. Op. Cit. p. 261.*

[4] ــ نوهم: وهو ابن القائد علي سليل بيت كبير من الرماة أو الحكام المغاربة لتنبكتو، كان يقود فرقة صغيرة من المحاربين، ويقوم في العادة بترصد القوافل التي تقوم بالدخول أو الخروج من تنبكتو. تروي عنه الكتب العديد من القصص المشينة، وتصفه بقاطع الطريق. ينظر: آمن بن بوغتو، جوامع التواريخ، و23 ظ.
1 ــ محمد الخليفة الكنتي، الطرائف والتلائد، و66 ظ.

انحطاط قدر الرماة قد نتج عن عيوبهم وشططهم، وكان لكلماته نجاح كامل في ردعهم. وأقبل رجال الرماة وقبّلوا يديه وانسحبوا. ولعل كلام نوهم السابق، يحمل في طياته الإشارات الدالة على تراجع النفوذ المغربي، من خلال تراجع سلطة الرماة، لصالح المنافسين وهم الطوارق في الجهة الشمالية، والعرب في الشرق والغرب.

التولية والعزل:

عندما قُتل بتيتي بن محمد المختار بن عمير بن علاد، من قبيلة تادمكّت، على يد جماعة الرماة كان ابنه غميري[1] لا يزال طفلا. وتنازع على السلطة خوميكا بن عمر[2] العم الأكبر لغميري، مع زعيم آخر هو ابن انتيقاد[3]، ولكن المختار الكنتي عمل على ترجيح كفة خوميكا. وبعد وقت قليل من ذلك، قام الزعيم الجديد بخرق اتفاق السلام المعقود بينه وبين جماعة الرماة واجتاح تنبكتو. واستجابة لإلحاح سكان البلدة، خرج المختار الكنتي وراح يستجوب خوميكا، الذي كان على رأس قواته، ولكن الزعيم التارقي ردّ بفظاظة جعلت المختار يصفعه بشدة، حتى أسقطته عن حصانه، قائلا له: «لقد جعلتك تركب فوق سرج لم تكن أهلا له».[4] ثم التفت نحو الباشا ابن انتيقاد، وقال له: «استلم طبل القيادة، وكن سلطانا على تادمكّت».[5]

ولم يمض على هذه الأحداث سوى وقت قليل، حتى انبرى ابن انتيقاد أمام المختار مع عدد من رجاله، وسلّم عليه بقلة احترام وبطريقة غير مألوفة لدى سابقيه.

---

[1] ــ غميري بن بتيتي: أحد أفراد عائلة الحاكمة في كل تادمكت، كان يزاول التجارة من خلال الإشارات التي أعطاها محمد الخليفة، وسيتحول إلى قائد عسكري للمطالبة بالزعامة التي كانت لأبيه. ينظر: الطرائف والتلائد، و98 و.

[2] ــ خوميكا بن عمر: تصفه المصادر السودانية بالمغتصب، ولا يرد ضمن قائمة زعماء كل تادمكت رغم أنه حكم فترة وجيزة، ويبدو أنه أسقط عمدا. ينظر: مجهول، خبر السوق، و15 و.

[3] ــ ابن انتيقاد: هذا الزعيم لا يرد ضمن قائمة القادة الذين تولوا قيادة كل تادمكت، ولهذا يظهر أن تزكية المختار لم تكن مقبولة هذه المرة، سواء من قبل القبائل الصحراوية، أو جماعة الرماة. ينظر:
ABITBOL. Op. Cit. p.254.

[4] ــ محمد الخليفة، الطرائف، و46 ظ.

[5] ــ بول مارتي، المرجع السابق، ص: 60.

وهنا قال له المختار: «لقد حملتك عجرفة السلطة يا باشا[1] نحو مناطق نائية للغاية، وعليه سأنزلك من جديد من فوق تلك الأعالي».[2] فأجابه ابن انتيقاد بقوله: «أنت لم تمنحني السلطة التي لم تكن لأجدادك، فهي لأجدادي، ولقد نلتها عن آبائي بطريق الإرث، ولن تنزلني كلماتك من عليائي، ولن ينتزعني عزلك من السلطة».[3] وما إن نطق بهذه الكلمات حتى استدار وانطلق بفرسه عدوا.

وفي هذه الأثناء أرسل المختار على عجل رسولا إلى أما بن أق الشيخ[4] يستدعيه دون إبطاء، كي يبعثه في اثر ابن انتيقاد فأقبل، وهاجمه بسرعة، ودارت بينها مبارزة تمكن أما بن أق الشيخ من الحاق الهزيمة به، وانتزع منه شارات القيادة التي أعطيت إلى خوميكا من قبل. وتابع أما من وقته عادة آبائه بالوفاء والإخلاص للزوايا، وللمختار. وكان يُتحف هذا الأخير بكثير من الهدايا الثمينة، ويروى في بعض الوثائق[5]، أنه قدّم له مرة واحدة، مائة قطعة ذهبية، وأربعين خادما نصفهم من الذكور، وأربعمائة بقرة، وعددا كبيرا من قطع القماش، والثياب.

ولم تهدأ الأمور في هذه القبيلة، لأنه مع بلوغ غميري بن بتيتي سن الرشد، ثار على عمه ولحق به العديد من الأنصار من عائلة علاد، ومن معظم قبائل تادمكّت. وفي المقابل تحالف خوميكا مع عشيرة ايلمدن، وفي أول لقاء في موقع انتيقفيت، انكسر وخسر العديد من رجاله. ولما لحقت به كل قبيلة ايقوادرن فيما بعد ثأر لنفسه في يوم اركون، حيث كسر غميري، ولكنه خسر أكثر من مائة رجل من بينهم ابنا أخ أما بن آق الشيخ. ولكن مقاتلي ايلمدن لم يكتفوا بالانتصار الذي حُقق، بل كانوا يتحرّقون شوقا

---

[1] ــ هكذا وردت في الطرائف والتلائد (باشا)، مع العلم أن لقب الباشا في الأصل يطلق على الرماة وليس على زعماء القبائل. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف، و99 و.

[2] ــ بول مارتي، كنته الشرقيون، ص: 64.

[3] ــ آمن بن بوغتو، المصدر السابق، و26 و.

[4] ــ أما بن أق الشيخ: لم تولى زعامة القبيلة بل اكتفى بقيادة حربية واسعة، لكن كان في مستوى تلك الأحداث، لأنه عمل على استتباب الأمن وحفظ النظام، حتى ظهر غميري بن بتيتي. ينظر: مجهول، خبر السوق، و15 ظ.

[5] ــ المختار الكبير، نصيحة البت لجميع الكنت، مخطوط خزانة الطالب التهامي بأقبلي، و3 و.

للانتقام لرجالهم، فاندفعوا بأعداد كبيرة لمطاردة الغاصب لمسافة بعيدة جدا في بلاد بنبارة.

ولما ضاق الخناق على غميري وأنصاره في معاقلهم الأخيرة، جاءوا يتوسلون للمختار ــ الذي كان في تلك الفترة بخيامه شرق كيدال ــ طالبين منه الوساطة، فحصل الزعيم الكنتي على السلام بعد إصرار كبير، وتجول بعد ذلك في مخيمات التوارق بصحبة الزعيم التادمكتي، وتلقى أعطيات الجميع وولاءهم. حتى أن ذهاب غميري إلى قبائل ايلمدن في بلادهم ذاتها، بعد قتله أكثر نبلائهم، كان مشهدا لم يسبق إطلاقا أن حدث له مثيل، وقد نال بصحبة المختار، حتى من لدن أبناء آق الشيخ، أفضل استقبال من حيث التشريف، والترحيب، ورضوا بأن يُنصّب على رأس عشائر تادمكت. وظل على رأسهم أطول مدة، محتفظا بقيادة عشائر هذه القبيلة.

المختار والبرابيش:

كانت صلات المختار مع البرابيش خلال حكم محمد بن رحال[1] الطويلة، وديه للغاية. وقد خلف على رأس القبيلة ابن أخيه محمد بن يوسف، غير أن محمد بن رحال استطاع بفضل رعاية المختار له أن يبرز أحقيته وأن يخلف ابن عمه، الذي مات غيلة في سنة 1174هـ/ 1760 م.

وتمكن المختار بفضل هذه الصداقة الثابتة والمتينة، من تهدئة كل النزاعات، والقلاقل، التي كانت تثور بين كنته، والبرابيش[2]، خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، ولاسيما النزاع الذي

---

[1] ــ محمد بن رحال: هو حاكم البرابيش أثناء الدور التاريخي لهذه القبيلة، يذكره صاحب الطرائف كثيرا ولم يشير إلى تاريخ توليته أو وفاته. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف، و89 ظ، و127و، و178 ظ.

[2] - *GAUDIO (A), les civilisations du Sahara, Gérard Verviers Belgique., 1967. p. 299.*

اشتبك فيه الزعيم البربوشي، والرقاقدة[1]، والذي كاد أن يقود إلى نزوح هذا الفخذ من كنته باتجاه توات.

وأعفى المختار شريفا من أصدقائه، من كل الإتاوات وحقوق المرور بمجال أولاد الوافي، وهو مولاي علي.[2] وهكذا رفض الشريف تسديد الرسم المستحق عليه للبرابيش، فأقسم محمد بن رحال أن يقتله إذا ما التقى به، ولو كان ذلك في الكعبة، أو فوق ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم! وهنا دخل الروع على نفس الشريف فذهب من تافيلالت إلى توات، ومن هناك قصد خيمة المختار، سالكا طريقا منحرفا وكان أولاد الوافي يقيمون حينذاك بجوار بئر أبو مرحان.[3] وبعد فترة من وصول الشريف اقتاده المختار ورافقه إلى مخيمات البرابيش، وعندما التقاهما محمد بن رحال تراجع واضطرب، وندم وأحسن وفادتهما على أحسن صورة.

علاقة المختار بأولاد المولات:

لقد استغل المختار صداقته مع البرابيش، ليستخدم قواتهم في الصراع الناشب مع أولاد المولات (أولاد دليم)، الذين كانوا يظلمون الكثير من سكان تلك الجهات. وأثناء ذلك كانت هناك مجموعة من وجهاء أزواد، على الدوام تقصد أولاد المولات، بغرض افتداء أموال سبق وأن نهبوها. وقصدهم بالتعاقب أشراف وزوايا تيشيت[4]،

---

[1] ــ الرقاقدة: سيتم تعريفهم في الفصل الخاص بقبيلة كنته.

[2] ــ مولاي علي: هو مولاي علي بن محمد العلوي، تاجر من تافيلالت كان كثير المرور بتوات، من أجل الوصول إلى أسواق السودان الغربي، وله متعهدين بتمنتيط، وتيكورارين. ينظر:
BATRAN, Op. Cit. p. 178.

[3] – بئر أبو مرحان: أحد أشهر الأبار التي توجد في الشمال الشرقي من كيدال. ينظر: مجهول، خبر السوق، و 9 ظ.

[4] ــ تشيت: مدينة بعد تكانت، قريبة من الحوض، بينها وبين تجكجة نحو خمسة أيام، وبها نخل. وأهلها أدرى من أهل تلك البلاد بالتجارة، وهي أقرب مدن تلك البلاد للسودان، وكان أهلها ثلاثة أقسام، قسم يقال له: الشرفاء، وقسم يقال له: إماسنه، وقسم يقال له: أولاد بلّه: فوقعت حرب بين القسمين الآخرين. فخرج أولاد بلّه، وبنو بلدة آغريجيت. ينظر: ابن الأمين، الوسيط، ص: 459.

وجماعات أهل باريك الله[1]، وأولاد يعقوب (اديعقب)[2] وقبيلة كرزاز[3]. ومن سكان وادي الساورة، ومن بني أحمد بن صالح[4] من أروان، ومن أهل وادان.[5] ورغم كل تلك الوساطات، إلا أنه لم يسترجع إلا القليل مما نهب.

وبعد تلك الأحداث بفترة بسيطة اعتدت فرقة من أولاد المولات على قطعان الشيخ المختار، الذي كان مع ذلك من أفضل أصدقائهم. وهنا أسرع المختار وأوفد لهم ولده زين العابدين[6]، فكانت مفاوضات زين العابدين مع شيخ أولاد المولات، محمد المعلوم[7] شاقة جدا وانتهت بلا طائل.

---

[1] ــ أهل باريك الله: وهم من تاجكانت يوجدون بمناطق عديدة أشهرها تندوف، وانواذيبو، واكجوجت، والذين بنواذيبو، واكجوجت هم أهل بارك الله الشمشونيين. وانضم إليهم من الشرفاء في أوقات أهل البخاري الشريف، وفي بودفية يوجد قبر الحسن بن حبيب الله الديماني وهو أحد أشهر أعيان أولاد بارك الله. ينظر: بن حامد، حياة موريتانيا جزء الجغرافيا، ص: 157.

[2] ــ أولاد يعقوب: قبيلة إديقب، ويقال لهم اليعقوبيون، من أشهر القبائل في غرب أزواد، أشتهر منها العديد من العلماء أبرزهم: أمحمد بن محمد بن المختار بن ألفغ موسى اليعقوبي وهو نابغة هذه القبيلة وبلاده، وكذلك مولود بن أحمد الجواد، وغيرهما كثير. ينظر: ابن الأمين، الوسيط، ص ص: 94 ــ 190.

[3] ــ قبيلة كرزاز: المقصود بهم أولاد أحمد بن صالح بن موسى، الشيخ والولي صاحب الطريقة الصوفية الشهيرة بجنوب وادي السوارة، في الطريق إلى منطقة توات. كانت لهذه القبيلة سلطة سياسية وروحية كبيرة على امتداد الفترات المتعاقبة لدويلات المغرب، وطرقتها الصوفية تتلاقى في كثير من الأوراد مع القادرية واسعة الانتشار ببني عباس، وتوات، والصحراء. ينظر: محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ط 1977، ج 2، ص ص: 625 ــ 634.

[4] ــ أحمد بن صالح: وهو أحد أشهر العلماء بأروان له أجوبة عن مسائل فقهية، توفي قبل سنة 1230 هـ / 1814 م. ينظر: أحمد بلعراف التكني، إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط، دراسة وتحقيق، الهادي المبروك الدالي، دون دار الطبع، د ت، ص: 93.

[5] ــ وادان: هو واد فيه نخل جيد، وأهله من قبيلتي كنته، وإدولحاج، وهؤلاء أقدم فيه من كنته، وكانوا يسكنونه على أحسن وفاق، وأتم وئام، حتى نشأت بينهم الحرب، وبقي فيه المستضعفون من القبيلتين. ثم إن السطوة فيه لبقية كنته، لقرب أهل سيد أمحمد منهم، وهم فرقة عظيمة من كنته، يرعون مواشيهم فيما بين آدرار وتيرس، وهم أهل السبخة المشهورة هناك، واسمها سبخة إجّل، وهي معظم تجارة أهل تلك البلاد، فإنهم يحملون منها الملح، ويبيعونه في السودان. ينظر: ابن الأمين، الوسيط، ص ص:433 ــ 434.

[6] ــ سترد ترجمته في الفصل الخاص بحياة الشيخ المختار.

[7] ــ محمد المعلوم: هو محمد المعلوم بن محمد الأقرع بن عبد الرحمن بن بدّة، غزا البرابيش مرة أولى فقتل كلا من بطلهم: أحمد الجمل بن إبراهيم بن غيلان، وابنه محمد، وابن أخيه فرج بن الحاج محمد بن إبراهيم، ثم غزاهم ثانية فقتلوه حوالي سنة 1220 هـ / 1805 م، وأجلوا أولاد المولاة من أزواد، إلى آركشاش فحالفوا أولاد سالم بن الشويخ. وخلف محمد المعلوم على رئاسة أولاد دليم أمحمد بن المهدي بن هيبة بن عبد الله بن بوعاده. ينظر: المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، ص: 101.

وبعد فشل المفاوضات بفترة وجيزة، هاجم محمد المعلوم قطعان البرابيش، وهنا أجّج المختار حماسة البرابيش، وقذف بهم في غزوة مضادة على أولاد المولات، فانكسر هؤلاء وخسروا خمسين رجلا من بينهم زعيمهم محمد المعلوم، وتمكن البرابيش من استرداد كل الأموال المنهوبة، وذلك سنة 1195 هـ/ 1780 م.

علاقات تربطها المصالح:

وعلى اثر موت محمد بن رحال، زعيم أولاد سليمان وهو فخذ أمراء البرابيش، أوصى المختار بترشيح ابنه البكر علي[1]، ونجح في تسميته شيخا على القبيلة، وكان شابا معوقا. ومنحه جباية الرسم على التبغ، الذي كان يصل من توات ومن الجنوب المغربي، وبذلك هيأ له مصدر دخل طيب. كما منحه رسميا حق جباية الإتاوات من أفخاذ قبائل ضفاف النهر، أو بالأحرى منحه ما يؤهله للاستمرار في عادة جرى عليها البرابيش منذ زمن طويل.

وكان المختار يرغب عن طريق الإقرار بحق هذه الجباية لزعماء البرابيش على القبائل، والقوافل، من المستضعفين في أن يصرف أنظارهم عن قبائل كنته، ولكن هذا لم يتحقق، إذ بمجرد أن أمسك علي بزمام سلطته، راح يهاجم في أحد الأيام أزلاي[2] الملح التابع لكنته، كما نهب في اليوم ذاته مخيمات ترمز[3]، الذين كانوا ملتحقين بكنته. وفي أثر توبيخ بعد آخر تطور الأمر إلى نزاع مكشوف، غير أن عليّا الذي كان يفتقر

---

[1] ــ علي بن محمد بن رحال: ويكتب في المصادر التاريخية اعلي بن محمد، وهو الأمير التاسع من أولاد سليمان من أولاد عامر، بعد حروب انتصروا فيها على أولاد عبد الرحمن. وحكم بعد أبيه محمد بن رحال، حيث توالت الحروب في عهد أبيه، وتوفي علي حوالي سنة 1217 هـ / 1802 م. وحكم بعده أخيه أمهمد بن محمد بن رحال. ينظر: ولد حامد، التاريخ السياسي، ص ص: 98 ــ 99.

[2] - أزلاي: هي قافلة الملح، وهي مستعملة بالحسانية، لهجة عرب جنوب الصحراء. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف، و 28 ظ.

[3] ــ ترمز: هم قبيلة كانت في حلف مع كنته ومع ذلك تعرضت للعديد من الهجمات كيوم بوزريبه الذي تعرضوا فيه لهجوم البرابيش وأولاد علوش. كما تعرضوا لهجوم سنة 1283 هـ/ 1866 م من قبل أهل بورده وقتل الرعيان تحت سيد أحمد بن ابني جار خمسة من أهل بودره الذين أغاروا عليهم. ينظر: ولد حامد، الجغرافيا، ص: 133.

للشجاعة، كان محنكا. فبذل كل إمكانياته في إيقاع الفتنة بين الفريقين المتخاصمين، أي بين زعيم كنته الديني وبين حماده آق ايميلين[1]، الذي حل مكانه ولداه: دوادو، وهوالن.

كنته وكل انتصر:

ابتدأ الصراع بين كنته، وكل انتصر، في آخر ربع من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وظل ناشبا ومستمرا حتى بعد ذلك. والتقت كنته مع جماعات كل انتصر، بعد أن بلغت كنته خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي المنطقة الواقعة إلى الشمال من فاقيين. وكانوا موضع ترحيب كبير في البداية، بيد أن الخصومات على آبار المياه، والمراعي، سرعان ما نشبت وأفسدت العلاقات بينهما.

وحدث أن وقعت ناقة لكنته في فخ نصبه صيادون من قبيلة كل انتصر، فانكسرت قائمته ولجأ الصيادون إل نحرها كيلا يخسروا لحمها وأكلوها، وأقبلت جماعة من كنته أثناء الوليمة فانزعجوا. وكان جواب الأكلة من جماعة كل انتصر: «إن المنطقة لنا، وما على نوقكم إلا السقوط في شراكنا!».[2] وثأر رجال كنته لأنفسهم من هذه التصرفات بعد ذلك بقليل، بأن نهبوا مخيما صغيرا تابعا لكل انتصر، وهكذا بدأت النزاعات.

واستمرت المعارك لمدة طويلة، وكان أشدها فتكا التي وقعت بين نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الهجريين/ نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر الميلاديين. وحاول الشيخ المختار إثارة المصاعب لأعدائه، وذلك بدعمه خصم حماده آق ايميلين، وفيما بعد ولديه دوادو، وهوالن،[3] وذلك في شخص ابن عمهما محمد المختار. وأخيرا بإثارة مناوشات حربية صرفة، حيث استمر القتل في صفوف كنته

---

[1] ــ حمادة آق ايميلين: وهو الزعيم الروحي لقبيلة كل انتصر، وهي إحدى السلطنات التارقية شمال تنبكتو. ينظر: القشاط، التوارق عرب الصحراء، ص: 242.

[2] – محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و32 و.

[3] _ *BATRAN, Op. Cit. p. 177.*

بصورة فتاكة، مما أجبرهم في نهاية المطاف على الامتناع عن ارتياد المناطق المجاورة لبحيرة فاقيين، والارتحال إما إلى الشمال أكثر من ذلك، من أزواد حتى آدرار ايفوقاس (وهم كنته الصحراويون)، أو باتجاه الجنوب الشرقي أكثر في العقفة (كنته قورمة).

ويشير صاحب الطرائف والتلائد، أن محمد المختار آق محمد علي آق ايملين أقبل لمواجهة المختار، نيابة عن حلف مؤلف من مجموعة من القبائل، حيث كانت تقف إلى جانب قبيلة كل انتصر عشائر أخرى من ايقلاد، فضلا عن بعض البرابيش الناقمين عل زعيمهم علي، ومن الرماة من تنبكتو، وحتى من توارق ايقوادرن[1]، من المغامرين. وكان يحمل رسالة من وجهاء هذ الحلف، يرجون الشيخ فيها منح بركته لتكريس السلطة. ولكن الشيخ لفت أنظارهم إلى أنه لا يملك قوات محاربة ولا مؤنا ولا أموالا، وأنه بذلك قد يقحم نفسه في مغامرة غير محسوبة العواقب.

وفي المقابل كان لدى الشيخ المختار من ناحية أخرى، حلفاء من بضعة أفخاذ منتسبة إلى كل انتصر،[2] من أمثال: كل أوروزيل، وكل أنكوندر، مثلما سار معه سيدي علي، وكوّن مع كل هذه القوات المنضمة إلى جماعة كنته، في عدة مناسبات، حملات كان يقودها ولداه: بابا أحمد، ومحمد، على النهر وعلى أطراف فاقيين[3]، وحتى رأس الماء.[4]

---

[1] ــ ايقوادرن: فخذ من توارك كل انتصر كان ينشط في اتحاد مجموعة من القبائل التي تتمتع كل منها بنوع من الاستقلال الذاتي في شؤونها الخاصة. وفي علاقاتها مع جيرانها من القبائل الإفريقية السوداء. وكانت في الغالب ما تتحالف مع مملكة جوبير في حروبها. ينظر: القشاط، التوارق، ص: 46.

[2] ــ من أمثال: كل أوروزيل، و كل أنكوندر. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف، و 157 ظ.

[3] ــ فاقيين: منطقة على نهر النيجر إلى الغرب من جاو، وبها تجمع للعديد من الأفخاذ التارقية. ينظر: القشاط، التوارق، ص: 40.

[4] ــ رأس الماء: هي عبار عن مجمعات المياه، وتوجد إلى الشمال من تنقرا. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، المرجع السابق، ص: 202.

واحتفظ المختار بعلاقات صداقة مع بعض مخيمات ايقلاد. فقد وصل الزعيم التارقي كاوا بن أمّا[1]، في أحد الأيام إلى مخيمه على رأس 180 فارسا، وذلك في الفترة التي كان علي بن محمد بن رحال، ينشر ويبسط سلطانه بقسوة وقوة على البلاد. وبعد قليل وفدت قبيلة كل انتصر، وقبيلة بوجبيهه[2]، والبرابيش، وسائر كنته، ومكثوا مقيمين لدى الشيخ المختار مدة أربعين يوما كاملة، وهم يحظون بضيافة كانت كل يوم أكثر ترحيبا من اليوم الذي سبقه. ومع ذلك كان الشيخ المختار، يبدي من الملاطفة ما يكفي للتعبير لهم عن أشد أسفه لرؤيتهم وهم يغادرونه في وقت مبكر.

ويمكن أن يلاحظ الباحث، في معرض الحديث عن كاوا بن أمّا، الذي كان آمينوكال[3] قبيلة ايلمدن، أن الشيخ المختار كان له بمثابة المستشار الأول في أمور الشريعة الإسلامية. وبذلك كان يتدخل بواسطة هذا الزعيم في معظم القضايا السياسية الداخلية، التي كانت تقع لدى التوارق. ويسرد صاحب الطرائف، رسائل طويلة كان يكتبها إليه الشيخ تعتبر قمة في الإدارة الروحية.

واستطاع المختار أن يخفض من مكانة قبيلة كل انتصر وكسر شوكتهم، وهم الذين كانوا يستغلون كل قوتهم، لقهر وابتزاز الجماعات الضعيفة. وهذه القبيلة كانت في الماضي، على درجة كبيرة من الرخاء المعيشي. بسبب ما تملكه من الحيوانات الكثيرة والمتنوعة؛ العديد منها: للذبح، والآخر يكفي للحليب. حيث كانت تحصل في كل مساء على ثلاثة أنواع مختلفة من الحليب: النوق، والبقر، والغنم. فقد كانوا

---

[1] ــ كاوا بن أمّا: هو كاوا بن أمّا آق الشيخ، هو آمنوكال قبيلة الميدن، وأكثرهم انشراحا للشيخ المختار فقد كان دائم النصح له. وقد استفاد كثيرا من توجيهات المختار، وآرائه في إدارة شؤون رعيته. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف، و 94 ظ.

[2] ــ قبيلة بوجبيهه: ويدعون كذلك أولاد حيوي، وفروعهم: أهل الطالب محم، في أهل الدين من أولاد المايمتس، وأهل عبيد بن المصطف في أهل إبراهيم بن الشيخ (النعمة) وأهل الطالب محمد في أهل الدين. ينظر: المختار ولد حامد، حياة موريتانيا الجغرافيا، ص: 77.

[3] – آمنوكال: هو الرئيس الأعلى لدى التوارق، يتولى ذلك المنصب شيخ أقوى القبائل التارقية، ويساعده مجموعة من الأتابل أي رؤساء القبائل، أو شيوخ القبائل أي الأمغار. ينظر: محمد سعيد القشاط، التوارق عرب الصحراء، ص: 49.

المسيطرين والمستفيدين من مصادر المياه، على اعتبار أن أهل البلاد حاولوا البقاء بعيدا عنهم فيما وراء نطاق محايد، كأنهم خلف سور. وكانت أقوى القبائل شكيمة، تقدم لهم ما يكفي لكسب مودتهم. في حين ظلت القبائل الأخرى، تخشى أن ينزلوا عليهم كضيوف.

وإذا كان إلحاح كنته على قبيلة كل تادمكت، أو ايلمدن، في طلب تعزيزات قد ظل عقيما، فذلك لأن التوارق لم يكونوا يرغبون في التدخل في صراعات بين الطلبة، أو الزوايا.[1] وأفلحوا في أن يحرّضوا على كل انتصر، مجموعة من أبناء عمومة هذه القبيلة من ايقلاد، وهم قبيلة كل ولّى.[2]

علاقة المختار بقبائل البدو الغربيين:

لم تكن سياسة المختار تجاه بدو الجهة الغربية أقل نشاطا، فقد كانت تستند على الأسس ذاتها، وهي استخدام الاحترام الكبير الذي يتمتع به بفضل علمه، وتقواه، وورعه، وصلاحه المعترف به، من أجل التدخل في كل الصراعات، والحروب، التي كانت تفني رجال القبائل الصحراوية، وأن يفرض عليهم الهدنة. وقد ظل الشيخ المختار طيلة حياته، يقيم أفضل الصلات مع أهل ولاته، واضعا – حسب قوله- كل إمكانياته تحت تصرفهم.

وأراد سكان ولاته إجبار المختار، على الإقامة عندهم. ولكنه انسلّ هاربا خلال إحدى الليالي وغادرهم، ولما أدركوه في اليوم التالي، قاوم كل توسلاتهم واستطاع العودة إلى مخيماته البدوية في كيدال. وفي مناسبة أخرى استطاع أن يخضع قطاع الطرق، سبق لهم أن سلبوا أموال بعض أهل ولاته، ولم يستخدم في تلك الظروف سوى هيبته ومكانته.

---

[1] ــ على اعتبار أن الأصل في قبائل الزوايا عدم حمل السلاح، وعادتهم التدريس وتعليم القرآن.

[2] ــ قبيلة كل ولّى: هي إحدى أشهر القبائل التي تشكل سلطنة إلميدن وكل أطرام، وتحتل هذه السلطنة منطقة أزواغ الغربي ومنحنى نهر النيجر. ينظر: محمد القشاط، التوارق، ص ص: 40 ــ 41.

ولقد استخدم المختار صداقته مع البرابيش،[1] ليستغل قواتهم في الصراع الناشب مع أولاد المولات (أولاد اداليم)[2]، الذين كانوا يظلمون أغلب السكان في الصحراء، وساحل نهر النيجر.

وفي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، طرأ تغيير طفيف على خط الحدود الجنوبية للإسلام في المناطق الجنوبية من أزواد بالنسبة لما كان عليه الحال في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي. وفي الفترة ما بين(1190 ــ 1201 هـ/ 1776 ــ 1786 م)، قامت قبائل الفولاني بجهاد مثابر لنشر الدعوة الإسلامية في ثلاث مناطق غرب السودان.[3] وأنشأت بالتالي ثلاث دويلات هي: فوتاتورو، وفوتاجالون، وخاسو. وتتسم هذه الدويلات جميعا بشدة التمسك الصارم بتعاليم الدين.

أما في مناطق نهر النيجر، فقد كان الحال على العكس، حيث قامت قبائل البامبارا ــ وهي ذات عقيدة إفريقية محلية ــ بالقضاء على تنبكتو[4] في سنة 1202 هـ / 1787 م، وضمتها إلى مملكتهم في سيجو.

5ــ الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية:

كانت أزواد مجالا فسيحا جمع العديد من التشكيلات القبلية، التي كانت تحكمها علاقات اقتصادية متداخلة، على اعتبار أن مجالها هذه القبائل يعد مرحلة هامة في تجارة القوافل، التي تربط بلاد المغرب مع بلاد السودان، عبر شبكة من الطرق تمر بواحات توات وغدامس.

---

[1] ــ البرابيش: هم عرب من بدو الصحراء، يتمركزون في أزواد، والمناطق الشرقية من موريتانيا. ينظر: *LHOTE, Op. Cit. p. 366.*

[2] ــ أولاد دليم: من دليم بن حسان، قبيلة من قبائل بني حسان العربية، كونوا العديد من الإمارات بأزواد وغربهاأهمها: أولاد المولاة، وأولاد اللب، ولوديكات، وأولاد تكدّي، وأولاد باعمر، وأولاد لخليكة، والسراحنة. ينظر: ولد حامد، التاريخ السياسي، ص ص: 100 ــ 102.

[3] ــ كولين ماكيفيدي، أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار السويفي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2002، ص: 151.

[4] _ *BATRAN, Op. Cit. p. 124.*

تركيبة المجتمع بأزواد:

اجتمعت الكثير من القبائل بأزواد، وشكلت مجتمعا يحمل ـ في مجمله ـ خصائص الحياة البدوية. وأهم هذه القبائل: صنهاجة، والبمبارة، والسوننكة، والعرب.

أـ صنهاجة: وتعرف في أزواد بأزناكة، وإذا كان من المتعذر الحديث عن كل القبائل الصنهاجية بها لكثرتها من ناحية، وندرة المعلومات المتوافرة حول بعضها خلال الفترة المدروسة من ناحية أخرى، فإنني سأحاول التعرف على أهمها وأكثرها تأثيرا في توجيه الأحداث التاريخية وهي:

جدالة: وهي تنتسب إلى جدال، وتجتمع مع لمتونة في أب واحد، وكانت حسب بعض الكتاب من أكثر قبائل الملثمين عددا،[1] وانتشرت فروعها بأزواد وولت حتى الضفة اليمنى لنهر السنغال. وقد أدى الكداليون دورا أساسيا في التبادلات التجارية مع بلاد السودان وبلاد المغرب، حيث سيطروا على الملاحات، التي كان ملحها يصدر إلى أدواغست، ومنها إلى غانة وممالك النيجر السودانية.

لمتونة: وهي إحدى أكبر القبائل وأكثرها شهرة، وتنحدر من جد يدعى لمت،[2] ومجالها الجغرافي واسع جدا، غير أن فروعها بأزواد كانت تستقر شرق آدرار ووصل بعضها إلى جنوب تكانت، واستقر أغلبها بأودغست. وأدت هذه القبيلة دورا أساسيا في المبادلات التجارية عبر الصحراء، حيث سيطرت على أقدم طريق يعبر الصحراء باتجاه السودان، وأصبح ذلك الطريق يحمل اسم القبيلة. وأدت دورا سياسيا فريدا من نوعه في منطقة أزواد، حيث كان ملك صنهاجة في حالة اتحادها يختار من بين رؤسائها.

---

[1] ـ شيخ الربوة شمس الدين الدمشقي، كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط أولى 1988، ص: 315.

[2] ـ مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، ط الأولى 1979، ص: 17.

مسوفة: وتعتبر مسوفة أو مسطوفة[1] قبيلة صنهاجية صحراوية، وكانت ديارها بأزواد عند منعطف نهر النيجر في الجنوب. واستولوا على ملاحة تغازة منذ فترة مبكرة،[2] ونتيجة لطبيعة المسوفيين البدوية، وما فرضته عليهم من التنقل في أنحاء أزواد، فإنهم أصبحوا على معرفة جيدة بأسرار تلك المنطقة، واستفادوا من تلك الخبرة، فتولوا قيادة القوافل وهدايتها، وانفردوا بالشهرة في هذا المجال من بين كافة قبائل صنهاجة أزواد.

ب ـ القبائل السودانية:

السوننكة: وهم عبارة عن خليط من شعوب الصحراء والساحل وحوض النيجر، انصهرت بمرور الزمن، وهي من كبريات مكونات المجموعة الكبيرة التي كان يتشكل منها سكان أزواد في حافاته الجنوبية، وهم الذين أسسوا امبراطورية غانة السودانية التي تقع في الحزام الساحلي الملاصق للأطراف الجنوبية للصحراء غير بعيدة من أوداغست.

المالنكي: وهم عبارة عن أخلاط من الشعوب والقبائل السودانية التي بدأت في الامتزاج فيما بينها خلال فترة طويلة. وكانوا يستوطنون الجزء الجنوبي من أزواد، خاصة أعالي حوض النيجر، وهم مؤسسو مملكة مالي، ومن فروعهم البمبارا والسنغاي، وكانت حرفتهم الأساسية هي الزراعة، واختلطت معهم مجموعات من المهاجرين الصنهاجيين[3] والذين هاجروا من صحراء الملثمين.

الفلان: انتشروا منذ الفترة الوسيطة بأزواد، وامتزجوا بشعوبه،[4] واعتبرهم البعض جزءا من الزنوج، غير أن البعض الآخر نفى عنهم ذلك الانتماء، وان كانوا قد ظلوا

---

[1] ـ مجهول، الحلل الموشية، ص: 17.

[2] _ *CUOQ (J) ,Histoire de L'islamisation de L'Afrique de L'Ouest des origines jusqu'à la fin du XVIe siècle , Librairie Orientaliste, Paul Guethner, SA, Paris, 1984., p. 7.*

[3] ـ الأمين محمد عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغي، دار المجمع العلمي جدة، ط 1979، ص: 65.

[4] ـ عبد الرحمن زكي، تاريخ الدولة الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، المؤسسة العربية الحديثة القاهرة، ط 1961، ص: 56.

عاجزين عن ردهم إلى أصول إثنية محددة وبشكل نهائي.[1] ومن بين أهم الأسباب التي استعرت انتباه الباحثين وجعلتهم يخوضون في مثل هذه الافتراضات، هو التميز الواضح للفلان عن الزنوج، وكذلك وضوح بشرتهم وصفاؤها، كما أنهم يختصون بنمط عيش يميزهم بشكل أكبر وضوحا عن باقي الشعوب الزنجية، وهو نمط عيش يرتكز على الرعي والترحال بدلا من الاستقرار والأنشطة المرتبطة به، وهي ميزة تقربهم أكثر إلى سكان صحراء الملثمين من الصنهاجيين. ولا يستبعد المختار ولد حامد[2] أن يكونوا عربا مولدين ينتسب معظمهم إلى الجيش العربي الذي أنفذه بنو أمية إلى غانة لنشر الإسلام، والذي كانت مجموعة منه متمركزة في حوض نهر السنغال وتحمل اسم الفامان، وهي أصل تسمية الفلان. وهم يتمركزون في الجنوب الشرقي لأزواد، وأسسوا مملكة الهوسا.

ج ـ العرب: وأشهر العرب الذين استقروا بأزواد هم كنته، وبني حسان. وكان ذلك على فترات تاريخية متعاقبة، ووفق ظروف سياسية عرفتها بلاد المغرب. ولن أتحدث عن كنته هنا، لأنني سأفرد لهم صفحات عديدة في الفصل الذي خصصته لهم.

بني حسان: وتم دخلوهم إلى أزواد خلال الصراعات التي اجتاحت المغرب الأقصى مع نهاية عهد الموحدين، وبداية عهد بني مرين الذي عرفت فيه الهجرة من الشمال إلى الجنوب دفعا جديدا. وتمكنوا بعد وصولهم من فرض الضرائب على صنهاجة وقبائل السودان. وأبرز فروع بني حسان الذين كان لهم شأن كبير بأزواد هم أولاد دليم، والبرابيش.

أولاد دليم: ويسمون كذلك بأولاد المولات، يتمركزون في الجهة الغربية لأزواد، وكانوا يترددون على درعة للتبادل التجاري، وكونوا عدد من الإمارات بأزواد، ولا يجنون أي

---

[1]- *KI-ZERBO (J), Histoire de L'Afrique noir d'hier a demain. Hatier, Paris, 1972, p. 59.*

[2] ـ حياة موريتانيا جزء الجغرافيا، ص: 8.

نوع من الضرائب،[1] لكنهم يمارسون السلب على نطاق واسع. ويجد الباحث أصداء لهذا السلب في فتاوى العلماء من القرن 17 م إلى 19 م، في معرض حديثهم عن الغصب الميئوس منه.

البرابيش: وكانوا يسكنون بأعداد كبيرة في ولاته وآدرار، وكانوا يمتلكون أعداد هائلة من الإبل. وبقيادة بربش وهو من أبناء حمّ،[2] انتقل هؤلاء إلى أواسط أزواد في نهاية القرن 15 م وأواسط 16 م، وكانوا أولى العناصر التي عربت ايموشاكن.[3] ولهم العديد من الأفخاذ منهم: أولاد عمران، وأولاد سعيد، وأولاد غنام.

ولم تكن حياتهم اليومية، تختلف كثيرا عن حياة البدو الآخرين. فلقد كانوا ينتقلون حسب فصول السنة، من السهول إلى المراعي الجبلية القريبة، بخيامهم الكبيرة الوطيئة المنسوجة بأشرطة سوداء من شعر المعز، والموثوقة إلى الأرض بواسطة الحبال. وكان خدر النساء منها مفصولا صدر الخيمة- وهو مجلس الرجال – بواسطة حاجز من القصب، أو من جزوع الأشجار. وكان النساء يغزلن وينسجن ويشتغلن بشؤون البيت، والرجال يتعهدون القطيع ويجزّون أصواف الأغنام. وترتكز التغذية عندهم أيضا على مطحون الحبوب، والجبن، والسمن المستخرج من حليب الماعز أو الابل.

الحياة اليومية بأزواد:

إن أهل أزواد يستيقظون باكرا لصلاة الفجر، وبعده مباشرة يتجه كل فرد إلى خيمته لتناول الشاي مع السويق، أو الجريش، الذي تعده النساء. تجتمع الأسرة على الجريش، وتقسمه كل يأخذ حصته، والنساء حصتهن أكثر. ثم يبدأ الرجل بتعهد

---

[1] ـ محمد المختار ولد السعد، موريتانيا في العهد الحساني، ص: 99.

[2] ـ بول مارتي، البرابيش، عربه محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق، د ت، ص: 17.

[3] ـ ايموشكن: ويطلق عليهم الكتاب العرب اسم مقشرن، وهم التوارق الذين كانوا أول من بنى تينبكتو. ينظر: السعدي، تاريخ السودان، ص: 36.

الحيوانات (المواشي). وتبدأ المرأة بالأعمال المنزلية الخاصة بتنظيف الخيمة، والطبخ.[1] أما الأطفال بعد رجوعهم من المحاضر فهم أداة لتبليغ الرسائل، وأداء المهمات الخفيفة. ويقوم الرجل – عادة – بحلب بقايا شياهه، التي لم تحلب كاملة البارحة.

ويجمع الرجل شياهه بمساعدة أولاده، ثم تجّهز الدلاء والقرب، استعدادا للورد على الماء. وينطلق بأكبر أولاده إلى البئر، وكلهم نشاط وحيوية لانهاء المهام بسرعة. وتقسم الحيوانات على الطريقة التي تسقى بها: الشياه أولا، ثم الأبقار، ثم الإبل، ثم الحمير.[2] ويؤخذ من الإبل فحل قوي يربط عليه الدلو للسقي، فإن لم يوجد اختير أقوى حمارين أو ثلاثة فربط عليهما؛ ثم ينقسم الأفراد: شخص يقود الحيوان الذي يجر الدلو، وآخر يدلي بالدلو في البئر، وثالث أو رابع معه يفرغان الدلو في الأواني، وخامس يذود الحيوانات عن الماء ولا يترك منها إلا من عليها الدور فقط في تنظيم دقيق. بعد شرب الحيوانات كلها، تملأ القرب من الأواني.

وبعد الشرب يرجع الكل إلى الخيمة، إلا الراعي فإنه يواصل الرعي بالحيوانات. ويأتي الرجل بالقرب يستقبله الجميع بالفرحة والسرور، فينهلون من الماء العذب. وتكون النساء في تلك الفترة قد انتهين من طحن أنلي(العصيدة).[3] ثم يقدم الغذاء ومعه الحليب واللحم والدهن. بعد الغداء يستمتعون بقيلولة حتى صلاة الظهر. وبعد صلاة العصر، يبدأ الفرد الملكف باستقبال قطيع الماشية، ينظر في كل الجهات تحسبا لاطلاع الحيوانات عليه، وبعد وصولها يبدأ بإبعاد الجديان، حتى لا ترضع من الشياه. ثم يقوم بإيداعهم داخل زريبة الشوك المخصصة لهم.

---

[1] _ *FOUREAU ,Op. Cit. p.101.*

[2] ــ آمن بن بوغتو، المصدر السابق، و14 ظ.

[3] _ *GAUTIER (E. F), le sahara. Payot paris., 1950. p. 215.*

وبعد صلاة المغرب، يقوم الرجل بحلب الحيوانات التي لم يتم حلبها في الصباح. وتبدأ المرأة بإعداد بعض الأفرش التقليدية أمام الخيام للسمر.

وقبيل النوم تروى الجدات حكايات عديدة بعضها على ألسنة الحيوان، والإنسان، وأغلبها شفوي. وهي في جملتها تعكس الصراع الاجتماعي، ومقارعة الحياة القاسية. وتحتوي على نكت، وسخريات لاذعة، وتؤخذ منها حكم هادفة، وأمثلة بليغة، ومنها: حكاية الدب الذي يرمز للهلع والجشع والجبن. وحكاية الذئب، وهو رمز الدهاء والمكر والاحتيال. وحكاية الأسد، رمز القوة والشجاعة.[1]

ومن المظاهر المنتشرة في أزواد ــ على غرار المناطق البدوية ــ تعدد الزوجات، وهو ما يقره الإسلام. هذا الأمر يتلاءم وينسجم مع طبيعة البيئة الإفريقية والصحراوية عموما.[2] لأن الرجل دائم الترحال والسفر، وهذا ما يجعله يتخذ زوجة في المحل الذي يستقر فيه.

الحياة الاقتصادية:

منذ تأسيس زاوية المختار، مرّ أزواد بتطورات سياسية عميقة، بفعل تنامي نفوذ كنته، واجتماعيا تم ضبط الترتيب الاجتماعي، بين بني حسان[3]، والزوايا، وأزناكة.[4] واقتصاديا حصلت التحولات الكبرى، ومن ذلك المكانة التي ستحتلها قبائل الزوايا،

---

[1] - أحمد ولد حبيب الله، «النثر الأدبي الشنقيطي نشأة وتطورا»، ندوة الذكرى الثمانين للشيخ محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي، نواكشوط 20/18 يونيو 1996، منشأة المعارف الإسكندرية، ط 2002، ص: 130.

[2] -*TRIMINGHAM (J.S), Op.Cit. P. 42.*

[3] ــ بني حسان: هم قبائل عربية تفرقت في الصحراء وكونت كل واحدة إمارة في المنطقة التي استولت عليها، وكانت حياة الإمارات مليئة بالغارات والنهب والحروب المستمرة. ولم تكن للقتال عندهم قواعد مرعية، إنما هو كر وفر بين الفرسان، واغتيال في المناسبات. ولم يكن هنالك تجنيد إجباري أو راتب للمجندين، بل تطوع وعصبية. ينظر: ولد حامد، التاريخ السياسي، ص: 95.

[4] ــ أزناكة: عادة ما ينادي العرب الطوارق بأزواد بأزناكة، بمعنى أنهم الذين لا يتكلون العربية ويتحدثون بلغة بربرية. والمقصود هنا إدوعيش، وأزناكة تحريف لصنهاجة. ينظر: ابن الأمين، المرجع السابق، ص ص: 512 ــ 513.

نتيجة لعوامل خارجية، لعل أبرزها توسع السوق العالمية على يد البلدان الأوروبية، وهو التوسع الذي ينذر بالاحتلال.

التطور الاقتصادي:

لتقييم التطور الاقتصادي في أزواد، سأبدأ بالحديث عن تطور الحركة التجارية، قبل تحليل المكانة التي احتلتها قبائل الزوايا، ضمن التطور الذي مثلت فيه هذه القبائل الشريك الرئيس.

الحركة التجارية:

لقد ساد طويلا الاعتقاد بأن مجتمعات جنوب الصحراء، مرت في نهاية الثاني عشر وبداية الثالث عشر الهجريين / الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين بأزمة عميقة، إثر تراجع التجارة عبر الصحراء، وهي التجارة التي أنبنى عليها ازدهار هذه المجتمعات أثناء الفترة الوسيطة. وكان في هذا الاعتقاد، نوع من التبرير للاحتلال. وبالتأكيد كانت تجارة القوافل في شكلها القديم، سائرة على طريق الاختفاء، مع نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، لكن نظاما تجاريا آخر كان في طريقه إلى الظهور. ويوضح فانتور دي باراديس[1]، بوادره مع نهاية القرن الثامن عشر وبالضبط سنة 1205 هـ / 1790م، في تقرير خاص بجنوب المغرب. فطرق القوافل بدأت تدريجيا تحيد عن المحور المركزي، الذي يربط هذه المنطقة بمنحنى نهر النيجر، وتسلك خطا غربيا يمر من أزواد عبر آدرار إفوغاس. وتراجع دور القوافل الكبيرة السنوية، لصالح تجارة جهوية سيصفها فيدرب[2] فيما بعد بتجارة

---

[1] _ *LE CHATELIER (A), Touat, Sahara, et Frontière marocaine . Paris , Challamel. , 1901. p. 21.*

[2] _ *LEHURAUX (C), Les Français au Sahara. Edition Les Territoires du Sud. Alger., 1937. p. 184.*

السواحل، والتي تعتمد على تنويع وتكثيف البضائع والأسواق، ويشارك فيها السكان الصحراويون بصفة أقوى.

وتنعكس أهمية الأسواق الأوروبية، سواء فيما يعني المواد المتداولة، أو فيما يعني تنظيم التبادل. فالبضائع القادمة من أوروبا، مثل: القماش، والشاي، والسكر؛ أو تلك الموجهة إليها، مثل: الصمغ العربي، وريش النعام،[1] والعاج، تنضاف إلى المواد التقليدية كالملح، والرقيق، والخيول، قبل أن تحل محلها.

لقد أصبحت أزواد تتوسط شبكة الخطوط التجارية في الصحراء، ومنطقة تلاق بين أسواق جنوب المغرب، والمؤسسات التجارية بالسنغال، والأسواق التقليدية في السودان الغربي، ومنحنى نهر النيجر. ويعكس تنظيم قوافل أزواد هذا الوضع. وحسب مبدأ اتبعته كنته في وادان، كان هناك ثلاثة أصناف من القوافل تجهز سنويا: الكارب نحو سان لويس، والرفكة نحو السودان الغربي، وأكبار نحو أكليمين. وتحدد دور أزواد كمستودعات. ومن دلائل هذا الانفتاح حجم حركة الحجاج إلى مكة، الذي سيجعل المنطقة تشتهر في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.

وتمكنت قبائل الزوايا في أزواد، من إتباع مناهج تجارية جديدة عن طريق الوافدين. وأخذ هؤلاء الزوايا مكانهم في النظام التجاري الناشئ. فقماش غيتيا (النيله) مؤشر بذاته على دخول المواد الأوروبية، ويشكل أداة تبادل، وكذلك نظام القرض، الذي يعوض عن الفائدة المحرمة شرعا بالتسديد المضاعف، والمقايضة وغيرها من أشكال التعامل التجاري المباحة في الإسلام.

---

[1] _ *LEHURAUX (C), Op. Cit. p. 121.*

وهناك نتيجة أخيرة لإعادة تنظيم هذا التبادل في أزواد، تكمن في تشجيع تجارة التمور، فقد انضافت إلى الملح، الذي كانت تجارته أصلا بيد الزوايا. وكذلك الأغنام الكنتية، التي كانت تصل منها أعداد كبيرة إلى توات وتيديكلت.[1]

أساليب التعامل الاقتصادي:

وعند الرجوع لأغلب الوثائق التي تناولت موضوع القيم والتقويم، تشير إلى أن ذلك كان يتم بالعروض في أزواد، لأن هذه المنطقة لم تعرف استخدام العملة بصفة كبيرة حسب مختلف الشهادات التاريخية.[2] فقد أشار الرحالة ابن بطوطة[3] إلى أنه كان يشتري الطعام والسمن، بالملح، وبالعطر، وحلي الزجاج. كما أكد سادا موستو في القرن 9 هـ / 15 م، عدم وجود الدراهم المسكوكة في الصحراء والسينغال. وهذا ما يصرح به كذلك فيرناندس في مطلع القرن 10 هـ / 16 م، في معرض حديثه عن سكان أراضي موريتانيا وشرقها، حيث قال: «إن العرب ليست لهم عملة باستثناء الفضة، التي تأتيهم من بلاد النصارى، والتي هي أغلى عندهم من الذهب، فليست لديهم وسيلة أخرى للشراء، أو البيع، سوى مقايضة مادة بأخرى».[4]

ويشير إلى هذا الوضع شامبونو في الربع الأخير من القرن 11 هـ / 17 م، بأن: «كل التبادل يتم عن طريق المقايضة، دونما استخدام للعملة».[5] كما أكد ذلك الشيخ محمد المامي في القرن 13 هـ / 19 م، عندما اعتبر: «التقويم بالعروض في أرض

---

[1] - *H. LHOTE, Op.Cit. p. 362.*

[2] _ *LEHURAUX (C). Op. Cit. p.207.*

[3] ـ الرحلة، ج 2، ص: 378.

[4] - *FERNANDES (V), Description de la cote d Afrique de Ceuta au Sénégal (1506- 1507) Publ. Ce nival et Th. Morod, R.H.S.A.,série A N 6, 1938. p.97.*

[5] - *DE CHAM BONNEAU (L.M), Histoire du Toubenan ou changement de Souverains". In BIFAN, T. XXX, série B, N 1, 1968. p. 338.*

لا سكة لها تشهد به الأصول».[1] وقال بضرورته في: «بلادنا التي لا توجد فيها السكة».[2] وإنما عروض تغلب في جزء من البلد، وغيرها يغلب في جزء آخر، ويتعين التقويم بها.

وظلت طرق التعامل تسودها المقايضة، حيث أدت المواشي وبعض المواد المحلية، دور ووسيلة التبادل الأساس في تلك الفترة بأزواد. وإذا ترك الباحث جانبا الدور الذي أدته الملح، والذهب، في التجارة الصحراوية، فإن الودع، وبيصة النيلة، والأنعام، قد شكلت وسائط التقويم والتبادل الأساسية في أزواد،[3] تبعا لخصوصيات كل جهة. فقد أخبرنا ابن فضل الله العمري في القرن 8 هـ / 14 م: «... أن المعاملات في بلاد التكرور بالودع، وأن التجار أكثر ما تجلب إليهم الودع، وتستفيد به فائدة جليلة ويتحلون به في بلادهم».[4]

ويظهر أن الودع، كان وسيلة من وسائل التقويم بولاته، في عهد القصري، حيث سئل: «عن رجل توفي وزوجته تطالبه بتسعين مثقالا ذهبا من صداقها، وعادة بلدها من قديم الزمان أن مثقال الصداق لا يقضى إلا بألفين ودعا، سواء كان الزوج حيا أو ميتا».[5] وكان هذا الودع يجلب إلى المنطقة من المحيط الهندي، عن طريق التجار العرب، ثم عن طريق البرتغاليين، ابتداء من القرن 10 هـ / 16 م.

وهكذا يتضح أن أزواد هي تلك المنطقة التي تتوسط المجال الجغرافي بين تنزروفت، وبلاد السودان الغربي، هذه المنطقة التي دانت للإسلام، الذي اندفع إليها بفضل جهود التجار، والدعاة، ورجال الزوايا. ولم يكتسح هذا الدين القبائل اكتساحا، بل

---

[1] ـ محمد المامي، كتاب البادية، نسخة مخطوطة بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي بنواكشوط، بدون رقم. ص ص: 16- 17.

[2] - المصدر نفسه، ص:18.

[3] _ *GAUTIER (E. F), Op. Cit. p. 216.*

[4] - ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص: 190.

[5] - القصري، النوازل، نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي نواكشوط، رقمها: 2138. ص: 228.

تسلل فيها تسللا قد يتسرب في ناحية، دون أخرى، غير أنه عمّ المنطقة برمتها بعد وصوله بقليل. وذلك بسب التسامح، الذي عاش خلاله المسلمون مع غيرهم. وانتشر الإسلام بأزواد بفضل قوته الروحية، لا بالقوة المادية، وكانت النفوس تنجذب إليه بفطرة طبيعية لا بدعاية الأموال، ولا بقوة الأسلحة.

كما تعرضت هذه المنطقة إلى خطر التواجد الأجنبي، ويظهر ذلك جليا في الأوروبيين، الذين ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم، فبدأوا ينشدونها في مغامرات غير محسوبة، ووصلوها بدعوى بحوث علمية مريبة، وباسم التجارة أحيانا أخرى، أو الاستكشاف. وكانت تلك المغامرات مطية لتمهيد المنطقة لإخضاعها، ثم احتلالها في مرحلة تالية.

الفصل الثاني :

الحياة العلمية بأزواد

قبيل فترة المختار

تمهيد:

إن الإسلام دين، وعلم، وحضارة إنسانية شاملة، وجميع علومه وأخلاقياته تعبير عن روحه، لذلك غيّر سكان أزواد عندما اعتنقوه، تغييرا جذريا شاملا في جميع المجالات. ووفدت العلوم الإسلامية إلى تلك المنطقة في وقت مبكر، واشتهرت تبعا لذلك مدن كمراكز علمية مهمة أمّها طلاب العلم، والعلماء، على حد سواء. وحققت تلك المراكز نجاحا كبيرا، في ربط تلك العلوم بحضارة البلاد، وظهر التأثير والتبادل، دون حدوث نكسات، أو مظهر للرفض من قبيل سكان البلاد، الذين أصبح ما تعلموه جزءا من كيانهم الخاص.

1ـ المقررات العلمية:

كانت الكتب الدراسية المتداولة في المراكز العلمية في أزواد، في ذلك العهد هي الكتب نفسها المعروفة في البلاد الإسلامية المجاورة، وخاصة منطقة توات، والسودان الغربي، والتكرور، والمغرب والأندلس. ومن أهم الكتب الدراسية في تلك المراكز: كتب التفسير ومن أهمها الجلالين، وموطأ الإمام مالك في الحديث والفقه، صحيح البخاري، صحيح مسلم، والشفاء للقاضي عياض في السيرة والشمائل، ومدونة سحنون[1] في فقه الإمام مالك، والرسالة في الفقه المالكي، ومختصر خليل، والمنتقى للباجي، وشروح الموطأ، ومختصر ابن الحاجب الفرعي،[2] ومختصر ابن الحاجب الأصلي في الأصول، وتهذيب البرادعي في الفقه، وتحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليها، والمعيار للونشريسي، وألفية العراقي في علوم الحديث مع شرحها، وألفية

---

[1] ـ سحنون: هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، أبو سعيد، ولد بالقيروان عام 160 هـ / 776 م، وتلقى العلوم بإفريقية على البهلول بن راشد، وعلى أسد بن الفرات، وعلي بن زياد. ثم توجه في طلب العلم إلى المشرق سنة 188 هـ / 803 م، فزار مصر، والشام، والحجاز، وأخذ الفقه عن فطاحل تلك الأمصار مثل: عبد الرحمن بن القاسم، وأشهب، وابن الماجشون، ووكيع بن الجراح، وغيرهم. وتوفي في رجب سنة 240 هـ / 854 م، ودفن بالقيروان. له المدونة الكبرى. ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، ج 1، ص ص: 585 ـ 586.

[2] ـ أبو بكر إسماعيل ميقا، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من 400 هـ إلى 1100 هـ، مكتبة التوبة الرياض، ط الأولى 1997، ص: 233.

ابن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، والأجرومية في العربية، ورجز المغيلي في المنطق وشرحه لأحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، وجميع مؤلفات المغيلي، وعقائد السنوسي في التوحيد، والمرشد المعين لابن عاشر، وغيرها من المقررات الدراسية والمراجع العلمية.[1] وهذه المؤلفات، في مجملها هي الكتب التي كانت تدرس في أغلب الحواضر العلمية بالغرب الإسلامي، والصحراء الكبرى.

2ـ العلوم النقلية والعقلية:

اهتم علماء أزواد بالعديد من العلوم التي درَّسوها في محاضرهم، غير أن الغالب على المقررات العلمية أنها تتعلق بالعلوم الشرعية بسبب المكانة الكبيرة التي تحتلها في نفوس العلماء والتلاميذ على حد سواء. وفي المقابل وُجد من أبدى اهتماما ببعض العلوم العقلية، غير أن ذلك لم يتعد أسماء محدودة من العلماء.

العقيدة والتوحيد:

لم يكتف علماء أزواد بالشروح، والحواشي، على كتب العقيدة الإسلامية المعروفة، بل أفردوا لهذا العلم تآليف خاصة، ومنهم: الحاج أحمد بن أند عبد الله الولاتي،[2] الذي ألّف عقيدة منظومة في علم الكلام،[3] كما وضع تأليفا في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ضمنه من خصائصه عليه الصلاة والسلام نبذة مفيدة.

---

[1] ـ محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط أولى 1983، ص: 477.

[2] ـ هو الحاج أحمد بن أند عبد الله بن علي بن الشيخ الولاتي ثم المحجوبي: كان من العلماء العاملين على التحقيق التام، توفي رحمه الله تعالى تاسع ربيع النبوي عام 1140 هـ / 1727 م. ورمز إلى وفاته الفقيه سيد أحمد بقوله: =

ونجل أند عبد الله قطب ولاته لها شق ما يخفى عليها بمحفل

ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص ص: 43 ـ 44.

[3] ـ : محمد المختار ولد أبّاه، دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا، ص: 18.

ووضع الحاج الحسن بن آغبد الزيدي[1] منظومة في التوحيد سماها: تحفة الصبيان،[2] كما نظم أم البراهين. ومن علماء أزواد الذين شرحوا صغرى السنوسي، محمد بن أحمد الحساني.[3] كما ألف محمد الغلاوي[4] كتابا في العقيدة والتوحيد.[5] وقد ترك محمد بن أبي بكر الولاتي[6] عقيدة منظومة في علم أصول الدين تزيد على ثلاثمائة بيت، وهو ابن واحد وعشرين سنة، وشرح عقيدة الفقيه محمد بن أبي بكر بن الهاشم شرحا مفيدا سماه: المنن الإلهية على العقيدة الغلاوية.[7] وخلف عمر الولي[8] قصيدة في علم الكلام، وشرح الأسماء الحسنى.

---

[1] ـ هو أحد الأعلام المشهورين بأزواد والأئمة المذكورين، انتهت إليه رياسة الفقه كان بصيرا بطرق الحجة، أخذ عن الفقيه أحمد الولي وعن الفقيه سيد أحمد أبو الأوتاد التشيتي وغيرهما من الأئمة توفي ليلة الأحد لاثنتي عشرة خلت من رمضان عام 1123 هـ / 1711 م. وإلى وفاته أشار الطالب سيد أحمد بن محمد بن موسى بن ايجل في بيتين فقال:

ومن فاضل تشيت دبج شوقها به وبها هبت أعاصير شمأل
وفي عامه هذا الذي قد ذكرته من الحسن الزيدي ينقص مأكلي

ينظر: شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص: 562.

[2] ـ أحمد بلعراف التكني، إزالة الريب والشك والتفريط، ص: 103.

[3] ـ هو محمد بن أحمد بن يحي بن إبراهيم بن يحي بن عمر المعقلي الحساني الدليمي، كان حيا عام 1048 هـ / 1638 م. ينظر: البرتلي: فتح الشكور، ص: 112.

[4] ـ هو محمد بن أبي بكر بن الهاشم الغلاوي كان من العلماء الأعلام ومشايخ الإسلام، أخذ عن الفقيه العلامة محمد بن المختار بن الأعمش وتفقه عليه وأخذ عنه الفقيه القاضي عبد الله بن أبي بكر بن علي بن الشيخ والفقيه عمر بن بابا والفقيه الحاج عثمان المجاور. توفي عشية الجمعة في 16 ذي الحجة 1098 هـ / 1686 م. ينظر: أحمد بن طوير الجنة، تاريخ ابن طوير الجنة، ص: 47.

[5] ـ ولد أباه، تاريخ التشريع، ص ص: 49 ـ 50.

[6] ـ الفقيه الولاتي: هو محمد بن الطالب أبي بكر بن علي بن الشيخ المحجوبي كان من العلماء النجباء الأذكياء الأتقياء جامعا لأنواع العلوم. وكان جيد النظر حسن الفهم ثاقب الذهن ذا جد واجتهاد في العلم أفنى فيه عمره كثير المطالعة حيث كان يطالع آخر النهار فإذا نزلت ظلمة الليل طلع إلى سطح الغرفة فيصلي المغرب فإذا اشتملت الظلمة نزل وأوقد النار وطالع على ضوؤها. ولد عام 1107 هـ /1695م، وتوفي سنة 1137 هـ / 1724 م. ينظر: أحمد بلعراف، إزالة الريب، ص ص: 119 ـ 120.

[7] ـ شوقي ضيف، عصر الدول، ص: 562.

[8] ـ عمر الولي: هو ابن الشيخ محمد عبد الله بن عبد الله المحجوبي بن محمد عبد الله بن عبد الله بن محمد بن الفقيه عثمان، كان رحمه الله غرة أهل عصره في سلوك طريق السلف على قدم من الصلاح والورع والحلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معظما عند الخاصة والعامة. ولد عام 1004 هـ / 1595م، وتوفي سنة 1070 هـ / 1659 م. ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص ص: 178 ـ 181.

ومن العلماء الذين يجد الباحث لهم سندا متصلا في أصول الدين على سبيل الإجازة عبد الله بن محمد بن الفقيه،[1] الذي أخذ عقائد أهل السنة عن العديد من الشيوخ الأجلاء: كالشيخ العطار، وأبي مدين القاضي الأكبر، والشيخ أحمد بن يعقوب الولاتي عن محمد ميارة الفاسي، عن أحمد المغربي عن عمه الإمام سعيد المقري،[2] عن ابن ملال، عن شيخه سعيد الشهير بالكهيف، عن الإمام السنوسي.

ومن الذين أخذوا عنه العقيدة، الفقيه أحمد بن محمد بن موسى بن ايجل الزيدي،[3] حيث قرأ عليه عقائد السنوسي، وإضاءة الدجنة.

ويعد عمر الخطاط[4] من أشهر علماء الكلام بأزواد، وهو أشعري الاعتقاد، ويذهب إلى النظر وترك التقليد. وكان كثير العناية بتحصيل الكتب، وخاصة نقل مؤلفات أصول الدين نصوصا، وشروحا، فصار لا يَرى كتابا منه إلا نقله. وظل يداوم على هذا العلم قراءة، ونقلا، وتعليما، طوال حياته. وحُكي عنه أنه قال: «لو علمت عقيدة من علم الكلام لا أعرفها، وفي مصر من يعلمها، ترحّلتُ إليها حتى أتعلمها».[5] وهو شيخ العقيدة في زمانه، مبرزا فيها يُقرئ كتب السنوسي، ودليل العقائد، وإضاءة الدجنة، وغيرها من علم الكلام قراءة وتحقيقا.

---

[1] ــ عبد الله بن محمد بن الفقيه القاضي عبد الله العلوي، وقد اشتهر بابن رازكة، كان صدرا من صدور العلماء ومفخرا من مفاخر الأدباء، أخذ عن ابن الأعمش العلوي الشنقيطي، وله علاقات واسعة بأمراء بني حسان، وملوك الدولة العلوية بالمغرب. توفي عام 1143 هـ / 1730 م. ورمز الفقيه محمد بن موسى بن ايجل لعام وفاته في روي الفشتالية بقوله:

لشنقيط أمّ السيد العلم الرضا أخي الفهم عبد الله فتحُ المقفل

ينظر: ابن الأمين، الوسيط، ص ص: 1 ــ 24.

[2] ــ صالح بن محمد الفلاني، قطف الثمر، ص: 119.

[3] _ *MARTY (P), Etudes sur L'islam et les tribus Maures, Les Brakna, Paris., 1921. p. 70.*

[4] ــ عمر الخطاط: لقب بالخطاط لحسن خطه ودوامه عليه وهو ابن محمد نض، كان فاضلا جليلا من العلماء العاملين بيته بيت صلاح ودين على سمت السلف الصالح ذا صلاح وخير حريصا على العلم استفادة وإفادة ونقلا. ولد في 8 شعبان عام 1028 هـ / 1618 م، وتوفي بعد صلاة العشاء ليلة الأحد 14 ذي القعدة عام 1107 هـ / 1695 م. ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص ص: 181 ــ 182.

[5] ــ ولد أباه، تاريخ التشريع، ص: 83.

وتعتبر إجازة الشيخ عثمان بن عمر الولي[1] في العقيدة من الإجازات الشهيرة المتصلة، حيث أجازه شيخه محمد بن المختار العلوي، أن يروي عنه كل تآليف الإمام محمد بن يوسف السنوسي. وقد أخذ محمد العلوي، عن أبي إسحاق إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكردي الشافعي، عن الشيخ عبد الباقي الحنبلي، عن أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المغربي التلمساني المالكي، عن عمه مفتي تلمسان ستين سنة سعيد بن أحمد المغربي التلمساني، عن أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن هلال التلمساني، عن أبي عثمان سعيد التلمساني الشهير بالكفيف، عن مؤلفها سيدي محمد بن يوسف السنوسي.[2]

علوم الحديث:

وفي هذا العلم يجد الباحث الكثير من الأئمة، من أمثال: محمد بن الحاج عثمان الجماني، وهو من أهل القرن الحادي عشر الهجري، تتلمذ على نور الدين الأجهوري شيخ المالكية في مصر. ومن أئمة المحدثين عمر بن محمد بن عبد الله المحجوبي، المتوفى سنة 1070 هـ / 1650 م. وله في صحيح البخاري سند يصله بمؤلفه، وخلّف مصنفات كثيرة.[3] ومن أشهر المحدثين بأزواد الشيخ عثمان بن عمر المتوفى سنة 1128 هـ / 1650 م بولاته، كان يقرئ صحيحي البخاري، ومسلم، وموطأ مالك، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وأجيز بروايتها جميعا من جلة العلماء في مصر، والمدينة المنورة، وشنقيط.[4] ومنهم عمر بن باب، الذي عرف عنه قراءة صحيح البخاري في المسجد.

---

[1] ـ هو الشيخ الفقيه العالم العامل عثمان بن عمر الولي بن الشيخ، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يواجه بذلك أكابر الظلمة. وكان من أعظم أهل زمانه مروءة وأحسنهم خلقا وأكرمهم وأمشاهم في حوائج الناس. توفي سنة 1128 هـ / 1715 م. ينظر: ابن طوير الجنة، المصدر السابق، ص:54.

[2] ـ الفلاني، المصدر السابق، ص: 119.

[3] _ *MARTY (P), Op. Cit. p. 85.*

[4] _ *DESCHAMPS (H), Histoire Générale de l'Afrique Noire. Paris., 1971. p. 63.*

وأوثق المحدثين بها محدث أروان أحمد بن البشير، حامل روايات صحيحي البخاري، ومسلم، والشفاء. ومن العلماء الذين تركوا تآليف في الحديث الحسن بن أغيد، فقد برز بتفوقه في استحضار الأدلة من الحديث، وأخذ عنه الإجازة في هذا العلم الفقيه محمد بن بابا. وله منظومة في مصطلح الحديث سماها: روضة الأزهار، وجعل عليها شرحا باسم قرة الأبصار، وله نظم مفيد في ضبط المشتبه من رجال الصحيحين. وذاع صيته كثيرا حتى قيل: «من فاته الحسن البصري، فعليه بالحسن اليوسي، ومن فاته الحسن اليوسي، فعليه بالحسن بن أغيد».[1]

الفقه الإسلامي:

تعتبر الأسانيد الفقهية لعلماء أزواد من أثبت الأسانيد، لاتصال حلقاتها وصولا إلى مؤلفي أمهات الكتب في تلك العلوم؛ فقد كان الشيخ أحمد بن القاسم الوادانى الحاجي فقيها،[2] أخذ الفقه عن أحمد الفزاري بن محمد، عن أبي العباس أحمد المسك والد أحمد بابا التنبكتي، عن محمد بركات، عن محمد بن الحطاب شارح المختصر، وصولا إلى الشيخ خليل بن إسحاق، ومنه إلى الإمام مالك. وقد ألف أحمد الوادانى[3] فتاوى فقهية[4] سلك فيها طريق الاختصار.

ومن الفقهاء الذين ذاع صيتهم وتولوا رياسة الفتوى، والقضاء، والنوازل، بولاته الفقيه الحاج أحمد الولاتي المحجوبي، فقد نظمَ فرائض خليل.[5] وكان الحاج حسن بن آغيد الزيدي[6] ممن أفاد كثيرا بنوازله، حيث أحيا بها سبيل الرشاد. وقد انتهت إليه

---

[1] ـ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 562.

[2] ـ وأخذ عنه: أبو محمد الحاج عبد الله بن الفقيه محمد الشنقيطي، والفقيه النبيل أبو العباس أحمد بن القاسم الوادانى. ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص: 40.

[3] ـ من أبرز تلامذته: محمد بن المختار بن الأعمش. ينظر: ولد أباه، تاريخ التشريع، ص: 17.

[4] ـ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 562.

[5] ـ أحمد بلعراف، المصدر السابق، ص: 83.

[6] ـ أخذ عنه الفقيه أحمد الولي، والأخوان الفقيهان الشريف محمد، والشريف أحمد، أبناء فاضل الشريف وغيرهما من الأئمة. ينظر: ابن طوير الجنة، المصدر السابق، ص: 97.

الصدارة في الفقه،[1] ويعتبر من أصحاب البصيرة بما تدخل عليه مسائل المذهب المالكي. وأهل العلم يجلّونه فإذا نزلت النازلة يسئلونه ويقتدون به. وكان قيما على مختصر خليل حسن الاقراء له، وهو مع ذلك خبيرا بالمدونة، والكتب المعتمدة لدى المالكية، وعليه مدار الفتوى في الفقه. وقام الفقيه محمد بن موسى الزيدي[2] بنَظم مسائل ابن جماعة في البيوع، وانتفع به الطلبة كثيرا.

كما شرح الفقيه والقاضي الوافي بن طالبن مختصر خليل ، في كتاب أطلق عليه فتح الرب اللطيف في تخريج ما في المختصر من الضعيف،[3] ووضع كذلك نوازل هامة سماها الوزان في نوازل أروان.

وهناك من برع في الفقه، حتى لم يُرى أحسن نقلا، ولا أكثر إطلاعا منه على المسائل ولا في الفتاوى، والمعني هو الفقيه عبد الله بن أبي بكر التنواجيوي.[4] فأجوبته تدل على سعة باعه، واطلاعه، وكثيرا ما يدعّم الجواب بالنصوص الصريحة، والنقول المعتمدة الصحيحة، وكان مداوما على شرح مختصر خليل.

ومن أصحاب الأسانيد الفقهية بأزواد محمد بابا بن محمد الأمين، فقد أخذ عن الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود بن عمر،[5] وحضر مجالس الفقيه محمد الونكري، وقرنه مع والده الفقيه في الإجازة. ولازم الشيخ سيد أحمد وقرأ عليه جملة من مختصر خليل، وسمع التوضيح على ابن الحاجب[6] بمسجد سنكرى عن الفقيه محمد بن محمد كرى.

---

[1] _ *DESCHAMPS (H), Op. Cit. p. 75.*

[2] ـ من أشهر الآخذين عنه الشيخ الفقيه محمد بن الطالب عمر البرتلي. ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص: 110.

[3] ـ الهادي المبروك الدالي، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص: 187.

[4] ـ أشهر من أخذ عنه الفقيه أحمد بن موسى بن ايجل الزيدي. ينظر: ولد أباه، تاريخ التشريع، ص: 95.

[5] _ *DESIRE (V). La Mauritanie du 19 Siècle à l'Indépendance, Paris., 1979. p. 72.*

[6] ـ صالح الفلاني، المصدر السابق، ص: 167.

ومن الذين عرفوا بالبصيرة في الفتوى في فقه النوازل، محمد بن أبي بكر الغلاوي،[1] فهو نادرة زمانه[2] متحريا ينقل: «من المدونة، والأمهات، كثير الاطلاع على المسائل، والنقل من الكتب المعتمدة».[3] وعليه مدار الفتيا، وكانت ترد عليه الأسئلة من البدو، والحضر، فيجيب عنها وانتفع الناس به كثيرا. وهذا ليس بغريب منه، إذا عرف الباحث أنه تتلمذ على يد العلامة محمد بن المختار بن الأعمش وتفقه عليه. وله أجوبة مفيدة مجموعة وأجوبة أخرى في أحكام مستغرقي الذمة أرسل بها لشيخه محمد بن الأعمش،[4] مشتملة على ستة فصول جاءت في نحو كراسة.

وممن أجازهم ابن الأعمش في الفقه: محمد بن الحاج عثمان الجماني وقال فيه شيخه: «كان سيدا، فقيها، وجيها، نبيها».[5] وكذلك عمر الولي، الذي أخذ عنه مقدمة[6] في هذا العلم. وقد أخذ ابن الأعمش هذا العلم، عن الفقيه الجليل أبو محمد الحاج عبد الله بن الفقيه محمد، والفقيه أبي العباس أحمد بن أحمد بن الحاج، وهما أخذاه قراءة عن شيوخ ودان: الفقيه أحمد بن محمد بن يعقوب الواداني، عن الفقيه أبي العباس أحمد المسك، عن الحطاب شارح المختصر.

وقد أجاز ابن الأعمش في الفقه، شيخ المالكية بالديار المصرية أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الأجهوري،[7] عن شيوخه محمد التبوفري، والشيخ كريم الدين اليرموني، والشيخ القاضي بدر الدين محمد العراقي، والشيخ عثمان المغربي، عن جده عبد الرحمن الأجهوري صاحب الحاشية على المختصر، عن الشيخ أحمد الفيشي،

---

[1] ـ من أبرز تلامذته: الفقيه القاضي عبد الله بن أبي بكر بن علي بن الشيخ، والفقيه عمر بن بابا، والفقيه الحاج عثمان المجاور. ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص: 115.

[2] ـ من أبرز تلامذته في الفقه عمر بن بابا بن عمر بن علي بن اند عبد الله بن أحمد الولاتي، وابن الأعمش العلوي. ينظر: ابن طوير الجنة، المصدر السابق، ص:47.

[3] ـ أحمد بلعراف، المصدر السابق، ص: 119.

[4] ـ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 562.

[5] ـ البرتلي، فتح الشكور، ص: 116.

[6] ـ ولد أباه، تاريخ التشريع، ص: 83.

[7] _ *DESIRE (V), 0p. Cit. p. 87.*

والشيخ سليمان الجيزوي، وأبي شمس الدين وأخيه العلامة ناصر الدين اللقانيين، وهؤلاء عن شيخ المالكية في زمنه نور الدين علي السنهوري، عن الشيخ طاهر بن علي بن محمد النوبدي، عن الشيخ حسن بن علي، عن أحمد العربي، عن قاضي القضاة فخر الدين بن المخلطة بن عمر الكندي، عن عبد الكريم بن عطاء الله الاسكندري، عن أبي بكر بن محمد، عن أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، عن الإمام أبي محمد المكي الأندلسي، عن الإمام أبي محمد بن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة المشهورة، عن الإمام أبي بكر محمد بن اللباد، عن الإمام يحي بن عمر الإفريقي صاحب اختلاف ابن القاسم وأشهب، عن الإمامين سحنون بن سعيد، وعبد الملك بن حبيب، وهما عن عبد الرحمن بن القاسم العتقي، وأشهب بن عبد العزيز العامري القيسي المصريان، عن إمام دار الهجرة النبوية الإمام مالك بن أنس، وهو يروي عن الزهري، عن أنس بن مالك، عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم وهما أخذا عن سيد المرسلين وإمام المتقين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.[1]

وتعتبر عائلة الفقيه محمد بن الطالب أبي بكر الولاتي المحجوبي من العائلات الفقهية، فمحمد هو سليل الفقهاء بيته بيت علم أبوه وعمه وجده علماء فقهاء، فهو كما يقول البرتلي: «فقيه، بن فقيه، بن فقيه، ثلاثة في نسق».[2] وللفقيه محمد الولاتي فتاوى،[3] يجيب فيها أحسن جواب. ومن الفقهاء الذين ينتمون إلى عائلات فقهية محمد بن عثمان بن عمر الولي،[4] وقد جمع بين العلم الغزير والدين المتين، أخذ عن الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الخرشي، ثم رحل في طلب العلم إلى سجلماسة ولقي أحمد الحبيب السجلماسي. وتوفي وهو في رحلته العلمية بتارودانت قاعدة سوس الأقصى.

---

[1] ـ صالح الفلاني، المصدر السابق، ص: 32.

[2] ـ البرتلي، فتح الشكور، ص: 120.

[3] _ *MONTEIL (V). 0p. Cit. p. 132.*

[4] ـ ولد أباه، تاريخ التشريع، ص: 55.

ومن الفقهاء المحققين الشريف محمد بن فاضل الشريف،[1] فقد كان عالي الكعب في الفتوى وانتفع الناس به، وقد اشتهر في الفقه بمختصر أبي المودة. وعليه مدار الفتيا في الفقه في زمانه حيث أخذ هذا العلم أكثر وقته؛ والعلماء يحسنون ذكره ويعظمون شأنه وينتهون عند فتواه وثوقا به.

وطريقته في الإفتاء، أنه يختصر ويُحسن فلا يزيد في الجواب على الحاجة إلا لزيادة حكم أو بيان له. ولأخيه الشريف أحمد فتاوى مجموعة في غاية الجودة، والحسن، يدعم جوابه بالنص الصريح الصحيح المشهور كنص ابن الحاجب، وأبي المودة، وغيرهما؛ وإذا لم يجد نصا في النازلة، يجيب فيها بمقتضى النظر الفقهي، فيكون ما أجاب به صحيحا، موافقا، ظاهرا، لكل من له في الفقه بصيرة. وكان يقول: «... فما تكون مسألة في الفقه، إلا وحكمها يؤخذ من مختصر خليل رحمه الله تعالى، إما من منطوقه، وإما من مفهومه».[2]

واهتم كثيرا علماء أزواد بالإجازات الفقهية ــ كما رأينا ذلك سابقا ــ خاصة ما تعلق بأمهات كتب الفقه المالكي، ومن هؤلاء عثمان بن عمر الولي،[3] الذي بقي مدة طويلة مع شيخه الفقيه محمد بن المختار العلوي، حتى أجازه في رواية رسالة ابن أبي زيد، ورواية مختصر الشيخ خليل.

تفسير القرآن الكريم:

كثيرا ما ارتبطت بأزواد قراءة القرآن بالتفسير، وأول من يلقانا من علمائهم قُرَّاء الناشئة محمد بن أبي بكر من ولاته، وهو من أهل القرن الثاني عشر الهجري، وكان ملازما لإقراء الصبيان. ومن أئمة القراءات عبد الله بن أبي بكر التنواجيوي، رحل إلى أحمد الحبيب اللمطي السجلماسي، وقرأ عليه السبع، وكان يدرس لطلابه

---

[1] ــ أخذ الفقه عن الفقيه الحاج الحسن بن أغبد الزيدي، وأخذ عنه ابن أخته الفقيه الشريف محمد نالله بن الشريف أحمد بن الإمام وغيره. وكان المفزع إليه وإلى أخيه في الفتيا. ينظر: ابن طوير الجنة، المصدر السابق، ص: 65.

[2] ــ ولد أباه، تاريخ التشريع، ص: 57.

[3] ــ محمد حجي، الحركة الفكرية، ج 2، ص: 634.

الشاطبية ويفسرها لهم، وتوفي سنة 1145 هـ / 1732 م.[1] ومن تلاميذه عمر بن أحمد الإيديلبي، وكان قارئا بالسبع، وتوفي سنة 1210 هـ / 1795 م، وكانت أكثر عبادته إقراء القرآن، وأخذ القراءات السبع عن محمد بن عبد الله التنواجيوي.

ويذكر كثيرا عن هذا العالم، أو ذاك، أنه كان يفسر القرآن الكريم، بجانب ما كان يلقي على طلابه من دروس في الفقه، والنحو، أو علم الكلام، أو فيها جميعا.[2] وكثيرا ما يذكر مع المحدثين، أنهم كانوا يعنون بتفسير الذكر الحكيم. ولم يهتم كثيرا علماء أزواد بالتأليف في تفسير القرآن الكريم، أو إفراد كتب خاصة له، وهذا واضح من خلال قلة الأسانيد في هذا العلم. ويشير البعض[3] أن أحمد الولي المحجوبي الولاتي، كان يفسر لبعض تلاميذه، ويعرض عليه آخر القرآن. ومن الذين جمعوا أنواع العلوم ومنها التفسير، محمد بن الطالب أبي بكر الولاتي. وأول من ألّف في التفسير محمد المختار بن محَّم سعيد، حيث جاء تفسيره في مجلدين سماه: الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز،[4] وهو مفيد جدا. وقد اشتهر عبد الله بن محمد العلوي بمعرفته بالتفسير،[5] غير أنه لم يخلّف فيه تأليفا،[6] والأمر نفسه نجده عند أحمد الولي المحجوبي الولاتي، فقد مهر في القرآن. غير أن هذه المهارة لم يترجمها في كتاب، يمكن تقييمه في هذا المجال.

التصوف:

وأهم شيء يمكن للباحث أن يلاحظه فيما يخص علماء أزواد، أن العلم ارتبط بالولاية في كثير من الحالات، ولهذا من النادر الفصل بينهما. فالشيخ أحمد الولي:

---

[1] _ *MONTEIL (V), 0p. Cit. p. 145.*

[2] _ *Ibid. p. 157*

[3] _ *BRENNER (L), Du kuttab a la madrasa , Considération historique à propos de L'Enseignement islamique au Mali , IMP . ELMAARIF AL JADIDA RABAT., 1994. p. 12 .*

[4] ـ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 561.

[5] ـ ولد أباه، المرجع السابق، ص: 70.

[6] ـ غير أنه ترك تلميذا فسَّر عليه القرآن، وهو أحمد بن محمد بن موسى بن إيجل الزيدي. ينظر: أحمد بلعراف التكني، المصدر السابق، ص: 90.

«جمع بين العلم، والعمل، وهو أحد أئمة المسلمين، والعلماء العاملين، وأولياء الله الصالحين».[1] ويشير كذلك إلى أن أحمد الشواف الأوتيدي، أخذ المصافحة والمشابكة مسلسلة عن شيخه أحمد بن محمد بن خالد الجرسفي، وصولا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانت له مكاشفات.[2]

كما حكى صاحب تاريخ السودان[3] أنه عرض ــ مع جماعة من أقرانه ــ على شيخه الأمين بن أحمد بن محمد، كتاب دلائل الخيرات. هذا الكتاب، الذي كان من المقررات الهامة في التصوف بأزواد. ويعتبر الفقيه الأمين، ممن كان لسانه رطبا بذكر الله، ولا يسمه محمد عربان إلا بالأمين الذاكر. ومن الذين يعدون من مفاخر الأولياء النجباء محمد بن عثمان الولي، كان تقيا، حسن الفهم، ثاقب الذهن، ذا فضل، ودين، وصلاح، ولزوم طهارة، ومع ذلك فهو: «موهوب من الفيض الرباني».[4]

وقد وضع محمد المختار بن محَّم الديماني،[5] تأليفا في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. ويعد عمر الولي، من رجال الكمال[6] في نظر ــ سكان أزواد ــ ومن أعلام الصوفية، الذين ظهرت كراماتهم حيث جمع بين العلم، والعمل، والزهد، والورع، والإيثار، وكان مجتهدا في لزوم الأذكار والأدعية، ولم يبلغ أحد مبلغه في الصلاح، وقوة اليقين. ومن عادته تقديم حاجة غيره على حاجته، ويتصدق كثيرا على اليتامى، والفقراء، والمساكين، والضعفاء، والأرامل، والغرباء، وهو نقطة دائرة أهل

---

[1] ــ ابن طوير الجنة، المصدر السابق، ص: 97.

[2] ــ منها إخباره في وادان بموت السلطان العلوي مولاي إسماعيل، ولما أرخوه وجدوه توفي في ذلك اليوم. ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص: 45.

[3] ــ عبد الرحمن السعدي، ص: 83.

[4]- *BA KONARE (A), Les relations politique et culturelles entre le Maroc et le Mali à travers les ages. IMP. NAJAH ELJADIDA CASABLANCA., 1991. p. 17.*

[5]- *BRENNER (L), Op.Cit.p.41.*

[6] ــ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 561.

العرفان. ومن أدعيته الحسنة: «اللهم إن كنت بلغت أحدا من خلقك درجة بالبلاء فبلغنيها بالعافية».[1]

ورغم هذه المكانة التي حظي بها عمر الولي، إلا أنه لم يُلقب بسيد الوقت. هذا اللقب الذي يُعدّ علامة على ابنه عثمان،[2] الذي كان غرة عصره في سلوك طريق السلف الصالح، على قدم صدق من الصلاح، والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو من أعظم أهل زمانه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم، وكان قائما بأمور المسجد، وإصلاحه إذا هدم منه شيء.

وعرف الشريف الشاب بتضلعه في علم الظاهر، والباطن ، فقد جمع بين الحقيقة، والشريعة.[3] وله نظم مفيد في الوعظ في نحو مائة بيت، أرسله للفقيه عمر الولي بن الشيخ، يَحُضُه فيه على العزلة، وترك مخالطة الناس، ويوصيه فيه بوصايا من كلام أهل الطريق. وفيه يقول مرغبا له في خدمة الأولياء:

واخدم ولا تفتر جميع الأوليا فهم على منهاج خير الأنبيا
فرب كلب لذوي التفضيل ذكره الرحمن في التنزيل
فكيف لو يخدمهم إنسان من وصفه الإسلام والإيمان[4]

والإشارة واضحة في الأبيات إلى الترغيب في خدمة الأولياء، لأنهم يسيرون على طريق الأولياء، وطريق الأنبياء هو طريق النجاة. ويلمح إلى أن الخدمة التي يقدمها المريد للأولياء، ستؤدي به للفلاح، والنجاح. ويذكر بكلب أصحاب الكهف، الذي ورد في القرآن الكريم، فلولا التزامه وإتباعه لأهل الإيمان ما ذُكر في التنزيل.

---

[1] ـ البرتلي، فتح الشكور ، ص: 179.
[2] ـ ولد أباه، المرجع السابق، ص: 91.
[3] _ *LE CHATELIER (A). l'Islam dans l'Afrique occidentale, Paris. Steinheil., 1899. p. 301.*
[4] ـ ولد أباه، تاريخ التشريع، ص: 97.

ومن كلامه في مراسلة بينه وبين عبد الرحمن بن الشيخ: «فإن ذلّ قلبك، إذا اعتراك ذنبك، فقد وفقك ربك. وأعلم بأن أكثر الأوزار، مع نقصان الأعمار، مما يُعَرِّفك بالعزيز الغفار. كما أن الخوض في قيل وقال، مع دنياوي الرجال، مما يختم على قلبك في الضلال. فما خلقت للعادة، وإنما خلقت للعبادة. فإن كان ولابد فاجمع بين العبادة والعادة. وستعلم إذا انجلى الغبار، هل مركبك فرس، أم حمار؟! إمَّا في الدنيا، أو في تلك الدار. ومن ثم علامة تضليلك، نظرك في كثيرك وقليلك، هل فاتك في المال أبناء جيلك؟! ولو نظرت إلى من زال وفارق الأموال، لاعتبرت في الحال. فمن أكبر بلوى، تهون عند رجال التقوى. وكيف يفلح مَن إليه معاصرون، مَن عن النظر في الآخرة قاصرون، ألا إنَّ حزب الشيطان هم الخاسرون. وبالجملة فالحق لا يخفى إلا على من قنديله انطفى».[1]

ونال الحاج أحمد الولاتي المحجوبي حظا من علم الحقيقة ، ويدل على ذلك قوله في رائيته:

فبشرى إلهي الصابرين بما لهم تلاشى بلاد إذ به بان لي سِرِّ

فكل بلاد سرُّه وصفُ طرفه فإن ساخطا سخط وإن راضيًا بَري[2]

التاريخ والأنساب:

لقد أهمل التاريخ والأنساب، من المقررات العلمية بمحاضر أزواد في الفترة المعنية، ولا يكاد يجد الباحث إلا إشارات باهتة عن الاهتمام بهما؛ فقد كان للفقيه الأمين أحمد بن محمد «حظ في معرفة الصحابة».[3] كما يُعدّ عبد الله بن محمد العلوي، خبيرا في النسب والتاريخ.[4] وأول من وضع تأليفا في أنساب العرب هو محمد المختار بن

---

[1] ـ أحمد بلعراف، المصدر السابق، ص: 93.

[2] ـ البرتلي، فتح الشكور، ص: 43.

[3]- *A. Ba KONARE.Op. Cit. p. 21.*

[4] ـ البرتلي، المصدر السابق، ص: 162.

محمَّد الديماني،[1] كما ألَّف كتابا في حرب شربّبة حيث جمع فيها وقائعها. ومن الغرابة ألا تجد آثارا للمفاخرة بالأنساب في هذه الفترة، خاصة في وقت الفتن والقلاقل.

اللغة العربية:

إن اهتمام علماء أزواد باللغة العربية، يرجع لكونها من الأدوات التي تسهِّل معرفة علوم الشريعة؛ وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وهي من العلوم الأساسية، التي كانت تدرس في المحاضر. وتكتسي أهمية دينية خاصة، ولذلك زاد الاهتمام بها خاصة النحو، لذلك دَرَسوه ودَرَّسوه وتبحروا فيه.

وبرع فيها علماء أجلاء، من أمثال: أحمد بن عمر بن محمد،[2] الذي قال عنه صاحب السعادة الأبدية: «كان فقيها، لغويا، نحويا، وعروضيا، محصلا».[3] وقد كانت هناك إجازات في علم النحو، منها إجازة الشيخ محمد الأمين،[4] حيث أخذ النحو قراءة وسماعا عن شيخه أحمد السوقي.[5]

وألَّف عدد من علماء أزواد، في علم النحو، وشرحوا لغيرهم، ومن أمثال هؤلاء أبو عبد الله أحمد بابا بن الأمين المختار التنبكتي،[6] والذي كان له تأليفا أطلق عليه: المنح الحميد في شرح الفريد،[7] وهو شرح لألفية السيوطي في النحو.

---

[1] _ *A. LE CHTELIER, Op. Cit. p. 276.*

[2] _ أحمد بن عمر أقيت: هو أحمد بن عمر الصنهاجي التكروري، أكبر الإخوة الثلاثة العلماء وجد أحمد بابا الشهير. درس في تنبكتو وولاته والقاهرة، ثم أقبل في بلاده على تدريس النحو والصرف والعروض، فضلا عن الفقه والحديث. توفي سنة 942 هـ / 1535 م. ينظر: محمد حجي، الحركة الفكرية، ج 2، ص: 635.

[3] _ الأروانى، السعادة، و 27 و.

[4] _ محمد الأمين: هو محمد الأمين بن محمد المصطفى الشريف، سابع سبعة من العلماء من جهة أبيه، وسادس ستة من جهة أمه، كثير النظم والتصنيف. ينظر: أحمد بلعراف، المصدر السابق، ص: 129.

[5] _ أحمد السوقي: هو أحمد البشير بن محمد موم السوقي، قدم إلى بلدة أروان من مدينة السوق، وحمل اسمها وهو ابن خمس وعشرين سنة، بقصد طلب العلم فتعلم هناك وسلم له علماء عصره، وشهدوا له برئاسة العلم، وفنون القراءات وأفاد واستفاد إلى أن توفي سنة 1112 هـ / 1700 م. ينظر: الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص: 223.

[6] _ أبو عبد الله التنبكتي: له رسالة في النصيحة عما هو في أرض السودان من البدع المحرمة، والشرك، ورتبها في خمسة فصول. ينظر: أحمد بلعراف، المصدر السابق. ص: 78.

[7] _ توجد منه نسخة مخطوطة بمركز أحمد بابا بتنبكتو.

كما برز في هذا العلم الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الله العلوي، فقد كان فصيحا، بارعا خبيرا في النحو، إماما فيه.[1] مجمعا على بلوغه الغاية في لسان العرب. ومن الذين اشتهروا في النحو، واللغة، عمر بن بابا بن عمر الولاتي، فقد كان إماما في العربية، فصيح اللسان، وقد درّس العربية بأزواد. ومن شعره جواب مسألة لغوية، سأله عنها أحمد بن محمد بن موسى بن إيجل الزيدي:

ألا يا إمام النحو قطب زمانه ومن أنت ذو ذهن صقيل وذو فهم
فهل لاني ايان آن مصادر تبدت لكم أنوارها عن ذوي العلم[2]

فأجابه بقوله:

أيا سائلا مستفهما عن مصادر لان ايان مع انى فزت بالغنم
فرد لجة القاموس وردا تجد بها مصادر للفعلين إن كنت ذا كرم
فآن له ايـن فقط واني له انا وانا من بعد انى بلا وهم
وشكلك ذال الذهن بالضم غفلة وحقك لا انى قصدت أخا الحلم
فذهن بكسر الذال خذه تبرعا ولي فادع بالغفران والحسن للختم[3]

وقد شاع اللحن بأزواد، بسبب انتشار الأعاجم الذين لا يفقهون العربية، فقام الشيخ عبد الله بن أبي بكر التنواجيوي بإزالة ذلك،[4] وصحح لهم قراءة القرآن وتجويده. وقصده الناس لأجل الأخذ عنه وانتفعوا به،[5] وانتهت إليه رئاسة الإقراء.

ومسألة اللحن هذه، كانت من بين القضايا والمسائل، التي أجاب عنها الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الحاج محمد أسكيا سلطان مملكة سنغاي في رسالته

---

[1] ـ ابن الأمين، الوسيط، ص: 2.
[2] ـ ولد أباه، تاريخ التشريع، ص: 85.
[3] ـ المرجع نفسه، ص: 85.
[4] ـ ابن طوير الجنة، المصدر السابق، ص: 52.
[5] ـ من أشهر الآخذين عنه الطالب صالح التنواجيوي، والمختار بن عمر بن الحاج الطيب، والخضر وإلياس ابني الفقيه محمد بن الحاج عثمان، وعمر بن محمد بوه الايلي، والفقيه أحمد بن موسى بن إيجل الزيدي. ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص: 209.

الشهيرة؛[1] حيث بيَّن أن التصحيف، والتحريف، كان شائعا جدا بين المنتسبين للعلم، ولهم كتب يدرِّسونها ومنهم قضاة، ومفسرون، يتكلمون في دين الله، ومع ذلك يزعمون أنهم من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

الأدب العربي:

ومن مفاخر الأدباء بأزواد عبد الله بن محمد العلوي، برع في الأدب والبيان وصناعة البديع وميزان العروض. وعندما وقف عمر بابا الولاتي على حائية عبد الله بن محمد، قال مذيلا لها ببيت:

كذا فليكن من ينشد الشعر أو يدع وإلا فقد يأتي بما يوجب الفضحا

ومن تخميسه الشهيرة قوله:

تعرَّض لنفحات الإله برحلةٍ وسام العُلى بكل وجه وحيلة

وإن رمت أن تحظى بعزٍ ودولة فكن قمرا يبري الدُّجا كل ليلة

تُفتَّح لك الأبواب حينئذٍ فتحَا

وسافر ففي الأسفار صُحبة جِلَّة وصِحة أجسام وإذهاب عِلَّة

ولا تألف الأوطان تظفر بوصلة كِل الأرض بالتَّسيار أيَّة كِيلة

ولا تكُ كالقُمريِّ يستعذِبُ الصَّدحا[2]

ومن المشهورين بالصلاح، وقوة الدين بأزواد عمر الولي. وقد مدحه الشريف الشاب بقوله:

وبعدُ يا بن ولدِ المحجوبِ لا زلت تُعطي صفوةَ القلوبِ

كما إلى الوعظِ تميل ميلا في زمن صار النَّهار ليلا[3]

---

[1] ـ المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، دراسة وتحقيق عبد القادر زبادية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1989، ص: 161.

[2] ـ البرتلي، فتح الشكور، ص: 163.

[3] ـ ولد أباه، تاريخ الشريعة، ص: 81.

وبرز عمر بابا بن عمر الولاتي في الشعر بأزواد، وتميز بقوته، وجودته ، فقد كان عروضيا مجيدا، وناثرا إماما،[1] ونحويا، لغويا، أديبا، أخذ الناس عنه العربية. وكان يقرئ طلابه الأجرومية،[2] وألفية ابن مالك، ولاميته في التصريف قراءة بحث، وتحقيق، كل مرة يزيد البحث فيها عن المرة السالفة. وهو مقدما في الكتابة، والخطابة، مديد الباع في الأدب.

العلوم العقلية:

وأبرز العلوم العقلية التي عرفتها أزواد هي: المنطق، والفلك. وفيما يخص علم المنطق، فقد كانت مؤلفات المغيلي أبرزها، إذ درست بعضا من كتبه وخاصة رجز المغيلي، المسمى: منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب.[3] وجرى نقاش بين المغيلي، والسيوطي،[4] حول الاشتغال بالمنطق. وهما من أبرز الوجوه العلمية التي زارت السودان الغربي، في تاسع القرون الهجرية / الخامس عشر الميلادي. وكان المغيلي من أكبر المهتمين بهذا العلم، على غرار علماء مدرسة تلمسان، وهو أحد تلامذتها. وتصدى لشرح منح الوهاب العالمان أحمد بابا التنبكتي، ومحمد[5] بن محمود بن عمر بن محمد أقيت.

أما علم الفلك، فقد اهتم به علماء أزواد،[6] خاصة في ولاته، وأكدس، وكان من بين العلوم التي دُرِّست عندهم، فقد درسوا كتبه المشهورة، ومنها كتاب الهاشمية في

---

[1] ـ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 564.

[2] _ *MONTEIL (V), Op. Cit. p.318.*

[3] ـ توجد منه نسخة مصورة بمخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران.

[4] ـ السيوطي: هو عبد الرحمن السيوطي، أحد ابرز العلماء الذين جمعوا بين العديد من الفنون، ولد عام 849 هـ / 1445 م، وتوفي سنة 911 هـ / 1505 م. خلف العديد من الكتب منها: حسن المحاضرة، والمزهر في اللغة، والإتقان، والأشباه والنظائر في النحو.

[5] ـ محمد بن محمود أقيت: عالم مشارك تكون تكوينا متينا في السودان والمشرق. ودرس في الجامع الأعظم بتنبكتو مدة تنيف عن ثلاثين سنة. وكان كريما جدا مع الطلبة يعيرهم من كتب خزانته العامرة ما يشاؤون، وحضر أحمد بابا مجالسه العلمية أكثر من عشر سنين. توفي سنة 1002 هـ / 1594 م. ينظر: القادري، التقاط الدرر، ج 1، ص: 20.

[6] ـ أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، و38 و.

التجيم،[1] ومقدمة الشيخ عبد الرحمن التاجوري،[2] هذا الكتاب اشتهر كثيرا في المحاضر والزوايا بأزواد على امتداد قرون طويلة. ومن الكتب التي نالت ميزة خاصة تأليف مكتوب في شهور السنة على حساب العجم[3] لأبي العباس أحمد بن البناء الأزدي المراكشي.[4]

ومن هنا يدرك الباحث أن علماء أزواد، حاولوا إحداث توازن بين العلوم العقلية والعلوم النقلية، وأعتقد أنهم من المحظوظين، لأنهم لم يشهدوا الصراع بين ما هو نصي وما هو عقلي، لأن الانتشار الفعلي والكبير للفكر الإسلامي بتلك الجهات، كان في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، حيث كان الصراع قد حسم في مجمل مسائل الفكر.

3ـ المساجد ودورها بأزواد:

تتصدر المساجد بأزواد منارات العلم، والعبادة، وهي بمثابة المدارس العليا، التي يتعلم فيها الطلاب مختلف العلوم، والمعارف، واحتفظت المساجد بأسماء عديدة لعلماء درّسوا بها، وآخرون تخرجوا منها.

المسجد الكبير:

هذا المسجد يعد أشهر المساجد بأزواد، شيده السلطان منسا موسى، في فترة مملكة سنغاي، وذلك بعد رجوعه من الحج، وقد أشرف على بنائه المهندس أبو إسحاق

---

[1] ـ محمد بن محمد التنبكتي، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط مكتبة دياكوزي بجاو جمهورية مالي، رقم 024، و 17 و.

[2] ـ التاجوري: وهو عبد الرحمن التاجوري، اشتهر بلقب الموقت، توفي سنة 960 هـ / ينظر: محمد حجي، ألف سنة من الوفيات في ثلاث كتب، مطبوعات دار المغرب للتأليف الرباط، ط 1976، ص: 303.

[3] ـ توجد منه نسخة مخطوطة بمركز أحمد بابا التنبكتي رقمها: 1120.

[4] ـ أبي العباس المراكشي: توفي سنة 1113 هـ / 1701 م.

الساحلي،[1] وعبد الله الكومي الموحدي الغدامسي، على الطراز المغربي الإسلامي،[2] وبنى صومعته على خمسة صفوف.

وقد أجريت على هذا المسجد عدة توسيعات، كان أولها على يد العاقب بن القاضي محمود، بقصد استيعاب أكبر عدد من المصلين، وقد ساهم في توسيعه السلطان أسكيا داوود ــ الذي اشتهر بتقريبه للعلماء وشيوخ العلم ــ وجلب إليه أعداد كثيرة من الخشب،[3] فأكمل بناءه.

وتعاقب على إمامة المسجد مجموعة من الأئمة، منهم الإمام عثمان بن الحسن التشتي، ومكث إماما له إلى أن توفي. ثم تولى الإمامة بعده محمد كداد بن أبي بكر الفلاني، بأمر من القاضي العاقب، واستمرت إمامته إلى أن توفي سنة 989 هـ / 1581 م. ومن بعده قام بإمامته الإمام أحمد إمام الجامع الكبير. وذلك بتكليف من القاضي العاقب، واستمر فيها ستة عشر عاما،[4] وستة أشهر ونصف، حيث عاصر نهاية دولة سنغاي وبداية النفوذ السعدي.

وكان الإمام القاضي كاتب موسى من أشهر الأئمة بالمسجد الكبير، فقد مكث أربعين عاما إماما بهذا المسجد، ثم رحل إلى فاس للتزود من ينابيع العلم، وترك الإمامة لعبد الله البلبالي، وهو أول عربي يتولى إمامة المسجد، وكان ذلك في بداية حكم سني علي، وقد حظي باحترام بالغ، من قبل ذلك السلطان.[5] واستمر في منصبه إلى أن توفي، فتولى بعده بلقاسم التواتي، الذي عرف بالصلاح والزهد، وكان يقطن بجوار

---

[1] ــ الساحلي: هو إبراهيم أبو إسحاق الساحلي، الأديب والشاعر، نموذج رفيع للتواصل الثقافي بين بلاد السودان والمغرب في القرن السابع الهجري، ولد بغرناطة ونشأ فيها، وقرأ على أعلامها، ولم يذكر الذين ترجموا إليه تاريخ ولادته، غير أن وفاته كانت يوم الاثنين 27 جمادي الأخيرة سنة 747 هـ . ينظر: محمد بن شريفة، من أعلام التواصل بين بلاد المغرب وبلاد السودان، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط الأولى 1999، ص ص: 79 ــ 103.

[2] ــ أحمد بابير الأروانى، السعادة الأبدية، و 18 و.

[3] ــ السعدي، تاريخ السودان، ص: 56.

[4] ــ السعدي، المصدر السابق، ص ص: 112 ــ 113.

[5] ــ الهادي المبروك الدالي، التاريخ الحضاري، ص: 154.

المسجد، بالإضافة إلى الإمامة كان يدرّس الصبيان، وتولى الإمامة من بعده تلميذه منصور الفزاني، ثم من بعده[1] الفقيه إبراهيم الزلفي. وفي عام 1032 هـ / 1622 م، تولى منصب الإمامة بهذا المسجد عبد السلام بن محمد دك الفلاني، حيث مكث أربع سنوات على زمن القائد يوسف بن عمر.

وفي عام 1035 هـ / 1625 م اعتلى الإمامة علي بن عبد الله سر بن الإمام على الجزولي، واستمر في الإمامة ست عشرة سنة وسبعة أشهر، حتى توفي في 14 محرم سنة 1052 هـ / 1642 م، ومن بعده الإمام محمد الوديعة بن الإمام محمد سعيد بن الإمام محمد كداد الفلاني، وهو الذي كان إماما زمن المؤرخ عبد الرحمن السعدي. وبالإضافة إلى الأئمة كان هناك مؤذنون،[2] من أمثال عبد الله ولد كنكي، وإبراهيم بن عبد الرحمن السيوطي.

مسجد سيدي يحي:

يورد أحد المؤرخين[3] أنه أول مسجد بني بتنبكتو، على يد ملك مقشرن، في فترة دولة التوارق الأولى، والمسجد أسس على ضريح رجل من العلماء، قدم من المغرب الأقصى لنشر تعاليم الإسلام. وقد جدد بناءه محمد نض، بعد أن تولى على مدينة تنبكتو، وأخبره العلماء بأن أجداده كانوا يصلون في هذا المسجد،[4] وجعله على الطراز المغربي الإسلامي، وعين له إماما يدعى الشيخ سيدي يحي، تبركا بالولي الصالح الذي أسس المسجد على ضريحه، واستمر في الإمامة إلى أن توفي سنة 868 هـ / 1463م.

---

[1] ـ السعدي، المصدر السابق، ص: 309.
[2] ـ محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص: 124.
[3] ـ الأرواني، المصدر السابق، و 19 ظ.
[4] ـ الهادي الدالي، المرجع السابق، ص: 155.

وبعد ذلك جدد القاضي العاقب بناء هذا المسجد، ووسعه عام 976 هـ / 1568م،[1] وقد أدى دورا هاما في نشر العلوم الشرعية.[2] وتولى عدد من الأئمة بعد سيدي يحي إمامة المسجد، منهم الإمام محمد بغيغ، والإمام محمود بن محمد الونكري، الذي توفي سنة 1018 هـ / 1609 م، ثم الإمام أحمد بن سعيد، والذي كانت وفاته سنة 1040 هـ / 1630 م،[3] وجاء بعده الإمام محمد بن أحمد الذي توفي سنة 1060 هـ / 1650 م، ثم خلفه الإمام إبراهيم بن عبد الله حتى وفاته سنة 1140 هـ / 1727 م، ثم الإمام إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة 1157 هـ / 1744 م.

مسجد محمد نض:

لا يعلم تاريخ بناء هذا المسجد، غير أن الثابت تاريخيا أن القاضي العاقب، جدد بناءه، وعدّله، ووسعه، بأن بدأ فيه في أواخر عام 976 هـ / 1568 م، وانتهى منه في شهر صفر عام 977 هـ / 1569 م،[4] أي أنه استغرق في بناءه حوالي سنة، وقد ألحقت به مقبرته.

مسجد التواتيين:

تورد الروايات أن محمد بن علي التواتي، هو الذي قام ببناء هذا المسجد عام 920 هـ / 1514 م، مع جماعة من أهالي توات وخاصة التجار منهم، والسبب هو بروز خلافات بين علماء تنبكتو والسكان من أصول تواتية، ترتب عنها بناء هؤلاء التواتيين مسجدا لهم يؤدون فيه الصلاة ويدرسون فيه العلم، وانضم إليهم ــ فيما بعد ــ جزء من سكان تنبكتو.[5] وتوالى على إمامة المسجد عدد من الأئمة، منهم الفقيه محمود

---

[1] ــ السعدي، المصدر السابق، ص: 62.

[2] ــ *FROELICH (J.C), Les Musulmans d'Afrique noire, Paris, èd. De L'Orante., 1962. p. 256.*

[3] ــ الأرواني، المصدر السابق، و 19 ظ.

[4] ــ السعدي، المصدر السابق، ص: 76.

[5] ــ الدالي، التاريخ الحضاري، ص ص: 156 ــ 157.

بن محمد الزغراني التنبكتي، الذي استمر فيه إماما إلى أن مرض بالسعال وتوفي يوم الخميس 12 رجب سنة 1011 هـ / 1602 م.

المسجد الكبير:

وهو أهم منارة للعبادة والعلم بمدينة جني، ويعد أكبر مساجدها وأقدمها، وقد صمم على الطراز المغربي الإسلامي، على يد المهندس المغربي معلوم إدريس، والذي عاصر الساحلي. وقد ارتاده طلاب العلم ودرس فيه صفوة من العلماء،[1] منهم الفقيه ساقو الونكري، الذي ولاه أسكيا محمد قضاء المدينة، والقاضي محمود أبو بكر، الذي تولى القضاء على يد أسكيا إسحاق، والقاضي أحمد ترف، وكان خطيبا وإماما للمسجد، وقاضيا، حيث جمع المراتب الثلاثة.

مسجد الأسكيا:

قام ببناء هذا المسجد أسكيا الحاج محمد، وصومعته هي أطول صومعة في مدينة تنبكتو، وقد اعتنى به مؤسسه وجعله مركزا تعليميا بالإضافة إلى دوره في العبادة، وعين له أئمة ومؤذنين يقومون عليه. والمسجد يتوسط المدينة من الجهة الشرقية، وهو مبني بالطين وسقفه بالخشب، ويختلف عن بقية المساجد في طرازه المعماري، حيث أن مكان الصلاة عبارة عن بناء طويل.

كما يوجد بمدينة أكدس مسجد بناه أسكيا الحاج محمد، نظرا لأن مساجد المدينة لا تكفي للمصلين والتعليم. والمسجد كبير الحجم، وقد عين له المؤذنين والأئمة.

مسجد الفزاني:

شيد العالم والتاجر محمد الفزاني، القادم من بلدة فزان، مسجدا بمدينة أكدس، حيث درّس فيه لفترة طويلة، وفيه من الإبداع الهندسي ما لا تجده في غيره من المساجد الموجودة بالمدينة، والمسجد يتوسط المدينة،[2] وقد درّس فيه نخبة من العلماء،

---

[1] ـ السعدي، المصدر السابق، ص ص: 16 ـ 17.

[2] _ *MONTEIL(V), Op. Cit. p. 56.*

منهم الشيخ عثمان بن أبي بكر الحضيري الفزاني في عـام 1009 هـ / 1600 م، وشغل منصب إمامته.

وأسس العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي مسجدا صغيرا بمدينة أكدس يـدعى مسجد الكرامة، وذلك عندما استوطن تلك المدينة، ودرّس به مدة من الـزمن. وتوجـد العديد من المساجد الصغيرة بهذه المدينة منها: مسجد عاسدي، ومسجد ابتل، ومـسجد تغصم، ومسجد سنتغود، ومسجد موخ، وهو أقدم المساجد بها.

ويبدو أن ولاته إلى غاية وفاة الأمير أبي بكر بن عمر لم يكن بها مسجد، حيث يرجع الفضل في تأسيس أول مسجد إلى رجل يقال له يحي، وهـو جـد لمحاجيـب.[1] ولذلك سيشكل هذا المسجد أساس النظام التراتبي في المدينة بعد ذلك، تكون الريادة فيه لأفراد تلك القبيلة.

4ـ رحلات الحجاج وتنقلات العلماء:

ومنذ القرن 11 هـ / 17 م، استقل ركب الحج بأزواد عن حجاج التكرور،[2] وذلك بعد انفراط عقد السلطة السودانية التي كانت تسهر عليه وتسيره. ومن ولاته[3] كان ينطلق أشهر ركب لحجاج أزواد، وقد بدأت تقاليد الحج تترسخ في هذه المدينة منذ فترة حكم مملكة مالي لها.[4] واستفادت أزواد علميا من مرور ركب حج تيشيت، وشنقيط، عبر أراضيها. وأدى إلى بروز سياق فكري، وعلمي، أفضى إلى تبلور فضاء لمجموعة من المتصوفة والعلماء العرب، الذين يتميزون عن غيرهم من جهات السودان الغربي.

---

[1] ـ رحال بوبريك، المدينة في مجتمع البداوة التاريخ الاجتماعي لولاته خلال القرنين 18 و19، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط ، ط 2000 ، ص: 13.

[2] ـ حماه الله ولد السالم، «مظاهر الصلات العربية الإفريقية من خلال ركاب الحاج والأوقاف في الفترة الحديثة»، مجلة مصادر، يصدرها مخبر الدراسات والبحوث التاريخية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، مطبعة ميسك نواكشوط 2004، ص: 60.

[3] ـ ذكر ابن بطوطة ركب الحج من إيوالاتن (ولاته) والذي كان تابعا لركب حج مملكة مالي. ينظر: الرحلة، ج 2، ص: 369.

[4] _ *FROELICH (J.C), Op. Cit. p. 78.*

تنقلات العلماء والطلاب:

لقد كان للطلاب بأزواد إقبال على العلم دفعهم ــ في كثير من الأحيان ــ إلى عدم الاكتفاء بالدراسة في بلادهم، وقام الكثيرون منهم برحلات واسعة إلى المغرب الإسلامي، وإلى مصر. وبلغ تواردهم على مصر أن أسس لهم في القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي رواق[1] خاص في الأزهر عرف برواق التكرور. وكانت العادة المعروفة في مزاولة التعليم لدى طلاب الصحراء أن كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر كلما سمعوا بأستاذ متضلع في علم يريدون التمكن فيه، وهذه الطريقة انخرط فيها طلاب أزواد بتوسع شديد. ومن أمثلة ذلك ما ذكره أحمد بابا[2] عن تنقل أحد شيوخه لطلب العلم، الذي رحل إلى تنبكتو للأخذ عن الفقيه أحمد بن سعيد، ولم يكتفي بذلك بل في طريقه إلى الحج أخذ بمصر عن اللقاني، والتاجوري، والبرهمتوشي، ومحمد البكري وغيرهم.

ومثل ما كان طلبة العلم بأزواد يتنقلون في مختلف جهات الأمصار لأخذ العلم، كان العلماء يتنقلون أيضا في حركة مماثلة، فالفقيه مخلوف بن أحمد البلبالي الذي قرأ في أكدس، ثم ارتحل إلى المغرب، ودرس في تنبكتو، ثم في مراكش.

حركة التعليم:

رأت أزواد في القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي نشاطا فيما يخص حركة التدريس، وقد ضمت المدارس والمساجد العديد من الطلاب والشيوخ، وتوارد عليها عدد من الشيوخ من بلاد المغرب الإسلامي وحتى من المشرق،[3] وقد ساهموا في تنشيط التعليم وتعميقه، وفي تلك الفترة بدأ علماء أزواد ــ وخاصة في ولاته، وأكدس ــ في الإنتاج، فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات التي

---

[1] ــ عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، ص: 57.

[2] ــ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج 2، ص: 373.

[3] ــ من أبرزهم: محمد بن عبد الكريم المغيلي، ويحيى التادلسي، ومخلوف البلبالي، وإبراهيم الزلفي، وكذلك عدد هام من علماء توات. ينظر: كعت، المصدر السابق، ص: 95.

وضعت خارج أزواد، وقد صاحب ذلك انتظام مراحل التعليم، وأخذه طابعا عاما، كانت له مميزاته وخصائصه.

أماكن التدريس:

كانت أمكنة التدريس الأساسية هي المساجد والجوامع، وقد كانت بعض[1] الجوامع تحتوي على مراحل التعليم المختلفة، فهناك التعليم الأولي، ثم المتوسط، وأخيرا التعليم المعمق كدرجة عالية.[2] وإلى جوار الجوامع كان شيوخ القرآن يجلسون مع صبيانهم، ويجلس في فنائه وقاعاته غالبا شيوخ التعليم المعمق. ولكن شيوخ القرآن في الغالب كانوا يتخذون محلات خاصة لتعليم الصبيان.[3] كما أن بعض الشيوخ، كانوا ـ أحيانا ـ يتعاطون التدريس في منازلهم، إلا أن هذا كان في حالات قليلة، أما غالب جلوسهم، فقد كان في رحاب المساجد والجوامع.

طريقة التدريس:

إن المناقشة بين الشيخ وطلابه كانت من التقاليد التي جرى بها العمل بأزواد. وكانت التواضع ولين الجانب للطلبة، فقد كانا من شيم الشيوخ، ويعتبر صبر الشيخ على الشرح الجيد لطلبته من صفات نجاحه في مهمته، والطريقة الشائعة في التدريس هي أن يبدأ الشيخ بإملاء رأيه في المسائل،[4] وبعدها يقرأ الطلاب درسهم من الكتاب المقرر بحضور الشيخ، ثم يطلب كل منهم توضيح ما أشكل عليه، وأثناء ذلك يقيد الطلبة التفاسير[5] التي يعطيها الشيخ كجواب على استفساراتهم.

---

[1] ـ خاصة تلك الموجودة بتنبكتو. ينظر: زبادية، المرجع السابق، ص: 57.

[2] ـ السعدي، المصدر السابق، ص: 47.

[3] _ *MONTEIL (V). Le Monde musulman, Paris., 1963. p. 146.*

[4] _ *Ibid , p. 87.*

[5] ـ أحمد بابا، نيل الابتهاج، ج 2، ص: 376.

وأثناء الشرح كان الشيوخ يختارون العبارات المبسطة لكي يتمكن طلابهم من استيعاب ما يقولون، وإذا أراد الباحث أن يوجز معالم الطريقة المثلى في اعتبار الناس آنذاك، فإن مرثية يحي التادلسي تعتبر خير معبر، حيث قال:

أطلاب علم الفقه تدرون ما الذي يثير هموم القلب من كل وافد
يثير هموم القلب فقد سميدع فقيه حليم حامد للفرائد
محمد الأستاذ مؤدب ذي النهى رباطا صبارا أمره في التزايد[1]

الإجازات:

عرف الشيوخ والطلاب في أزواد خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي نظام الإجازات، كما عرفته البلاد الإسلامية الأخرى. وبما أن طلب العلم كان يتصف بالحرية التامة، فيما يتصل بالطلاب، فإن الشيوخ كانوا لا يجيزون الطلاب إلا بعد التأكد من تمكنهم في العلوم التي يدرّسونها لهم.

أما طريقة الإجازة فقد كانت بسيطة، ولكنها كانت مما يتلاءم والطريقة المعروفة التي تستند إلى تأكد الشيخ من أن الطالب يكون قد أحرز التمكن الكافي في علم بعينه، ذلك أن الشيخ لا يراعي أية شكليات في منح الإجازة لطالب العلم على يديه، ولكنه يراعي بدقة، مدى الكفاءة التي يكون الطالب قد حصل عليها.[2] وقد كانت الإجازات تعطى فردية،[3] بمعنى أن الطالب يستطيع الحصول على إجازة من الشيخ، في العلوم التي أتقنها، ويبقى طالبا في علوم أخرى. ويشترط أن يكون الطالب قد اطلع على كل المؤلفات الكبيرة والصغيرة في موضوعها، وأجاد تحصيل المعلومات الموجودة بها.

---

[1] ـ السعدي، المصدر السابق، ص: 49.
[2] ـ زبادية، المرجع السابق، ص ص: 67 ـ 68.
[3] ـ أحمد بابا، النيل، ج 1، ص: 79.

دور الأوقاف والصدقات:

إن الأوقاف والصدقات كانت هي العامل التمويلي الهام في ازدهار حركة التعليم بأزواد في تلك الفترة، فمعظم المصاحف، والمخطوطات، التي بقيت تحمل في طياتها ذكرا بتوقيفها على الجوامع من طرف أشخاص[1] كانوا يبتغون من وراء ذلك وجه الله، كما كان تعيين الأئمة والمدرسين وترتيب الأرزاق لهم يتولاه القاضي، وهو ينفق على ذلك من الأوقاف، والصدقات المتنوعة، التي كان يتلقاها بسخاء كبير من المحسنين، ومعظم الجوامع ــ كما أشرت إلى ذلك سابقا ــ بناها أفراد موسرون في شكل أوقاف للصلاة والتعليم.

5ـ الوظائف الدينية بأزواد:

وسأركز على الأعيان الذين يستمدون شرعيتهم من مكانتهم، ووظيفتهم الدينية، لأنهم الفاعلون الرئيسيون في الحياة السياسية، والاجتماعية، في المدينة من خلال وظائف تتمحور خصوصا حول القضاء، والإمامة.

الإمامة والقضاء:

إن دور الإمام لا يقتصر على إقامة الصلاة، كما أن دور القاضي لا ينحصر في إصدار الأحكام، إن هاتين الوظيفتين لهما أبعاد اجتماعية، وسياسية. وأشير إلى أنه في أغلب الجهات بأزواد كانت وظيفتا الإمام، والقاضي، أحيانا تناط بشخص واحد. حيث تشير الحوليات إلى وجود العديد من القضاة، لكن في الوقت نفسه هناك من يترأس الجميع: رئيس الفتوى، والقضاء، والنوازل. ولقد كانت الوظائف الدينية، غالبا مصدر شرعية، من أجل الوصول إلى الرئاسة، واحتكار السلطة السياسية. فسلطة القاضي، وسلطة الإمام، كانت تجتمع في يد واحدة، ويصعب الفصل بينهما.

---

[1] ــ من جملتهم كما تذكر المصادر: الحاج علي بن سالم بن عبيدة المسراتي، كما حبّس السلطان الحاج محمد أسكيا توابيت فيها ستون جزء من الصحف لأجل الختمة، أي قراءة الختمة من المصحف بعد صلاة الجمعة. ينظر: السعدي، المصدر السابق، ص: 58.

إن الوصول إلى رئاسة القضاء، يتم بعد حياة من البحث المستمر عن العلم، والمعرفة، وممارسة التدريس.[1] وكان البعض يداوم صحبة قاض معروف ويخدمه بمساعدته في الفتوى، وهذا ما يتضح من خلال ترجمة الفقيه محمد بن محم بن إبراهيم، الذي: «أخذ الفقه عن شيخه القصري، واستعان به في كثير من أموره، وشاركه في الفتوى، والتدريس، والتحكيم، وكادت تنتهي إليه رئاسة الإفتاء، والقضاء، بولاته».[2] ونرى إذن نموذج هذا الفقيه، الذي عاش تحت كنف شيخه في انتظار أن يصل يوما ما إلى رئاسة الإفتاء، والقضاء.

ويستعمل الطالب أبو بكر المحجوبي، ألفاظا مختلفة لتصنيف المراتب، والوظائف الدينية: رئاسة الفتوى، ورئاسة الفقه والكلام، وإمام المسجد، وإمام الفقه والنحو والحديث. إن هذه التعددية، والتمايز، يتيحان نوعا من تقسيم المهام بين الأعيان، ومشاركة أكبر عدد منهم في الوظائف. ذلك أن تراكم المعرفة وسنوات التجربة في ممارسة القضاء، والإفتاء، إضافة إلى قوة الشخصية، كلها عوامل تتداخل وتؤدي دورا في الترقية الاجتماعية والدينية بأزواد.

فقد كان بعض الفقهاء يرفضون وظيفة القضاء، بدعوى أنها مهمة صعبة ومسؤولياتها كبيرة. ولكن لا نغفل أن هذا الرفض يعطي للمعني بالأمر قيمة إضافية، ونوعا من الهيبة، تجعله أكثر فاعلية في وساطته. وقد كان بعض العلماء يجبر على تولي القضاء رغم امتناعه، ومثاله: القاضي الطالب أبو بكر، وهو من بيت علم وصلاح ودين، وُصف بأنه من أهل الفضل، وخاتمة قضاء العدل، وقد تولى: «القضاء بعد امتناع واستعفي ولم يجب، وسار أحسن سيرة، باشر القضاء بنزاهة وعفة».[3] فهذا الإلحاح من طرفة الجماعة لتوليه القضاء، هو في حد ذاته ضمانة ومكسب وتشريف

---

[1] _ *FROELICH (J.C), Op. Cit. p. 98.*

[2] _ أحمد بلعراف، المصدر السابق، ص: 147.

[3] _ البرتلي، فتح الشكور، ص: 43.

حتى وإن وجد بعض العلماء الذين رفضوا نهائيا تولي القضاء كما هو الحال بالنسبة لهاشم الغلاوي، هذا الأخير رغم أنه أصدر العديد من الفتاوى على أسئلة طرحت عليه من البدو والحضر كان حسب فتح الشكور: لا رغبة له في القضاء مع أهليته له. وفي رده على أحد أصدقائه من علماء أروان يقول: «أما القضاء، فلست بقاض إذ لم تتوفر شروطه عندي، ولا انعقد لي من جهة».[1]

إن موقع القاضي داخل أزواد، يفرض عليه أن يكون حازما، وأن تكون شخصيته قوية، في مواجهة محيط قلما راعى تطبيق الأحكام القضائية، وخصوصا القبائل الرحل من بني حسَّان. لذا نجد نماذج من قضاة كانوا صارمين مع الظلمة، واللصوص،[2] واستطاعوا بفضل شخصيتهم القوية فرض أحكامهم، وسلطتهم القضائية، وهذا ما تعكسه ترجمة ببان بن محمد المختار بن اعلي، حيث كان: «سائسا، رئيسا من رؤساء أهل ولاته ... جسورا على الظلمة، واللصوص، وكان من أعظم أهل زمانه».[3] ويقدم لنا صاحب فتح الشكور، نموذج هذا القاضي، الذي لم يمد سلطته فقط على حسان، بل تجاوزه إلى بشاوات الرماة، والقادة، والتوارق، وأهل الشوكة، من مجموعات قطاع الطرق: «كان سيدي عثمان بن عمر الولي رحمه الله غرة عصره، في سلوك طريق السلف الصالح، على قدم صدق من الصلاح، والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يواجه بذلك أكابر الظلمة، والباشاوات، والقياد، وغيرهم من لصوص المغافرة، والتوارق. وأما أكابر الظلمة بين يديه أحقر من دابة... فكانت البوادي أهل الجنوب إذا صالت عليهم افلان[4] يدخلون عليه في ولاته بمواشيهم،

---

[1] ـ البرتلي، المصدر السابق ، ص: 115.

[2] _ *BA KONARE (A), Op. Cit. p.26.*

[3] ـ ببكر بن أحمد المصطفى المحجوبي، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور، ص ص: 182ـ 183.

[4] ـ يقصد فلان.

وأموالهم، وذراريهم، ونسائهم، فلا يتعرض لهم، وكان الجاني إذا دخل داره، أمن ما دام فيها».[1]

ويمكن التأكيد أن هذا النموذج من القضاة كان نادرا. ففي أغلب الحالات كان القضاة أنفسهم ضحية لظلم وعنف بني حسان، وهذا ما دفع بالفقهاء إلى أن يصيغوا فتاوى من أجل حماية أنفسهم.

وراثة الوظائف:

لقد كان للمسجد دور هام ليس فقط باعتباره مركزا للعبادة ونشر المعرفة، بل أيضا مكانا لإعطاء الشرعية للسلطة السياسية، والاجتماعية، داخل أزواد. لقد شكل بؤرة السلطة بفضل قوته الرمزية داخل المنظومة الإسلامية. ويتحتم على المجموعة الراغبة في الوصول إلى الحكم أو احتكاره، الهيمنة على الوظائف المرتبطة بالمسجد. وإلى جانب هذا الدور، فالمسجد يعطي لهذه الأخيرة في محيطها مكانة دينية ورمزية. وهذه العوامل هي التي ستجعل الوظائف المرتبطة بالمسجد محط تنافس.

وقد كان لمحاجيب ــ في هذه الفترة ــ يحتكرون الوظائف الأساسية داخل أزواد، وبالخصوص في الشمال وخاصة منصب الإمامة في الصلاة، الذي كانت الوراثة فيه هي القاعدة. فالإمامة تورث أبا عن جد، وكل إمام يحاول جاهدا المحافظة على هذا المنصب بين ذريته، وأحفاده.

وفي هذه المنطقة، يمكن أن نعتبر بأن العامل القبلي هو الذي كان وراء ترسيخ ظاهرة الوراثة في هذا الميدان. إن نظام الوراثة في مجتمع قبلي حيث الحقل السياسي، والاجتماعي، والديني، مؤسس ومحدد بقواعد وبنيات القرابة، والنسب، سيصير مهيمنا على كافة مظاهر الحياة؛ بل حتى في ميدان الولاية، والقداسة، سيؤدي العامل القبلي

[1] ــ البرتلي، فتح الشكور، ص ص: 192ــ 193.

دورا هاما ليس فقط في الانتماء الطرقي للمريدين،[1] بل حتى في التأثير على تطور الطريقة، وكيفية إدارة الخلافة، والإرث الروحي، للشيخ المؤسس.

ولقد أشرت في السابق أن لمحاجيب كانت القبيلة المهيمنة على الوظائف الدينية، حيث أسسوا سلطتهم على الوراثة. وحسب البعض[2] فإن فرع الإمامات من هذه القبيلة، هو أول من تقلد الإمامة. وهذا الفرع هو أحد الفروع الثلاثة التي تكون القبيلة، ومن المهم الإشارة إلى أن الإمامات لا ينتسبون مباشرة ليحي الكامل، جد لمحاجيب. فهذا الفرع كان من سكان ولاته الأوائل، الذين تحالفوا مع جد لمحاجيب وتم تقسيم السلط بينهم، حيث آلت إليهم الإمامة، ومن هذه الوظيفة استمدوا اسمهم. ولقد زاولوا وظيفتهم هاته لمدة زمنية طويلة، وبتوارث وظيفة معينة جيلا بعد جيل، تحمل المجموعة اسم الوظيفة، وهذه العملية في حد ذاتها، تعتبر إحدى الطرق المعتمدة للاحتفاظ بهذه الوظيفة، وترسيخها اجتماعيا، وكأنها حق طبيعي.

إننا لا نتوفر على معلومات وافية عن العائلات المنحدرة من الإمامات، التي شغلت وظيفة الإمامة. وكل ما نعرفه عنهم أنهم ظلوا يتوارثون، ويحتكرون، هذه الوظيفة حتى القرن السابع عشر الميلادي، قبل أن تنتقل إلى أولاد الفقيه الذين ينحدرون مباشرة من يحي، لفقيه عثمان بن محمد بن يحي. ولا نستطيع كذلك الوقوف على الظروف التي مرت بها تنحية الإمامات من وظيفتهم لصالح أولاد الفقيه. ويعزوها بعض المؤرخين[3] إلى كون الإمامات انقرضوا! وعلى العكس من ذلك، فإن البعض الآخر[4] يبدو أكثر وضوحا ويعود بالسبب إلى انقراض العلم، والدين، في بيت الإمامات. فهو يقول بأن الإمامة: «لا تكون إلا في بيت لمحاجيب، في بيت العلم منهم،

---

[1] _ *BOUBRIK (R), fondateur et héritier: la gestion d'une succession confrérique (Mauritanie), Cahiers d'Etudes Africaines, 159, XL_ 3, 2000. pp. 433_ 465.*

[2] ـ المختار ولد حامد، لمحاجيب، مرقون بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص: 01.

[3] ـ ولد حامدون، لمحاجيب، ص: 01.

[4] ـ المحجوبي، منح الرب الغفور، ص: 302.

والدين، والنسب، والحسب، والخلق. فكانت أولا في بيت منهم يقال له الإمامات، بيت علم، ودين، وصلاح، وولاية، فلما انقرض العلم، والدين فيهم، صارت في آل أحمد الوالي، بنفسه جمع بين الإمامة، والرياسة، والقضاء، ثم صارت في آل لعويدي، التي هي فيهم اليوم تولاها الإمام عمر مم فيهم، من القرن الحادي عشر إلى يومنا هذا في القرن الرابع عشر».[1]

وأحمد الوالي الذي ذكره في النص ينتمي إلى عائلة عبد الله، المنحدرة من فرع أولاد الشيخ، الذي ينتمي إلى أهل عثمان الفقيه. إن العديد من أفراد هذه العائلة شغلوا مناصب دينية، وزمنية، فيما سبق. لكن أحمد الوالي، هو أول من تقلد منصب الإمامة منهم، وكان مشهورا بلقب: " أسد دُليل " كنية بالمكان الذي كان يلقي فيد دروسه.[2] وبعد وفاته سنة 1014 هـ / 1605 م، خلفه ابنه عبد الرحمن (ت 1130 هـ/ 1717 م) الذي كان موصوفا: «بالعلم، والفضائل، والرياسة، والعدالة، والنزاهة، عدلا في قضائه، صليبا في قلبه».[3] وبعد وفاته تولى ابنه أمحمد (ت 1185 هـ/ 1771 م).

ولم تدم الإمامة في بيت أهل الوالي طويلا، حيث برزت عائلة أخرى هي عائلة لعويدي. هذا البيت منحدر من المحجوب، وينتمي إلى إحدى المجموعات التي تُكون فرع أهل لفقيه عثمان، إلى جانب أولاد الشيخ، وأهل أحمد المحجوب. ولم يحتفظ آل لعويدي إلا مدة قصيرة بالإمامة، لتنتقل إلى عائلة أخرى من أولاد المحجوب، ممثلة في الإمام أعمر ماما (ت 1201 هـ/ 1786 م)[4] الذي مكث في منصبه أربعين سنة، وقبل وفاته عيَّن ابنه محمد عبد الله (ت 1214 هـ/ 1799 م) الذي مكث بدوره اثنا عشرة سنة إماما.

---

[1] ـ المصدر نفسه، ص: 302.
[2] ـ ولد حامدون، لمحاجيب، ص: 03.
[3] ـ المحجوبي، منح الرب الغفور، 176.
[4] ـ رحال بوبريك، المدينة في مجتمع البداوة، ص: 37.

مما يلفت الانتباه ونحن نتصفح سير أفراد هذه العائلات العالمة هو نشأة بيوتات علم وانقراض أخرى بصفة دائمة. وهذا ما خلق حركية مكنت من تجديد دائم للأعيان داخل أزواد. إن ثبات عائلات معينة في منصب الإمامة، نادرا ما يصمد أمام المنافسة والانقراض العلمي. فقليلا ما نجد بيت علم يعمر على مدى أجيال متلاحقة.

ويجدر التنبيه إلى أنه إذا فقدت عائلة ما وظيفة الإمامة، فإنها تحافظ غالبا على أدوار أخرى مثل: القضاء، أو الفتوى، إلى جانب التعليم، والتأليف. ونستنتج أنه كان هناك نوع من توزيع المهام بين الأعيان، حيث إن الإمامة، ورئاسة الفتوى، والقضاء، كانت كلها تخضع لتوازن اجتماعي وتراعى مشاركة جميع الفعاليات الدينية، وعدم إثارة منافسة قوية وتذمر بعض العائلات والأعيان، الذين يتوقون بدورهم إلى نصيبهم من السلطة في إدارة شؤون أزواد.

حتى إن وجدت شخصية بارزة جمعت بين تحمل مناصب متعددة، فإنها لم تكن إلا إبان مرحلة عابرة. هذا إضافة إلى أنه حتى منصب الإمام، كان ــ أحيانا ــ يشارك فيه وبطريقة مباشرة، أو غير مباشرة عدد من الأفراد. فإمام المسجد، كان يقوم بإمامة الصلاة في المناسبات الدينية، وأيام الجمعة، أما في باقي الأيام، فقد كان أشخاص آخرون، يقومون بالإمامة نيابة عنه. كما يمكن ملاحظة فئة مختصة داخل المسجد تقوم بالمدح، والآذان، والذكر. وكل هذا يضمن مشاركة واسعة، ولو على مستوى أدنى، في إدارة شؤون المسجد.

إن احتكار الوظائف وتراكمها في يد قبيلة واحدة، كان مصدر توتر دائم. وهذا لم يكن سائدا فقط في جهة واحدة بأزواد. ففي الجهة الغربية من المنطقة، كان الصراع والمنافسة محتدمتين بين أيد وعلي، والسماسيد،[1] وأيد وعلي، والأغلال، فيما بعد. وهذا

[1] ــ وهو ما نتج عنه هجرة السماسيد وتأسيسهم لإطار خاص بهم. تلك الهجرة جاءت أعقاب الصراع الذي نشب بينهم وبين الأغلال على منصب الإمامة، انتهى لصالح الأغلال، ويبدو هذا النزاع في الواقع كجزء من الصراعات العصبية التي تفشت في القرن 17 م داخل المدن. ينظر: بيير بونت، إمارة آدرار، ص: 36.

ما كان يحتم توزيعا للمناصب، والوظائف، حيث يراعى وزن كل مجموعة، ويتم غالبا وسط جو مشحون بصراعات قبلية من أجل مراقبة المجال.

وهكذا يتضح بأن المسجد كان أهم مؤسسة تعليمية في المدينة. وكان الإمام يترأس المجالس التي تعقد بالمسجد حسب جدول محدد لقراءة الحزب، وكتابي صحيحي البخاري، والشفا، ويتولى الإمام، أو غيره من كبار العلماء مهمة الشرح. وكانت هذه المساجد مفتوحة لكل المتعلمين.

وكانت منازل كبار العلماء بمثابة معاهد للدراسات المعمقة. وعلى العكس من درس المسجد الذي كان مفتوحا، فإن دروس المنزل كانت تقدم لخاصة طلبة الشيخ، لا سيما من وصلوا مرحلة الملازمة، والطالب الملازم يكون في الغالب قد أكمل تعليمه وأصبح مكلفا بتقديم الدروس نيابة عن الشيخ. وهو يلازم الشيخ في حياته العامة، فيحضر مجالس القضاء ويستمع إلى ما يدور في مجالس العلماء، وفي هذه المرحلة يتعرف الطالب ــ الذي سيصبح في عداد الفقهاء ــ على من سيكونون زملاءه عندما يحصل على الإجازة من شيخه.

وكثيرا ما يعمل النابهون من المجازين الرحلة إلى المغرب، والمشرق، لاستكمال زادهم العلمي، والتحلي بإجازات جديدة تكون ــ ما أمكن ــ عالية السند. وكان مصدر إجازات علماء أزواد هو المغرب، ومصر، والحجاز. ويبقى المغرب، ومصر، أهم رافدين للعلم بالسبة لأزواد، كما يظهر من الاستعراض الذي قام به مؤرخو تلك الفترة، لقوائم مؤلفي الكتب المقررة في المدارس بأزواد.

ومن كل هذه الروافد، وبالتفاعل مع السياقات المحلية، تشكل إجماع علمي استمر حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، على الالتزام بالمذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية.

الفصل الثالث :

قبيلة كنته والمختار الكنتي

تمهيد:

نشأت المراكز الحضارية الأولى لقبيلة كنته على ساحل المغرب الإسلامي، في المناطق الخصبة. غير أنهم وهم عرب ألفوا الصحراء والبادية، توجهوا إلى الجنوب، وأسسوا تجمعات بشرية، في وضع جغرافي فريد على ساحل رقعة صحراوية كبرى. وظلت هذه القبيلة تتنقل وتعيش في الخيام في الفترة الأولى من وصولها إلى أزواد، كما عاش أغلب البدو الذين يتنقلون مع قطعانهم، بحثا عن المراعي حسب الفصول والأمطار. وبذلك تكيفت مع طبيعة جاحدة تحت شمس حارقة.

ومع مرور الوقت أسست مدن، وقرى، ببلاد الساحل السوداني. وشهدت هذه القبيلة تغيرا جذريا مع بروز المختار الكبير، كشيخ، وعالم، استطاع أن يحدث لكنته دروا حضاريا، بالنظر إلى الدور الذي أداه أجداده رواد الفتح الإسلامي.

1ـ أصل كنته وانتشارها:

تتشكل قبيلة كنته من تلك الوحدة السلالية، التي تندرج فروعها المختلفة ابتداء من توات، إلى منطقة زندر،[1] حتى الجهة الغربية من الصحراء الكبرى. وهي بذلك تنتشر في: توات، تيديكلت، أدرار موريتانيا، وتكّانت،[2] والعصابة[3] والحوض،[4] وأزواد، وعقفة نهر النيجر، وأدرار إفوغاس، وضفة الهوسا[5] الشرقية من نهر النيجر، حتى

---

[1] ـ زندر: هي منطقة شمال النيجر، وبالقرب منها منطقة أكدس. ينظر: محمد الحشائشي، الرحلة، ص: 46.

[2] ـ تكانت: ومعناها الغابة، ويحفها جبل عظيم من الجانبين يسمونه سن تكانت، وعرضها يقرب من خمسة أيام، ولها طرق كثيرة. منها ما هو صعب، ومنها ما هو سهل. ينظر: ابن الأمين، المرجع السابق، ص ص: 443 ـ 444.

[3] ـ العصابة: هي جبل ممتد عن شماله مقطير، وعن جنوبه حيط آدرار، وفيه: شار وهو بئر عظيم. وشون، وهو جبل عظيم. وأشريريك، وهي عين. ينظر: ابن الأمين، المرجع السابق، ص: 437.

[4] ـ الحوض: وهي أرض مشهورة بعد آوكار. أولها مما يلي تيشيت، ومن محالها: تيبوشاتن، إم الاحياض، أم للّي، صوّانة، الرّك، ادياده، تيجطي. ينظر: ابن الأمين، المرجع السابق، ص ص:456 ـ 457.

[5] ـ الهوصا: وتكتب الهوسا كذلك، وهي منطقة جامعة لكاشنة وكوبر، وأغلبها في شمال نيجريا، وجزء منها في جنوب النيجر. ينظر: سيدي بابه، إمارتا ادوعيش ومشظوف، ص: 201.

طاوه.[1] ومخيماتهم تتوزع في تلك المناطق.

ونمت هذه القبيلة، وتطور كل فرع من فروعها محليا ضمن محيطه، وتلاءم مع بيئته. ولا تتعارف مختلف فروع كنته، المبعثرة في الصحراء إلا بالاسم على الغالب. وهي قبيلة كغيرها من القبائل الصحراوية، تهتم بعلم الأنساب وشجراته. وتمتلك عن ماضيها العديد من الروايات التاريخية الوفيرة، وعددا لا بأس به من النصوص المكتوبة، وهي متفاوتة من حيث الأهمية والقيمة.

وفي معرض حديث محمد الخليفة الكنتي عن أجداده، عرض لأحدهم ويدعى علي بن يحي، فذكر أنه كان معاصرا لدولة أبي فارس[2] في القرن 8 هـ / 14 م، فقال عنه: «... وكان يخرج إلى المرابطين أيام دولتهم بالصحراء، وجيل حسان يأخذون عنه الأوراد، ويستمدون منه الإمداد، وذلك في دولة السلطان أبي فارس... فخرج إلى الصحراء، فتزوج بنت محمد بن الم بن كنت بن زم،[3] ورئيس إبدوكل[4] وكانت تدعى هذه الفتاة بأهوى،[5] فأولدها ابنه خاتمة السلف وعين أعيان الخلف سيدي محمد الكنتي، فنشأ في أخواله من إبدوكل...».[6]

وهكذا يتضح أن أساس التسمية يرجع إلى أصول بربرية، وبالضبط إلى المرأة التي تزوج بها جد القبيلة. وهذا لا يخالف ولا يناقض تأسيس زاوية كنته بتوات في

---

[1] - *LHOTE, Op. Cit. p. 140.*

[2] ـ أبو فارس: هو أبو فارس بن أبي العباس الحفصي تولى سنة 696 هـ / 1393 م، انتحل اللقب الخليفي، وسار سيرة أبيه في الاعتماد على مشيخة الموحدين، وأكمل ما بدأه أبوه من توحيد المغرب، حيث أطاح بأمراء الأسر المالكة في بجاية وقسنطينة وطرابلس وقفصة وتوزر وبسكرة، وعين فيها ولاة مختارين من بين مواليه العتقاء، اهتم بالعلم وأهله، وتوفي سنة 737 هـ / 1434 م. ينظر: محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، ص: 148.

[3] ـ محمد بن آلم بن كنت بن زم: هو محمد آلم بن كنت بن زم بن تملكت بن تنفئت بن يب بن أشنت لدن رأس أبدوكال. ينظر: أحمد البكاي، ورقات منسوبة له، مخطوطة بخزانة بيت العود بأقبلي، و 1 ظ.

[4] ـ إبدوكال: ويدعون كذلك إيدوكلن، وهم من لمتونه ومنهم: إيدكجه، اندمجوا في السودان. وإيدكوجي، من تشمشه. وفي النعمة بقية من إبدوكل احتفظت بالاسم. ينظر: ولد حامد، حياة موريتانيا، ص: 45.

[5] ـ أهوى: هي أم محمد الكنتي، وأسمها أهو بنت محمد آلم بن كنت بن زم بن تملكت بن تنفئت بن بابل بن اشنت لدن رأس إبدوكال. ينظر: أحمد البكاي، المصدر السابق، و1 ظ.

[6] ـ محمد الخليفة، الطرائف، و56 ظ.

مرحلة تالية.[1] والتسمية التصقت بالقبيلة في منطقة السودان الغربي، وبالضبط في قورمة بسنغاي،[2] وهذا ما تؤكده الأبيات التي قالها محمد بن الشيخ الأرواني:

الكنته اسم ايالة في لفظهم لقب لوال بَعُدَ في الزمن

هناك قريتها كنته قور اسمها بشرق سنغاي من قديم الزمان

وهناك مجموعة من الأصول التاريخية، التي تتناول تاريخ كنته، وضعها علماء من هذه القبيلة. وأهم تلك الأصول: الرسالة الغلاوية، والطرائف والتلائد في مناقب الشيخين الوالدة والوالد، لمحمد الخليفة الكنتي. وكراس صغير يحتوي على تاريخ موجز لهذه القبيلة، وضعه الشيخ باي بن عمر الكنتي[3] الذي كان ينشط بمنطقة تلّية. وهناك كتاب آخر هو تاريخ كنته،[4] والذي تم ترتيبه بأمر من الشيخ المختار الكبير.

فروع كنته:

وقد تفرعت عن القبيلة العديد من الأفخاذ، انتشرت في مناطق كثيرة من الصحراء الكبرى. ويشكلون أربع مجموعات كبرى: كنته الصحراويون وهم على التوالي(الرقاقدة، الهمّال، أولاد الوافي). كنته قورمة، أهل علواتة، أهل بادي.

---

[1] ـ يحاول محمد حوتية التأكيد أن اسم كنته لم يأت من السودان لأن القبيلة تركت قصرا في توات بهذا الاسم، وفي اعتقادي أن هذا الاستنتاج باطل لأن تسمية القصر جاءت بعد شهرة القبيلة. لأنه لم يرد أي ذكر لاسم هذا القصر في المصادر الوسيطة عدا المصادر الكنتية، وهي مصادر حديثة في مجملها. ينظر: محمد حوتية، قبيلة كنته بين إقليمي توات وأزواد، ص: 18.

[2] ـ سنغاي: وتمتد مملكة سنغاي على ضفتي نهر النيجر إلى الشمال من الداهومي عند مدينة داندي إلى جنوب فولتا العليا وشمال نيجيريا، وتعتبر آخر ممالك السودان الغربي التي ازدهرت في المناطق الواقعة ما بين حوضي نهر السنغال ونهر النيجر وهي تشبه مملكتي غانا ومالي في استجابتها للإسلام ولمؤثرات الثقافة العربية الإسلامية وقد امتدت مابين (912 ـ 1000 هـ) (1468 ـ 1591م). ينظر: عطية مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط الأولى 1998، ص: 301.

[3] ـ باي بن عمر: ولد عام 1282 هـ / 1865 م، وكانت أمه العافية، جارية من بيلة من قبيلة ايبوغليتن، وهي جارية الشيخ عمر. وقد حصل على تعليم إسلامي ممتاز على يد والده، وأخيه الأكبر، واشتهر كأديب مرموق. وعلى اثر وفاة والده سنة 1314 هـ / 1896 م، أصبح باي هو الزعيم الروحي لكنته أزواد، وانصرف كليا للعبادة والدراسة. وكان يتحدث لغة تماشق بطلاقة. ينظر: مارتي، المرجع السابق، ص ص: 130 ـ 135.

[4] ـ لا زال هذا المخطوط في حكم المفقود.

أ- كنته الصحراويون:

وتنقسم كنته الضفة اليسرى لنهر النيجر، أو كنته الصحراويون إلى أربعة أفخاذ رئيسة وهي: الرقاقدة، وأولاد المختار، والهمال، وأولاد الوافي. وينضم اليهم مخيمات الشيخ علواتة وتلاميذه، الذين ينتسبون إلى هجرة حديثة. وينتشرون هؤلاء جميعا في أزواد، وآدرار إيفوغاس، وتيميترين.

- الرقاقدة:

وينقسمون بدورهم إلى ثمانية أفخاذ فرعية، ويتبع كل واحد منها مخيمات تابعة لقبائل عربية، أو طوارق ايمغاد، أو فلان، ويعرفون حسب تعبير الطلبة الصحراويون، بالتلاميذ.

والأفخاذ الفرعية هي وحدها التي تعد من أصل كنتي، ويتألفون من حيث المبدأ من ذراري محمد الرقاد،[1] وهو الجد الذي منحهم اسمه، وهو ابن أحمد الفيرم[2] بن الشيخ عمر الشيخ.[3] وينقسم الرقاقدة، إلى الأفخاذ الفرعية التالية:

- أهل الصديق: وهم يتكونون من أهل عبد المؤمن، وتركز، وأولاد عمران، وأهل العليبات، وأولاد البكاي، وأهل النهارات.

-أهل علي بن أحمد: وهم الأمهار، وأهل اقليلة، وأهل آمينوكة.

-أهل أحمد بن اعمر: وهم أهل بوزكري، وأهل كومة، وأهل الطالب الأكحل.

---

[1] ـ محمد الرقاد: كان عالما متفننا، عابدا متمكنا، وسبب تلقيبه بالرقاد: أنه قدم عليه قوم مختصمون حول معضلة، وأدركوه نائما فحل المشكلة بينهم وهو على تلك الحال! وقد كانت له ملكة حفظ قوية حتى قيل: أنه يحفظ ألف مجلد، وكان يحل أية مشكلة علمية، لا يستطيع أقرانه حلها. توفي سنة 994 هـ / 1585 م. ينظر: الدالي، التاريخ الحضاري، ص: 222.

[2] ـ أحمد الفيرم: وهو من أهل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وكان من العلماء، تتلمذ على يديه الكثيرون. وتوفي سنة 950 هـ / 1543 م. ينظر: مجهول، سلسلة القادرية، مخطوط بخزانة الأنصاري بأقبلي، و 1 ظ.

[3] ـ عمر الشيخ الكنتي: هو الابن الثالث لأحمد البكاي، وأبرز تلميذ لمحمد بن عبد الكريم المغيلي، التقى به في السودان ولم يفارقه حتى توفي. ذهب معه إلى الحج ومرا في طريقهما بمصر أين التقيا السيوطي. وقد نالته بركت والده وأعده لاستخلافه، وهو رأس القادرية بالصحراء بعد وفاة شيخه المغيلي. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف، و43 ظ.

- أهل الشيخ: وهم أهل خطري، وأهل عبد الله.
- أهل يحي: ويتكونون تحديدا من أهل بيكن.
- أهل المصطفى: ويتكونون بالتحديد من أهل عمر.
- أهل الفيرم: وخيامهم مقتصرة عليهم.
- أهل الحبار: وتقتصر خيامهم على أهلهم.[1]

- أولاد المختار:

ويعرفون كذلك بالمخاتير، وينقسمون إلى الأفخاذ الثانوية التالية: أهل بادي، أهل بوهادي، أهل مينة، أهل حمو صالح، أولاد زيد، المازيل، أهل الطالب محجوب. وقد ترك المازيل من هؤلاء حماية قبيلة ايلمدن، كي ينضووا تحت حماية كنته الدينية. ولكنهم احتفظوا بسب إقامتهم بين ظهراني الطوارق، باستعمال لغة تماشق وبأخلاقهم وعاداتهم، ولهذا ينظر إليهم على أنهم ايقلاد. وقد ارتحل عدد من خيامهم نحو توات مع سيد العابد[2]، وينتجعون بين أقبلي[3] وآهنت.[4]

- الهمّال:

وينقسمون بدورهم إلى الأفخاذ التالية: أهل علواتة، وأهل موسى، والتوابير، وأهل شيخنا، والنورات، والنهرات. وبعدما كان الهمال تؤلفون أحد أكبر الأفخاذ الفرعية لقبيلة كنته، فقد قلّ عددهم كثيرا بأزواد، حيث رحلت العديد من خيامهم إلى توات.[5] وتأثرت أعداد أخرى منهم بالمجاعات المتكررة في عقفة النيجر. ومن الذين

---

[1] ـ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و 26 ظ.

[2] - العابد: وهو من الأولياء الصالحين كان شيخ زاوية أقبلي في زمانه، وقام بجولات كثيرة بين تنبكتو ونهر النيجر. ويوجد ضريحه في القصبة التي تحمل اسمه بشرق زاوية أبي نعامة الكنتي. ينظر: وثيقة عنه بخزانة بيت العود بقصبة سيد العابد بأقبلي بأولف.

[3] ـ أقبلي: مجموعة من القصور تضم: زاوية أبي نعامة، والقصبة، والمنصور، وأركشاش، وساهل. وهي تقع إلى الجنوب الشرقي من أولف، وهي إحدى المراحل الهامة في طريق ركب الحج السوداني عند توجهه إلى البقاع المقدسة. ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص: 48.

[4] ـ آهنت: غابة تقع إلى الجنوب من أقبلي.

[5] ـ محمد الخليفة، الطرائف، و51 ظ.

بقوا بأزواد أولاد سيد أحمد كنته، وأولاد سيد عبد الرحمن وأهل الأزرق في تجكجه وأهل بونعامه في السينغال.[1]

- أولاد الوافي:

ويؤلفون أكثر أفخاذ كنته عددا، وينقسمون إلى عشرة أفخاذ، ويطلق على الثمانية الأولى اسم أهل الشيخ ويؤلفون أول مجموعة، ويتألف التاسع من أهل محمد ولد أحمد، ويشكلون مجموعة ثانية، وفيما عدا هاتين المجموعتين، اللتين تؤلفان نوعا من مجموعة ثالثة، هناك الفخذ العاشر، وهم أولاد ملوك. وعلى الجملة ينقسم أولاد الوافي إلى الأفخاذ التالية:

- أهل بادي: وهم المهارن ومشظوف، ولادم، والطرشان، ودورق، وتاقاط، وتدابوكة، وبدوكن، وأولاد بن عمار، وايفلان. وينتجعون في عين أوكر وكرشول واتناسيت، وعلى النهر.[2]

- أهل عابدين: المهار، ولادم، والعريم، وياداس، والزخيمات، والتوابير. وهم يرتحلون إلى كرشول، وتاسيت، وأغاروش، وآمراس، واسكنت، وتابنويت، وتيلمسي.[3]

- أهل الشيخ البكاي: وهم أهل التمري، وياداس، وأهل الأزرق، وأهل الفلاني. وهذا الفخذ الفرعي في حالة تحول مستديمة، فقد ذهبت بضع خيام منهم نحو هوقار، في حين تحول بعضهم نحو قورمة، بينما ذهب آخرون إلى دنك، وعاد بعض الأوائل منهم إلى مواطنهم. وينتجعون في كرشول، وانتاسيت، وتاركنت، وآماغاز، ومجافلت، ومرزفال، وأفايس. ولما كان هذا الفخذ قريبا من المجال البربري الزناتي، دعاهم بعض المؤرخين بزناتة كنته.[4]

---

[1] ـ المختار ولد حامد، حياة موريتانيا الجغرافية، ص: 57.

[2] ـ آمن بن بوغتو، المصدر السابق، و 15 ظ.

[3] ـ مجهول، خبر السوق، و 5 و.

[4] - *GAUDIO (A), Op. cit. p. 60.*

- أهل بابا ولد بابا أحمد[1]: ويتكونون من أولاد زين العابدين، وأهل بادي، ولادم، وأوريلة ايمانيس. وينتجعون في العادة في وادي اكرر، وأصكان، وتبنكورت.

- أهل باي: وهم ايفلان، ولادم، والتلاميد. ويقصدون في نجعاتهم، آدرار ايفوغاس ولاسيما تلكوت.[2]

- أهل بابا ولد الشيخ محمد: وهم ترمز، والنهرات، والحبوس.

- أهل الأمين: ويتكونون من ايفلان، وينتجع هذا الفخذ – في الغالب – نحو تفاليست.

- أهل الشيخ عمر[3]: ويتكونون من تجاكنت، أهل توات، أولاد سعيد، ودورق، وأهل العطاري، وحرطان. وينتجعون من غاروس إلى اسلاف، ويقصدون في كثير من الأحيان آدرار ايفوغاس، حيث يملكون أراضي رعي تخصهم.

- أهل محمد أحمد: ويتكونون من أهل عبد الرحمن. وينتجعون في انتاسيت، وفي تفليست.

- أولاد ملوك: وهم أولاد عمر، وأولاد حديك، وأهل القبلة. وينتجع أولاد ملوك في كرشول، وأفس أنفس، وايمرقان، واينوكر، وتونضيبي.[4]

ب- كنته قورمة:

أما كنته قورمة، الذين يدعون كنته اريبندة أيضا،[5] هم أقل عددا من أبناء عمومتهم الشماليين. وبما أنهم يعيشون في وسط أقوام زنجية ويختلطون بهم عن طريق المصاهرة، فيظهرون شديدي التهجين.

وهي تضم زوايا وأتباعا أو ايمغاد. ويطلق عليهم تلاميذ، وذلك عند قبائل الطلبة، كما يطلق عليهم اسم بيلّة أو الخدم. وتنقسم كنته قورمة إلى الأفخاذ التالية:

---

[1] ـ الأرواني، الجواهر الحسان، و 13 ظ.
[2] ـ التنبكتي، التاريخ الخاص بالتواتر، و 11 و.
[3] ـ مجهول، خبر السوق، و 5 ظ.
[4] ـ بن بوغتو، المصدر السابق، و 8 و.
[5] ـ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و 26 ظ.

- أهل بادي: وهم القوانين، والرقاقدة، والتلاميذ، وشريفن، وايمورامن، وأهل كاهيدي، وايدنان، والحراطين الحمر، وايكايماداين، وايكورشاتن.[1]

- أهل علواتة[2]: وهم أولاد ملوك، وايبغافن. ويسمى مخيم أهل بادي بالحلة، أي المخيم القائد.

وينتسب التلاميذ إلى مجموعات من المخيمات ذات الأصول المختلفة جدا. والمخيمات الرئيسة هي: تاقاط،[3] السكاكنة، أولاد ملوك، وأهل إبراهيم ولد شيتة. وأما شريفن، فهم فخذ صغير من كل السوق، التصق منذ زمن طويل بكنته. وايكايماداين، هم عبارة عن بيلّة ينتجعون على ضفة الهوصا، بين كثيب تهف وتيمانشّه.

وتنتجع هذه الأفخاذ في الفصل الجاف في بحيرات العقفة، فأهل بادي تجدهم حول بحيرات كوروسي، وقادو، ونيانقاي، وهاريبونقو. وأما أهل علواتة، حول كورارو. ويبتعد هؤلاء وأولئك نوعا ما، عن منطقة البحيرات وذلك خلال فصل الأمطار.

ولديهم عدد من الحقول المزروعة حيث يزرعون الدخن والأرز، وتقع ثلاث من قراهم على بحيرة قارو، وأربع قرى على بحيرة هاريبانقو، وكلاهما على ضفاف النيجر وواحدة بجوار ورني.

وتعد قبيلة كنته من قبائل الزوايا بأزواد واشتهرت بذلك،[4] ويبين محمد الخليفة في نص فريد تقسيمات القبائل بأزواد، وينتهي إلى أن كنته: «لا نسبة لها في التلصص، ولا في البغي، ولا في الحرابة. وإن ثبت أنه لا أصل لها في الحرابة، والبغي، وليسوا

---

[1] ـ مجهول، خبر السوق، و 9 و.

[2] ـ التنبكتي، التاريخ الخاص بالتواتر، و 17 و.

[3] ـ المختار ولد حامد، حياة موريتانيا، ص: 50.

[4] ـ حول القبائل الزاوية ينظر: محمد المختار ولد السعد، إمارة الترارزة وعلاقاتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703 إلى 1860 ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط، ط 2002، ج 1. ص ص: 25 ـ 89.

ممن عرف بذلك واتسم متقدما، دخلوا لا محالة في غمار الزوايا، الذين هم على أنحاء: منهم الذين لا يحملون السلاح، ولا يتخذون الأتباع، ولا يواسون لصا، وهم زوايا القبلة. ومنهم الذين يحملون السلاح، وتأوي إليهم الأتباع، ويواسون اللصوص، وهم مع ذلك متسيرون بسيرة الزوايا، متدينون يتعلمون العلم ويعلمونه، وفيهم العلماء والأولياء. ثم تعدى إليهم مدفوع المواساة من لص ومحارب، دفعوه عن أنفسهم، وأموالهم، وحرمهم، بما بأيديهم جالبا ذلك عليهم ما هو جالبه، وهؤلاء زوايا تكانت، والحوض، ومن خلفهم من الزوايا إلى منتهى المعمور».[1]

2ـ الفترات التاريخية لتشكيل قبيلة كنته:

وبعد الاستعانة بأغلب المصادر، والتي اهتمت بتاريخ هذه القبيلة يمكن للباحث أن يميز ثلاث فترات رئيسة في حياتها:

فترة التأسيس:

بدأ الإسلام ينتشر في مناطق جنوب الصحراء الكبرى، منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. واستمر عدة قرون، وكانت أدوات إيصاله متنوعة، غير أن أهمها بدون شك هو شجاعة الفاتحين في ركوب الصعاب، ومن جملة هؤلاء عقبة بن نافع، الذي تنتسب إليه هذه القبيلة.

وتقول الرواية المشهورة عن كلمة "شنقيط"، أنها مشتقة من "شن" وهي بئر، و"قيط" وهي هضبة أو مرتفع جبلي قريب من الأولى، ورُكبت الكلمتان تركيبا مزيجا. ويعتبر حفيد عقبة بن نافع الفهري، وهو عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة، هو الذي حفر بئر شن لتنهل منه القوافل الدعوية والتجارية. وإلى ذلك يشير الشاعر شغال بن أحمد، في قوله:

[1] ـ محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، ص ص: 182 ــ 183.

وأتاهـــا حفيـــد عقبـــة مـــن حفر بئر بير قـــيط العريقـــه
وصحاها المرابطـــون وأطفـــوا لهب الكفر حين مدّ حريقـــه[1]

وفترة التأسيس تمتد من نهاية القرن الأول الهجري/ السابع المـــيلادي، وحتـــى مطلع القرن الخامس الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وهي تبدأ من عهد الفتوحـــات الإسلامية لبلاد المغرب، حتى وفاة علي بن يحي الكنتي الذي توفي بتوات. وهو ابـــن يحي، بن عثمان، بن عبد الله الملقب يهس، بن عمر الملقب دومان، بن وريـــد الملقـــب شاكر، بن يعقوب، بن العاقب، بن عقبة بن نافع.

ومهد كنته هو مدينة القيروان،[2] التي أسسها عقبة. وقد خلّف هذا الأخيـــر ابنـــا يدعى العاقب، وقد تفرعت منه القبيلة في أماكن عديدة من الصحراء. وقد أشـــار إلـــى ذلك محمد بن بادي الكنتي،[3] في قوله:

كنته أتت من الاتفـــاق الـــشائع للمستجاب عقبـــة بـــن نـــافع
جد قريش كلها علـــى الأصـــح وقيل من نضر جميعها وصح

ولقد مكّن الجهد المكثف للتجار، والقوافل من انتشار الإسلام في ربـــوع بـــلاد الملثمين في وقت مبكر نسبيا، ويسّر إجراء عبد الرحمن بن حبيب سبل الاتصال بـــين المغرب الإسلامي، ومناطق الصحراء. فقد تحدث البكري، وهو مـــن أهـــم مـــصادر الفترة، عن حفر سلسلة من الآبار من: «تامدلت إلى مدينة أودغست».[4]

---

[1] - أحمد ولد حبيب الله، «النثر الأدبي الشنقيطي نشأة وتطورا»، ص: 126.

[2] ـ القيروان: هي أسسها عقبة بن نافع رحمه الله، وقال لجنده: قربوها من السبخة فإن أكثر دوابكم من الإبل، لتكون إبلكم على بابها قي مراعيها آمنة من البربر. ودعا ما كان في الغيضة من الوحوش والهوام، وقال: اخرجوا بإذن الله فخرج كل ما كان فيها حتى لم يبق من الحيوانات شيء، وهم ينظرون إليها. ينظر: مجهول، الاستبصار، ص ص: 113 ـ 114.

[3] ـ محمد بن بادي: ويعرف في الصحراء بولد بادي، أحد أبرز شيوخ كنته في زمانه بأزواد، اشتهر كلغوي بارز. ومن أشهر مؤلفاته في هذا العلم: بلوغ الغاية على الوقاية. وهو يتناول فيه بيان اللحن وكيفية التخلص منه، وتوجد منه نسخة مخطوطة بخزانة الشيخ باي بأولف بدون رقم.

[4] - أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ط الجزائر 1857، ص: 156.

وهذا ما يوضح بُعد نظر هذا القائد، الذي كثّف بعمله حضور المسلمين بتلك الجهات، وأتم بذلك حفيد عقبة ما بدأه جده منذ نصف قرن تقريبا[1]، فأصبح التجار يتصلون بديار الملثمين، عن طريقين: طريق ساحل المحيط، وطريق الصحراء، الذي أصلحه عبد الرحمن بن حبيب[2]، وأصبحت القوافل أكثر جرأة على ارتياده، ميمّمة وجهها شطر غرب إفريقيا، وقد تمخضت عن هذه الجهود نتائج طيبة، إذ عملت على تسرب الإسلام إلى ديار صنهاجة، عن طريق آخر غير الطريق المألوفة من قبل.

ويواصل محمد الخليفة الحديث عن أسلافه فيذكر أن الشيخ محمد الكبير، عندما شبّ بين أخواله من إبدوكل، سافر إلى المغرب برسم طلب العلم، ثم عاد إلى الصحراء، فاستوطن المنطقة الواقعة ما بين الساقية الحمراء، وتيرس، مما يعني أن حياته وقتها كانت مرتكزة على الترحال، وذكر أن الصحراء وقتها كانت تحت نفوذ دولة المرابطين من (لمتونه، وبني حسان).

ويدل إيراده للمجموعة الأخيرة ضمن دولة المرابطين، على أنها لم تتمكن حتى تلك الفترة من فرض نفوذها على المنطقة، والسكان، وأن دولة المرابطين وقتها كانت بقيادة إبدوكل من لمتونه، وهو أمر ذكر المؤلف، أنه تغير بعد تلك الفترة بزمن قليل،[3] حيث سيطر بنو حسان على جزء هام من المنطقة، بعد معارك هزموا إثرها الصنهاجيين، ويعيد ذلك إلى بركات جده، الذي غضب على أخواله، فيقول: «... ثم رجع إلى الصحراء ما بين تيرس، إلى الساقية الحمراء، فاستوطنها بمن معه من تلامذته، وجيرانه، محترما، مكرما، معظما، عند سائر دولة المرابطين من لمتونه، وبني حسان، مقدما عليهم محكما فيهم. إلى أن جره القضاء بأمر غاظه على أخواله من

---

[1] – حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي القاهرة، د ت، ص: 68.

[2] – إزيد بيه بن محمد محمود، «أضواء على رحلة يحي بن إبراهيم الكدالي»، أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين، جامعة نواكشوط قسم التاريخ، من 15 إلى 17 1996، ص: 23.

[3] – محمد الخليفة، رسالة لبعض الإخوة، نسخة مخطوطة بخزانة الشيخ أبي نعامة بأقبلي أولف، بدون رقم، و 15 ظ.

إيدوكل، وهم يومئذ المتغلبون على الصحراء، ومن فيها إلى أطراف السودان، فارتحل عنهم مغاضبا لهم، فورد عليه غزو من أولاد الناصر، وقد بلغهم مغاضبته لأخواله، فقال بعضهم لبعض: إن فاتتكم هذه الفرصة في لمتونه فحرام عليكم الظفر بهم بعدها! فقد غاظوا هذا الغوث وأغضبوه، وما يزيل قلنسوة الغوث عن رأسه يزيل ملك السلطان من رأسه، فاستضافوه، ليلتهم، وطلبوا منه أن يعطيهم دولة لمتونه، فقال أعطيتكموها!».[1]

ويفهم مما ذكره محمد الخليفة، أن جده الذي كان يحظى بمكانة روحية مرموقة لدى قادة دولة لمتونه وقتها، وكان لديه الكثير من المريدين من سكان المنطقة. من المعتقد أنه كان يحتل مكانة تقارب مكانة ابن ياسين، والحضرمي، في عهد الدولة اللمتونية الأولى، فضلا عن المكانة الاجتماعية التي اكتسبها، بكونه ابن بنت رئيس المجموعة الحاكمة.

ويتضح إذن من تلك المكانة التي كان يحظى بها داخل تلك الدولة، من أنه كان قادرا على التأثير في الكثير من أتباعها واستمالتهم إلى جانبه، سواء عن طريق تبعيتهم الروحية له، أو لكون أخواله من البيت الأميري، فقد كان حاضرا في نفوس السكان على المستوى العقدي والعصبي، فهل يكون ذلك هو ما أراد بنو حسان استغلاله؟ خاصة أنهم فيما يبدو، ومن خلال نصه، كانوا يتربصون الدوائر بالدولة اللمتونية، ويتحينون الفرص: «... فقال بعضهم لبعض: إن فاتتكم هذه الفرصة في لمتونه، فحرام عليكم الظفر بهم بعدها...».[2]

---

[1] ـ محمد الخليفة، الطرائف، و 57 و.

[2] ـ محمد الخليفة، المصدر السابق، و 57 و.

وقد انتشرت الرواية الكنتية في الصحراء، وممن أشار إليها محمد صالح،[1] فقد قال مفاخرا ببطولات قومه:

ومن قبل دوخنا زناكة إذ شكا لنا منهم الكنتي شيخ الأكابر

وقدما رفعنا في الغرب معقلا زمان سليم أو هلال بن عامر[2]

وأما محمد بن أمبارك اللمتوني، فإنه تعرض للحديث بلغة تحمل الكثير من الأسى والحسرة، وأبدى أسفه على ما اسماه بتخريب الدولة، وينحي باللائمة في ذلك على محمد الكنتي، إذ يعيد سبب سقوطها إلى قدراته الروحية الخارقة، والتي يعتقد بأنه جعلها في خدمة قائد، وصفه بأنه بربري، فيقول أثناء حديثه عن بدايات تراجع الدولة:

حتى تفطن لشأنهم أدد من لقبوه بب وهو ذو عدد

البربري نجل طالوت الألد وشب من سيدنا الكنتي الحسد

الفهري وهو نجل عقبة المجاب حتى أعانه بجدول الخراب

وقام يستنجد بكل من كان تحت ملوك حمير قبل يهان[3]

وواضح في هذه الأبيات، أن صاحبها يؤمن بالقدرات الكبيرة وغير المحدودة لمحمد الكنتي، الذي أستمدها ــ حسبه ــ من عقبة بن نافع، حيث أنه كان مستجاب الدعوة.

فترة استقرار قبيلة كنته:

والتي تمتد من بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مع والد محمد الكنتي وهو المدعو علي. وخلال هذه الفترة انتشر أحفاد عقبة في بلاد المغرب،

---

[1] ــ محمد صالح: هو الشاعر محمد صالح بن عبد الوهاب، توفي سنة 1272 هـ / 1855 م. ينظر: سيديا، المصدر السابق، ص: 38.

[2] ــ وثيقة مخطوطة بخزانة بيت العود بأقبلي بدون رقم.

[3] - الناني بن الحسين، «المرابطون والذاكرة الجمعية الشنقيطية»، أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم التاريخ جامعة نواكشوط مخبر الدراسات والبحوث التاريخية، من 15 إلى 17 أبريل 1996، ص ص: 147 – 149.

والصحراء الكبرى؛ فشاكر بن يعقوب يوجد ضريحه في القيروان، أما عبد الله الملقب بيهس، فتوجه إلى تلمسان،[1] وبقي بها زمن السلطان المريني أبو عنان[2] وبعد وفاة هذا السلطان، توجه إلى مستغانم.[3] وبعدها بقليل، تبدأ الهجرة نحو الجنوب.[4] وقد استقرت القبيلة بالصحراء، خلال القرنين السابع والثامن الهجريين /الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، بعد أن أصبحت الأوضاع غير ملائمة في الشمال. وفي هذه الفترة أسسوا إحدى أهم الزوايا الكنتية بتوات، والتي كانت المجال الجغرافي الذي عرف العديد من الشخصيات الكنتية، التي كان لها دور في الحياة العلمية والسياسية والاقتصادية على امتداد تيديكلت، وتوات، والسودان الغربي.

وعاش علي سابق الذكر في عهد السلطان الحفصي أبي فارس، والذي لازمه وكان ينصت دائما لنصائحه. كما أن هذا الشيخ كان على علاقات طيبة سواء مع مشائخ البربر الكبار من صنهاجة، ومع زعماء القبائل العربية.[5] ورغم المكانة التي وجدها عند السلطان، فقد فضل سكينة زاويته، وتوفي خلال أحد أسفاره، ودفن في عزي.

---

[1] ـ تلمسان: مدينة عظيمة قديمة فيها آثار كثيرة أزلية تنبئ أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة. وهي دار مملكة زناته وحواليها قبائل كثيرة من زناته وغيرهم من البربر. ولها قرى كثيرة وعمائر متصلة ومدن عديدة. ومدينة تلمسان مدينة علم وخير ولم تزل دار العلماء والمحدثين. ينظر: مجهول، الاستبصار، ص ص: 176 ـ 177.

[2] ـ أبو عنان المريني: هو أبو عنان فارس المتوكل بن علي، سلطان مريني حكم في الفترة الممتدة ما بين 749 ـ 760 هـ(1348 ـ 1358م). ينظر: محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر المريني، دار القلم الكويت، ط الثانية 1987، ص: 379.

[3] ـ مستغانم: وهي مدينة بقرب البحر، وهي مسورة ذات عيون وبساتين وطواحين ماء، ويبذر في أرضها القطن فيجود، وهي بقرب مصب نهر شلف في البحر، وبغربي هذه المدينة على نحو ثلاثة أميال منها مدينة مزغران. ينظر: البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص، 737.

[4] ـ محمد حوتية، قبيلة كنته بين إقليمي توات والأزواد، ص: 18.

[5] ـ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و 69 ظ.

وقبل وفاته أنجب ابنه محمد الذي تربى عند أخواله، حيث أتم تعليمه الديني، وتلقى دروسه على يد الشيخ أبي العباس السبتي،[1] وتعلق بهذا الشيخ الولي، ولحق به إلى سبتة، ولم يفارقه حتى توفي شيخه. وتوجه بعد ذلك إلى تيريس، وكانت له علاقات جيدة مع أولاد الناصر من بني حسان. واختار محمد الكنتي الزواج من جيرانه تجكانت، ورزق من زوجته الجكانية بولد هو أحمد البكاي. وعاش هذا الأخير طرفا من القرنين 15 م، و16 م.[2] ويرجع له الفضل في جعل كنته دعاة للإسلام بين الزنوج، حيث عاش فترة طويلة من حياته بولاته. وتزوج هو كذلك بامرأة من تجكانت ورزق منها بثلاثة أولاد: محمد الكنتي، وبوبكر الحاج، وعمر الشيخ، وقد تفرعت قبيلة كنته كلها من هؤلاء الثلاثة.

فترة الدور الحضاري لقبيلة كنته:

والتي تضم أحداثها فترة القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وتتلخص في حياة الشيخ المختار الكبير، الذي توفي سنة 1226 هـ/ 29 ماي 1811م.

3ـ المختار الكبير وطلبه العلم:

يجد الباحث أحداث كثيرة تتعلق بحياة المختار منذ طفولته وحتى فترة الدور العلمي والحضاري له، وهي أحداث متشابكة وحافلة بالمعلومات التي تحتاج إلى كثير من التمحيص، والغربلة على اعتبار أن أغلبها سجلها ابنه محمد الخليفة في طرائفه، وهي مليئة بالكرامات التي تنقص من قيمته العلمية، وتجعل منها أحداث أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ.

---

[1] ـ السبتي: هو أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي، مولده بسبتة عام 524 هـ نزل مراكش وبها مات سنة 601 هـ. وأبرز شيوخه الفخار صاحب الشيخ الفقيه أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي. ينظر: يوسف بن يحي التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط الثانية 1997، ص: 452.

[2] ـ بول مارتي، كنتة الشرقيون، ص: 28.

نسبه:

هو المختار بن أحمد، بن أبي بكر، بن محمد، بن حبيب الله، بن الوافي، بن عمر، بن أحمد البكاي أبي دمعة[1]، بن محمد الكنتي، بن علي، بن يحي، بن عثمان، بن عبد الله، بن عمرو الملقب بيهس، بن ورد الملقب بدومان، بن يعقوب الملقب بشاكر، بن العاقب، بن عقبة بن نافع.[2] ويصفه بعضهم بـ: «علامة العلماء، وإمام الصوفية، وقدوة المحدثين».[3]

واشتهر المختار بلقب الكنتي، وأول من حمل هذا اللقب من أجداده محمد الكنتي بن علي، اكتسبه من اسم جد أمه محمد العالم، بن كنت، بن زم، زعيم قبيلة أبدوكال الصنهاجية.[4] ويشير أحمد الأرواني، إلى أن كنته نسبة إلى أرض في أقصى الصحراء من المغرب.[5] ولا تذكر كتب المسالك ذلك، ولم يعثر الباحث في الخرائط المتوفرة، عن هذه الأرض التي أشار إليها الأرواني. ويعرف الكنتيون عند البربر باسم: إكنتاون، ومفرده إكنتاو، ويرد في بعض[6] كتب التراجم بصيغة الكنتاوي.

ووصف مؤرخ ولاتي المختار، بالذكاء، والجد، والاجتهاد، وعلى أنه: «السالك، والناسك، والعارف، والحالّ أزمة المعالي والمعارف، ذو المآثر الشهيرة، والفتوحات الغزيرة، والكرامات الكثيرة، والمعلومات الأثيرة».[7] وهو من الجهابذة المعروفين ومن العلماء أعلام ، وأحد الشيوخ المشهورين.

---

[1] ـ أبو بكر بن أحمد المصطفى المحجوبي، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور، دارسة وتحقيق الهادي المبروك الدالي، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط 2001، ص: 08.

[2] ـ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، ص: 40.

[3] ـ باي بن عمر الكنتي، شرح فتح الباري، مخطوط لدى الشيخ حيمد بموفلو بوسط مدينة تمنراست، ج 1، ص: 04.

[4] ـ محمد الخليفة، الطرائف، ص: 5.

[5] ـ أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، دراسة وتحقيق الهادي المبروك الدالي، ص: 155.

[6] ـ محمد بن مخلوف، شجرة المرجع السابق، ص: 377.

[7] ـ مجهول، تاريخ ولاته، تحقيق رحال بوبريك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط، ط 2002، ص: 52.

مولده:

ولد المختار الكبير، في شمال شرق آدرار[1]، بكثيب أغال بأزواد عام 1142 هـ/ 1729 م.[2] وتربى يتيما في كفالة أخيه لأبيه محمد، لأن والدته أمباركة بنت بادي، توفيت وله من العمر أربع سنوات،[3] فتزوج والده بعدها خديجة الرحمونية، فولدت له ابنا وابنتين، وتوفي والده وله من العمر نحو العشر سنين. وكان يؤتى به إلى جده لأمه عبد القادر، المدعو بادّ ــ وهو صغير ــ فيضع يده على رأسه، ويقول: «ماذا من العجب في هذا الرأس».[4] ويرددها مرارا، وأشار بأن من أدرك أيامه فهو سعيد، ولمّح إلى أنه لن يكون من أولائك السعداء!

وتمتع وهو بالقرب من جده من حياة مستقرة، جعلته يشعر بالسكينة والاطمئنان، الذين حرم منهما. وكان جده شديد التعلق به، يقول المختار: «فإذا أتوا بي إليه، ضمني إلى صدره وقبلني، وقال: يا بني، طالت غيبتك عني».[5] وهذا ما يوضح الحياة الهادئة، التي تمتع بها في صباه، عكس ما يريد البعض[6] أن يشيع، بأنه عاش طفولة تائهة وغير مستقرة.

طلبه العلم:

لقد نشأ المختار بين صبيان قومه من كنته نشأة أهل الصحراء، يقرأ القرآن بالكتّاب. واتفق وهو ابن ثلاثة عشرة سنة، أن وقف مع بعض صبيان قومه على عبيد زنوج يفتلون الحلفاء،[7] فتناول كل صبي من أولئك الصبيان حبلا يفتله، من يد عبد على

---

[1] ــ آدرار: هي آدرار إفوغاس كتلة جبلية وجملة مرتفعات تقع شرق السودان الغربي، وتمتاز بنبتات ذات صبغة ساحلية. ينظر: بن عبد الله، الموسوعة المغربية، ج 1، ص: 34.

[2] ــ محمد الخليفة، الطرائف، و 21 ظ.

[3] ــ بول مارتي، كنته الشرقيون، ص: 40.

[4] ــ بادي بن باي، النفي والبيان، ص: 21.

[5] ــ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و 21 ظ.

[6] ــ مارتي، المرجع السابق، ص: 40.

[7] ــ محمد الخليفة، المصدر نفسه، و 35 و.

سبيل اللهو، فتناول المختار حبلا من يد عبد نوبي، فقال له العبد: ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت! فقال المختار: فكأنما أرسلها سهما في نفسي، فقلت له: ولماذا خلقت، وبماذا أمرت؟ قال: خلقت لمعرفة ربك وعبادته، وأمرت بتعلم العلم وطلبه.

وبعد هذه الحادثة تغيرت حياة المختار، فقد ألقى الله في نفسه العزيمة على الرحلة في طلب العلم، والتغرّب في تحصيله، وتهذيب النفس، فكان يعمل الفكرة دائما في الخروج، والجهة التي إليها يتوجه، مع فقد المساعد على ذلك في تلك الفترة. وهكذا اقتحم هذا اليتيم مجال التعلم باكرا، وركب الصعاب وقذف بنفسه في رحلة علمية، ذات فصول عديدة، سيعود منها شيخا، عارفا بالشريعة، محيطا بالمعارف.

شيوخه:

وبعد مدة يسيرة من الحوار الذي دار بينه وبين ذلك العبد، توجه إلى حي من أحياء السوقيين، فأقام بين أظهرهم يتعلم مع فتيانهم. وكان يرى بأن العلم الجدير بالأخذ، هو الذي يورّث في نفس طالبه الخشية من الله، ولذلك أعرض عن تواريخ الأمم الجاهلية، والأنساب، والتعمق في النحو، والاشتغال بمثل: علم الإسطرلاب، والموسيقى، والمنطق، والشعر.[1] غير أنه سيشتغل ببعضها، كما سيرى الباحث فيما بعد. وهو في أحياء السوقيين، توجه للأخذ من عدة شيوخ أهمهم:

ـ الشيخ أحمد بن الشيخ:

وقد أخذ عنه المختار الكبير الحديث؛ وسند شيخه في هذا العلم متصل بعلماء تنبكتو،[2] حيث أخذ عن محمد بن محمد بغيع بن محمد كوري، وقد أخذ عنه أغلب المتون. وفي هذا الصدد اعتبر هذا الشيخ وشيوخ آخرين، أن تلقين العلوم نثرا مضيعة للوقت والجهد، اللذين يجب أن ينفقا في الحفظ. لذلك وجب التلقين نظما لا نثرا، لأن الكلمة المنغمة، والعبارة المنظومة أقوى تأثيرا وأبقى رسوخا، في الأذن الحساسة، التي

[1] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 45.
[2] ـ توجد إجازاته في الحديث في مخطوط الطرائف، و32 ظ.

نجد في النظم أداة طبيعية لضبط المعلومات، وتخزينها في غياب التدوين، وخطفها بريق الشعر لما له من تأثير وسهولة حفظ.

ـ الشيخ أحّ الكلحرمي[1]:

وهو من قبيلة كل المحرم من السوق بالنيجر، وهذه القبيلة معروفة بالعلم، والحفظ، والورع. أقام المختار عنده زمنا يتعلم الفقه، ولا سيما مختصر خليل. وكان يكتب سبعة ألواح في اليوم، كل لوح في فن من الفنون، ويحفظ تلك الألواح كلها، ويفسر مع أهل كل فن الدرس الموافق لدرسه، ثم يسمع الدروس الخارجة عن درسه معهم، وفي الأخير يملي عليهم جميع ما أملى المقرئ في مجلس الدرس، حتى يأخذ عنه جميع أفراد الحلقة المرويات. وقد مدح المختار قبيلة كل السوق، بمقطوعة شعرية، من جملة أبياتها هذا البيت:

فلو كنت بوابا على باب جنة لقلت لأهل السوق أنتم لها أهلا[2]

ولكن زملاءه الذين اعترتهم الغيرة من مواهبه، سببوا له الكثير من الإزعاج، حتى بلغ بهم الحال إلى طرده عدة مرات من حلقات الدرس. هذا الأمر جعله يقصد تنبكتو بناء على نصيحة شيخه، العاجز عن توفير الحماية له. ولما كان المناخ السوداني صعبا على المختار أصيب بمرض، غير أنه لم يتأثر وسرعان ما تعافى وواصل مجهوداته. فقد كانت موهبته على الاستيعاب والتحصيل كبيرة جدا.

وفي تنبكتو لم يكن يعرف أحدا، وظل يهيم على وجهه مدة أيام وليالي، بحثا عن شخص يُضيِّفه. حتى عثر في الأخير على شخص يدعى الكوينهيني، يقول صاحب الطرائف على لسان المختار: «... وبقيت أياما لم يؤويني أحد، ثم منّ الله بصرف

---

[1] ـ بول مارتي، كنته الشرقيون، ص: 44.

[2] ـ بادي بن باي بن باب، النفي والبيان، ص: 13.

ناصية الكوينهيني إليّ، فأسكنني ببيت وحدي»[1]. وقد منحه هذا الرجل غرفة، وسمح له باستعمال مكتبته الخاصة. هذه المكتبة التي شملت العديد من المصادر، في أغلب فروع المعرفة، واستطاع المختار، بسبب قدرته على الحفظ، وشدة ذكائه وفطنته، وعمق تركيزه وطاقته، أن يستوعب هذه الكتب، التي تعد أساسية لطالب في مرحلته، ومكنته من الوقوف على الأسماء، ومراتب الرجال في مختلف الفنون والعلوم.

ـ الشيخ علي بن النجيب:

وكان عارفا بالله ناسكا متعبدا، عالما متفننا، صاحب أحوال سنية، وأعمال زكية. وهو شيخ مثالي راح ينمّي مواهب المختار، الذي اتصل به عام1156 هـ / 1743 م،[2] ووضعه على الطريق القويم. فصاحبه وأخذ عنه الأوراد القادرية، وتفسير القرآن. وكل مروياته في الحديث، كالصحاح الستة،[3] وجامع الأصول لابن الأثير، وجامعي السيوطي الكبير والصغير، وشفاء القاضي عياض، وكشف الغمة عن سائر الأمة، والترغيب والترهيب للحافظ المنذري.

وعزم بعد ذلك على أخذ علوم اللسان فافتتح مقدمة ابن أجروم، ولما بلغ النصف منها زاحم من فات النصف من قراءة الخلاصة، والفريدة. ولما افتتح الفريدة كان درسه منها أربعين بيتا بطررها وشواهدها، حتى فاق جميع تلاميذ شيخه من متعاطي النحو، ثم اشتغل بفنون البيان. وكان يركن ــ بعد الحلقات العلمية ــ إلى خلوة لرياضة النفس، لا يأوي ولا يخالط خلالها أحدا.

وقرأ المختار على الشيخ ابن النجيب في الفقه[4]: جامع الأصول لابن الحاجب، وكتاب ابن عرفة، ورسالة ابن أبي زيد. وفي الأصول: الورقات لأبي المعالي

---

[1] - محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و51ظ.

[2] _ *BATRAN, Op. Cit, p. 89.*

[3] - مجهول، خبر السوق، و 7 ظ.

[4] ـ مجهول، إجازات المختار، مخطوط بخزانة الشيخ حيمد بتمنراست، بدون رقم، و 2 و.

للجويني، وجمع الجوامع لابن السبكي، وكافية ابن الحاجب، وتنقيح الفصول للقرافي، وقواعد المنجوري.

وفي التفسير أخذ عنه: تفسير الجلالين، وتفسير البغوي، ولباب التأويل للخازن، وتفسير ابن عطية،[1] وتفسير النسفي، والبيضاوي، كل هذه الكتب بسندها المتصل إلى مؤلفيها. وكان المختار دائما يردد في مفتتحات إجازاته: «أما بعد فإن السند هو العروة الوثقى للعلماء، والصلة المتصلة الموصلة بمددها إلى الأولياء، اتخذه العلماء مغنما، والأولياء سلما».[2] وقد استحكم وهو عند شيخه ابن النجيب أكثر المعارف،[3] ووقف عليها بنصيب وافر، وكان أحفظ للعلم وما زاده مرور الوقت إلا النضج فيه. وتوفي شيخه سنة 1171 هـ / 1757 م.

ـ الشيخ محمد أحمد اليلتماتيحي:

ولما كان المختار يجوب المخيمات الكنتية بأزواد، التقى بالشيخ محمد اليلتماتيحي فأخذ عنه في الفقه: مختصر خليل، ومنظومة ابن عاصم. وبعض المتون الفقهية، التي انتشرت بالمنطقة. غير أنه لم يطل المقام عنده، لأنه كان قد عزم على السفر إلى المغرب، التي طالما حلم بالرحيل إليها.

ـ الشيخ أند عبد الله الولاتي:

هو أند عبد الله بن أحمد بن أند عبد الله بن الشيخ الولاتي ثم المحجوبي، قاضي ولاته الذي اشتهر ذكره وعلمه وحكمه في تلك البلاد. كان زاهدا في الدنيا لا يملكها وليست همته. قال قاضي أروان سنيبر[4] فيه: «لله دره من عالم محقق، وقاض مدقق،

---

[1] ـ السوقي، الجوهر الثمين، و 19 ظ.

[2] ـ محمد الخليفة، الطرائف، ص: 26.

[3] _ *BATRAN, Op. Cit, p. 45.*

[4] ـ سنيبر: هو طالبن الملقب بسنيبر بن القاضي سيدي الوافي، تولى قضاء أروان واشتهر ذكره وعلم. أجازه أحمد بن الشيخ السوقي. وألف فتح الرب اللطيف في تخريج ما في المختصر من الضعيف، وصنجة الوزان في نوازل أروان. وتوفي في الليلة الأخيرة من رمضان سنة 1180 هـ / 1766 م. ينظر: محمد المختار ولد أبّاه، دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ط 1981، ص ص: 45 ــ 46.

فلو أدرك الأشياخ المتقدمين لأدوا حقه، وأظهروا فضله».[1] وكان عارفا بأصول الفقه، يميل في فتواه إلى القواعد والأصول، قلّ أن ترى له في الفتوى نقلا من الفروع.

وكان مثالا نادرا في الذكاء، والفهم، وفهمه وقلمه خير من لسانه. وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية، والغالب عليه البحث لا الحفظ، ودأبه البحث لا يصبر عنه، ولم يكن مشتغلا بحفظ النصوص. ألّف شرحا حسنا على لامية الزقاق في مجلد ضخم سماه: فك الوثاق على لامية الزقاق، وشرح عقيدة السنوسي سماه: إمداد الضياء في أفق عقائد الأصفياء، ومات قبل تمامه. وكانت وفاته في جمادى الأولى سنة 1172 هـ / 1758 م.[2] وأخذ عنه المختار الكبير كتاب الورقات لأبي المعالي الجويني، وجمع الجوامع لابن السبكي، وكافية ابن الحاجب، وتنقيح الفصول، وقواعد المنجوري.

وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المشايخ، هم أهم من أخذ عنهم المختار الكبير، إذ عرّج خلال هذه المرحلة على تشيت، التي عاد منها إلى أزواد عام 1167 هـ / 1753م.[3] وفي هذه السنة استقر بالحلة،[4] التي ستصبح مركزه العلمي، والسياسي. وتبقى حياته بالمغرب الأقصى ــ والتي دخلها في عام 1168 هـ / 1754 م ــ من الفترات الغامضة التي لا يعرف عنها إلا القليل، خاصة ما تعلق بجانبها العلمي. فهناك إشارة وحيدة عنها في الطرائف، حيث يقول صاحبه: «... وكان الشيخ رضوان الله عليه إذ ذاك في أقصى المغرب».[5] وقد مكث بالمغرب عدة أعوام عند أخواله،[6] ولا يستبعد أن يكون قد أخذ عن علماء مراكش، وفاس، ومكناس، ثم عاد إلى بلاده مرورا

---

[1] ــ البرتلي، المصدر السابق، ص: 167.
[2] ــ آمن بن بوغتو، المصدر السابق، و09 ظ.
[3] ــ ابن طوير الجنة، تاريخ ابن طوير الجنة، ص ص: 68 ــ 69.
[4] _ *BOSWRTH (C.E). VANDONZEL (E). B.LEWIS and PELLAT (CH), The encyclopedia of Islam. . LEIDEN., E. J. Brill (1986). V 5. p. 393.*
[5] ــ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و22 و.
[6] ــ باحمد عمر دمه، الزوايا الكنتية أعلاما وجغرافية، مطبعة البركة نيامي، دت، ص: 24.

بشنقيط. وتشير المصادر[1] إلى أن المختار كانت له رحلة ثانية[2] إلى المغرب، بعد رحلته الأولى بقليل حيث عاد منها إلى أزواد مرورا بمخيمات البرابيش بأروان سنة 1174 هـ / 1760 م.

والجدير بالملاحظة أن أكثر الشيوخ تأثيرا في المختار، هو علي بن النجيب منهجا، وسلوكا. ورغم ذلك فلم يمتنع من الأخذ عن غيره، ليزيد فهمه، وتصقل مواهبه. وهذا ما جعله يكرر أخذه لبعض المقررات العلمية في الفقه، والحديث، والتفسير، واللغة العربية، عن شيوخ عدة، حتى يدرك حقائقها ويفهم محتواها.

4ـ زواج المختار وأولاده:

ولما عاد من المغرب في رحلته الأولى لها عام 1171 هـ / 1757 م، تزوج المختار من لالة عائشة الأزرقية.[3] وكان عمرها عشرة أعوام، فقد ولدت عام 1160 هـ / 1747 م. وقد تجلت عليها منذ طفولتها بشائر الصلاح، وهي ابنة المختار بن الأمين، ولالة آسية بنت محمد، وتنتسب عن طريق أبويها إلى أحمد البكاي، جد القبيلة التقي، والذي تجتمع عنده كل الفروع الكنتية.

ونالت تعليما إسلاميا مقبولا، حيث كان من عادة النسوة في المخيمات الصحراوية بأزواد، أخذ العلم منذ فترة الصبا. وتمكنت من استكمال دراستها لما أصبحت إلى جانب المختار. وبعد حياة حافلة من العطاء في مساعدة الآخرين، توفيت سنة 1225 هـ / 1810 م، وبالضبط في 14 جانفي، أي قبل وفاة المختار بستة عشر شهرا. وعند موتها كان الأسى، والحزن، عاما في المخيمات الكنتية وغيرها،[4] ولا

---

[1] ـ بول مارتي، البرابيش بنو حسان، ترجمة محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق، ط 1985، ص: 33.

[2] ـ محمد الخليفة، المصدر السابق، و 65 ظ.

[3] ـ الأرواني، السعادة الأبدية، ص: 152.

[4] ـ للاطلاع أكثر على حياة الشيخة يمكن الرجوع إلى: الطرائف والتلائد، و19 و، و20، و21.

سيما بين النساء، اللائي فقدن بموتها مُدرِّسة وحامية ثمينة، ولهذا اضطر المختار في سبيل تهدئة روعهن، إلى أن يوفد لهن رسولا يؤكد بأن حمايتها لن تتوقف.

أولاد المختار الكبير:

ترك المختار عند وفاته في سنة 1226 هـ/ 1811م ثمانية أبناء. وينتشر القسم الأعظم من هذه الذرية، بين: تنبكتو، وأدرار، إفوغاس، حتى دنك، ومنطقة قورمة. ومنهم من هاجر إلى الحوض، ثم إلى تكّانت، وأدرار، حتى المناطق السفلى في البراكنة[1] وفورفل. وأبنائه هم:

- زين العابدين:

وهو الملقب بكر الطهارة، وهو أكبر أبناء الشيخ المختار. وقد ترك هو بدوره أربعة أبناء هم: محمد، وبابا أحمد، ومحمد، وهو الملقب بالمامي، والمختار، وينتشر أحفاده في منطقة الميدر، وقصر الحلة.

- محمد البكاي:

والذي ترك ثلاثة أبناء: خطاري، حمادي، عابدين. ويسكن نسلهم في تيريس، وفي جهات أخرى من أزواد.

- حمَّة الأمين:

وقد خلّف بدوره سبعة أبناء وهم: عابدين، بابا، حمادي، البكاي، أمحمد، سيديا، وبادي،[2] وتتركز مخيماتهم في تيريس، ولدى كنته الحوض.

---

[1] ـ البراكنة: هم قبيلة ببلاد شنقيط تتكون من العديد من الأفخاذ، منهم: أولاد عبد الله، واليتامى، وأولاد أحمد، وأولاد منصور. وغيرهم. ينظر: المختار ولد حامد، حياة موريتانيا الجغرافيا، ص: 89.

[2] _ *BATRAN, Op.Cit, p. 58.*

- بابا أحمد:

وقد خلّف بدوره خمسة أبناء: حمادي، الذي يمارس نسله حياة البداوة في الحوض. وأمحمد، الذي يسكن نسله بتكانت. والباقون هم: بابا، وحيبلله الصغير، والبكاي، الذي يسكن نسله لدى كنته الشرق وفي الحوض.[1]

- محمد الخليفة:

ولد عام 1179 هـ / 1765م، وتميز بالورع والتقوى منذ صغره، وهذا ما جعل والده يصطفيه عن بقية إخوانه، ليخلفه في قيادة القبيلة. ولكنه لم يمارس تلك الزعامة إلاّ مدة خمسة عشر سنة، لأن الموت تخطفه في ماي سنة 1242 هـ / 1826م. وخلّف أحد أهم المؤلفات[2] عن تاريخ كنته، وعن تاريخ الصحراء.

- حيبلّله:

وترك العديد من الأبناء المستقرين إما في الغرب أو الشرق من أزواد، وهؤلاء الذين بالشرق تجد بعضهم في شمال النهر وكذلك في قورمة.[3]

- عمر:

وخلّف من الأبناء العديد، والذين يسكن نسلهم إما لدى كنته الشرق، أو لدى طوارق دنك،[4] وأكثرهم شهرة هو: خطاري.

ـ أمحمد:

وينتشر أبنائه في قورمة، والبراكنة. وهي منطقة واسعة تمتد من نهر النيجر شرقا، إلى موريتانيا غربا.[5]

---

[1] ـ بول مارتي، كنتة الشرقيون، ص: 83.

[2] ـ أقصد هنا الطرائف والتلائد.

[3] ـ بول مارتي، كنتة الشرقيون، ص: 79.

[4] _ *BATRAN, Op.Cit, p. 70.*

[5] ـ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و 39 ظ.

ويمكن أن يلاحظ الباحث بأن الروايات الكنتية لا تتعرض لذكر بناته، لأن ذلك يعتبر من المواضيع التي تتسم بنوع من الحساسية لدى الكنتيين، متعلقة بوضع المرأة ـ بصفة عامة ـ في المجتمع الصحراء، والبادية عموما. وحتى عند زيارة ضريح المختار في أبي الأنوار، فإن دخول الجهة التي يتواجد فيها سرير زوجته، حكرا على الكنتيين دون غيرهم.

5ـ أسانيد المختار الكبير العلمية وتلامذته:

يذكر محمد الخليفة في ثنايا كتابه الطرائف، مواد التعليم التي تلقاها والده المختار الكبير. وهي كثيرة ومتعددة منها المتون المنثورة، و المنظومات المعروفة: كألفية ابن مالك في النحو، والمرشد المعين لابن عاشر في العبادات، وهمزية البوصيري، كمتن أدبي للتوسل وللشرح اللغوي.

وكمستوى أعلى يبدأ باستعمال نصوص أساسية مثل موطأ مالك، وصحيح البخاري، في الحديث النبوي.[1] ويتدرّج الصبي في كتب تحتوي على قدر من المساجلة وبيان قواعد الأصول، كجمع الجوامع للسبكي، ومختصر السعد التفتزاني في العقائد.[2]

والتعليم في أزواد كان له هدف تمثل في تكوين المطلع على علوم الدين، ولذلك كان درس اللغة أساسيا للتمكن من فهم علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلوم الفقه، والاطلاع على أمهات الكتب الأصلية ومذاهب شرّاحها. وهذا النظام يسمح ببروز مواهب أدبية عند بعض الأفراد، أو اهتمامات قد تصل إلى النبوغ في جوانب معرفية أخرى، تتعلق بالحساب الذي يعد ضروريا للميراث والفلك.

وعند الرجوع إلى أسانيد المختار الكبير يمكن إدراك بأنها تنبكتية في الأصل، سواء تلك التي تلقاها عن الولاتيين، أو عن شيخه علي بن النجيب. وكلا المشربين

---

[1] ـ محمد الخليفة، الطرائف، و67 ظ.

[2] ـ مجهول، إجازات المختار، و 5 و.

يتصل بطبقة المؤلفين التنبكتيين، من أمثال: محمد بغيع، ومحمد أندغ محمد، وغيرهما من الأعلام.

وفي المقابل تتصل تلك الأسانيد من جهة عمر الشيخ الكنتي، بالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، وأسانيد هذا الأخير متصلة بأشهر علماء المغرب الإسلامي.[1] الأمر الذي يؤكد ما اعتاده علماء كنته من الصعود إلى المراكز العلمية في الشمال للاغتراف من ينابيعها، ولم يكونوا يقفون عند المراكز التي على مشارف الصحراء مثل: توات، وفجيج، ودرعة، وسوس، وتافيلالت ــ وان كانت هي الغالبة ــ وإنما كانوا يتوجهون إلى مراكش، وفاس، والقيروان، وغيرها من المراكز الواقعة في الشمال. ويسجل الباحث ظاهرة تعدّ من المفارقات البارزة بين علماء كنته، وهي قلة الفهارس العلمية عندهم بل انعدامها. ووجودها بكثرة عند علماء المغرب، خاصة في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي.

تلاميذ المختار الكبير:

خلّف المختار الكبير العديد من التلاميذ، الذين ورثوا نهجه، وطريقه في العلم، ومنهم:

ـ محمد الخليفة الكنتي:

وهو الابن الخامس للشيخ المختار، ولا تشير المصادر، المتاحة إلاّ قليلا لسيرة حياته. وقد اجتذب ورعه وعلمه انتباه والده ــ كما ذكرت ذلك سابقا ــ ولهذا اصطفاه ليخلفه عند وفاته سنة 1226 هـ/ 1811 م. ولكن محمد الخليفة لم يكن ليمارس ذلك الدور إلاّ خلال خمسة عشر عاما، فقد مات إثر مرض ألّم به. ولكنه خلّف العديد من المؤلفات، التي تدل بأنه لا يقصر عن والده علما وسلوكا. ومن أبرزها ــ دون شك ــ

[1]- صالح بن محمد الفلاني، قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، تحقيق عامر حسن صبري، دار الشروق جدة، ط الأولى 1984، ص: 145.

الطرائف والتلائد في مناقب الشيخين الوالدة والوالد[1]، والرسالة الغلاوية[2]، والروض الخصيب في شرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب[3]، وأوثق عرى الاعتصام[4]، وجنة المريد دون المريد[5]، والفتوحات اللدنية بشرح التصلية الناصرية، ورسالة في نصح بعض الولاة[6]، ورسالة إلى الأمير أحمد الفلاني أمير ماسنة، والنبذة الضافية، والفوائد النورانية في اسم الله الأعظم، ونظم أسماء الله الحسنى المسمى بالسلم الأسما إلى أسماء الأسما.[7]

وكان والده دائم النصح له للإقبال على التعلم، والصبر على تكبد المشاق لتحصيله. فقد جاء في إحدى رسائله إليه ما نصه: «...فاشتغالك بالتعلم قبل فوات أوانه أهم وأولى وأحب إليّ وأحلى، فاجعل همّك العلم بأحكام الله، وهمّتك التقرب إلى الله بالله، تنجح رغباتك وتربح تجارتك. والله أسأل أن يعينك ولا يبينك، وأن يثبّت عزك ويقينك، ويحقق صدقك وتمكينك. وإني متطفل على موائد الحق وأرجو لك القبول، وأن تمنح السّول، فهو الذي لا يخيب فيه الرجاء، ولا يتعاظمه العطاء والسلام».[8]

وأخذ عن والده: الحديث، والفقه، والعقيدة، والتصوف، واللغة التي يبدو أنه لم يرغب في تحصيلها في بداية الطلب، حيث يلمّح في الطرائف إلى أنه كان:« زاهدا في

---

[1]- هذا الكتاب حقق من طرف عابدين ولد باب أحمد، طبع بنواكشوط على الآلة الراقنة في جزئين سنة 1994، مع مقدمة بالفرنسية. وكان قبل ذلك الباحث شفيق أرفاك قد حقق منه الباب الأول والرابع والخامس، وتحصل بذلك على دبلوم الدراسات العليا من جامعة محمد الخامس بالرباط وهو مرقون، وكان تحت إشراف محمد المنوني وزهرة طموح، سنة 1991. غير أن تلك الطبعات تحمل العديد من الأخطاء، لذلك آثر الباحث الاعتماد على النسخة المخطوطة، التي قوبلت على نسخ عديدة.

[2]- حققت من طرف حماه الله ولد السالم، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط، ط أولى 2003.

[3]- توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة ابن الأعمش بتندوف.

[4]- توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع، رقمها: د 1855. وقد حققه مؤخرا المرحوم الشيخ بادي بن باي بن باب.

[5]- توجد منه نسختين مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط، رقمهما: 610، 3431.

[6]- توجد مخطوطة بالمكتبة العامة بتطوان المغرب، رقمها: 4/455.

[7] - *DESTAING (E), notes sur des Manuscrits Arabes des L'Afrique Occidental, revue Africaine, n 56, Office des publication universitaires Alger., 1912. p 458.*

[8] - هارون بن الشيخ سيديا بابه، كتاب الأخبار، تحقيق باب بن هارون، نشر المطبعة السريعة نواكشوط، ط 1998، ص: 161.

علوم اللسان، أراها حجابا دون ما أنا بصدده، ولا أرى لها كبير فائدة، وكان الشيخ يشير عليّ فيها».[1]

ـ سيدي الإبيري:

وهو ابن المختار بن الهيب الأبيري، ثم الإنشائي، ونسبه الأصلي يرجع إلى تدغ، وفخذه ينتمي إلى أولاد انتشاييت. ولد سنة 1190 هـ/ 1770 م، في منطقة القبلة في وسط علمي وديني شديد الالتزام. اشتغل في شبابه بالعلوم وبرع فيها، بملازمته للشيخ حرم بن عبد الجليل العلوي. وبعدما تضلّع في العلوم، غادر المنطقة في رحلة انتجاع علمية استغرقت ثمانية وثلاثون سنة، عرّج خلالها صوب الشيخ المختار الكبير، الذي بقي معه ما يزيد من ستة عشرة سنة. أخذ خلالها العديد من العلوم، خاصة دراسة التصوف والتبحر في أسرار الطريقة القادرية. ثم مات الشيخ المختار، فبقي عند ابنه محمد الخليفة. يقول الشيخ سيديّ عندما اتصل بالمختار الكبير: «جئته وقد انتهيت من تحصيل العلوم، فردني مبتدئا»[2]. وقد خلّف العديد من القصائد في أغراض شتى، وله قصيدة بديعة يمدح بها شيخه المختار الكبير، يقول في مطلعها:

طلعت ببرجك للبرية أسعد أيام جاد بك الزمان الأجود[3]

وعاد من رحلته العلمية الطويلة إلى منطقة القبلة سنة 1243 هـ/ 1827 م، بعلم وافر وأسّس زاويته الذائعة الصيت في عموم تلك المنطقة. وكرّس معارفه الواسعة، ونفوذه الروحي، والسياسي الكبير، لإصلاح أوضاع مجتمعه، فأصبح حَكَمًا في المنطقة، ووجها من أبرز وجوهها العلمية، والسياسية. وتوفي سيدي بن المختار

[1] ـ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و 42 و.
[2] ـ ابن الأمين، الوسيط، ص: 361.
[3] ـ ابن الأمين، المرجع نفسه، ص: 243.

سنة 1284 هـ/ 1868 م.[1] وقبره مشهور بمقبرة بوغابه، وإياه يعني الشيخ سيديا بابه بقوله[2]:

بحاجته نزيل بغاب آبا نزيلك ما بدا منها وغابا
وأنزل حاجه بذراك زور حووا حق المزار والانتسابا
رأوك عماد ما أملوا فهبوا إلى العليا بساحتهم هبابا
سقيت سحائب الرضوان وطفا ورضوان المهيمن والصحابا

وخلف العديد من الآثار العلمية منها: تحفة الأطفال على لامية الأفعال، ورسالة في حكم تعليم النساء، وشرح الصغرى للسنوسي، وشذرات الأذكار المصاحبة للأوزان، فضلا عن كم هائل من الرسائل، وفتاوى مجموعة، وديوان شعري تناول فيه العديد من الأغراض الشعرية. واعترافا بجميل المدرسة الكنتية عليه، قال في محاسنها قصيدته التي منها:

لله أهل معان عين رفدهم فيها جميع مريد الرّفد مغموس
وأهل حضرة قدس يجالسهم بالطهر لم يعشه في الدهر تجنيس
وأهل سوق نفوس من يساوقهم بالنفس لم يخزه خسر وتبخيس
فالأم عائشة والبعل سيدنا المختار والسوس من كليهما السوس
أكرم بدوحة آل الشيخ قاطبة من ساس مستخلفا منهم ومن سيسوا
عضت على الملة البيضاء نواجذهم في ليل هرج طغت فيه الخنافيس[3]

- حنّ بن أمتّال:

وهو محمد بن محمد المختار، يوصف بمرآة القرن الثالث عشر الهجري /

---

[1]- محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ص: 46. وهارون بن الشيخ سيديا، كتاب الأخبار، انواكشوط، ط 1998، ص: 57.

[2] ـ المختار ولد حامد، حياة موريتانيا الجغرافية، ص: 178.

[3] ـ بادي بن باي بن باب، النفي والبيان، ص ص: 94 ـ 95.

التاسع عشر الميلادي. وشهد له العديد[1] بسبقه في العلوم، والثناء عليه. وأخذ الورد القادري ـ الذي صار إماما فيه يلقنه للكبار ـ عن الشيخ المختار الكبير بعدما التقى به، والثابت أنه لم يرحل إليه[2]. ومن آثاره العلمية بائيته في التصوف، والتي اعترف فيها لنفسه بالغوثانية! وله تأليف يردّ فيه على بعض ممن يوجب خلع طاعة السلاطين، إذا لم يكونوا قائمين بالسنة، ويرى أن من لم يحارب سلاطين أولمدن، فهو كافر، حلال الدم، والمال.[3] وقد كتب إليه الشيخ حنّ كتابا يذكر فيه كثيرا من الأحاديث الواردة في حرمة دم المسلمين، وحرمة خلع السلاطين إلاّ أن يُرى منهم الكفر البواح، وأطال في ذلك وأجاد.

-العالم الجراري:

وهو يحي بن عبد الله بن مسعود[4] البكري[5]، من منطقة سوس. أخذ عن المختار الكبير الحديث، والفقه، وأسرار الطريقة الكنتية[6]. توفي حوالي سنة 1260 هـ/ 1844م.

- عبد الله بن محمود:

عرف بالعبادة والصلاح والشجاعة وبُعد الهمة، ولد في الركيبة لأم جكنية. اشتغل في أول أمره بالعلم، وانكبّ عليه، وكان لا ينام لشدة جده واجتهاده. تلقى الأوراد القادرية عن المختار الكبير، على خلاف كبير في ذلك بين الغلاوية،

---

[1]- من جملتهم الشيخ محمود بن الشيخ حماد من أهل طبرقة فإنه عقد له ترجمة يقول فيها: (وأما حنّ بن أمثال فهو الأنصاري اليعقوبي صاحب الفتوحات الوهبية والفيوضات الغيبية الجامع بين الشريعة والحقيقة). ينظر: السوقي، الجوهر الثمين، ص: 200.

[2]- عتيق السوقي، الجوهر الثمين، ص ص: 199- 204.

[3] ـ لم تذكر الوثائق التي تناولت هذا الموضوع، من هو صاحب هذه الفتوى. ينظر: الطرائف والتلائد، ص: 123.

[4] ـ عند ابن سودة: بن سعيد. ينظر: إتحاف المطالع، ج 7، ص: 2570.

[5]- الجراري، ضوء المصباح في الأسانيد الصحاح، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 4275. و3 و.

[6]- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، المطبعة الجديدة بفاس، ط 1927، ج 2، ص ص: 119- 121.

والوسيط.[1] يقول محمد الخليفة: «فأنكر الأخذ عن الشيخ رأسا، وقطع الصلة في ما بينه وبين من ينتسب إلى الشيخ، بسبب أو نسب، خلافا لسائر أعيان الزاوية حوله، من أخذ منهم ومن لم يأخذ».[2] وتوفي عبد الله سنة 1255 هـ/ 1839 م.

ـ أحمد بن حمادي بن بوبو:

ولد عام 1190 هـ / 1776 م، تلقى تعليمه على يد عدد من المعلمين، وفي سن العشرين حفظ القرآن، وأخذ حظ كبير من علوم الشريعة والكلام والبلاغة، وختم دراسته على الشيخ المختار الكبير الكنتي، فلازمه ثلاث سنوات، وتخرج من عنده بصفة مكنته من تحقيق أهدافه الإسلامية بتوفيق من الله. وكان محبا للعدل يكره الرياء ويحب الحق، كان يساوي في الحقوق بين العبد والحر لا يأكل إلا من ماله الخاص، لا يغضب إذا مُسَّ بسوء لا ينازع خصومه، وإذا نازع ينازع بهدوء لا يظهر عليه توتر ولا غضب.[3] وهذه الخصال جعلت الناس ينظرون إليه أنه أحكم وأعدل رجال عصره، فضلا عن الجهاد في سبيل الله وإعلاءه كلمته، وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

- محمد المامي:

هو محمد بن البخاري من قبيلة أهل باركلّه، ولد عام 1206 هـ / 1791 م، أخذ عن المختار العديد من العلوم، حتى صار ضليعا في الكثير منها. وقد دعا إلى

---

[1] ـ يروي صاحب الوسيط أنه هجا كنته بأبيات، وألّب عليها القبائل، حيث قال:

ألا يا عبد الله هلاّ تلوتموا ودبَّرتموا قول الإله فإن بغت
قاتلتموا كنت البغاة فإنهم بقية أحلاف اليزيد التي طغت

ومن ذلك قوله كذلك:

كان لنا مخاطب قد اسندا كان لجل الناس جلهم مدى
قد نسخوا السنة بعد أحمدا كنسخها الخبر بعد المبتدا

ينظر: ابن الأمين، الوسيط، ص: 364.

[2]- محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، ص: 71.

[3] ـ محمد الخليفة الكنتي، أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام، حققه بادي بن باي بن بـــاب، شـــركة المدينة المنورة للطباعة والنشر جدة، ط 1421 هـــ، ص: 18.

إقامة الحدود، وتنصيب الإمام الأعظم وفتح باب الاجتهاد.[1] ومن مؤلفاته: كتاب البادية، وجمان البادية، والدلفينية، وله فتاوى متفرقة. ويعتبر كتابه البادية، وكتاب عبد الله بن الحاج إبراهيم[2] طرر الضوال والهمل عن الكروع في حياض العمل، من أهم النصوص التأسيسية للإفتاء، والتي لا غنى عنها لمتابعة دقيقة لحوار فقهاء أزواد، خاصة ما تعلق بالاجتهاد والتقليد، وفهم ضوابط وقيود الفقه المالكي، من حيث كتبه المعتمدة وإجراءاته الاستدلالية، وكيفية الإفتاء والحكم عند علمائه. وتوفي[3] رحمه الله سنة 1282 هـ / 1865 م.

ولم يكن الطلبة يشعرون في هذه المحاضر التعليمية بما يؤثر على دراستهم من عسر أو ضيق، بل كانوا يجدون فيها كل ما يساعدهم على الدرس والتحصيل، من مأكل وملبس ومبيت وينعمون بكل ما يحتاجونه من عطف وأمان، فكان الشيخ يتولى الإنفاق عليهم، وتوفير أدوات التدريس، دون أن يطالبهم بأي تعويض مادي، أو خدمات بديلة عن تربيتهم وتعليمهم، رغم المدة الطويلة التي كانوا يقضونها في كنفه وتحت رعايته.

ومن أخبار الشيخ المختار الكنتي في ذلك، أنه ورد عليه في محضرته ذات يوم عبد الرحمن بن آف،[4] ففاجأه ما يتحمله من نفقات كثيرة على التلاميذ، وبينما هو معه في المسجد، إذ قال للتلاميذ: «إقامتكم عند الشيخ الزمان الطويل بلا استصحاب نفقة،

---

[1] ـ محمد النابغة الغلاوي، بوطليحية، تحقيق ودراسة يحي بن البراء، المكتبة المكية ومؤسسة الريان بيروت، ط الثانية 2004، ص: 18

[2] ـ عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي: وهو التجكجي وطنا ومدفنا، ولد عام 1152 هـ /1739 م، ودرس على ابن بونا الجكني ثم سافر للحج وأخذ عن محمد بن الحسن البناني، وهو أحد أكابر العلماء الذين انتشر العلم بهم. وكان له دور بارز في الحياة الاجتماعية والسياسية لمنطقة تكانت، وله عدة مؤلفات منها بالإضافة إلى الكتاب المشار إليه: غرة الصباح في اصطلاح البخاري، ونظم مختصر في علم الحديث، ونظم الخصال المكفرة للذنوب. وتوفي سنة 1233 هـ/ 1817 م. ينظر: النابغة الغلاوي، المصدر السابق، ص: 68.

[3] ـ وقبره عند ايك، وهو مشهور جدا. ينظر: ولد حامد، حياة موريتانيا، ص: 239.

[4] ـ عبد الرحمن بن آف: هو أحد رواد الزاوية المختارية بأزواد، يروي صاحب الطرائف أنه كان من المترددين على هذه الزاوية. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف، و 79 ظ.

كلٌّ عليه، وضرر به، ولا أرى أنَّ فاعل ذلك ينال من الشيخ محصولا، فلم يزل بهم حتى أثَّر ذلك في بعض من رقت نفسه تحرجا وتأثما».[1] فخرج منهم في حينه أحد تلاميذه وهو يحي بن عبد الله،[2] ورحل قاصدا أهله بأقصى المغرب.

ولما علمت زوجة الشيخ الكنتي بذلك، بكت حنانا بحال عبد الرحمن بن آف، وجزعا من شدة غضب الشيخ لذلك، أما الشيخ المختار فقد بعث ابنه محمد على الفور لإرجاع يحي بن عبد الله، وبعد عودته جمع تلامذته ومريديه، وخطب فيهم قائلا: «إخواني! من كان منكم في الله هجرته وإليه وجهته، فليأكل من مال لا تبعية عليه فيه ولا حساب ولا منة ولا عتاب، ليعمل لله بإخلاص، ولا يلتفت في سيره إلى إرجاف عام ولا خاص، فإن هذا المال مال الله، ونحن القومة عيال الله، ومن كانت هجرته ووجهته لغير الله، فلا فلاح له، أكل منه أو من مال نفسه».[3]

ولم تكن هذه المحاضر تقتصر في برامجها التعليمية على علم دون آخر، بل كانت تقدم تعليما متكاملا يشمل سائر العلوم والمعارف، وهي تتبع في ذلك أساليب تربوية تشجع على التعلم وتساعد على سرعة التحصيل، فكان الطلبة المتفوقون في بعض العلوم يتولون تدريسها لأقرانهم تحت إشراف الشيخ وبتوجيه منه، فكان الشيخ المختار الكنتي ــ على سبيل المثال ــ كثيرا ما يحيل من كان من طلبته مشتغلا بدراسة علم الفروع والنحو على من له باع وخبرة بتلك الفنون من تلامذته، فكان ذلك سببا لبث روح التنافس بينهم لبلوغ هذه المرتبة، والفوز بهذا الامتياز، كما كان عاملا فعَّالا في تبادل المعارف والخبرات بين الطلبة والتلاميذ.

ولا تختلف المواد الدراسية المعتمدة في هذه المحاضر عما كانت متداولا في فاس، وتلمسان، والقيروان، ومراكش، وتوات، وغيرها من المراكز الثقافية في غرب

---

[1] ــ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و174 ظ.

[2] ــ المقصود هنا الجراري.

[3] ــ محمد الخليفة، الطرائف، ص: 175.

إفريقيا في تلك الفترة من كتب وفنون، ويظهر ذلك فيما قرأه الشيخ المختار الكنتي نفسه من مدونات، وأخذه عن شيوخه من علوم ومعارف كما سبق بيان ذلك.

ولم يكن تعليم هذه المحاضر مقصورا على الرجال فقط أو الصغار وحدهم، بل كان يشمل الصغار، والنساء، والرجال معا. فمما يذكره محمد الخليفة من أخبار والده، أنه ختم مختصر خليل تدريسا، هو وزوجته في يوم واحد في خيمة واحدة، هو للرجال، وزوجته للنساء.[1]

وفي العشرين سنة الأخيرة من عمره تفرغ المختار للتدريس والتأليف، وأوكل المهام القيادية إلى ولده محمد، والبقية يعينوه في تلك المهام. ووضع أساس مكتبة ضخمة، حيث كان يسيِّر سنويا قافلتين لجلب الكتب، إحداها تتجه غربا نحو فاس، وغيرها من المدن المغربية ذات النشاط حينها، والأخرى شرقا إلى مصر عبر تونس وبرقة.

ولم يكتف الشيخ المختار بما كان يرد عليه من كتب ومصنفات، وما كان يجلبه من أثار ومدونات، ولكنه اهتم بدوره بالتأليف والتصنيف،[2] فحرر عددا من الآثار الفقهية والرسائل التوجيهية، لا تختلف في غناها وتنوعها عما خلّفه غيره من العلماء. وقد تميز الشيخ بغزارة الإنتاج وكثرة المؤلفات، قال محمد الخليفة: «فقد اشتغل غاية الشغل بالتصنيف في أواخر عمره بنحو سبعة وعشرين سنة، صنف فيها معظم مصنفاته بوجه خارق للعادة. فإن من مصنفاته ما يمكث المصنف الماهر بالتصنيف في مثله ما ينيف على العشرين سنة تسويدا، وهو لم يستوف عاما في تسويد مصنف من مصنفاته، وفيها ما هو في أربعة أسفار ضخام».[3]

---

[1] ـ عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 2001، ص: 136.

[2] ـ مجهول، إجازات المختار، و 6 و.

[3] ـ محمد الخليفة، الطرائف، ص: 230.

إن المكانة العلمية الرفيعة التي كانت للشيخ المختار الكنتي، أهلته لأن يخلّف تصانيف شتى تدل على موسوعيته، وغزارة علمه مما أدى إلى تنوع موضوعاتها من: فقه، ونحو، وحديث، وتفسير، وعقيدة وتوحيد، وتصوف، وتاريخ، وأنساب وغيرها،[1] وتنوع أشكالها نظما، ونثرا، استقلالا وشرحا، وتقريرا وجدلا. وهي تتميز بغناها واختلاف مجالاتها، وتعدد حقولها المعرفية.

وراسله زعماء فلان، الذين أسسوا إمارة في الجهة الشرقية من السودان الغربي، واعترفوا بجهوده في نشر العلم، ومنهم محمد بلو، الذي بعث إليه بقصيدة جاء في مطلعها:

أبّلغ تحياتي لكنته بأسرها لا سيما للسيد المختار
أبّلغ تحية مسك زلاله للغوث مع أقطابه الأخيار[2]

المختار والردود العلمية:

لم يكن مولعا بالردود العلمية، فخلال حياته العلمية لا يكاد الباحث يعثر له إلا على القليل من الردود، وأهمها: رده على دعاة الوهابية، ورسالته التي واجه فيها بعض آراء فقهاء توات سماها: يتيمة اللآلي في إفحام علماء تنيلاني.[3] ودار خلاف بينه وبين المختار ولد بونا الجكاني،[4] فالمختار الكنتي كان ينكر عليه أنه وضع تأليفا يتحفظ فيه

---

[1] ـ بول مارتي، كنتة الشرقيون، ص: 53.

[2] ـ محمد بلو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ط الأولى 1996، ص: 323.

[3] ـ توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة الشيخ أبي نعامة الكنتي بأقبلي في أولف.

[4] ـ المختار ولد بونا الجكاني: يصفه ابن الأمين بتاج العلماء، ولا يوجد بشنقيط عالم بعده إلا وله عليه الفضل الجزيل، بما استفاد من مصنفاته، وتلقى من مسنداته، وكان ول بونا حيًا في أوائل القرن الثالث عشر، وهو عميد مدرسة الكلام والنحو بشنقيط، وكان لا يجارى فيهما، وقد طبعت طرته المسماة: بالاحمرار في مصر، وطبع بعض تأليفه في مصر. ينظر: ابن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص ص: 277 ــ 283.

يتحفظ فيه من شيوخ التصوف في عصره، فلما بلغه ذلك قال المختار ولد بونا يعرِّض بالمختار الكنتي ويعاتبه من الطويل:

أسيدنا المختار لا تك مفرطا وإياك والتفريط واعدل وأقسطا
فكونك ذا مال وجاه ورتبة علت في قلوب الناس لم يمنع الخطا
وكوني لم أذكر كذكرك لم يكن ليمنعني التوفيق من مانح العطا
أتسلبني والله ما شاء مثبت إذا أنت في تعظيم نفسك مفرطا[1]

وله أيضا في ذلك من الطويل:

لئن كنتم استظهرتموا أن جعلتموا أمورًا علينا في الشريعة لم تكن
فلا تنكروا أن كنّتِ[2] الكتب عنكم سرائر عنا حالة البحث لم تكن[3]

ثم صارت بينهما مراسلات وملاطفات، واتفقا على أن يجتمعا في تكانت، بأن يقدم ابن بونا من القبلة، ويتوجه المختار الكبير من أزواد. غير أن ذلك اللقاء لم يتم كما تشير المصادر،[4] لأن المختار الكنتي عدل عن عزمه، وتبقى الأسباب عن عدوله مجهولة.

ولم يزل على قدره في النفوس، حتى وفاه الأجل المحتوم يوم الأربعاء 05 جمادى الأولى 1226 هـ / 29 ماي 1811 م،[5] عن عمر يناهز ثلاث وثمانون سنة. وهو التاريخ الذي أورده أغلب من ترجم له.[6] وقد شدَّ الشيخ باي بن عمر الكنتي[1] عن

---

[1] ـ عبد العزيز بن الشيخ الجكاني، ثمرات الجنان في شعراء بني جاكان، دار المحبة دمشق ودار آية بيروت، ط الأولى 2005، ص: 244.
[2] ـ في الأصل هكذا، ولعلها: كانت.
[3] ـ عبد العزيز الجكاني، المرجع نفسه، ص: 244.
[4] ـ ابن الأمين، الوسيط، ص: 282.
[5] ـ الأرواني، السعادة الأبدية، ص: 156.
[6] ـ مجهول، تاريخ ولاتة، ص: 52.

الكنتي[1] عن الإجماع الذي تواترته الروايات الكنتية، حيث تاريخا لا يوجد عند غيره من أصحاب التراجم، فقد صرَّح بأن وفاته كانت ضحى يوم الأربعاء لثمان خلت من ربيع الثاني سنة 1224 هـ / 1809 م.[2] ويمكن للباحث أن يستنتج بأن هذا التاريخ من وضع الناسخ وليس من وضع المؤلف، وهذا ما تؤكده النسخ الأخرى لمخطوط الشيخ باي.[3] وكانت حياة الشيخ المختار كلها بذل وعطاء، ودفن بالقرب من بئر يقال لها أبي الأنوار، بأقصى شمال تنبكتو.[4]

وبعد وفاته رحمه الله رثاه أحد الشعراء بقصيدة طويلة منها:

على الخلق للخلاق إن فعل الفعلا رضاهم به منه وإن عظم الفعلا
وفي موت خير الخلق أحمد أسوة ويأس لمن يستعمل والعقل والنقلا
فلا خالد يبقى ولا عامر بها بل الكل قد يبلى وتبلى كما يبلى
فيا باكيا شمس الهداية شيخنا وسيدنا المختار للفضل عد معلا
ليبكيه قطر عاش في بركاته وتبكيه أرض كان حاكمها العدلا
وتبكي اليتامى والأيامى لفقده وتبكي بلاد كان ديمتها الهطلا
ويبكي حقير عز في فضل عزه ويبكي فقير عنه فاقته أجلى
تغمده رب البرية بالرضا وحلاه بالتكريم في الملأ الأعلى[5]

ورثاه شاعر آخر بقصيدة[6] منها قوله:

ألا ما لغير الله في خلقه أمر ولله جل الخلق والأمر والقهر

---

[1] ـ باي بن عمر،المصدر السابق، ص: 04.
[2] ـ ويشير ابن مخلوف إلى أن وفاته كانت سنة 1229 هـ / 1813 م. ينظر: ابن مخلوف، شجرة النور الذكية، ص: 377.
[3] ـ ينظر بهذا الصدد نسخة مكتبة باشيخ بأولف بدون رقم، و 17 ظ. ونسخة زاوية مولاي هيبة بأولف، رقمها د 22، و 13 و.
[4] ـ محمد سعيد القشاط، أعلام من الصحراء، مؤسسة ذي قار ليبيا، ط الثانية 1999، ص ص: 60 ـ 62.
[5] ـ القصيدة لدى الشيخ بادي بن باي بن باب بالمدينة المنورة.
[6] ـ القصيدة موجودة بخزانة بيت العود بأقبلي ضمن مجموع بدون رقم.

لقد أسبغ النعمى لحي كناتة بسيدها المختار ما اتصل العمر
فما طرقتها قبله كمصيبة بسيدها المختار إذ ضمه القبر
كأن بني الكنتي يوم وفاته نجوم سماء خدّ من بينها البدر
فما بعده فخر وما معه لكم ودونكم كانت له العز والفخر
لأبقاه أو أبقى أباه وجده وأبقى كراما قبلهم ما لهم حصر

ويظهر مما سبق أن قبيلة كنته تنتسب إلى عقبة بن نافع، مؤسس القيروان، وفاتح بلاد المغرب. وقد تكاثر عددها وانتشر أفخاذها في الصحراء على امتداد قرون، وهجرت مواطنها الأصلية في الشمال، ونزحت واستقرت بأزواد، وبغيرها من مناطق الساحل السودان. وبأزواد أسس أولاد الوافي مراكز حضارية وتجارية مزدهرة كانت أهمها على الإطلاق زاوية الشيخ المختار الكبير، ذات الإشعاع الواسع في كامل المنطقة. وهذه الزاوية عرفت العديد من الرواد من مختلف الجهات، وهؤلاء عملوا على نشر الطريقة الكنتية المختارية.

ويتبين من مواد التعليم التي تلقاها المختار الكبير وذكرها صاحب الطرائف، طابع الاطراد، والثبات، بالنسبة لمضمون مواد التعليم. حيث تتكرر أسماء مؤلفين معينين، في ميادين من المعارف التقليدية. ومعظم ما راج من تلك المعارف في تلك الفترة، إنما كان موروثا عن القرون الماضية. فأساس التعليم هو استظهار القرآن الكريم، وإتباعه بحفظ المتون، التي تتضمن القواعد الأساسية في اللغة، والنحو، وعلوم الدين.

الفصل الأول:

جهود المختار

العلمية في العقيدة الإسلامية

وقد بدأ الجدل في العقيدة الإسلامية مع طرح قضية مرتكب الكبيرة في سنوات الفتنة الأولى، وكان الخوارج[1] أحد الأطراف الرئيسة في طرحها. ثم تطور الجدل بين المسلمين لتطرح قضية أخرى في أواخر القرن الهجري الأول وبداية الثاني، وهي قضية الجبر والاختيار. والظاهر أن الاستدلال بالقرآن قد ازداد لمّا ابتعد الجدل عن المسائل السياسية، التي انطلق منها وأصبح جدلا فكريا بحتا يهتمّ بقضايا مجردة.

1ـ الإيمان بالله وبصفاته:

يرى المختار الكبير أن الله واحد، فرد صمد، قديم عالم، قادر حي، سميع بصير، عزيز عظيم، جميل كبير، جواد رؤوف.[2] وإن كلمة الإخلاص هي الركن الأساس في العقيدة الإسلامية يكررها المسلمون غير ما مرة في اليوم الواحد، فقد كان لزاما على المهتمين أن يقفوا عند دلالتها ويجعلوها من أوائل ما ينبغي إدراكه، وهذا ما يفسر كثرة الإسهامات التي ظهرت في هذه المرحلة والتي تتولى توضيح كلمة الشهادة من حيث دلالتها أو معناها. وقد أشار الغزالي[3] إلى أن المكلف يجب أن يعتقد أصول التوحيد وهي: وجود الباري، ووحدانيته، وتنزيهه، وإبداعه تعالى بقدرته واختياره لكل ما سواه، وتدبيره تعالى لجميع مبتدعاته ليبرأ به عن تدبير الطبائع والكواكب والملائكة.

ويوضح المختار بأن الإيمان الذي هو صفة الموحد إنما هو موهبة من الله، وإحدى المناقب التي لا تدرك بالكد ولا تدفع برد.[4] ويظهر أنه يريد أن يعطي للإيمان تفسيرا صوفيا، وإلا ما معنى أنه لا يدرك بالكد؟ قال تعالى: ﴿يُخرِجُهُم منَ الظُّلُماتِ إلى النُّور﴾.[5]

---

[1] ـ الخوارج: هم الذين خرجوا عن الخليفة علي بن أبي طالب بعد وقعة صفين، وهم عشرون فرقة، أشهرهم: المحكّمة الأولى، والأزارقة، والنجدات، والصفرية. وقد كفروا كل من رضي بالتحكيم. ينظر: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الجيل ودار الأفاق الجديدة بيروت، ط 1987، ص: 54.

[2] ـ المختار الكبير، المنة في اعتقاد أهل السنة، ص: 24.

[3] ـ الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا، مكتبة الجندي مصر، ط 1972، ص: 29.

[4] - محمد المهداوي، الشيخ المختار الكنتي حياته وتأليفه: نزهة الراوي وبغية الحاوي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة، دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا الرباط، المشرف محمد يسف، سنة 2003/ 2004، ص: 52.

[5] - الآية 257، سورة البقرة.

قوله عز وجل: ﴿وَمَن لَّم يَجعَلِ اللَّهُ لهُ نُورًا فمَا لهُ مِن نُّورٍ﴾.[1] والإيمان يزيد وينقص،[2] أنوار إيمان المؤمنين تزيد بزيادة الأعمال، وتنقص بنقصها، وتتقوى بقوة أنوار: الأحوال وتضعف بضعفها. وأما المنافقون ومن في قلبه مرض من الضعفاء فإن إيمانهم ناقص ولا يزيد، لأن المنافقين لا إيمان لهم أصلا».[3]

والإيمان هو تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح.[4] ومن نظرة المختار الإيمان يظهر التأثير الأشعري واضحا عليه، لأن الأشاعرة يعرفون الإيمان بأنه هو: «التصديق بالله تعالى، وهو العلم، والتصديق يوجد في القلب».[5] ومن هذا يتضح أنهم يعتبرون الإيمان مجرد اعتقاد بالقلب، فلم يقرنوه بالعمل بالجوارح. فيكفي أن يكون عند الإنسان اعتقاد، وتصديق، كي يكون مؤمنا.

والقرآن الكريم أشار بوضوح للتوحيد، ونهى عن الشرك، قال تعالى: ﴿وَلا تَجعَلْ مَعَ اللَّهِ إلهًا ءَاخَرَ﴾.[6] ولذلك فكل قول، أو فعل، يجب أن يتكرر فيه التوحيد، لأنه: «رأس كل حكمة، وملاكها، ومن عدمه لم ينفعه شيء».[7] والمشرك يكون مذموما مخذولا، والذي يتخذ مع الله إله آخر، فإنه سوف يلقى في جهنم مذموما مدحور.

وأوضح أغلب العلماء[8] إلى أن كلمة الإخلاص هي أصل الأصول الدينية، والقاعدة الأساسية في القواعد الشرعية. وقد جعلها السنوسي تشمل مجموع ما ينبغي اعتقاده داخل

1- الآية 40، سورة النور.
2- الغزالي، المصدر السابق، ص: 187.
3- المختار الكبير، كتاب المنة، ص: 97.
4- ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، دار الفكر بيروت، د ت، ج 1، ص:12.
5- الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط 1987، ص: 38.
6- الآية 39، سورة الإسراء.
7- المختار الكبير، كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة، ص: 106.
8- من جملتهم: أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر في كتابه: مزيل اللبس عن القواعد خمس، مخطوط مكتبة دار الكتب المصرية، و 1 ظ.

المعتقد الأشعري، مما يجب لله،[1] ويجوز أو يستحيل عليه. فكان على عامة الناس وخاصتهم تحقيق دلالتها، وتحصيل معناها ومضامينها، حتى تستقيم عقيدتهم ويتطابق معتقدهم بما ينطقون به من شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله كل يوم.

ومن تمام إيمان المسلم أن يدرك بألا ضار، ولا نافع، ولا معطي، ولا مانع، إلا الله. ولذلك وجب عليه الإيقان بأنه لو اجتمع الإنس، والجن، على أن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له ما نفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يقدره الله عليه ما ضرّوه بشيء. قال المختار: «... والعطاء تابع للنفع يوجد بوجوده وينعدم بعدمه، وقد انعدم في يقينك نفع المخلوقات فينعدم العطاء بانعدامه، لأنه موجب النفع والمنع، تابع للضر، فإذا لم يقدروا على ضرك، فإنهم لا يقدرون على دفعه عنك، وجب أن تسأل الجميع إلا من الله ولا تعوّل إلا عليه وذلك عين التقوى».[2] ومعنى هذا أن الأمر كله لله، ولا شريك له في قدرته وإرادته، فلا نفع ولا ضر، إلا إذا صادف مشيئته.

تأويل الآيات المتشابهة:

ومن تمام إيمان المرء ــ حسب المختار ــ الانقياد والتسليم، والإيمان بظواهر الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وإبقائها على ما وضعت له، إذ لا قدرة لأهل الكلام على غير ذلك، فما بالك بعوام الناس؟! ولا شك أن من أمده الله بالبصيرة أدرك الحقائق: «على كنهها من غير استشكال، ومن حرم الذوق خبط في ذلك خبط عشواء، معاندة وطلبا للتأويل وابتغاء للفتنة».[3] حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنهُ ابتِغَاءَ الفِتنَةِ وَابتِغَاءَ تَأوِيلِهِ وَمَا يَعلَمُ تَأوِيلَهُ إلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ يَقُولُونَ

---

[1] ــ السنوسي، شرح أم البراهين في علم الكلام، تحقيق وتعليق مصطفى محمد الغماري، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1989، ص: 29.

[2] - المختار الكبير، الأجوبة الشافية في حقيقة التقوى، و4 ظ.

[3] ــ المختار الكبير، المنة، ص: 122.

﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُولوا الأَلبَابِ﴾.[1] وكان الإمام مالك بن أنس يكره التأويلات العقلية، ويفهم النصوص القرآنية المتشابهة فهما نصيا، دونما لجوء إلى تأويلاتها، وكان يردد دائما: «إنما أهلك الناس تأويل ما لا يعلمون».[2]

وهكذا يبدو المختار في رأيه السابق تابعا لأوائل الأشاعرة، الذين أثبتوا لله الصفات التي وردت في الآيات المتشابهة، ولكن دون كيف،[3] فرأوا بأن لله يد ولكن لا يعرف كيفها، وكذلك الوجه، والاستواء. وقد وجد فريق ثان من الأشاعرة، وهم الذين أولوا تلك الصفات تأويلا عقليا، وتحروا في ذلك التنزيه للذات الإلهية عن الصفات الجسمية، والتشبيه الذي يجعل الله شبيها بمخلوقاته.[4] وهذا الرأي هو الذي عمل به غالبية الأشاعرة لا سيما المتأخرين، وكان هذا التأويل مؤشرا آخر على تميز الفكر الأشعري، عن الفكر الرافض للتأويل العقلي.

القول في الصفات:

فالمختار يثبت لله صفاته وجعلها قائمة بذاته تعالى، ويشير إلى أن لله صفات على الحقيقة[5] هو بها موصوف وهي: العلم، والقدرة، والقوة، والعزّ، والحلم، والحكمة، والكبرياء، والجبروت، والقِدَم، والحياة، والإرادة، والمشيئة، والكلام. وأنها ليست بأجسام، ولا أعراض، ولا جواهر، كما أن ذاته ليس بجسم، كالأجسام الفانية، ولا عرض،[6] ولا

---

[1] - الآية 07، سورة آل عمران.

[2] ـ سالم يفوت، «الأشعرية في المغرب»، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 68 ـ 69 ، سبتمبر 1986، ص: 37.

[3] ـ الباقلاني، التمهيد، ص: 295.

[4] ـ يوسف احنانة، تطور المذهب الأشعري، ص: 21.

[5] ـ ويرى المختار أن ما ورد عن المتأخرين من تعلق الصفات بالموجودات، وتسمية بعضها سلبية، وبعضها نفسية، وبعضها معان، وبعضها معنوية، فإنه لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من أصحابه رضوان الله عليهم، ولا عمن يُعتبر مذهبه من أئمة التابعين. وصار من محدثات الأمور، إلا أنه لا ينبغي لأحد الطعن فيها، ولا التعرض له لأن العلماء قد أثبتوه، فيجب التصديق به، ومنهم السنوسي، الذي نص عليها في مصنفاته. ينظر: المختار الكبير، المنة ، ص: 98.

[6] - العرض: اسم مشترك، فيقال لكل موجود في محل عرض. ويقال عرض لكل موجود في موضوع. ويقال عرض للمعنى الكلي المفرد المحمول على كثيرين حملا غير مقوم. ويقال عرض لكل معنى موجود للشيء خارج عن طبعه. ويقال عرض لكل معنى يحمل على الشيء لأجل وجوده في آخر يفارقه. ويقال عرض لكل معنى وجوده في أول الأمر لا يكون. ينظر: الغزالي، معيار العلم، شرح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1990، ص: 292.

جوهر.[1] وأن له سمعا وبصرا، ووجها ويدا، على الحقيقة، ليس كالأسماع، والأبصار، والأيدي، والوجوه. ويشير المختار أن سلف الأمة كانوا يشتغلون بما ينبني عليه عمل، ولم يتعمقوا في الجدل. ولم يلزم الواحد منهم نفسه بمعرفة: «الجوهر، والعرض، إذ مات الصحابة رضوان الله عليهم ولا عرفوها. ولا يلزمه أيضا أن يعرف هل الاسم عين المسمى أم لا؟ ولا تفسير الأحاديث التي فيها الوجه، واليد، والاستواء، والكلام، والتنزل، والرؤية، والكرسي، والضحك».[2]

وهو تأكيد لرأيه السابق في التزامه بعدم تأويل الآيات المتشابهة، كما أنه أشار إلى فكرة هامة وهي مسألة النظر العقلي في أمور العقائد، وهي من المسائل التي اهتم بها أغلب من كتب في العقيدة. غير أن الاختلاف بهذا الصدد بين الأشاعرة هو هل النظر فرض عين أو هو مجرد فرض كفاية؟

وقد انقسموا إلى فريقين، فريق يرى بأنه من فروض الأعيان، فواجب على كل مسلم ومسلمة توافرت فيه أهلية التكليف أن ينظرا بعقليهما في أمور العقائد حتى يتمكنا من معرفة الله، وما يجب له، وما يجوز، وما يستحيل في حقه. وبذلك يكون النظر واجبا عينيا فقد «ثبت إيجاب الله تعالى علينا معرفته، وشكره، ووصفه بصفاته، وباعتقاده الحق واجتناب الباطل».[3] وأشهر من يمثل هذا الرأي من علماء أصول الدين القاضي الباقلاني،[4] الذي رأى بأن التقليد في أمور العقائد غير جائز للمكلف، بل يجب عليه

---

[1] - الجوهر: اسم مشترك، يقال جوهر لذات كلّ، كالإنسان أو كالبياض، فيقال جوهر البياض وذاته. ويقال جوهر لكل موجود وذاته لا يحتاج في الوجود إلى ذات آخر تقارنها حتى يكون بالفعل، وهو معنى قولهم: الجوهر قائم بنفسه. ويقال جوهر لما كان بهذه الصفة وكان من شأنه أن يقبل الأضداد بتعاقبها عليه. ويقال جوهر لكل ذات وجوده ليس في موضوع، وعليه اصطلاح الفلاسفة القدماء. ينظر: الغزالي، معيار العلم، ص، 291.

[2] ـ المختار الكبير، البرد الموشا في قطع المطامع والرشا، ج 1، ص: 27.

[3] ـ الباقلاني، التقريب والإرشاد، تحقيق عبد الرحمن على أبو زيد، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 1993، ج 1، ص: 215.

[4] ـ الباقلاني: هو أبو بكر الباقلاني القاضي محمد بن الطيب، من كبار فقهاء أهل السنة وحجة في المذهب المالكي فر العراق. خلف العديد من الكتب منها: شرح اللمع، والإمامة الكبرى، أمالي إجماع أهل المدينة. وتوفي ببغداد في ذي القعدة سنة 403 هـ / 1012 م. ينظر: أبي العباس أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، د ت، ج 4، ص ص: 269 ــ 270.

إعمال النظر حتى يدرك حقيقة الوجود. ومن الذين نحوا هذا المنحى كذلك الإسفرايني،[1] وإمام الحرمين الجويني.[2].

والفريق الآخر يرى أن النظر ليس واجبا عينيا، وإنما هو من فروض الكفاية فقط، لا يقومون به إلا المؤهلون له، وهم العلماء دون غيرهم من العامة والجهلة.[3] ولذلك فقد جوزوا أن يكون هناك تقليد في العقائد. وهذا الرأي الأخير هو الذي مال إليه المختار، وأعتبر أن ما يقوله المتعمقون في علم الكلام من أنه لا يعد مؤمنا إلا من تعمق تعمقهم، وخاض خوضهم في الدلائل، والبراهين، لا أصل له. بل من علم أن الله ربه، وخالقه، ورازقه، وأنه هو الذي يميته، ويحيه، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم نبيه، وأنه جاء عن الله بالهدى ودين الحق، وشهد له بالصدق، والأمانة: «وآمن بالقدر خيره، وشره، حلوه، ومره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وأن الله يجب له كل كمال، ويستحيل عليه كل نقص، ويؤمن بالبعث، والوزن، والحساب، والصراط، والجنة، والنار».[4] وأشهر من يمثل أصحاب هذا الرأي هو الغزالي، الذي وضع كتابا سماه إلجام العوام عن علم الكلام، وكتابا أخر هو الاقتصاد في الاعتقاد.

ويعتبر مشروع السنوسي العقدي في بدايته مشروعا يهدف إلى القضاء على التقليد في أمور العقائد. وأرائه كرست حيزا كبيرا لهذه المسألة، وأبدت فيه موقفا واضحا، يميل إلى رفضه رفضا باتا وقاطعا، بل وصل به الأمر إلى تكفير المقلد في العقائد.[5] وأنكر

---

[1] ـ الإسفرايني: هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الملقب بركن الدين، الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي، أخذ عنه الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور وأقرّ له بالعلم أهل العراق. توفي يوم عاشوراء سنة 418 هـ / 1027 م. ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج 1، ص: 28.

[2] ـ الجويني: هو أبو المعالي عبد المالك بن عبد الله الجويني المعروف بإمام الحرمين، وهو مجمع على إمامته، المتفق على غزارة مادته وتفننه في العلوم. ولد في 18 محرم عام 419 هـ / 1028 م، تفقه على والده وصار إمام نيسابور وإمام المشرق كله في الفقه والأصول والكلام، وجاور بمكة أربع سنين ومن هنا أخذ لقب إمام الحرمين. ولما عاد إلى نيسابور بنى له نظام الملك المدرسة النظامية. له من الكتب البرهان في أصول الفقه، ومغيث الخلق في ترجيح مذهب الشافعي. توفي سنة 478 هـ / 1085 م. ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج 3، ص ص: 167 ـ 170.

[3] ـ الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص: 15.

[4] ـ المختار الكبير، كتاب المنة، ص: 98.

[5] ـ السنوسي، عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد، مخطوط خزانة باشيخ أولف، بدون رقم، و4و.

عليه بعض معاصريه موقفه هذا، وكان أشهرهم أبو العباس أحمد بن زكري التلمساني،[1] والذي دخل في سجال نظري مع الإمام السنوسي حول هذه القضية. مما دفع بالسنوسي إلى تلطيف العبارة[2] بصدد الحكم على المقلد في العقائد. ورغم هذا الاختلاف في هذه المسألة بينه وبين السنوسي، فإن المختار يقرر بأن عقيدة السنوسي هي عقيدة التوحيد، وهي عقيدة أهل السنة والجماعة.

كلام الله وخلق القرآن:

حينما يتعلق الأمر بصفة الكلام، فإننا نجد المختار يعتبرها قديمة كسائر الصفات. فكلام الله قديم، والقرآن بذلك يكون قديما.[3] إلا أنه يميز في إطاره بين الكلام النفسي أو المدلول، وبين الألفاظ الدالة عليه. والكلام النفسي، أو المدلولات، فهو كلام أزلي قديم أما «الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلي، والدلالة مخلوقة محدثة».[4] وهذا عكس ما ذهبت إليه المعتزلة[5] الذين نفوا عن الله سبحانه وتعالى أن يتصف بصفات المعاني ومنها الكلام، لأنه تعالى لو اتصف بها ــ حسب زعمهم ــ لكانت تلك الصفات قديمة بقدم ذاته، فيتعدد القدماء! وهو رأي مردود، على واضح تأثر المعتزلة في هذا الطرح بالفلسفة، التي تعطي الأولوية للعقل. ورأي المختار الذي تم تناوله، فيه دلالة تامة على أن الكلام قائم بذات الله سبحانه وتعالى، وبالتالي ليس هناك أي تعدد.

---

[1] ــ ابن زكري التلمساني: هو أبو العباس أحمد أحد فحول العلماء، انتهت إليه رئاسة العلم في زمانه، وكان شيخ الفتيا وإمام التدريس، له مكمّل المقاصد الذي لم يسبق بمثله، ونظمه على بحر الرجز. ولما توفي الشيخ السنوسي رثاه ابن زكري بقصائد على ما كان بينهما. توفي ابن زكري سنة 899 هـ / 1493 م. ينظر: محمد بن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبعة الكرامة الرباط، ط الثالثة 2003، ص ص: 108 ــ 109.

[2] ــ اعتبر مجموعة من الشارحين أن السنوسي تراجع عن موقفه من تكفير المقلد في شرحه على عقيدته الصغرى. ينظر: شرح السنوسي على أم البراهين بهامش حاشية الدسوقي على هذا الشرح، المطبعة الأزهرية مصر، ص: 52.

[3] ــ المختار الكبير، المنة، ص:43.

[4] ــ الباقلاني، التقريب والإرشاد، ج 1، ص: 153.

[5] ــ محمد بن يعيش، الإمام أبو يوسف بن عبد البر حياته وآثاره ومنهجه في فقه السنة، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ط 1990، ص: 288.

الذات حسية أم معنوية:

تناول المختار الكبير هذا المسألة في تآليف له عديدة،[1] ولتسهيل رأيه نظم أبياتا لطلابه، حتى تكون أسهل للحفظ، والإدراك، فقال:

أيا سائلي عن ذات رب كريمة ... أ للحس تعزى أم لمعنى تعالت
فهاك جوابا مفصحا عن فصوصه ... يبين إدراكي وتحقيق نسبتي
فليس بمحسوس يحاط بكنهه ... وليس بمعقول يقوم بجثة
ولكنها ذات تحقق وصفها ... بكل كمال فاستمع نص حكمتي
تشاهدها الأبصار في كل ساعة ... ولا ثم إدراك يرام ببغيتي
فلا كم بيديها ولا كيف يحتضر ... ولا لون يدنيها ولكن تعالت
فقول الرسول عن تفكرنا بها ... يبين إطنابا بعين حقيقة
تقوم بها الأوصاف وهي فريدة ... وتنظرها الأبصار وهي بدهشة
ونهى الرسول عن تفكرنا بها ... يبين رشدا مبعدا كل شبهة
إذا ما عجزنا عن بيان نفوسنا ... فكيف بإدراك الذات تجلت
فمن قال بالمعنى فذاك معطل ... ومن قال بالمحسوس جاء بفرية
فلا هي جسم لا ولا هي جوهر ... ولا هي عرض لا وليست بصفة
فأسماؤه عين الكمال ونعته ... ضروب التجلي فاحكمن بوحدة[2]

إن تصور المختار للذات الإلهية يتميز بكونه ينفي، ويسلب عنها كل الصفات التي تتنزه عنها. ولا يثبت لها إلا صفة الواحدية، التي أنهى بها تصوره. وعلى هذا الأساس يحق لنا أن نتساءل هل بالإمكان التوصل إلى إقامة معرفة بالذات الإلهية عن طريق النظر العقلي؟ والمختار يجيب عن هذا الإشكال في أبياته، ويصرح بأن معرفة الله لا تقوم بالنظر، والتفكر، بل هي ضرورة وفطرة فطر الله الناس عليها. فما من أحد إلا ويعرف

[1] ـ منها: كتاب المنة، ونزهة الراوي، والنوازل.
[2] ـ المختار الكبير، نضار الذهب من كل فن منتخب، ج 1، ص ص: 55ـ 56.

الله بفطرته، وجبلته. أما اختلاف الناس بين مؤمن، وكافر، فمرده إلى أن المؤمنين يمتثلون للنصوص الدينية، والأوامر الإلهية، والكافرين لا يفعلون.

والمختار متأثر كثيرا في رأيه هذا بابن أبي زيد القيرواني، الذي اعتبر أن الله «إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه ولا نظير له ... لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته».[1] وبذلك يكون الناس كلهم مفطورون على معرفة الله،[2] غير أن بعضهم يؤمن بالامتثال إلى أوامره، والآخرون يكفرون بعصيانهم لله.

الإرادة والمشيئة:

وبنت الجبرية[3] مذهبها في الإرادة على قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إلا أن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.[4] فأبطلت حكمة الأمر والنهي، وأنكرت حقيقة التكليف، ونفت عن الله أن يفعل في خلقه ما يشاء، حتى أفضى بهم ذلك إلى نسبة الظلم إلى الله في تعذيب العاصي، وما فهموا معنى الآية، لأن الله أثبت لهم الإرادة الكسبية أولاً بقوله: (وما تشاءون) قال المختار: «ولو كانت لكم إرادة كسبية مجازية إلا أن يشاء الله، إمضاء ما تعلقت به مشيئتكم المجازية الكسبية، بجريان مشيئته الملكية الحقيقية، هذه حقيقة قاهرة، وتلك مجازية مقهورة ظاهرة».[5] وإلى مثل هذا ذهب[6] جمهور الماتريدية، في أن أصل الفعل بقدرة الله عزّ وجلّ، والاتصاف بكونه طاعة أو معصية بقدرة العبد.

والمذهب الثاني مذهب القدرية، وزعموا أن الله يخلقهم وهم يخلقون أعمالهم، وأنهم قادرون على الخير، والشر. وأنه يجب على الله رحمة المطيع، وتعذيب العاصي، فكذبهم

---

[1] ـ ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة، مطبعة مصطفى الحلبي القاهرة، ط 1338 هـ. ص: 3.
[2] ـ عبد المجيد بن حدة، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشاعرة، دار الغرب تونس، ط 1686، ص: 47.
[3] ـ هي فرقة تدعي أن العبد مجبر على أعماله السيئ منها والحسن.
[4] ـ الآية 29 سورة التكوير.
[5] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص:72.
[6] ـ عبد الرحمن الميداني، العقيدة الإسلامية، ص: 663.

الله بقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعمَلُونَ﴾.[1] قال المختار: «وهم فرقة الإشراك».[2] لأنهم بنوا أساس أهوائهم الفاسدة على متن قوله تعالى: ﴿وَتِلكَ الجَنَّةُ الَّتي أُورِثتُمُوهَا بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ﴾.[3]

وجمع أهل الحق، والسنة، بين المذهبين على وجه يطابق الحكمة، فتأدبوا مع الحق بارتكاب الأسباب التي نصب الله صيانة للسر، وتبرؤوا من الحول والقوة، امتثالاً للأمر، فركبوا سفينة التسليم، وازدادوا بعد صريح الإيمان يقينا، فما يخافون شكا ولا تخمينا. قال المختار: «أجمع أهل السنة من هذه الأمة على أن ترك الأسباب مع الله سوء أدب، والاعتماد عليها شرك، والحنيفية بينهما، وهو أن تفعل الأسباب من غير اعتماد عليها».[4] وهو رأي يجمع ما فهمه سلف هذه الأمة حول مسألة المشيئة، لأن الله خلق العبد وبين له طريق الهداية وهي الفطرة، وطريق الضلال وهو نقيض الفطرة، والمسلم المتزن الذي يستعمل عقله بدون شك سيختار الطريق الأول، والله سيعينه على اختياره بتطويع نفسه للصلاح. أما الكافر الذي اختار الطريق الثاني وتمادى فيه، فسيزيده الله ضلالا على ضلاله، وغواية على اختياره.

القول في القدر:

وهذه النقطة متعلقة بسابقتها، والمراد بالقدر أن الله سبحانه وتعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها،[5] ثم أنه أوجد ما سبق علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطَانٌ﴾.[6] وصرح المختار بأنه: «في هذه الآية دليل لأهل السنة على صحة قولهم في القدر. وأن التوفيق،

---

[1] ـ الآية 96 سورة الصافات.
[2] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 72.
[3] ـ الآية 72 سورة الزخرف.
[4] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 72.
[5] ـ ابن حجر، فتح الباري، طبعة السلفية القاهرة، ط 1987، ج 1، ص: 118.
[6] ـ الآية 42 سورة الحجر.

والخذلان، والسعادة، والشقاوة، بيد الله تعالى ووجوب العمل مع ما سبق له في الأزل».[1] والقدر يشمل أمرين: الأول، علم الله الأزلي الذي حكم فيه بوجود ما شاء أن يوجده، وحدد صفات المخلوقات التي يريد إيجادها، وقد كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ بكلماته. والثاني، إيجاد ما قدر الله إيجاده على النحو الذي سبق علمه وجرى به قلمه، فيأتي الواقع المشهود مطابقا للعلم السابق المكتوب. وقد أشار البعض[2] إلى أن القدر يطلق ويراد به التقدير السابق لما في علم الله، ويطلق ويراد ما خلقه وأوجده على النحو الذي علمه.

والقدرة الإلهية قدرة مطلقة، فالله فعّال لما يريد، يتمتع بقدرة وإرادة مطلقتين، وبسلطة لا حد لها، «يفعل في ملكه ما يشاء، فإساءته عدل، وثوابه فضل، لأنه يتصرف في ملكه، فلا يحق لأحد أن يصفه بالظلم».[3] والله واحد لا يشاركه في الخلق غيره. ومن أثبت خالقين على التكثير كان كافرا، والإنسان له قدرة حادثة، لا ترقى إلى مستوى الخلق، والإبداع، كالقدرة الإلهية. ولا تأثير لها «غير أن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عقب القدرة الحادثة، أو تحتها، أو معها، الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له. ويسمى هذا الفعل كسبا. فيكون خلقا من الله تعالى وإبداعا، وإحداثا، وكسبا من العبد حصولا تحت قدرته».[4] وهذا يدخل تحت نظرية الكسب، وهي تكريس لنظرية الجبر وإخفاؤها في قوالب نظرية غير قوية.

الجنة والنار والشفاعة:

اختلف في الجنة، والنار، هل هما مخلوقتان أو غير مخلوقتان؟ فأهل السنة يقولون بأنهما مخلوقتان موجودتان الآن، لأنهما إذا كانتا لا تبيدان حتى تبيد الدنيا، ومعلوم أن الدنيا إذا انقرضت بقيام الساعة، جاءت الآخرة، والآخرة غير خالية من جهنم، كما أنها غير خالية من الجنة؛ لأن الجنة رحمة الله تعالى، والنار عذابه يصيب به من يشاء من

---

[1] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص: 538.
[2] ـ عمر سليمان الأشقر، القضاء والقدر، دار النفائس عمان، ط الرابعة 1999، ص: 26.
[3] ـ المختار الكبير، المنة، ص: 65.
[4] ـ الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص: 156.

عباده. أما المعتزلة فقد «أنكروا الشفاعة، وأنكروا خلق الجنة والنار، وأنهما يخلقان يوم القيامة للجزاء، متمسكين بظواهر لم يفهموا معناها، ولم يحصلوا على فحواها».[1] منها قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.[2] وقوله عز وجل: ﴿يَومَ لا تَملِكُ نَفسٌ لِّنَفسٍ شَيئًا﴾.[3] وقوله عز من قائل: ﴿وَأَن لَّيسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى﴾.[4] وذهب ابن عبد البر[5] ــ على غرار أهل السنة ــ إلى أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرعَونَ سُوءُ العَذَابِ النَّارُ يُعرَضُونَ عَلَيهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.[6]

أما الشفاعة فقد أنكرها المعتزلة، وأثبتها أهل السنة الذين قالوا بأن الإقرار بها واجب، والإيمان بها ضروري، وأنها ستقع لا محالة، لذلك وجب التصديق بوقوعها. والشفاعة المعقولة تكون : «فيمن استحق عقابا أن يوضع عنه عقابه».[7] وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم تشمل أهل الكبائر وغيرهم.

كروية الأرض:

وأصل هذه المسألة يرجع إلى عهد متقدم، ثم عادت إلى الظهور في الفترة الحديث، حيث طرحت على محك البحث في تونس، بين الشيخ محمد المناعي المدرس بجامع الزيتونة، ومفتي الحنفية الشيخ محمد بيرم. حيث دارت بينهما محاورة فذهب المناعي إلى أنها مبسوطة، وراح بيرم إلى كونها كروية. ولم يكن المختار بعيدا عن هذا الاهتمام بالموضوع، حيث وصلت تفاصيله مع الحجاج إلى أزواد، فأيد المختار الرأي الذي ذهب

---

[1] - المختار الكبير، نضار الذهب في كل فن منتخب، مخطوط بحوزة فيلي موسى بوسط مدينة تمنراست، بدون رقم، ج 1، ص: 14.

[2] ــ الآية 48 سورة المدثر.

[3] ــ الآية 19 سورة الانفطار.

[4] ــ الآية 39 سورة النجم.

[5] ــ ابن عبد البر، التمهيد، ج 5، ص ص: 10 ــ 11.

[6] ــ الآية 45 ــ 46 سورة غافر.

[7] ــ أبو الحسن الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان دمشق ومكتبة المؤيد الطائف السعودية، ط الثالثة 1990، ص: 163.

إلى كروية[1] الأرض. وقال بأن الذي عليه الجمهور: «أن الأرض مستديرة كالكرة، والسماء محيطة بها من كل جانب كإحاطة البيضة بالمُح. فالصفرة بمنزلة الأرض، وبياضها بمنزلة الماء، وجلدها بمنزلة السماء».[2]

وجاءت البراهين من القرآن، والسنة، لتؤكد تكوير الأرض. قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾.[3] وهذا أوضح بيان في كرويتها. وقال عز وجل: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.[4] وهو نص يشير إلى استدارتها، لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ أخبر أن الشمس، والقمر، والنجوم، سابحة في الفلك، ولم يخبر أن لها سكونا.[5] وصرح ابن حزم أن الأرض مستديرة، إذ لو لم تكن كذلك، لكانت الشمس: «على آباد الدهور بل في الأيام اليسيرة تغيب عنّا، حتى لا نراها أبدا لو مشت على طريق واحد، وخط واحد مستقيم أو معوج غير مستدير».[6] وأكد المختار أن الاعتقاد بكرويتها هو ما تدل عليه البراهين، وأن ذلك لا يضر المسلم في اعتقاده بتحركها، أو بسكونها. ويشير إلى وضع الشمس ودورانها، حيث يظهر ضوء النهار بالشروق، وظلمة الليل بمغيبها.

2ـ فيما يجوز على الله وأفعال العباد:

يرى المختار بأن الفرد المسلم حر الإرادة في تصرفاته السيئ منها والقبيح، وأن المؤمن يرى الله في الآخرة، كجزاء له على أعماله الخيرة، التي قام بها في الدنيا.

أفعال العباد:

يرى المختار بأن الأعمال هي أسباب موصلة إلى الثواب، والعقاب، وتعتبر مقتضيات لهما كاقتضاء سائر الأسباب. وأن الأفعال الإنسانية يخلقها الله بقدرة يحدثها،

---

[1] ـ رفاعة الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، دار الهلال القاهرة، ط 2001، ص ص: 48 ـ 49.
[2] ـ المختار الكبير، نزهة الراوي، ج 1، ص: 28.
[3] ـ الآية 5 سورة الزمر.
[4] ـ الآية 40 سورة يس.
[5] ـ اليزا أفرت، مبادئ علم الهيئة، طبع في بيروت، ط 1875، ص: 20 ـ 21.
[6] ـ ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن بن عميرة، دار الجيل بيروت، د ت، ابن حزم، ج 2، ص: 244.

وليس للإنسان إلا أن يصرف هذه الأفعال إلى الخير أو الشر، و: «الأعمال الصالحة من توفيق الله عز وجل ومِنَتِه وصدقته على عبده، إذ أعانه عليها ووفقه لها وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها وحبَّبها إليه وزيَّنها في قلبه وكرَّه إليه أضدادها، ومع هذا فليست ثمنا لجزائه وثوابه، بل غايتها أن تكون شكرا لله تعالى إن قبلها منه».[1] وبذلك وجب الاعتقاد بأن الأفعال مقدورة بقدرة الله اختراعا، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق عبّر عنه الأشاعرة بالكسب،[2] والمقصود به حظ الإنسان من الاختيار فيما يصدر عنه من أعمال. وفي نظرية الكسب يمكن إدراج ما ادعاه عصاة المعتزلة الذين يعتذرون عن معاصيهم بدعوى أن الله تعالى أرادها منهم! وقالوا لو أن الله أراد بهم خيرا ما عصوا. وصرّح المختار في هذا ما أنكره المعتزلة من: «جواز العفو عن من مات مصرا على المعاصي».[3] وعلى هذا الأساس ذهبت المعتزلة إلى أن الأفعال تكون بقدرة العبد وحدها، وعلى ذلك فإن: «العباد موجدون لأفعالهم، مخترعون لها بقدرهم».[4] وهذا يرد بقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم لا إلهَ إلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ﴾.[5] والآية تقتضي تفرد الباري ـ سبحانه وتعالى ـ بخلق كل مخلوق، غير أن نظرية الكسب ـ كما رأينا ـ تدحض ما ادعوه.

رؤية الله في الآخرة:

والله سبحانه وتعالى لا يُرى في الدنيا، وقد طمع سيدنا موسى في رؤيته، فأخبره أنه لن يراه في الدنيا، ولا يستطيع ذلك، بل الجبل القوي لا يطيق ذلك. أما ما يتعلق برؤية الله فإن أهل السنة يجعلونها ممكنة يوم القيامة، لأن شرط الرؤية عندهم هو الوجود. والله

---

[1] ـ المختار الكبير، نزهة الراوي وبغية الحاوي، و 205 و.

[2] ـ سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، تحقيق عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب بيروت ومكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، ط الأولى 1989، ج 4، ص: 225.

[3] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 14.

[4] ـ عبد الملك الجويني، كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1995، ص: 79.

[5] ـ الآية 102 سورة الأنعام.

موجود إذن فهو ممكن الرؤية ويستشهدون على ذلك بالآية: ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.[1] معتبرين أن ناظرة في الآية تفيد الرؤية والإبصار، بحجة أن هناك ربطا بين النظر والوجه، إذ لو كان معنى النظر فيها هو الانتظار ــ كما ذهب إلى ذلك المعتزلة ــ لما كان هناك معنى للربط بينهما. ويرى المختار بأنها جائزة، حيث قال: «وأما في الآخرة فإنه يراه الخاص، والعوام، إلا أنهم متفاوتون في رؤيته على قدر مقاماتهم من غير إدراك فيها».[2] على أن رؤية الله عنده لا تقتضي اتصاف الله بالجهة والمكان، ولا بالمقابلة، لأن هذه الصفات لا تتصف بها الأجسام. والله منزه عن الجسمية، فتكون رؤية الله والحال هذه تتم بكيفية مجهولة.

وأما ما ذهبت إليه المعتزلة من أن رؤية الله غير جائزة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لا تُدرِكُهُ الأبصَارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأبصَارَ﴾.[3] فهذا لا حجة لهم فيه، على اعتبار أن الله تعالى نفى الإدراك،[4] والإدراك يحمل معنى زائد على النظر والرؤية، وهو منتف عن الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، لأن في الإدراك معنى من الإحاطة ليس في الرؤية. كما أن الإدراك أخص من الرؤية،[5] ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم.

3ـ الشرك وما يتعلق به:

يرى المختار أن الشرك ينقسم إلى أكبر، ومتوسط، وأصغر. ويعرف الشرك الأكبر بأنه «اعتقاد الشريك لله، أو الوالد، أو الصاحبة، أو نسبة ما لا يليق بجلاله، أو تكذيب كتابه، أو رسله، أو ملائكته، أو الطعن في مناصبهم، أو التكذيب بالقدر، أو المعاد بأنواعه. ومتوسط: وهو الرياء، والسمعة. وأصغر: وهو الالتفات إلى العوائد، والأسباب،

---

[1] ـ الآية 22 ــ 23 سورة القيامة.
[2] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 472.
[3] ـ الآية 103 سورة الأنعام.
[4] ـ ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج 3، ص: 8.
[5] ـ المختار الكبير، بذل الوسع في تفسير الآيات التسع، ص: 89.

والطمأنينة إليها، مع نسبة التأثير إلى الله وعزلها عنه».[1] ويبين بأن العبد إذا اعتقد الشريك لله، أو الولد،[2] أو كذّب برسله،[3] أو بالقدر، والمعاد فهو مشرك خرج عن الملة. وأما الرياء، والسمعة، فإنهما من الأمراض التي تصيب النفوس، بالإضافة إلى الاعتماد على الأسباب فهذه من أمراض النفوس، وإنما سماها شركا تخويفا، وردعا.

والشرك هو نقيض حقيقة التوحيد، وقد صرّح البعض[4] بأن الإسلام بسط أصوله الروحية العقدية بأزواد، حيث جعلها بين الله، وعباده، وليس بين العبد، وأرواح أجداده. ومسألة الاعتقاد بروح الأجداد، وبعض الحيوانات، من الأمور التي كانت منتشرة كثيرا بمناطق جنوب الصحراء، والسودان الغربي.

البدعة:

يبين المختار أن من البدع ما يجب، وما يندب، ومنها ما يباح، ومنها ما يكره، ومنها ما يحرم. ويؤكد أن ما فعله الخلفاء الراشدون من جمع للقرآن، وجمع الناس على صلاة التراويح، وتدوين الدواوين، وقتال الخوارج، ومانعي الزكاة، وإحداث الآذان الثاني يوم الجمعة، كلها من السنن. ومن البدع الواجبة الاشتغال بعلم النحو، الذي يفهم به كلام الله، وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام. ومن البدع المحرّمة مذاهب القدرية، والجبرية، والمرجئة، والمجسمة.[5] وأما المندوب منها فإحداث الرباطات، والمدارس، وكل إحسان لم يعهد في العصر الأول. ومن البدع المكروهة زخرفة المساجد، وتزويق المصاحف. قال المختار: «وأما تجصيص القبور وتزويقها، وكسوتها، فمن باب البدع المحرّمة. ومن البدع المباحة التوسع في الملذات من المأكل، والمشارب، والملابس، والمساكن».[6]

---

[1] - المختار الكبير، كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة، ص: 57.

[2] ـ التفتازاني، شرح المقاصد، ص: 39.

[3] ـ الجويني، الإرشاد، ص: 124.

[4] - *MURPHY (E. J.), History of African civilization, New York., 1972. p. 99.*

[5] ـ وضع الطالب عبد الله بن الحاج محمد الرقيق العلوشي منظومة في البدع، عدد فيها الكثير من الأمور المستحدثة. ينظر: محمد المختار ولد أبّاه، دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا، ص: 114.

[6] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص ص: 491 ـ 493.

ومعنى الابتداع أو اتخاذ البدعة، ومعنى الإحداث، متضافران ومتداخلان: فكلاهما يدل على تدنيس وتنقيص، وكلاهما يعني الخروج من حال الطهر، والصفاء، وبالتالي لا ينفكان من المعنى الفقهي.[1] ونعلم أنه قد ورد في صحيح الحديث النبوي أن: شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وهكذا نجد أن كلمات: الضلالة، والبدعة، والشر، والمحدث، من الأمور، تأتي متراصة بجانب بعضها البعض.

ولكنا نعلم أنه قد ورد في الحديث الصحيح: أن الله يبعث للأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها. وهكذا تنتظم كلمات: السنة الحسنة، والتجديد في أمور الدين، بجانب بعضها البعض كذلك.

4ـ الإيمان وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم:

ولا تحصل حقيقة الإيمان إلا لمن امتثل لأمر الله سبحانه تعالى واستسلم، لقهره، فالله تعالى لم يكتف بنفي الإيمان عن من لم يحكم أو حُكِّم ووجد الحرج في نفسه، حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم علانية وتخصيصا ورعاية، حيث قال: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم﴾.[2] ففي ذلك تأكيد بالقسم، علما منه سبحانه بما تنطوي عليه النفوس من حب الغلبة، ووجود النصرة، سواء كان الحق عليها أو لها. وفي ذلك إظهار العناية برسوله إذ جعل حكمه حكمه، وقضاءه قضاءه.[3] فأوجب على العبد الاستسلام لحكمه، والانقياد لأمره ولم يقبل منهم الإيمان بإلهيته، حتى يذعنوا لأحكام رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد ثبتت رسالته صلى الله عليه وسلم، وظهرت علامات صدقه واستحالة الكذب

---

[1] ـ سعيد بنسعيد العلوي، «سبل التحديث ومسالك الاجتهاد وقفات في أصول الفكر السلفي في المغرب»، مجلة الاجتهاد، تصدر عن دار الاجتهاد بيروت، العددان العاشر والحادي عشر شتاء وربيع 1991، ص: 176.

[2] ـ الآية 65 سورة النساء.

[3] ـ المختار الكبير، المنة، ص: 170.

عليه عقلا،[1] وتقررت عصمته من كل معصية إجماعا،[2] وبذلك وجب تصديقه في كل ما أتى به جملة وتفصيلا. ونفى الله ــ عز وجل ــ الإيمان بالكلية عمَّن أعرض عن حكم النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرضى به، أو وجد في نفسه حرجا من ذلك،[3] لأنه على النعت الذي وصفه به: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى إِن هُوَ إِلاَّ وَحيٌ يُوحَى﴾.[4] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.[5] وأكد ذلك بقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فوقَ أَيدِيهِم﴾.[6]

ثم إنه تعالى لم يكتف بالتحكيم الظاهر فيكونوا به مؤمنين، بل اشترط فقد الحرج، وهو الضيق في أنفسهم في أحكامه صلى الله عليه وسلم. والمؤمنون ليسوا كذلك إذ: «نور الإيمان ملأ قلوبهم، فاتسعت، وانشرحت، فكانت واسعة بنوره الواسع العليم، ممدودة بوجود فضله العظيم، مهيأة لواردات أحكامه، مُفوِّضة له في نقضه وإبرامه».[7] وقد صرّح العلماء[8] لا تثبت قدم الإسلام، إلا على ظهر التسليم والاستسلام. وهكذا يتبين أن إيمان المرء لا يستقيم إلا بإتباع هدي وأوامر النبي عليه الصلاة والسلام، وهو المعيار الذي توزن به ــ مع القرآن ــ الآراء، والاجتهادات.

الكرامات:

هناك أمورًا من خوارق العادات، غير مقرونة بالتحدي، ولا بدعوة النبوة؛ يجريها الله على يد بعض الصالحين من أتباع الرسل، الملتزمين لأحكام شريعة الله، من غير شذوذ ولا مخالفة، إكراما من الله لهم.[9] وذلك شاهد مستمر على إمكان معجزات الأنبياء

---

[1] ــ جمال الدين بوقلي حسن، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1985، ص: 342.

[2] ــ الجويني، الإرشاد، ص: 143.

[3] ــ أحمد عبد الرحمن الصويان، منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، مكتبة الملك فهد الرياض، ط الثالثة 2001، ص ص: 30 ــ 31.

[4] ــ الآية 3 ــ 4 سورة النجم.

[5] ــ الآية 10 سورة الفتح.

[6] ــ الآية 10 سورة الفتح.

[7] ــ المختار الكبير، كتاب المنة في اعتقاد السنة، ص: 171.

[8] ــ من جملتهم الطحاوي. ينظر: الصويان، المرجع السابق، ص: 36.

[9] ــ عبد الرحمن الميداني، العقيدة الإسلامية، ص: 347.

التي جرت في أزمانهم، كما أنها تأكيد وتأييد لرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، باعتبار أن الله أجراها على يد صالح من صلحاء أمته، وتابع من أتباعه. ويسمى هذا النوع من خوارق العادات بالكرامات. ولما كانت الكرامات من الله ــ كما يرى المختار ـ دليل على صدق الولي، وتثبيت له ينبغي لصاحبها: «أن لا يلتفت إليها، ولا يعول عليها، ولا يغتر بها، لأن ذلك مما يخل بإخلاصه، بل يكون قادحا في إخلاصه».[1]

وبملاحظة هذه الكرامات يمكن أن تلاحظ بأنه ــ في الغالب ــ تكون بمستويات أقل من مستويات المعجزات، كما أنها تكون بصورة ليس لها صفة الظهور للجماهير الكثيرة، أو الانتشار العام بين الناس. والكرامة تجري من غير إيثار[2] واختيار من الولي.

وبهذه الفروق، والقيود، التي تم توضيحها يُعلم أن الكرامات لا تلتبس بالمعجزات، ولا تشتبه بها، لأنه ليس كل أمر خارق للعادة يثبت نبوة، أو رسالة، لمن أجراها الله على يديه، إلا أن يكون هذا الخارق للعادة مرافقا لدعوى النبوة، ومقرونا بالتحدي.

وإذا تمت معرفة أن الكرامة من الأمور الممكنة عقلا، وأن كل ما هو ممكن عقلا، يجوز بالنظر إلى ذاته أن تتناوله قدرة الخالق العظيم بالخلق،[3] والإيجاد، لحكمة يعلمها هو، عُلم يقينا أنه لا حَجر على الله تعالى، وهو الفَعَّال لما يريد، في أن يكرم من يشاء من خلقه، بما يشاء من صور الإكرام.

طاعة الأمير:

ويظهر أن نظرة المختار تقوم على توازن هام، وهو أن الطاعة أصل في الحرص على الجماعة، والخروج على النظام (على الأمير) مرفوض مطلقا،[4] ما دام مسلما، ملتزما

---

[1] ـ بادي بن باي بن باب، النفي والبيان، ص: 38.
[2] ـ الجويني، الإرشاد، ص: 129.
[3] ـ من الذين ينكرون الكرامات المعتزلة. ينظر: الجويني، المصدر السابق، ص: 129.
[4] ـ المختار الكبير، المنة، ص: 49.

بالإسلام حارسا له، مدافعا عن نظام الشريعة، والعمل بها.[1] أما انحراف الأمير بالفجور، أو الفسق، الذي لا يوقعه في الكفر، فلا يُخِل بالطاعة مطلقا، وإنما يوجب مواجهة هذا الانحراف بالاحتجاج، والمعارضة، التي تردُّ الأمير إلى الصواب والاستقامة. وقد لمّح إلى ذلك البعض عندما اعتبر تقويم الأمير ممكنا ما وجدت الأمة إلى: «التقويم سبيلا».[2] وعلى الأمير أن يتقبل هذا التقويم، والمعارضة، والاحتجاج، وأن يستمع إليها ويرجع عن انحرافه ويستقيم، لأن ذلك من حق الأمة وواجبها، وبذلك تصان الوحدة، ويصان الاستقرار.

أما العصيان والخروج عن الطاعة، فلا يجوز مطلقا إلا في حالة واحدة هي كفر الأمير. وبذلك تكون نظرة المختار لا تخرج عن نظرية أهل السنة، التي احتاطت كثيرا لصالح نظام الجماعة، ودفاعا عن الاستقرار، كما دافعت أيضا عن صيانة الإسلام، عندما أكد المختار على وظيفة من يعارض، وأوجبها على المجتمع.[3] وقد أزاح الغموض في نظرته تلك فيما إذا رفض الأمير معارضة المجتمع لانحرافه، أو أساء لوحدة الجماعة، وجب خلعه واستبداله بمن هو أفضل منه.

5ـ موقف المختار من الوهابية:

قامت في جزيرة العرب دعوة إصلاحية، ظهرت منذ القرن الثاني عشر الهجري /الثامن عشر الميلادي والتي صارت تعرف باسم الدعوة الوهابية، قامت على أسس من تعاليم محمد بن عبد الوهاب.[4] وكان ابن عبد الوهاب من أهل نجد، قام برحلات واسعة في العالم الإسلامي درس خلالها الفقه، فتملكت نفسه رغبة جامحة في الإصلاح. وقد

---

[1] ـ أحمد العماري، نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار المغرب نموذجا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ط 1997، ص: 554.

[2] ـ الجويني، المصدر السابق، ص: 169.

[3] ـ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و28 ظ.

[4] ـ محمد بن عبد الوهاب: هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي، الذي تنسب إليه الوهابية. ولد بقرية العيينة من بلاد نجد عام 1115 هـ / 1703 م، وتوفي سنة 1206 هـ / 1792 م. وقد نشأ في بيئة فشا فيها الشرك وكثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور والتبرك بها. ينظر: صالح الفوزان، شرح كتاب كشف الشبهات، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الأولى 2000، ص: 4.

ذهب إلى أن الإسلام قد اكتنفه الضلال، فتسربت إليه ــ على مر القرون ــ مبتدعات ليس لها سند في الدين، ولا سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فشاعت البدع المحدثة، وانتشرت الخرافات، حتى صار الأمر ــ في رأي محمد بن عبد الوهاب ــ لا يفترق عن الوثنية وعبادة الأصنام.[1] فبدأ بحملة من التطهير، ولم يكن الإصلاح الذي يقصده يرمي إلى تغيير في أصول الإسلام ومبادئه، ولا إلى فهم عقائده فهما جديدا، بل كان يحس أن من واجبه القضاء على البدع والأمور المحدثة الدخيلة، والدعوة إلى العودة إلى نقاء الإسلام كما كان.

وبدت الدولة العثمانية في غضون القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي مفككة الأوصال، وبدا أن السلطة المركزية تعيش باستمرار في محنة متوالية من أجل ضبط علاقاتها بالسكان. واشتدت المحنة حتى أصبحت أزمة مهددة بالانفجار، وأصبحت القوة هي الرابط الوحيد بين السلطان، والسكان، الذين يفضلون استقلاليم الذاتي وحريتهم القبلية، على الوحدة والخضوع إلى سلطة واحدة. وفي المقابل تزامن ذلك مع محاولات للأوربيين للتسرب.

دخول الوهابية إلى المغرب:

وصلت السلفية للمغرب في سنة 1225 هـ / 1810 م، أي بعد حوالي سبعين سنة من قيامها بشبه الجزيرة العربية 1153 هـ / 1740 م. وأقصد بالوصول هنا الوصول الرسمي، عن طريق الرسائل التي كتبها سعود الوهابي إلى كل أقطار العالم الإسلامي. ومنها رسالته إلى تونس، ومن تونس بعث مفتيها عمر المحجوب التونسي،[2] بنسخة منها إلى علماء القرويين، لينظروا فيها ويجيبوا عنها. وأجاب على الرسالة بالمغرب العلامة

---

[1] ــ جورج انطونيوس، يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس. دار العلم للملايين بيروت، ط الثامنة 1987، ص: 82.

[2] ــ عمر المحجوب: هو عمر بن القاسم أصله من بلد مساكن من جهة سوسة. أخذ عن والده وعن حمودة بن عبد العزيز وغيرهما. وتقلد خطة القضاء المالكي بالحاضرة، توفي في موفي محرم سنة 1222 هـ / 1807 م. ودفن بالزلاج. له الرد على محمد بن عبد الوهاب النجدي وعلى مذهبه الظاهر يومئذ بجزيرة العرب. ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، ج 1، ص: 440.

أبيب السيد حمدون بن الحاج الفاسي،[1] وأرفق الجواب بقصيدة[2] يمدح بها ابن سعود وهابي.

وأما الوصول غير الرسمي فيرجع إلى عصر السلطان العلوي محمد بن عبد الله 1171 ـ 1205 هـ / 1757ـ 1790 م). حيث تشير عدد من المصادر، والمراجع، ى أنه تأثر كثيرا بالسلفية الوهابية، وأعجب بها عندما وصلته عن طريق الحجاج مغاربة، مما جعله يشن حملة ضد المختصرات، وبعض كتب الأشعرية، ويدمر بعض زوايا،[3] وكان يصرح قائلا: «إنني مالكي المذهب، حنبلي العقيدة».[4] ومن الذين تأثروا دعوة هذا السلطان الشيخ محمد بن حبيب الله المجيدري، أثناء تواجده بفاس واتصاله به، حيث شارك في المناظرات، التي كان هذا السلطان يجمع لها الفقهاء،[5] ويوجهها صوب لمواضيع التي كانت تشغل بال علماء الأمة الإسلامية في تلك الفترة، مثل: قضايا الإصلاح الديني، والوهابية، وفقه الفروع.

ولهذا اعتقد بعض المعاصرين[6] أن المجيدري تأثر أثناء حجه بالمذهب الوهابي، فأصبح سلفيًا على نهج ابن تيمية، وابن عبد الوهاب. غير أن المجيدري كانت له دعوة إصلاحية تشابه إلى حد كبير دعوة ابن عبد الوهاب وابن تيمية قبله، من ضرورة العودة

---

[1] ـ حمدون بن الحاج الفاسي: هو أبو الفيض بن عبد الرحمان بن حمدون بن عبد الرحمان السلمي المرداسي. ولد بفاس عام 1174 هـ / 1760 م، وبها نشأ ودرس وأصبح من العلماء البارزين في مختلف العلوم الشرعية والأدبية. وتوفي بتاريخ 7 ربيع الثاني 1232 هـ / 1817 م. وخلف كتب عديدة. ينظر: كنون، النبوغ المغربي، ج1، ص: 296.

[2] ـ أحمد العماري، «رسالة الوتري في محاكمة السلفية بالمغرب»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد 2، 1985، ص: 364.

[3] ـ مثل زاوية أبي الجعد، ورمى مريديها بالفسق. ينظر: العربي المشرفي، الحسام المشرفي لقطع لسان الساب العجرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن أكنسوس. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم: 2276 ك، و3 ظ.

[4] ـ ش أ جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ص: 243.

[5] ـ ددود ولد عبد الله ولد الهاشم، «جوانب من الصراع الفكري في بلاد شنقيط خلال القرن الثاني عشر /18 م»، ندوة دور موريتانيا في التواصل الفكري المشرقي المغربي، ندوة الذكرى الثمانين للشيخ محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي، نواكشوط 18 ـ 20 يونيو 1996، شركة الجلال للطباعة الإسكندرية مصر، ط 2002، ص: 64.

[6] ـ الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص: 196.

إلى الكتاب، والسنة، وطرح البدع المستحدثة. غير أن الفرق بين الدعوتين هو معاداة ابن عبد الوهاب للتصوف وأهله، بينما كان المجيدري شيخًا صوفيًا.

ومن جملة ما جاء في الرسالة التي بعث بها محمد بن عبد الوهاب إلى أهل المغرب، قبل وفاته ما يلي: «معلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور، التي أعظمها الإشراك، والتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات، التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض، والسموات. وكذلك التقرب إليهم بالنذور، وذبح القربان، والاستغاثة بهم في كشف الشدائد، وجلب الفوائد، إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله. وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها؛ لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا».[1]

والمختار الكنتي ــ كما رأينا سابقا ــ كان صوفيا، وأقبل وهو بالمغرب على تحصيل أغلب أحزاب وأوراد شيوخ الطرق بها من مضانها، ولا يخفى العداء بين السلفية، والطرقية، باعتبار أن السلفية تعتبر الطُرُقية ضالة مضلة، تصل أحيانا إلى درجة الشرك، الذي هو أصل الكفر.

بينما تعتبر الطرقية نفسها قائمة على أساس سني، وأن طريقها إلى معرفة الله هو طريق أسهل، يستوعب العلماء، والأميين، على حد سواء، بينما لا يمكن أن يتحقق ذلك في السلفية حسب زعمهم. وهذا الخلاف الذي يصل إلى درجة التراشق بالجهل، وسوء الفهم، والابتداع، وهو النعت أو المصطلح الذي كثر استعماله عند المختار الكبير في رسالته ضد الوهابية. ويصرح المختار بأن التصوف ظهر: «في القرن الثالث وانتشر في البلاد مشرقا، ومغربا، يمينا، وشمالا، من الثالث إلى القرن الحادي عشر الذي ظهر فيه

[1] ــ محمد بن سعد الشويعر، تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية، مطابع الحميضي مكة المكرمة، ط الأولى 2001، ص: 116.

محمد بن عبد الوهاب، الذي تنتسب إليه الفرقة الوهابية. فقام على ساق الجد هو ومن تبعه، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون».[1]

ولا يخفى أن فكرة العداء ضد الأضرحة، وزيارة القبور عند السلفيين ودعوتهم إلى تحطيمها سدا للذريعة، حتى لا يقع المسلمون في الشرك[2] يعتبر استفزازا للطرقية،[3] حتى على المستوى الاقتصادي نفسه، باعتبار أن الأضرحة هي التي تجسم الهيبة، والوقار، في نفس الشخص وتجعله يفيض حماسا، وهو يقدم الهدايا والصدقات إليها. وبما أن القرآن الكريم يحرّم ذلك ويجعله كفرا،[4] ورجسا، وفسقا، فان السلفيين يرون في الطُرقية امتدادا لعبادة الأصنام، والآلهة في العصور الجاهلية، ويعتبرونها تحريفا عميقا وخطيرا للإسلام الصافي الخالص.

والخلاف بين السلفية، والطرقية، حول هذه المسائل المتعلقة بالاعتقادات، والعبادات، في المظاهر والسلوك، خلاف ينتهي في عمقه إلى خلاف منهجي هام جدا، فمنهجيا تصبح الطرقية قرابين[5] وعبادة أصنام، وعزوف عن الحياة، وتعدد السبل، وانقسام المسلمين، واختلافا، وانقساما، لا حد له ولا حصر.

عكس هذا هو ما يقوم عليه المنهج السلفي، لا وسطية بين العبد وربه. لا رهبانية، توحيد خالص لله، وحدة في كل المعتقدات، والعبادات العملية، واللفظية، والشكلية. وحكمة التكليف هو تكميل الإنسان بإتباعه الشريعة الإسلامية، وليس التكليف جزية تُضرب على العبيد من الملك، ويعفى منها من توسل إليه بجاه. وقد قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

---

[1] ـ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 25.

[2] ـ سامي قاسم أمين المليجي، الوهابية، مكتبة مدبولي القاهرة، ط الأولى 2006، ص: 73.

[3] ـ تجب الإشارة هنا إلى أن التيجانية وهي من الطرقية حاربت زيارة الأضرحة والقبور والتوسل بها. ينظر:
DUMONT (F), Lanti-sultan ou al-hajj Omar tal du fouta combattant de la foi. Les nouvelles éditions africaines Dakar Abidjan., 1974. p. 25.

[4] ـ صالح الفوزان، شرح كتاب كشف الشبهات، ص: 85.

[5] _ *BRENNER (L), Introduction: Essai socio-historique sur l'enseignement Islamique au Mali. Editions jamana Bamako., 1991. p.03.*

[1] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.[2] وقد استنبط الأئمة في الآيات النازلة في الأمم الماضية واستنبطوا منها أحكاما لهذه الأمة.

ووضع العلماء قاعدتين في هذا الباب إحداهما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والثانية هي أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ.[3] وشرع الله لمن قبلنا عقائد وأعمالا نكر عليهم مخالفتها ولم يرد ناسخ يعفينا من الإنكار عند وقوع المخالفة منا.

التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به:

ومن أفكار الوهابية أنه لا يجوز الاستغاثة بغير الله تعالى، وعلى ذلك عمل أنصارها حيث محو ما كان دالا على الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم من الكتابة والشباك الشريف. مثل: حرف الياء، من يا محمد. وكان لا ينطق أحد من أهل المدينة بيا محمد، إلا قتل حالا. ولا ينادي أحد أحدا بيا مولانا أو سيدنا، أو يقبّل أحد يد أحد من العلماء والصالحين.

ويذكر بعض الباحثين أن الخرافات، والبدع، كانت منتشرة في منطقة نجد قبل قيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته. وكان النجديون يأتون قبور الصحابة، لا سيما قبر زيد بن الخطاب، يدعونهم لتفريج الكروب، وكشف النوائب. وكانوا يخافون من هذه الأضرحة أكثر من خوفهم من الله سبحانه.[4] وتعددت فيهم الأوهام، والخرافات، والاعتقادات الباطلة بالشجر، والحجر، والنجوم، وعبادة القبور، والعكوف عليها، والاعتقاد بأن لأصحابها مقدرة على النفع والضر.

---

[1] ـ الآية 7، سورة هود.
[2] ـ الآية 13، سورة الحجرات.
[3] ـ مبارك بن محمد الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 2000، ص: 60.
[4] ـ محمد أحمد درنيقة، السيد محمد رشيد رضا إصلاحاته الاجتماعية والدينية، مؤسسة الرسالة بيروت ودار الإيمان طرابلس لبنان، ط الأولى 1986، ص: 163.

ويرى المختار الكبير أن منع التوسل بالرسول[1] يَردُّه ما ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمانه، أنه إذا قحط الناس استسقى بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم. وقال تعالى: ﴿وَلَو أَنَّهُم إذ ظَّلَمُوا أنفُسَهُم جَاءُوكَ فَاستَغفَرُوا اللَّهَ﴾.[2] وقال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وابتَغُوا إليهِ الوَسِيلة﴾.[3] ولا خلاف في جواز التوسل بصالح الأعمال. ويعد ابن الحاج[4] من اللذين جوزوا التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم، على اعتبار أنه هو العمدة.

لكن دعاة الوهابية يردون ذلك بأنهم لا ينكرون الشفاعة، وهم يقرون بأن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم حق، وأنه شافع، مشفَّع. ولكن يرون بأن الشفاعة لا تطلب من النبي وهو ميت، وإنما تطلب من الله، لأن الشفاعة ملك لله عز وجل.[5] حيث قال الله عز وجل: ﴿قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض﴾.[6] والشفاعة لا تنفع كل أحد، وإنما تنفع أهل التوحيد. وهكذا فإن دعاة الوهابية يقرون بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذه الشفاعة التي ينكرها أهل الباطل من الفرق الضالة كالمعتزلة والخوارج.

أما أهل السنة والجماعة فإن من أصول عقيدتهم الإقرار بشفاعة[7] النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعة الأولياء والصالحين، ولكنها لا تطلب منهم وهم أموات، وإنما تطلب من الله لأن أحدا لا يشفع عند الله إلا من بعد إذنه، ولا بد أن يكون المشفوع فيه ممن يرضى الله عنه من أهل التوحيد، والنبي صلى الله عليه وسلم هو أعظم الشفعاء يوم القيامة. وهكذا يتضح أن الشفاعة التي تنكرها الوهابية، هي الشفاعة الوثنية.

---

[1] ـ المختار الكبير، كشف الشبهات بالبراهين والبينات، ص ص: 2 ـ 3. وقد ذكره القاضي عياض في الشفاء وساقه بإسناد صحيح.

[2] ـ الآية 64 سورة النساء.

[3] ـ الآية 35 سورة المائدة.

[4] ـ محمد بن الحاج، المدخل، ضبطه وخرج أحاديثه توفيق حمدان، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1995، ج 1، ص: 148.

[5] ـ صالح الفوزان، المرجع السابق، ص: 57.

[6] ـ الآية 44، سورة الزمر.

[7] ـ الأشعري، الإبانة، ص ص: 162 ـ 163.

وعلى غرار المختار الكبير، فقد شنَّع الشيخ علي الوتري على الوهابية، وابن عبد الوهاب، في هذه المسألة حيث قال: «هذا وأما معتقده ومخالفته للسنة والجماعة فأمر متواتر، مشهور، لا يكاد ينكره أحد. فمن مخالفته أنه لا يقول بالشفاعة، ومن هنا كان يحرق دلائل الخيرات، وتنبيه الأنام، لما فيهما من طلب الشفاعة والوسيلة».[1] وظاهر أن علي الوتري، لم يكن قادرا ــ على الأقل حتى تلك الفترة ــ على فهم الدعوة الوهابية، إما لأسباب سياسية، أو فقهية، أو عقلية.

وعلى المسلم أن يتبع تعاليم القرآن فيما أرشد إليه، حتى يكون شفيعه عن الله سبحانه وتعالى، وأن يلتزم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحيد عنها لتشمله ــ إن شاء الله ــ شفاعته، وألا يقنط من رحمة الله، ولا يرجو سواه، فإنه أرحم الراحمين.

التوسل بالأصفياء والأولياء:

ولما منعت الوهابية التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتوسل بالأولياء من باب أولى، فهدموا القباب التي كانت بالمدينة المنورة ومكة المشرفة. وحقيقة أولياء الله، من جمع بين العلم بأحكام الله، والمعرفة لعظمة الله، والخشية والإجلال لله، وأساس ذلك كله الإخلاص. والولي عند المختار كل: «من جمع بين العلم، والخشية».[2] وإن لم يكن العلماء أولياء، فليس لله ولي. وهذا ما يوضّح بأن الولي لا يجب أن يتصف بالجهل، والعالم العامل هو من كوشف له عن فقره، وفقر جميع الكائنات إلى الله في كل شيء. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.[3] وفي جواب علماء تونس لابن عبد الوهاب حول مسألة التوسل، إشارة إلى استسقاء سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعم النبي العباس رضي الله عنه: «اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك».[4]

---

[1] ــ أحمد العماري، رسالة الوتري في محاكمة السلفية بالمغرب، ص: 382.

[2] ــ المختار الكبير الكنتي، البرد الموشا في قطع المطامع والرشا، ج 2، ص: 47.

[3] ــ الآية 15 سورة فاطر.

[4] ــ أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، حققه عبد الكريم الفيلالي، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ط 1991، ص: 398.

وأما الأولياء المتولين خدمة ربهم، فقد تولاهم بمحبته ومعرفته، فمحبتهم والتعلق بهم في ــ نظر المختار ــ من جملة الطاعة لله تعالى، على اعتبار أنهم: «الوسيلة لنا إلى الله، ورسوله، وليست محبتنا لهم وتوسلنا بهم شركا، إلاّ إذا كانت على وجه العبادة كالسجود، واعتقاد أنهم يؤثرون بذواتهم في نفع أو ضرّ».[1] والمختار يحاول أن يبين بأن محبة الأولياء هي من الطاعات، ويشدد على أن التوسل لا يعدّ شركا.

وهو يعتقد أن الأولياء يجوز أن يتخذوا كوسائط! والقرآن الكريم واضح في قوله تعلى: ﴿وَيَعبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُم وَلا يَنفَعُهُم وَيَقُولُونَ هَـؤُلاءِ شُـفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾.[2] وهذا ما سماه ابن عبد الوهاب: «دين الجاهلية».[3] وحكم ببطلانه، لأنه عبادة لغير الله عز وجل. وكأن المختار يعتقد أن العبادة تكون بالسجود، والركوع فقط، أو باعتقاد النفع، والضر من الولي. وتحدث البعض[4] أن الميت المزار إذا كان من الصالحين وترجى بركته، يجوز أن يُتوسل[5] إلى الله تعالى به في قضاء حوائجه ومغفرة ذنوبه. وهذا ما معناه إذا لم يكن هو الشرك؟! وإذا لم يكن هذا كفرا : فليس في الدنيا كفر.[6]

ويصف المختار الخوارج بالضالين المضلين، لأنهم زعموا أن من توسل إلى الله بأحد سواه فهو مشرك، وأنكروا الكرامات. وقد يطلب بعض العوام من الصالحين أحياء كانوا، أو أمواتا، أشياء لا تطلب إلاّ من الله. فتجدهم يقولون: افعل لي كذا، وكذا. فهذه الأفعال الصادرة منهم توهم اعتقاد التأثير لغير الله تعالى، فالمختار يوضح بأن تلك الأفعال الموهمة محمولة على المجاز العقلي، والقرينة عليه صدوره من موّحد. وإذا سئل

---

[1] ــ المختار الكبير، كشف الشبهات بالبراهين والبينات، ص: 7.

[2] ــ الآية 18 سورة يونس.

[3] ــ الفوزان، المرجع السابق، ص:25.

[4] ــ ابن الحاج، المصدر السابق، ج 1، ص: 148.

[5] ــ وضع الحاج مصطفى المشرفي الاغريسي الفاسي تأليفا في التوسل بالأنبياء والأولياء والرد على من ينكر ذلك سماه: إظهار العقوق في الرد على من منع التوسل إلى الله تعالى بالنبي والولي الصدوق. ينظر: عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج 2، ص: 147.

[6] ــ الميلي، رسالة الشرك، ص: 202.

العامي عن صحة معتقده بذلك، يجيبك: بأن الله هو الفعال وحده لا شريك له.[1] والعقيدة بهذا الشكل[2] تكون قد أصيبت ــ بدون شك ــ بانحراف في حقيقة التوحيد، إذ أن الفرد اتخذ من دون الله ملاذا من قبور الأولياء وأضرحتهم. ورغم كل الإجراءات التي قامت بها الوهابية ضد الأضرحة، غير أن ابن عبد الوهاب[3] لم يصل به الحد إلى تكفير من يتوسل بالصالحين.

ويعتقد المتصوفة[4] أن الولي بعد موته يصبح أشد كرامة منه في حال حياته لانقطاع تعلقه بالمخلوق، وتجرد روحه فيكرمه الله بقضاء حوائج المتوسلين به! وهذا ما نقرأه عند الناصري،[5] الذي أشار إلى أن فقهاء المغرب كانوا يبجلون الأولياء وهم ــ عندهم ــ مقدسون أحياء وأمواتا، وكان الناصري متشبثا بزيارة الأولياء والأضرحة والتبرك بهم. ويشير المختار إلى معنى قريب من هذا حيث قال: «ثم يتوسل بأهل المقابر، أعني الصالحين منهم في قضاء حاجته، ومغفرة الذنوب، ثم يدعو لنفسه، ووالديه، ولمشايخه، ولأقاربه، ولأهل تلك المقابر، ولأموات المسلمين، ولأحيائهم، وذريتهم، ويكثر التوسل بهم إلى الله، لأنه سبحانه اجتباهم، وشرفهم، وكرمهم».[6] ولعل الملفت للانتباه هنا أن المختار يحاول أن يثبت القدرة الخارقة للأولياء حتى بعد الموت. وأشار الوتري إلى جواز التوسل، غير أنه منعه عن العامة سدا للذريعة، حيث قال: «وإنما نمنع منها العامة ... ويسأل الله تعالى المنفرد بالإعطاء، والمنع، بجاه ذلك الميت».[7]

---

[1] ــ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 7.

[2] ــ عبد المجيد عمر النجار، مشاريع الإشهاد الحضاري، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 1999، ج 3، ص: 31.

[3] ــ محمد الشويعر، تصحيح خطأ تاريخي، ص: 74.

[4] ــ الزياني، المرجع السابق، ص: 400.

[5] ــ محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الصغرى، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، ع 121، و3 ظ.

[6] ــ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 9.

[7] ــ الوتري، ما أبرزته الأقدار في نصرة ذوي المناقب والأسرار، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1115 د، ص: 376.

ومسألة التوسل هذه من المسائل التي تعد بلية كبرى، خاصة عندما يعتقد العوام والخواص في أهل القبور، وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء، من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله، ويفعلون ما لا يفعله إلا الخالق عز وجل! فتراهم مرة يدعونهم مع الله، وتارة مستقلين. وهم يعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع، ويخضعون لهم خضوعا زائدا على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم ــ سبحانه وتعالى ــ في الصلاة والدعاء.

وإذا ما رجعنا إلى موضوع التبَّرك بآثار الأولياء ومزاراتهم وقبورهم، فهذا وإن لم يكن مرتبطا ــ بالضرورة ــ بحقيقة الطرق الصوفية، إلا أن قوانين آداب المريدين في تعظيم الشيخ المؤسس للطريق، وتعظيم رجال السلسلة البارزين من بعده كانت تدفع بهذا الموضوع قُدمًا إلى الأمام، أما منشأ ظاهرة التبرك بآثار الأولياء، وتطورها من بعد، فإنه يرجع في الأصل إلى نموذج الحب اللامحدود، الذي تفيض به قلوب المريدين لشيخهم من خلال صورته في سلم الطريقة.

التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم:

يرى المختار أن منع الوهابية للتبرك يرده ما فعله الصحابة رضي الله عنهم عندما يتوضأ الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يتسابقون إلى وضوءه ليتبركوا به، والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم، وهذا إقرار منه وإقراره حق لا شك فيه.[1]

ويؤكد المختار الكبير تمسكه بجواز التبرك، ويستدل عليه باستحباب تحنيك الصبي من شخص صالح، وأن يكون بتمر وفيه: «جواز التبرك بالصالحين وبآثارهم وما يتعلق بهم ما لم يود إلى فتنة إفساد عقيدة».[2] وأعتقد بأن المقارنة التي قام بها المختار هنا هي مقارنة مع الفارق، إذ كيف نقارن التبرك بالرسول صلى الله عليه وسلم، بالتبرك بآثار الصالحين!

---

[1] ــ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص ص: 11 ــ 13.

[2] ــ المختار الكبير، المنة في اعتقاد أهل السنة، و69 ظ.

اتخاذ السبحة للذكر:

يعتقد الصوفية أن للسبحة أصلا في السنة، والهدف منها عندهم هو تحديد الذكر، ومعرفة الورد وضبطه بأن يكون عملا مواظبا عليه. وحجة الوهابية في إنكار السبحة ومنعها، قوله تعالى: ﴿اذكُرُوا اللَّهَ ذِكرًا كَثِيرًا﴾.[1] ويرى المختار أن تحديد الذكر، لا ينافى الكثرة.[2] ووضع السيوطي رسالة سماها: المنحة في استعمال السبحة،[3] ذكر فيها أن جمعا من الصحابة كانت لهم سبحة، كعائشة، وأبي هريرة، وأبي الدرداء. وكذلك بعض العارفين كالجنيد، ومعروف الكرخي، وعبد القادر الجيلاني.

والعبادة بألفاظ كثيرة أفضل، والتسبيح مستحب لمعرفة العدد المطلوب كما سبق. ويؤكد المختار أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرّ العدد على النوى فالسبحة أولى، فهي جائزة مستحبة[4] لأنها أسهل لضبط العدد من غيرها. ورئي في يد الجنيد يوما سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة!؟ قال: طريق وصلت بها إلى ربي فلا أفارقه. ووجد من المتصوفة من أنكر السبحة، والمعني بالأمر هو محمد بن ناصر، في جواب سؤال ورد عليه من بعض طلبة تلمسان حيث أكد على أن السبحة: «ليس عندنا فيها رواية، وإنما طريقتنا الذكر».[5] وورد[6] أن عقد التسبيح بالأصابع أفضل من السبحة، وهو أسلم للنفوس من دخول الرياء في الذكر. على اعتبار أن هناك من يتخذ السبحة للتظاهر دون تسبيح، فالأولى أن يعقد المسلم التسبيح بأصابعه. والذكر ــ كما هو معروف ــ من الدعاء، والدعاء الأفضل فيه الإخفاء والسر، والسبحة تناقض هذا كله. بالإضافة إلى أنه

---

[1] ــ الآية 41 سورة الأحزاب.

[2] ــ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 16.

[3] ــ محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط 1988، ص ص: 61 ــ 62.

[4] ــ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 18.

[5] ــ محمد بن عبد السلام الناصري، المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 2003، ص: 35.

[6] ــ ابن القيم الجوزية، الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق مسعد بن فريد الأشموني، دار الغد الجديد المنصورة مصر، ط الأولى 2003، ص: 228.

توجد العديد من الإشكال والأنواع من السبح، ولا ندري كيف كانت السبحة التي اتخذها السلف، أما اليد فهي اليد المعروفة، وعقد التسبيح بها واضح.

رفض الوهابية لطريق التصوف:

وينكر دعاة الوهابية على المتصوفة الكثير من تصرفاتهم التي سبقت الإشارة إلى بعضها، وبذلك رفضوا هذا الطريق بالجملة. والمختار عند تناوله لهذه الفكرة، يبدو شديد التأثر حيث يقول: «ليت شعري كيف تنكر علم التصوف، الذي يعرف به تصفية القلب الذي هو مدار الأمر كله من مكدرات النفس، وعيوبها المذمومة!؟».[1] ويقصد بعيوب النفس المذمومة الغل، والحقد، والحسد، والغش، والكبر، والرياء، والسمعة، والطمع، والبخل. وضابط التصوف ــ في العادة ــ هو صفاء النفس من الكدر، والانقطاع للعبادة. ويذهب المختار إلى أبعد من ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخ مِن ءَايَةٍ أَو نُنسِهَا نَأتِ بِخَيرٍ مِّنهَا أَو مِثلِهَا﴾.[2] أي ما من ولي، إلا ويأتي بخير منه أو مثله. ولا أدري من أين جاء المختار بهذا التفسير.

والمراد بطريق التصوف هو السبيل، قال تعالى: ﴿قُل هَذِهِ سَبِيلِي أَدعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.[3] وأهل التصوف هم الذين يقومون بالأوامر حق القيام، يقول المختار: «وهم أهل الحقيقة، ومعلوم أن الحقيقة لا تكون إلا بعد الاغتراف من عين الشريعة، فإن الحقيقة نتائج العلوم وبها يترجم المحقق على الأسرار، التي لا تحيط بها الفهوم».[4] وأقبح شيء يؤخذ على المتصوفة كونهم لقبوا علماء الشريعة بعلماء الظاهر،[5] وفي المقابل لقبوا أنفسهم بعلماء الحقيقة، وادعوا أن أئمتهم يكشف لهم من معاني القرآن، والسنة، أمور لا يعلمها علماء الشريعة.

---

[1] ــ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 21.
[2] ــ الآية 106 سورة البقرة.
[3] ــ الآية 108 سورة يوسف.
[4] ــ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 24.
[5] ــ أحمد الصويان، المرجع السابق، ص: 93.

والمختار يكثر من الثناء على التصوف ورجاله، ويستطرد في تناول حياة وسيرة الجنيد، وأفرد له ولأحاديثه مجالا واسعا من رسالته. ومنها قوله: «الطريق مسدود إلا على المقتفين أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لم يقتد به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة».[1] ومن نتائج الالتزام بهذا الأمر ــ حسب المختار ــ حصول المحبة بين الأشياخ ومريديهم.

ويرد المختار على منكري التصوف الذين استدلوا بقوله تعالى: ﴿اليَومَ أكمَلتُ لَكُم دِينَكُم﴾.[2] وقوله سبحانه: ﴿لا إكرَاهَ فِي الدِّين﴾.[3] أي ما تعلق بنزول الأحكام المشروعة. بأن الولي يجب أن يلتزم بأحكام الشريعة، ولو أمر: «بما يخالف شرع الرسول لم يُتَّبع على ذلك، وخرج عن كونه على بصيرة من أمره».[4]

ويبدو أن أهم قاعدة في الخلاف بين السلفية، والطرقية، تتحدد حول فكرة الاستخلاف ومفهومه. فهو عند الطرقية ينحصر في العبادات بمعناها الفقهي فقط،[5] قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلا لِيَعبُدُون﴾.[6] بينما يرى السلفيون أنه يكفي مع طلب العلم القيام بالفرائض، من أجل نقل الأمة إلى مستوى أقوى مما هي عليه في إطار قاعدة الاستعداد. قال عز وجل: ﴿وَأعِدُّوا لَهُم مَّا استَطَعتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.[7] وبذلك يتضح أن عمق الخلاف بين الطرقية والسلفية حول مفهوم الاستخلاف، الذي ينظر له السلفيون من جانب الإبداع العقلي في ارتباطه بالله، وينظر له الطرقيون أو يحصرونه في العبادة، إلى جانب الوحدة عند السلفيين، والتعدد عند الطرقيين.

---

[1] ــ المختار الكبير، المصدر السابق. ص: 26.
[2] ــ الآية 3 سورة المائدة.
[3] ــ الآية 256 سورة البقرة.
[4] ــ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 31.
[5] ــ أحمد العماري، رسالة الوتري في محاكمة السلفية الوهابية بالمغرب، ص: 361.
[6] ــ الآية 56 سورة الذاريات.
[7] ــ الآية 60 سورة الأنفال.

منع الوهابية للتقليد:

والعامي يلزمه التقليد، لأنه عاجز عن الأخذ والاستنباط من الكتاب والسنة مباشرة. والمقلد إذا أفتى فهو ناقل أو حامل فقه، وهو بذلك ليس بمفت ولا فقيه، بل هو كما ينقل فتوى عن إمام من الأئمة. ويلزم تقليد غير المجتهد عاميا كان أو غيره، لقوله تعالى: ﴿فسألوا أهلَ الذّكر إن كُنتُم لا تَعلمُونَ﴾.[1] والتأصيل[2] هو مبدأ أساسي في الفكر الوهابي، ولذلك رفضوا التقليد. وينكر المختار على الوهابية عدم التزامهم بالتقليد، وأخذهم من الكتاب، والسنة، مباشرة. حيث قال: «وأنت أيها المنكر للتقليد المتجرأ على القرآن، والحديث، برأيك عن استنباط المجتهدين بدرجات كثيرة ما حملك على هذه الجرأة».[3] ويذكره بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَقفُ مَا ليسَ لكَ بِهِ عِلمٌ﴾.[4]

ويتعجب المختار كيف استحلوا التكلم في القرآن، والحديث، وهم لم يتقنوا أي علم من العلوم المشترطة في القرآن، والتي عدها خمسة عشرة. قال المختار: «وأعجبا من جرأتك على الله، ما جوابك لرب الأرباب حين يوقفك بين يديه ويقول لك: ما حملك على هذه الجرأة، تفتح كتابي برأيك وتخبط خبط عشواء؟ وأخجلتك يومئذ وفضيحتك».[5] والذي يتتبع ما ذهبت إليه الوهابية يرى ما يخالف قول المختار، إذ أن ابن عبد الوهاب أنكر ما ادعاه خصومه من إبطاله كتب المذاهب الأربعة، وأنه: «ادعى الاجتهاد، وخارج عن التقليد، سبحانك هذا بهتان عظيم».[6] وبدون شك فإن الصراع بين الصوفية، والسلفية، جعلت أنصار كل طرف يختلق أقوال ينسبها للطرف الأخر. وهذا ما جعل هذا الصراع يصل بالفريقين إلى درجة تكفير بعضهما البعض.

---

[1] ـ الآية 7 سورة الأنبياء.
[2] ـ عبد المجيد النجار، مشاريع الإشهاد الحضاري، ج 3، ص: 36.
[3] ـ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 32.
[4] ـ الآية 36 سورة الإسراء.
[5] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ص: 32.
[6] ـ الشويعر، المرجع السابق، ص: 74.

وعلى اعتبار أن القرآن الكريم يشتمل على المتشابه، افتقر إلى العلم بطريق التأويلات. وافتقر تعلم ذلك إلى علوم كثيرة من: علم اللغة، والنحو، والمعاني، والبيان، وأصول الفقه. وغير المجتهد يعمد إلى الاستدلال بالآيات مع قطع النظر عن معارضه، وعن النظر هل هي مصروفة عن ظاهرها أو لا؟ وقد أوجب أهل الأصول على المجتهد المستدل أن يبحث عن المعارض وجوابه، وعن الذي استدل به هل معه قرينة تصرفه عن ظاهره. وقد أجمع المسلمون[1] أن للمقلد أن يقلد من شاء من المجتهدين إذا توصل إلى حقيقة مذاهبهم وآرائهم. ومع ذلك فإن المختار يطالب ابن عبد الوهاب بالاستحياء و: «الوقوف عند مرتبته وهي التقليد، وترك الاستدلال لأهله».[2] قال تعالى: ﴿وَلَو رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمرِ مِنهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَستَنبِطُونَهُ﴾.[3] وأولوا الأمر هم المجتهدون.

وهكذا فإن بعض علماء الصوفية اعتكفوا على التفكير النظري، وبعضهم الآخر اعتزل عن المجتمع. وأصبح تقليد العلماء الكبار هو الشيء الأساسي عندهم ولم يسمحوا لأحد بأن يتخلى عن الاقتداء بهم، وكان هدفهم من ذلك المحافظة على النظام الإسلامي ولهذا أرادوا أن تبقى الأمور كما كانت.[4] على اعتبار أنه لا يجوز الخروج عن أي مذهب لمن قلده لمجرد الكبر أو نحوه.[5] فصار التقليد، والمحافظة، القاعدة المفضلة، وتكبلت حرية الاجتهاد.

---

[1] ـ محمد سعيد رمضان البوطي، اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية، دار الهدى عين مليلة الجزائر، ط 1990، ص: 35.

[2] ـ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 33.

[3] ـ الآية 83 سورة النساء.

[4] ـ وضع علماء أزواد تآليف في أحكام التقليد والاجتهاد من جملتهم: ألب بن عبدي بن الجيد الغلاوي، وضع كتاب المقلد والمجتهد. والشيخ ماء العينين القلقمي، وضع كتاب أحكام التقليد. ومحمد بن محمد النابغة التندغي، مكتوب في حكم الاجتهاد والتقليد. ينظر: محمد المختار ولد أبّاه، دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي، ص ص: 103 ــ 121.

[5] ـ محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصري، االمزايا، ص: 80.

ومن الذين أشاروا إلى عدم التزام دعاة الوهابية بالمذاهب أبو راس الناصر المعسكري،[1] عندما رحل إلى الحجاز، حيث لقي علماء الوهابية، وتناظر معهم وعلم أنهم خارجون عن المذاهب الأربعة في الفروع. ومع ذلك لم يتأثر بهم.

وقد عارض بعض المجددين تلك الفكرة، لأنه بالاجتهاد يتبلور مبدأ التغيير كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنَا﴾.[2] وقد بيّن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم معنى الاجتهاد في حديثه مع سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أوفده إلى اليمن. ونقرأ في الرسالة التي بعثها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عامله أبي موسى الأشعري: «... الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك بما ليس في كتاب ولا سنة، وأعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها».[3] وقد ضرب المثل في الاجتهاد حين ألغى حد السرقة عام الرمادة[4] سنة 18 هـ / 639 م، مراعاة لمقتضيات الحال. ولم يكن عمر يرى تناقضا البتة بين أصالة الإيمان، وبين إعمال العقل، ما دام المعيار هو صالح الجماعة،[5] بل من أجل صالح الجماعة لم يجد غضاضة في تأويل النصوص في بعض الأحيان. والرأي والاجتهاد عند عمر، هو ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب معرفة وجه الصواب

أما الذين جمّدوا معنى الشريعة فإنهم أغلقوا باب الاجتهاد، ولذا انتقدهم ابن تيمية بحق، فأراد أن يتجاوز المذاهب الفقهية المشهورة ليعود إلى أصول الإسلام وهكذا يكون

---

[1] ـ أبو عمران الشيخ، قضايا في الثقافة والتاريخ، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى الجزائر، ط 2003، ص: 73.

[2] ـ الآية 69 سورة العنكبوت.

[3] ـ حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ط 1970، ص ص: 293 ـ 294.

[4] ـ سمي بعام الرمادة لأن الريح كانت تهب على المدينة محملة بالرماد، وقد حدث فيه قحط شديد، وانتشر الطاعون فأهلك الحرث والنسل. ينظر: ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 4، ص: 96.

[5] ـ محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي منهج وتطبيق، دار الثقافة الدار البيضاء المغرب، ط الثانية 1981، ص: 19.

التجديد.[1] وقد ركز السيوطي على ضرورة التجديد معتمدا على الحديث الشريف الذي يشير إلى ظهور مصلح على رأس كل قرن.[2] ثم ثار محمد ابن عبد الوهاب على الجمود وقد أثر على جل الحركات الإصلاحية الحديثة.

والمختار يقصد بالتقليد التزام مذهب فقهي معين، وهو يمنع الانتقال من مذهب إلى آخر، أو الجمع بين بعض المذاهب جملة واحدة. ويبين أن مستند ذلك قاعدة سد الذريعة: لأنه يؤدي إلى تتبع الرخص، وبالتالي الاستخفاف بالدين. ولو صاغ هذا لقال رجل: أنا أتزوج من غير ولي ولا شهود، مقلدا في الولي لأبي حنيفة وفي الشهود لمالك، وهذا أمر عظيم المفسدة لأنه يؤدي بالمسلم إلى عدم تقليد أحد من الفقهاء، وهو يدرجه في باب تحريم الانتقال من صواب إلى صواب، أو الجمع بين صواب وصواب.

منع الوهابية الاستشفاء بالقرآن:

يعتقد المختار أن الوهابية تنكر الاستشفاء بالقرآن الكريم،[3] ولهذا تصدى إلى بيان أن: «الرقية المندوب فيها ما كان باللسان العربي[4] وبما يفهم معناه، ويجوز شرعا مع اعتقاد أنها لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله والمنهي عنها ما فقد فيها شرعا».[5] وفي الموطأ عن جماعة متسلسلة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وفي البيت صبي يبكي، فذكروا له أن به العين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تسترقوا له من العين. وكان النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث

---

[1] ـ أبو عمران الشيخ، « فلسفة محمد إقبال الدينية والسياسية »، مجلة الدراسات الإسلامية، مجلة نصف شهرية تصدر عن المجلس الإسلامي الأعلى الجزائر، عدد 4 شوال 1424 هـ/ ديسمبر 2003 م، ص: 16.

[2] ـ لم يكن المشارقة وحدهم من دعا إلى ذلك فهناك العديد من علماء المغرب والصحراء، منهم على سبيل المثال لا الحصر بأزواد: محمد بدر الدين بن عمار السمسدي، في كتابه ذم التقليد. وكذلك بداه بن البصيري التندغي، في قوله القول السديد في الرد على أهل التقليد. ينظر: محمد المختار ولد أباه، دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا، ص ص: 104 ـ 118.

[3] ـ لا نقرأ أي فكرة تدل على ذلك في الرسالة التي بعثها ابن عبد الوهاب إلى علماء تونس. ينظر: أبو القاسم الزياني، المرجع السابق، ص ص: 394 ـ 396.

[4] ـ هذا الرأي نقرأه كذلك في كتابه هداية الطلاب. ينظر: المختار الكبير، هداية الطلاب، و 85 ظ.

[5] ـ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 39.

على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذتين. وكذلك لا بأس بالتعوذ وهو مستحب لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.[1]

ولا يكون الاسترقاء منافيا للتوكل و: «الاسترقاء المستحسن تركه في حق من له قوة على الصبر على ضرر المرض».[2] وبين ابن عبد البر أن المعالجة، والتداوي، إنما هي من المباحات، وليست بواجبة. ولم يرى أي بأس في الاسترقاء، غير أنه أشار[3] إلى أن الاسترقاء، والتداوي، لا ينفعان إلا إذا صادف مشيئة الله تعالى. وللرقية شروط كما يقول المختار: أن تكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي، وبما يُعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية غير مؤثرة بنفسها بل بتقدير القادر.[4]

وما جهل معناه لا تجوز الرقية به حتى ولو جرِّب به النفع، كي لا يسقط في الكفر، فالأحوط: «الكف خوفا من الوقوع في الكفر، والأصل المنع، حتى يأتي المبيح كما أفاده التحقيق». وكان الإمام ابن عرفة[5] يرى بأن ما تكرر النفع به تجوز الرقية به، ولا شك أن كل محقق النفع به لا يكون كفر.

ومن المسائل التي أغفلها المختار الكبير في رده نكران الوهابية لكرامات الأولياء،[6] وذلك بعد تهديم أنصار هذه الحركة القباب التي كانت بالمدينة المنورة ومكة المكرمة.وهو ما صرّح به علماء تونس في إجابتهم لابن عبد الوهاب: «كما أنه يلوح من

---

[1] ـ الآية 98 سورة النحل.

[2] ـ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص ص: 40 ـ 41.

[3] ـ محمد بن يعيش، ابن عبد البر، ص: 284.

[4] ـ المختار الكبير، كشف الشبهات، ص: 41.

[5] ـ ابن عرفة: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة ولد عام 716 هـ / 1316 م، وأقبل على الدرس والتعليم قرأ على محمد بن سلامة، ومحمد بن عبد السلام، وبرع في الفقه وأصوله والعربية. وتوفي في 24 جمادي الأخيرة سنة 803 هـ / 1400 م، ودفن بجبل الزلاج، له المختصر في الفقه. ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، ج 1، ص: 762.

[6] ـ مع العلم أن للكرامة مدلول يمنك من خلاله تفسير ما يبدو مبهما وغير مفهوم. لمزيد من التفصيل ينظر: علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة القطاع اللاواعي في الذات العربية، دار الأندلس بيروت، ط الثانية 1984.

كتابك إنكار كرامات الأولياء، وعدم نفع الدعاء، وكلها عقائد عن السنة زائفة، وعن الطريق المستقيم زائغة».[1]

وهناك نتيجة يمكن ملاحظتها من خلال تناول أفكار المختار حول العقيدة أنه مثل الوجود الأشعري بأزواد، وبدا ذلك من خلال أرائه التي أيد فيها أصحاب هذا التوجه في أغلب أفكارهم. والتي عرفت الترسيم منذ عهد ابن تومرت، وتغلغلت مع السنوسي. غير أن أهم ما يميز العقيدة عند المختار هو الامتزاج بينها وبين التصوف، حيث لا نكاد نلمس أي حاجز ملموس يمنع التداخل بين ما هو عقدي، وبين ما هو طرقي. أضف إلى كل ما سبق أن الحضور الطويل للعقيدة الأشعرية بأزواد باعتبارها العقيدة الرسمية، جعل مضامينها تؤثر بكيفية أو بأخرى في مجموع مناحي الحياة العلمية.

ولم يكن المختار الكنتي الكبير وحده من انتقد أفكار الوهابية بالغرب الإسلامي، فهناك الشيخ علي الوتري، الذي وضع رسالة في الطعن عليهم سماها: ما أبرزته الأقدار في نصرة ذوي المناقب والأسرار. ومنهم كذلك المؤرخ الزياني الذي يقول: «وفي سنة سبعة وعشرين ومائتين وألف ورد كتاب من تونس لفاس وجهه المبتدع الوهبي[2] القائم بجزيرة العرب بمذهب الطائفة الوهبية من طوائف أهل البدع».[3] وفي المقابل هناك من انتصر للفكر الوهابي وعرَّض بالصوفية وأبرز هؤلاء هو أكنسوس[4] في كتابه الجيش العرمرم الخماسي[5] في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي.

---

[1] ـ الزياني، المرجع السابق، ص: 400.

[2] ـ يقصد بالوهبي عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الوهابي، فهو الذي كان زعيم الحركة الوهابية في تلك الفترة. ينظر: الوتري، المصدر السابق، ص: 373.

[3] ـ أكنسوس، الجيش العرمرم في دولة مولانا علي السجلماسي، طبعة حجرية فاس، ج 1، ص ص: 141 ـ 142.

[4] ـ أكنسوس: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس ولد عام 1211 هـ / 1796 م، وتعلم في البداية بمسقط رأسه إذاوكنسوس بسوس ثم هاجر إلى فاس سنة 1229 هـ / 1813 م، لإتمام دراسته فأخذ عن مشاهير علمائها حتى برز في علوم اللغة والفقه والتاريخ وغيرها. وتوفي بمراكش يوم الثلاثاء 29 محرم 1294 هـ / 1877 م. ينظر: ابن إبراهيم، الاعلام، ج 7، ص: 8.

[5] ـ رد على أفكار أكنسوس التي وردت في كتابه الجيش العرمرم، العربي المشرفي في مؤلفه: الحسام المشرفي لقطع لسان الساب العجرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن أكنسوس.

غير أن رد المختار مضبوط بالأدلة دون تجريح، أما علي الوتري، فيتحامل على ابن عبد الوهاب كما تدل على ذلك ألفاظه: (المبتدع، بزعمه الفاسد...). وإذا أدرك الباحث أن الوتري وهو من المدينة المنورة، التي فتحها أنصار الوهابية يحمل عداء شديدا للدعوة الوهابية وزعمائها الروحيين، والعسكريين، ربما لأسباب سياسية أكثر منها دينية.

ومن جهة أخرى ينبغي أن أشير أن المختار الكبير في رسالته التي خصصها للرد على الوهابية، يرد كذلك بصفة غير مباشرة على الطريقة التيجانية، للصلة بينهما على اعتبار أن أحمد التيجاني، بدوره كان يمنع مريديه من زيارة القبور سدا للذريعة. وهكذا يبدو أن التيجانية كانت تمثل ــ بالنسبة للمختار ــ الوهابية بالأسلوب الطُرُقِي.

الفصل الثاني :

الإنتاج الفكري للمختار في التفسير والفقه

تمهيد:

يبحث التفسير عن معاني القرآن الكريم إفرادا، وتركيبا، وإعرابا، ويشمل أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ. وكان الدرس التفسيري عند المختار كثير الالتصاق بالجانب الموضوعي أي تفسير القرآن بالقرآن، وهذا ما انعكس على اختياراته التفسيرية فيما بعد، حيث جعل مدرسة المأثور مثله الأعلى فيما ذهبت إليه في الغالب.

ولم يدرس المختار من الفقه، إلا ما كان على مذهب إمام دار الهجرة. واستنكف عن الأخذ بأدلة المذاهب الأخرى، إلا في القليل النادر. ومادته الفقهية متنوعة بين العبادات، والمعاملات، كما كانت له مشاركة في القضايا، والمسائل، التي طرحت في زمانه كتعاطي التبغ، والالتزام بالمذاهب الفقهية، والحِرابة.

تفسير القرآن الكريم.

خلّف المختار الكبير في التفسير مجموعة من المؤلفات منها كتابه: كشف النقاب عن أسرار فاتحة الكتاب، وقد تم تحليله في المجلة الإفريقية.[1] ووصفه بعضهم بأنه: «جزء أتى فيه بالعجب العجاب، بحيث يمكث نحو السبعة أيام أو أكثر يكتب عن على آية واحدة».[2] وهو مقسّم إلى مقدمة وسبعة فصول، فالمقدمة في بيان الفرق بين التفسير والتأويل ومشروعية التعود قبل قراءة القرآن وحكمها وما ورد فيها. والفصل الأول في البسملة، والفصل الثاني في فضلها وبعض أسرارها، والفصل الثالث في أسماء الفاتحة، والخامس في معانيها، والسادس في بعض خواصها وأسرارها، والأخير في مدلولاتها ومقتضياتها.

---

[1] _ DESTAING (E), Op. Cit. p. 452.

[2] _ ولد أباه، دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي، ص: 68.

ومن مؤلفاته كذلك تفسير البسملة في نحو كراسة، وبذل الوسع على الآيات التسع،[1] وهو في جزء، تناول فيه مسائل، قال عنه البرتلي: «سأله عنها بعض علماء السودان، فأجابه عنها بأحسن ما ينبغي».[2] وله أيضا: الحجة الباهرة في تفسير البسملة،[3] ولطائف القدسي في فضائل آية الكرسي،[4] والذهب الإبريز.[5] كما توجد مادة غزيرة في التفسير ضمن مؤلفاته الأخرى.

1ـ المسائل التفسيرية التي تناولها:

تعرض المختار للعديد من المسائل في مؤلفاته التفسيرية، منها: تحريم التبني، وأهمية الصدقات، والمواقف التي نزل القرآن موافقا لرأي سيدنا عمر رضي الله عنه، وتحريم الربا، وبيان فضل الصحابة، وصفات المشركين، وأفضلية الرسول صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء والرسل.

تقسيم أموال الغنائم:

تدخل الأرض في البلاد المفتوحة عنوة في عموم الغنيمة، التي قال الله فيها: ﴿وَاعلَمُوا أَنَّمَا غَنِمتُم مِّن شَيءٍ﴾.[6] ويشير المختار أن المراد من الآية: «أي شيء كان حتى الخَيط، والمِخيط،[7] فإن لله خمسه وللرسول».[8] وذكر أكثر المفسرين، والفقهاء،[9] أن قوله تعالى فإن لله خمسه إنما هو افتتاح كلام على سبيل التبرك، وإنما أضافه إلى نفسه، لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف يشاء. وليس منه أن سهما منه لله مفردا، لأن الدنيا

---

[1] ـ وترد في بعض النسخ بعنوان: بلوغ الوسع على الآيات التسع.
[2] ـ فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص: 152.
[3] ـ توجد منه نسخة بمركز المختار الكبير بقاو جمهورية مالي.
[4] ـ توجد منه نسخة بمركز المختار الكبير بقاو جمهورية مالي، كما توجد منه نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط.
[5] ـ توجد منه نسخة بالمركز نفسه.
[6] ـ الآية 41 سورة الأنفال.
[7] ـ في الأصل بالحاء (المحيط)، وهو تصحيف. وكل التفاسير تجمع على ما أثبت في المتن.
[8] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 15.
[9] ـ من جملة هؤلاء ابن كثير، ينظر: تفسير ابن كثير، دار الثقافة الجزائر، ط الأولى 1991، ج 3، ص: 180.

والآخرة كليهما لله. وبهذا فسّره: الحسن، وقتادة، وعطاء، وإبراهيم النخعي. وأشار الطبري،[1] وغيره،[2] إلى أن الخطاب موجه إلى المؤمنين، ومتعلق بالغنيمة سواء كانت قليلا أو كثيرا.

العلم غير النافع:

كان يوجد بشبه الجزيرة العربية من ينظر في كتب الأولين، واستقى هؤلاء منها بأن الله سبحانه وتعالى سيبعث رسولا من العرب، ينسخ الشرائع السابقة. غير أن العديد من هؤلاء لم يؤمنوا برسالة التوحيد، تكبرا وحسدا، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيهِم نَبَأَ الَّذِي أَتَينَاهُ آيَاتِنَا﴾.[3] فهذه الآية وإن نزلت في أمية بن أبي الصلت زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام، فإنها شاملة لجميع من لم ينفعه الله بعلمه.[4] حيث كان أقصى مراده بالعلم، طلب الرفعة، والرئاسة، والعلو في الأرض، وجمع الحطام. وقوله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنهَا﴾.[5] يعني فخرج من الآيات، التي كان الله أتاه إياها كما تنسلخ الحية من جلدها. قال ابن عباس: «نزع منه العلم أو الانتفاع به فاتبعه الشيطان».[6] يعني لحقه وأدركه وصيره الشيطان لنفسه تابعا في معصية الله ومخالفة أمر ربه، مطيعا لشيطانه وهواه صارفا له عن التقرب به إلى مولاه.[7] ﴿فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ﴾.[8] يعني الهالكين الضالين. ﴿وَلَو شِئنَا لَرَفَعنَاهُ بِهَا﴾،[9]

---

[1] ـ محمد علي الصابوني وصالح أحمد رضا، مختصر تفسير الطبري، مكتبة رحاب الجزائر، ط الثانية 1987، ج 1، ص: 306.

[2] ـ الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي بيروت، د ت، ج 15، ص: 164.

[3] ـ الآية 175 سورة الأعراف.

[4] ـ ورأي ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، أن هذه الآية نزلت في بلعم بن باعوراء، الذي دعا على سيدنا موسى وقومه بعدما غزا موسى أهله وكانوا كفارا، وكان بلعم مجاب الدعوة، ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه. وكان عند بلعم اسم الله الأعظم فامتنع عن موسى، ثم دعا موسى عليه أن ينزع منه اسم الله الأعظم والإيمان، فسلخه الله مما كان عليه ونزع منه المعرفة. ينظر: الرازي، التفسير، ج 15، ص: 54.

[5] ـ الآية 175 سورة الأعراف.

[6] ـ الرازي، التفسير، ج 15، ص: 54.

[7] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 43.

[8] ـ الآية 175 سورة الأعراف.

[9] ـ الآية 176 سورة الأعراف.

يعني رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات التي أوتيها، وكانت عنده.[1] ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾[2] يعني أنه سكن إلى الدنيا ومال إليها ورضي بها. ثم زاده فقال:﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[3] يعني أعرض عن التمسك بما أتاه الله من الآيات واتبع الهوى، فخسر دنياه وآخرته ووقع في هاوية الردى والهلاك.[4] وهذه الآية أشدّ الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى.

ثم ضرب الله عز وجل، لهذا الرجل الذي أتاه الله آياته فانسلخ منها واتبع هواه، فقال تعالى:﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إِن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَث أو تَترُكهُ يَلهَث﴾.[5] وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن أتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها، واتبع هواه وآثر دنياه وترك آخرته بأخَّس الحيوانات وهو الكلب، في أخس أحواله وهو اللهث، لأن الكلب في حال لهثه، لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها.[6] كذلك العالم الذي يتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها في الآخرة، لأن التمثيل به على أنه يلهث على كل حال إن حملت عليه أو تركته كان لاهثا وذلك عادة منه وطبيعة، وهي مواظبته على اللهث دائما.[7] فكذلك من أتاه الله العلم، والدين، وأغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة،[8] ثم أنه مال إليها وطلبها كان حاله كحال الكلب اللاهث. والإشارة واضحة إلى أن الذي علمه الله حجج التوحيد، وفهمه أدلته، حتى صار عالما فالواجب عليه محبته لا معصيته، لأن المعصية توجب سخط الله.

---

[1] ـ الصابوني، المرجع السابق، ج 1، ص: 291.
[2] ـ الآية 176 سورة الأعراف.
[3] ـ الآية 176 سورة الأعراف.
[4] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 43.
[5] ـ الآية 176 سورة الأعراف.
[6] ـ الصابوني، المرجع السابق، ج 1، ص: 192.
[7] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 44.
[8] ـ الرازي، التفسير، ج 15، ص: 54.

وما يلاحظ على المختار في تفسيره للآية السابقة هو الترجيح الذي قام به عند اختياره لرأي عبد الله بن عمر، وزيد بن أسلم، وسعيد بن المسيب، وأبو روق، الذين قالوا بأن الآية نزلت في أمية بن أبي الصلت. وردّه لرأي ابن عباس، الذي صرّح بأنها نزلت في بلعم بن باعوراء. غير أنه يرجع إلى رأي ابن عباس عند تناوله لتفسيرها، ولا يكاد يخرج عن رأيه حتى في التفاصيل الصغيرة.

ويتوقف المختار[1] على آية عرّفت بثلاثة أمور: حيث كشفت المشبّه به، وركبت المثال من جهة المعنى، وعلى من وضع له. قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾.[2] وفي الآية تعريف وشبّه المنافقين في حيرتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء الذين وصفهم،[3] إذ كانوا لا يرون طريقا ولا يهتدون. وأما المشبه، فقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾.[4] ثم انتقل إلى مثال هو أشد من المثال الأول، طلبا للتنويع والتفريع. والإشارة طريفة في الآية الأولى على اعتبار أن المطر وإن كان نافعا، إلا أنه لما وجد في تلك الصورة مع تلك الأحوال الضارة، صار النفع به زائلا.

واعتاد العرب على تشبيه اللاحق بالسابق، ولو كان اللاحق أقوى منه، كما روي عنه صلى الله عليه وسلم في تشبيه الصلاة عليه بالصلاة على إبراهيم، وهو أفضل منه، وأعلى رتبة، إذ هو المخصص بأنواع الصلاة والتسليم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.[5] وفي الآية[6] خطاب للمؤمنين أن أدعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وحيّوه بتحية الإسلام.

---

[1] ـ المختار الكبير، بذل الوسع، ص:5.
[2] ـ الآية 19 سورة البقرة.
[3] ـ الرازي، المصدر السابق، ج 2، ص: 77.
[4] ـ الآية 17 سورة البقرة.
[5] ـ الآية 56 سورة الأحزاب.
[6] ـ الصابوني، المرجع السابق، ج 2، ص: 214.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصبر كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.[1] مع كونه أصبر من الجميع وأفضل، «إذ تمّم الله له دينه ما لم يتمّم لأحد من أنبيائه».[2] والآية فيها طلب للصبر[3] على المكاره، والشدائد، كما صبر من قبل أولوا الجد،[4] والصبر، والثبات. وقال ممتنا عليه وعلى أمته: ﴿اليَومَ أكمَلتُ لَكُم دِينَكُم وَأتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِينًا﴾.[5] وإكمال الدين كان بتبيين الحلال والحرام، والنعمة تظهر في انتصار المسلمين على عدوهم، ولذلك وجب الالتزام بالإسلام وعدم مفارقته. وفي الآية[6] إشارة إلى أن الدين الكامل، وجد في آخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما كيفية تركيب المثال من جهة المعنى، فهو أن الله تعالى قال أولا: مثلهم أي شبههم، وقيل: صفتهم. قال المختار: «والمثل قول سائر في عرف الناس، يعرف به معنى الشيء على وجه هو أبلغ من غيره، وأقرب إلى الأخذ بمجامع القلوب، إلا أنه لا يقدِّره حقَّ قدره إلا العالمون بحقيقة أسلوبه، وقليل ما هم».[7] وقوله عز وجل: (كمثل الذي). بمعنى الذين، بدليل سياق الآية، نظيره: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَائِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾.[8] والذي جاء بالصدق هم المتقون،[9] وهؤلاء هم الذين اتقوا الله بتوحيده، وأداء

---

[1] ـ الآية 35 سورة الأحقاف.
[2] ـ المختار الكبير، المنّة في إعتقاد أهل السنة، و58 ظ.
[3] ـ الصابوني، المرجع السابق، ج 2، ص: 358.
[4] ـ الرازي، المصدر السابق، ج 28، ص: 35.
[5] ـ الآية 3 سورة المائدة.
[6] ـ وهذا اختيار الفخر الرازي في تفسيره. ينظر: ج 11، ص: 136.
[7] ـ المختار الكبير، بذل الوسع، ص ص: 6ـ 7.
[8] ـ الآية 33 سورة الزمر.
[9] ـ الصابوني، مختصر، ج 2، 279.

فرائضه، واجتناب معاصيه. وهناك[1] من رأى بأن الذي جاء بالصدق هو الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي صدق به هو سيدنا أبي بكر رضي الله عنه.

استوقد، أي طلب الاستقاد. فلما أضاءت، النار. ما حوله، أي حول المستوقد، (ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون). والآية نزلت في المنافقين، أي: مثلهم في نفاقهم، كمثل رجل أوقد نارا في ليلة مظلمة في صحراء، فاستدفأ ورأى ما حول النار، فأتقى ما يخاف، فبينما هو كذلك، إذ طفئت ناره، فبقي في الظلمة خائفا متحيرا.[2] وستدوم حيرته، وحسرته، على الظلمة[3] التي جاءته في أعقاب النور. فكذلك المنافقون بإظهارهم كلمة الإيمان، أمنوا على أموالهم وأولادهم، وناكحو المؤمنين، ووارثوهم، وقاسموهم الغنائم، فكذلك نورهم، فإذا ماتوا، عادوا إلى الظلمة، والخوف. وتكون قبورهم مظلمة، وكذلك يوم القيامة، حيث يقولون للمؤمنين: ﴿انظُرُونَا نَقتَبِس مِن نُّورِكُم﴾.[4] أي نستصبح من نوركم.[5] وهناك إشارة ملفتة في الآية الأخيرة، على اعتبار أن أصحاب الجنة إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، وحالة الوجه تدل على حالة صاحبها، والنور بين أيديهم، فيستضيئون به.

والمعنى تُكمِّله التي بعدها (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا). والرجوع المقصود هنا هو الرجوع إلى الدنيا،[6] لأن الأنوار تكتسب من التزام الإنسان فيها بالأخلاق الفاضلة، والتنزه عن الجهل، والأفعال القبيحة والذميمة.

---

[1] ـ أقصد هنا سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجماعة من المفسرين. وهناك من قال: بأن الذي جاء بالصدق هم الأنبياء، والذي صدق به هم الأتباع. واحتج هؤلاء بأن الذي جاء بالصدق جماعة، وإلا لم يجز أن يقال(أولئك هم المتقون). ينظر: الرازي، المصدر السابق، ج 26، ص: 276.

[2] ـ المختار الكبير، الوثائق، و 7 ظ.

[3] ـ الرازي، التفسير، ج 2، ص: 73.

[4] ـ الآية 13 سورة الحديد.

[5] ـ الصابوني، المرجع السابق، ج 2، ص: 426.

[6] ـ الرازي، المصدر السابق، ج 29، ص: 225.

وضرب النار مثلا، ثم لم يقل: ذهب الله بنارهم، بل قال: ذهب الله بنورهم، «لأن النار نور وحرارة، فذهب بنورهم، وأبقى الحرارة عليهم».[1] وإضاءة النار، إقبالهم على المسلمين، والهدى. وذهاب نورهم، توجههم إلى المشركين والضلالة. ثم وصفهم بكونهم (صمّ) عن قبول الحق، فلا يرغبون فيه ولا يقبلونه، وإذا قبلوه، فكأنهم لم يسمعوا. (بكم) عن الحق، لأنهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، فهم (عُميٌ) لا بصائر لهم، ومن لا بصيرة له، كمن لا بصر له، ومن كانت هذه حاله فلا ترجى توبته وهدايته (فهم لا يرجعون) عن الضلالة إلى الحق.

وقوله: (أو كصيب) أي كأصحاب صيِّب، فهذا مثل آخر، ضربه الله تعالى للمنافقين. قال المختار: «إن شئت مثّلهم بالمستوقد، وإن شئت مثّلهم بأهل الصيِّب».[2] وقيل: (أو) بمعنى الواو. الصيِّب هو المطر وكل ما ينزل من العلو إلى الأسفل. وقوله (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق) جمع صاعقة، وهي الصيحة التي تُميت من سمعها، أو يُغشى عليه، ويقال لكل عذاب مهلك صاعقة. وقيل : الصاعقة قطعة من العذاب يصيب الله بها من يشاء.

وفي قوله تعالى (حذر الموت) إشارة إلى مخافة الهلاك. (والله محيط بالكافرين) أي عالم بهم. قال المختار: «جامعهم ومعذّبهم ومهلكهم».[3] ومنه قوله تعالى: ﴿إلا أن يُحَاطَ بِكُم﴾.[4] أي تهلكوا[5] جميعا، ويكون ذلك عذرا مقبولا! على اعتبار أن الهدف هو الإتيان بأخيهم، إلا أن يحدث أمرا ويغلبوا[6] دون بلوغ هدفهم. (يكاد البرق) أي يقرب.

---

[1] ـ المختار الكبير، بذل الوسع، ص: 7.
[2] ـ المختار الكبير، بذل الوسع، ص: 8.
[3] ـ المصدر نفسه، ص: 9.
[4] ـ الآية 66 سورة يوسف.
[5] ـ الرازي، المصدر السابق، ج 18، ص: 172.
[6] ـ الصابوني، المرجع السابق، ج 1، ص: 404.

(يخطف أبصارهم) قال المختار: «أي يختلسها، والخطف هو الاستلاب بسرعة».[1] (كلما) كل أداة جملة ضم إلى الجزاء، فصارت أداة للتكرار، أي متى ما. (أضاء لهم مَشَوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) قال المختار: «أي وقفوا متحيرين».[2]

أما كيفية بيان ألفاظ التنزيل بحسب الظاهر. فبتركيب المثال على من وضع له، فهو الرسول صلى الله عليه وسلم، لما هاجر إلى المدينة المنورة، وجد فيها طائفتين من المشركين: وثنية، وأهل كتاب. وكانت الغلبة للوثنيين، والفضل فيما يعتقدون لأهل الكتاب، لما بأيديهم من إشارة العلم، وكان فيما بأيديهم صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومبعثه، وكانوا إذا قامت بينهم وبين قبيلة حرب، قالوا: إن نبيا قد أظل زمانه، يَغلِبُ ولا يُغلبُ، وإنّا متّبعوه، وسنقاتلكم معه، فلما جاء الله بالنبي صلى الله عليه وسلم، واستثبتوا معرفته، حسدوه، فمحوا نعته من كتبهم، واثبتوا ضده مكانه، فذلك نورهم الذي ذهب الله به. قال المختار: «فشبههم الله في كفرهم ونفاقهم، بقوم كانوا في مغارة في ليلة مظلمة، أصابهم مطر فيه ظلمات، من صفتها أن الساري لا يمكنه المشي فيها، ورعد من صفته أن يضم السامعون أصابعهم إلى آذانهم من هوله».[3]

ومن صفات البرق أن من يقترب منه يخطف أبصارهم، فيعميها من شدة توقُّده، فهذا مثل ضربه الله تعالى بالنسبة إلى الفريقين، فالمطر هو القرآن، لأنه هو حياة الجنان، كما أن المطر حياة الأبدان، والظلمات في القرآن هي الكفر والشرك، والرعد هو ما خُوّفوا به من الوعيد، فالكافرون يسدُّون آذانهم عند قراءة القرآن، مخافة ميل القلب إليه، لأن الإيمان عندهم كفر، والكفر موت، يكاد البرق يخطف أبصارهم. قال المختار: «القرآن يقهر قلوبهم حتى يؤمنوا غلبة، لوضوح آياته، وظهور براهينه الصادعة القاطعة

---

[1] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ص: 9.
[2] ـ المختار الكبير، نزهة الراوي، ج 1، ص: 83.
[3] ـ المختار الكبير، بذل الوسع، ص: 10.

الملجمة للمعاندين، المفحمة للمنافقين، ثم بعد ذلك يسبغ عليهم الخذلان، ويحيط بهم الحرمان السابقين لهما من الله».[1]

آية الكرسي:

وهي سيدة الآيات لاشتمالها على ذات الله وصفاته وأفعاله، فقول (الله) إشارة إلى الذات، (لا إله إلا هو) إشارة إلى توحيد الذات. (الحي القيوم)، فيها دلالة على صفات الذات وجلاله، فإن معنى القيوم بنفسه ويقوم به غيره، وذلك غاية الجلال والعظمة. (لا تأخذه سنة ولا نوم)، وهو تنزيه وتقديس له عما يستحيل أحد أقسام المعرفة. (له ما السماوات وما في الأرض)، أي الأفعال كلها وجمعيها منه وإليه. (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)، إشارة كما يقول المختار: «إلى إنفراده بالحكم والملك والأمر وأن من يملك الشفاعة إنما يملك ما تبشر به إياه والإذن فيها وهذا نفي الشركة عنه في الملك والأمر».[2] (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) أي صفة العلم وتفضيل بعض المعلومات والانفراد بالعلم حتى إلا علم لغيره إلا ما أعطاه ووهبه على قدر مشيئته وإرادته. (وسع كرسيه السماوات والأرض)، وهي إشارة إلى عظمته وملكه وكمال قدرته. (ولا يؤده حفظهما)، وهي القدرة وكمالها وتنزيهها عن الضعف والنقصان. (وهو العلي العظيم)، إشارة إلى أصلين عظيمين في الصفات. وعزه، ورحمته، وعظيم في ذلك كله. وهذه الآية[3] بالغة في الشرف ــ لاحتوائها على كل ذلك ــ إلى أقصى الغايات، وأبلغ النهايات.

ومن أسماء الله العلي، والعظيم، والعلي هو المرتفع عن مدارك العقول ونهايتها في ذاته وصفاته وأفعاله. قال المختار: «فليس كذاته ذات ولا كصفاته صفات ولا كأسمائه

---

[1] ــ المختار الكبير، بذل الوسع، ص: 11.
[2] ــ المختار الكبير، لطائف القدسي في فضائل آية الكرسي، ص: 9.
[3] ــ الرازي، التفسير الكبير، ج 7، ص: 03.

اسم ولا كفعله فعل ولا من جهة موافقة اللفظ».[1] أما العظيم فهو الذي لا تشبّه لأحد معه في علو شأنه وجلاله وقدره ذاتا وصفاتا وأسماء وأفعالا، ثم العلي في عظمته فوق كل عظمة لغيره. والعلي، والعظيم، اسمان متداخلان يسير كل منهما في الآخر، بارتفاع الوصف إلى غاية ما يراد به باسمه العلي، العظيم، سريان كل الأسماء الحسنى. وأنه تعالى عليّ في حلمه، وعلمه.

الفاتحة وفضلها:

إن لكل اسم من أسماء الله الحسنى وآية من كتاب الله عز وجل حروفا، ولكل حرف عددا وخواص لا يدركها إلا العالم العامل العارف. أما ما وقع في الفاتحة من الأفضلية أن عمر رضي الله عنه أقام ثمان سنين في تعليمها. وفي حديث خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم﴾.[2] ثم قال: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن. قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته.[3] قال المختار: «ومن عجائبها وشرفها على غيرها، أن حروف النار كملت فيها لقوتها».[4] وأشار ابن القيم[5] أن الأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى.

---

[1] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ص: 98.

[2] ـ الآية 24 سورة الأنفال.

[3] ـ رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب 3/ 97. وله روايات أخرى بأسانيد أخرى.

[4] ـ المختار الكبير، لطائف القدسي، ص: 115.

[5] ـ الفوائد، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث القاهرة، ط الأولى 2004، ص: 30.

ومن أسماء هذه الصورة السبع المثاني، وفي سبب تسميتها بذلك[1] أن نصفها ثناء العبد للرب، ونصفها عطاء الرب للعبد. بالإضافة إلى أنها سبع آيات، وكل آية تعدل قراءتها قراءة سبع من القرآن، ومن قرأ الفاتحة أعطاه الله ثواب من قرأ كل القرآن. كما أنها تقرأ في الصلاة ثم تثنى بسورة أخرى، وهي تثنى في كل ركعة من الصلاة.

ويمكن أن يتساءل الواحد عن وجه كراهة الله الفداء والإبقاء مع أنه لو شاء لنسخه كما نسخ سائر الأحكام؟ يجيب المختار بقوله: «الوجه فيه أن ذلك وافاهم وقد أمضوا القضية فيكون في نقضها أمران محذوران: أحدهما نقض العقود بعد إبرامها وتوكيدها وذلك ممنوع في سائر الشرائع؛ والثاني القتل بعد التأمين وهو أيضًا محرم لما فيه من إيهام الغدر».[2]

ونفى سبحانه عن نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله:﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾.[3] يعرف للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملك والعظماء من التفاته يمينًا وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يديه، فأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة، إذ لم يلتفت جانبًا، ولم يمد بصره إلى غير ما أري من الآيات، وما هناك من العجائب، قال المختار: «بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما في أربه، دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره، مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب، وطمأنينة النفس، وهذا غاية الكمال».[4]

---

[1] ـ أورد الفخر الرازي العديد من الأسباب في تسميتها بالسبع المثاني. ينظر: التفسير الكبير، ج 1، ص: 175.
[2] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 384.
[3] ـ الآية 17 سورة النجم.
[4] ـ المختار الكبير، بذل الوسع، ص: 80.

ورغم أن الأمر كان عظيما، إلا أنه صلى الله عليه وسلم ما مال بصره يمينا، وشمالا عما رأى،[1] ولم يجاوز ما أمر به، وصرح الرازي[2] أن بصره لم يزغ من غير اختيار منه، ولو التفت لكان طاغيا بسبب التفاته.

ويشير المختار في موضع آخر[3] أن فهم العلماء، والحكماء، والأولياء، للقرآن متسعة كل حسب نوره وقسمته. مع أن ما يرد من الفهم ليس مخالفًا لقواعد الإيمان، ولا مضادًا لصريح القواعد، ويصرح أن فهم الطائفة للقرآن، والسنة، فهم يجدونه في قلوبهم عند سماعه: «مع أنها لا تخرج عن الظواهر مطلقًا بل تنسب إليها بمعنى ما».[4]

2ـ مصادره في التفسير:

عند الرجوع إلى مدونة المختار التفسيرية، يجد الباحث أسماء بعينها تتكرر في مختلف المواضيع والمؤلفات. وإذا ما صنفنا هذه الأسماء، وأعلام التفسير حسب ذكرهم، وتناولهم من خلال المخطوطات التي وردوا فيها، وعدد المسائل التي تما إحصائها جاءت على النحو التالي:

اسم المفسر	المخطوطات التي ذكر فيها	عدد المسائل
الطبري	التذييل العادم المثيل، البرد الموشا، لطائف القدسي، نضار الذهب، المنّة، زوال الإلباس، كشف النقاب.	62
ابن كثير	بذل الوسع، كشف النقاب، تفسير البسملة، لطائف القدسي، الحجة الباهرة، البُرد، نضار الذهب، النزهة.	79

[1] ـ الصابوني، المرجع السابق، ج 2، ص: 400.
[2] ـ التفسير، ج 28، ص: 294.
[3] ـ المختار الكبير، زوال الإلباس في طرد الوسواس الخناس، مخطوط بخزانة الحاج محمد برماكي بزاوية مولاي هيبة بأولف، بدون رقم، ص: 09.
[4] ـ المختار الكبير، زوال الإلباس، ص: 09.

اسم المفسر	المخطوطات التي ذكر فيها	عدد المسائل
الزمخشري	البُرد، بذل الوسع، الحجة الباهرة.	41
التنبكتي	نزهة الراوي	1
الثعلبي	البُرد، نضار الذهب، المنّة، نزهة الراوي.	57
الثعالبي	بذل الوسع، نضار الذهب، زوال الإلباس، المنّة، لطائف القدسي، الجرعة الصافية، الكوكب الوقاد.	56
السمرقندي	البُرد، نزهة الراوي، نضار الذهب، كشف النقاب.	53
الفلاني	نضار الذهب	2
عياض	بذل الوسع، البُرد.	48
المغيلي	نضار الذهب	2
البيضاوي	كشف النقاب، الحجة الباهرة، بذل الوسع، نضار الذهب.	25
الفراء	بذل الوسع، نضار الذهب.	12
ابن جني	نزهة الراوي، بذل الوسع.	09
الخازن	نضار الذهب، نزهة الراوي، بذل الوسع. الحجة الباهرة، كشف النقاب.	37
ابن مالك	نضار الذهب، فتح الودود، بغية النبيل، بذل الوسع.	29
المبرِّد	فتح الودود، بذل الوسع، بغية النبيل.	07
السيوطي	المنّة، نضار الذهب، بذل الوسع، نزهة الراوي.	43
البغوي	نزهة الراوي، المنّة، بذل الوسع، كشف النقاب.	14
الشيرازي	الجرعة الصافية، جذوة الأنوار، الكوكب الوقاد.	42

اسم المفسر	المخطوطات التي ذكر فيها	عدد المسائل
الفاسي	نزهة الراوي	1
السلمي	نضار الذهب، التذييل العادم المثيل، فتح الودود.	38
التستري	البُرد، نزهة الراوي، نضار الذهب، كشف النقاب، بلوغ الوسع	35
اسم المفسر	المخطوطات التي ذكر فيها	عدد المسائل
القشيري	المنّة، الجرعة الصافية، جذوة الأنوار، بذل الوسع، الكوكب الوقاد، كشف النقاب، الحجة الباهرة.	56
الرازي	الكوكب الوقاد، جذوة الأنوار، فتح الودود.	15
القرطبي	بذل الوسع، زاول الإلباس، فتح الودود، كشف النقاب، المنّة، نضار الذهب، التذييل العادم المثيل.	24

إن أهم ما يلاحظ على هذا الجدول، أن المختار اعتمد على أغلب كتب العلماء الذين شكلوا أساس مدرسة التفسير بالمأثور. هذا النهج الذي شمل تفسير القرآن بالقرآن،[1] حيث ما أجمل في آية فسر في آية أخرى. وكذلك التفسير الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في سننه، وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، فهم أعلم الناس بتفسيره وتأويله، وما نقل عن التابعين.

ويأتي بآراء المفسرين كابن جرير، ومن سار على نهجه مثل السمرقندي في كتابه بحر العلوم، والثعلبي في تفسيره الكشف والبيان، وابن كثير، والبغوي في معالم التنزيل،

[1] ـ محمد إبراهيم عبد الرحمن، التفسير النبوي للقرآن الكريم وموقف المفسرين منه، دار المناهل بولاق القاهرة، ط 1995، ص: 61.

والسيوطي في الدر المنثور، والثعالبي في الجواهر الحسان. وقد درج هؤلاء على الإتيان بآراء التابعين في تفاسيرهم. والمختار يكثر من النقل عن هؤلاء، ويذكر مؤلفاتهم التي استقى منها مادته.

غير أن ما يعاب على المختار أثناء نقله عن رواد مدرسة التفسير بالمأثور هو وقوعه في الهفوات نفسها[1] التي سقط فيها أغلب رؤوس هذه المدرسة، كنقل بعض الأخبار المحرفة التي دسّها أعداء الإسلام، وكذلك نقل الكثير من الأقوال المنسوبة إلى الصحابة بغير إسناد مما أدى إلى اختلاط الصحيح بغيره، بالإضافة إلى ما رواه أصحاب المذاهب الباطلة، الذين وضعوا أحاديث ونسبوها زورا للنبي صلى الله عليه وسلم.

وفي المقابل لم يعتمد المختار على أراء أصحاب مدرسة الرأي إلا قليلا، ويبدو ذلك واضحا في أخذه عن القرطبي، والرازي في كتابه مفاتيح الغيب، والبيضاوي في كتابه أنوار التنزيل وأسرار التأويل، والخازن في مؤلفه لباب التأويل في معاني التنزيل. ولعل قلة أخذ المختار عن أصحاب هذه المدرسة، يرجع إلى السقطات التي وقع فيها أصحاب هذه المدرسة، خاصة ما تعلق بترك الحديث، والاعتماد على العقول وعلى وجه من وجوه اللغة، دون النظر لما روي من الحديث الصحيح، ولا إلى الوجه الآخر في اللغة.

ويظهر التأثر بالتفاسير الصوفية جليا، عند الاعتماد على آراء سهل بن عبد التستري في كتابه تفسير القرآن العظيم، وعلى حقائق التفسير للسلمي، وكذلك على كتاب الشيرازي عرائس البيان، والاستعانة بتخريجات القشيري، وأراء عبد الرحمان الثعالبي، الذي يعد أحد أبرز الوجوه الصوفية بالغرب الإسلامي.

[1] ـ محمد إبراهيم، التفسير النبوي، ص: 62.

واستعان كذلك بالجانب البلاغي للقرآن، ويتضح ذلك في اعتماده على تفسير الكشاف لجار الله الزمخشري، الذي يمثل هذا الاتجاه. كما اعتمد على أراء من أعرب القرآن، واستخرج معانيه، أو اعتمد في تفسيره على وجه من وجوه اللغة، ورجع في الفهم إلى لغة العرب واستعمالاتهم، ومنهم ابن مالك

منهج المختار في التفسير:

وفي تفسيره لا يقف المختار عند ذكر الروايات فقط، ولا تنتهي مهمته عند رصدها فحسب، وإنما تبدو فعاليته في اتجاهه إلى مرويات بعينها يجمعها حول الآية الواحدة، ومثاله الأعلى ابن جرير الطبري.[1] وفي الترجيح بين تلك الروايات، وتفضيل واحدة منها، أو الحكم بضعفها جميعا، والقول في الآية بما يراه في ضوء الوسائل المعينة على فهم النص القرآني كأسباب النزول، أو ما تعوَّد عليه العرب من كلامهم، أو الدلالة اللغوية للألفاظ في عصر النبوة.

ويستطيع من يقرأ مؤلفات[2] المختار في التفسير أن يتبين طريقته في التفسير، فعندما يفسر آية ما تجده يورد ما جاء فيها من التفسير المأثور، وإذا كان ثمة أقوال متعددة، فإنه لا يدع قولا منها، وإنما يأتي عليها ذاكرا في كل رأي ما ورد فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة، أو التابعين، ملتزما السند في كل ما يرويه.

وحين لا يثق المختار في الرواية، يرفضها رفضا حاسما، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذ تَقُولُ لِلَّذِي أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِ وَأَنعَمتَ عَلَيهِ﴾.[3] يصرح المختار: «وأما ما فسرها به بعض جهلة المفسرين، من وقوع محبتها في قلب النبي صلى الله عليه وسلم عندما رآها

---

[1] ـ الشحات السيد زغلول، من مناهج التفسير، دار المعرفة الجامعية السويس مصر، ط 1996، ص: 82.
[2] ـ خاصة كشف النقاب، والحجة الباهرة، وبذل الوسع.
[3] ـ الآية 37 سورة الأحزاب.

وإرادته طلاق زيد لها، ففيه من الحرج ما لا يليق بمنصبه عليه الصلاة والسلام».[1] وهي إشارة واضحة إلى أن الذين اقتحموا هذا التأويل، فقد فتحوا بابا عظيما من الإفك، والفتنة. على اعتبار أن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤيد بالعصمة، وطول حياته كان منشغلا بالأعمال الصالحة، ولم يلتفت للفانيات.

والشأن نفسه يلمسه الباحث حين يفسر قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِلغَيبِ حَافِظِينَ﴾.[2]

ويشير المختار أن قول السيوطي في تفسيره إنه اتهمهم، فغير مستقيم، «بل ولو اتهمهم، فإنه ليس بكاذب، ولا يقدح ذلك في منصبه»،[3] لأن الأنبياء يتهمون، ولا يقدح ذلك في مناصبهم، ولا يكونون في ذلك كاذبين.

الأعلام الذين اعتمد المختار أرائهم في التفسير:

أسماء الأعلام	المخطوطات التي ذكر فيها	عدد المسائل
ابن عباس	بذل الوسع، كشف النقاب، التذييل العادم المثيل، فتح الودود، نضار الذهب، نزهة الراوي.	246
الحسن البصري	فتح الودود، بذل الوسع.	31
قتادة	كشف النقاب، بذل الوسع.	14
عطاء	بذل الوسع، تفسير البسملة.	23
زين العابدين بن علي بن الحسين	لطائف القدسي، بذل الوسع.	04

[1] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ص: 457.
[2] ـ الآية 81 سورة يوسف.
[3] ـ المختار الكبير، بذل الوسع، ص: 29.

أسماء الأعلام	المخطوطات التي ذكر فيها	عدد المسائل
مجاهد	الذهب الإبريز، بذل الوسع.	21
السدي	كشف النقاب، بذل الوسع.	32
الضحاك	تفسير البسملة، بذل الوسع.	12
مقاتل	بذل الوسع، كشف النقاب.	41
سفيان بن عيينة	لطائف القدسي، بذل الوسع.	33
إبراهيم النخعي	كشف النقاب، بذل الوسع.	45

وأهم ما يتنبه إليه الباحث من خلال الجدول، أن المختار يكثر من الرواية عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. حتى لا تكاد تجد آية يفسرها المختار إلا ويذكر فيها قولا أو رواية له. وتميز ابن عباس بالفطنة والذكاء، وتبحر في علوم اللغة، وحفظ أقوال العرب وشعرهم، وهو ما جعله يحتل منزلته العلمية منذ عمر مبكر. غير أن البعض[1] يشكك في روايات كثيرة أضيفت إليه على عهد بني العباس.

وأخذ المختار بذلك كثيرا من الروايات الغريبة، التي تدل على أن مصدرها ليس هو القرآن، ولا الحديث، ولكن من الإسرائيليات، مما يقطع ــ إن صحت نسبة هذه الروايات لابن عباس ــ بأنه كان يستفيد ممن اسلم من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، في موضوعات من القرآن لا تتعلق بعقيدة، أو تكليف من التكاليف، فإن هذين: «لا يصح أن يلجأ فيهما إلى غير ما ورد في القرآن».[2] ولا يتصور أن ابن عباس كان يروي عنهم في هذا، لكنه كان يروي عنهم فيما يتعلق بالقصص التي جاءت في القرآن الكريم.

[1] ــ عبد المنعم النمر، علم التفسير، دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت، ط الأولى 1985، ص: 26.

[2] ــ المرجع نفسه، ص: 28.

ويزداد ولوع المختار وضوحا في اعتماده على الأخذ عن مدرسة مكة، التي يمثلها عبد الله بن عباس وعن تلاميذه خاصة مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح. وفي المقابل يأخذ المختار عن مدرسة العراق التي يمثلها سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأتباعه من بعده بالخصوص الحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي. وهذه المدرسة الأخيرة أقرت لمدرسة مكة بالتقديم، فالحسن البصري كان إذا قدم عكرمة البصرة، أمسك عن التفسير، والفتيا، ما دام عكرمة بها.

الفقه:

الفقه في اللغة هو الفهم، قال تعالى:﴿لهُم قُلُوبٌ لا يَفقَهُونَ بهَا﴾.[1] وفي الشرع العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسب من أدلتها التفصيلية، فلا يقال الفقيه إلا لمجتهد ولغيره مجاز. ولا بد من تخصيصه بما يتعلق بالفروع فهو مبين لأحكام أفعال المكلفين من طهارة وصلاة وصوم وحج ونكاح وطلاق وزكاة وبيع وإجارة وقتل وقصاص. قال الحجوي: «وطريق الضبط في فصل الخصومات بالفقه».[2]

وترك المختار الكبير، العديد من الكتب في الفقه منها: هداية الطلاب،[3] والذي قال عنه البرتلي: «... وهو مختصر في الفقه، وشرحه شرحا سماه: فتح الوهاب على شرح هداية الطلاب في أربعة أجزاء ضخام جدا، بحيث لو وسط لأتى في سبعة، أو نحوها».[4] ومن كتبه الفقهية كذلك: فقه الأعيان،[5] ونزهة الراوي وبغية الحاوي،[6] ونضار الذهب من

---

[1] - الآية 179، سورة الأعراف.

[2] - محمد بن الحسن الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة إدارة المعارف بالرباط، ط 1340 هـ، ج 1، ص:03.

[3] ـ توجد منه نسخة بمركز المختار الكبير بقاو جمهورية مالي.

[4] ـ فتح الشكور، ص: 152.

[5] ـ يوجد عند ولد الطالب ناجم بتاهقارت تمنراست.

[6] ـ يوجد عند فيلي موسى بوسط مدينة تمنراست.

كل فن منتخب.[1] وله مختصر في الفقه.[2] وبعض هذه الكتب تضم فصولا فقهية طويلة، بالإضافة إلى علوم أخرى.

أسباب تمسك سكان أزواد بالمذهب المالكي:

- انتماء الإمام مالك بن أنس للمدينة المنورة، والمدينة لها رمزية كبيرة في حياة المؤمنين.

- أن رحلة سكان أزواد كانت ــ غالبا ــ إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، خاصة ركب الحج. والمدينة دار العلم، ولم يكن العراق في طريقهم، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة.

- وشكل استقرار بعض أئمة المالكية في الغرب الإسلامي، حافزا للأخذ بهذا المذهب.[3] وبلاد المغرب، أقرب الحواضر الإسلامية لأزواد.

- والمذهب المالكي لا يقوم على الرأي، والقياس، بقدر ما يقوم على النص، والنقل، وعلى الأثر، والرواية. هذا بالإضافة إلى واقعيته القائمة على اعتماد عمل أهل المدينة، باعتباره نوعا من الإجماع.[4] فهو بهذا يميل إلى البساطة، واليسر، وإلى السهولة، والوضوح، وإلى الواقعية، والعمل الملموس. هذه الطبيعة كانت توافق طبائع سكان أزواد، والصحراء،[5] لذا لم يجدوا عنتا كبيرا في إقراره، والعمل به.

---

[1] ــ يوجد بخزانة الطالب التهامي بأركشاش في أقبلي.

[2] ــ قال عنه ابن مخلوف أنه ضاهى به مختصر خليل. ينظر: ابن مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 377.

[3] - محمد محمود عبد الله بن بيه، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، دار الأندلس الخضراء جدة ودار ابن حزم بيروت، ط الأولى 2000، ص: 100.

[4] - عياض، ترتيب المدارك، تحقيق مجموعة من الباحثين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية الرباط، ط 1968، ج 1، ص: 47.

[5] ــ أدى علماء قبيلة نفزة البربرية دروا كبيرا في تعميق المذهب المالكي في المغرب والأندلس خاصة إذا علمنا أن يحي بن يحي الليثي منها وابن أبي زيد القيرواني، وأول من نزل منهم بالصحراء في القرن الخامس الهجري هو محمد الصديق بناني حيث توغل داخل الصحراء إلى السودان. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية، ج 1، ص: 191.

3ـ المصادر المالكية المعتمدة:

كان الحديث عن الكتب المعتمدة في الفقه المالكي قليلا بأزواد، بسبب شفهية التعليم التقليدي المتاح في المحضرة. وبالتالي تسلسله بالرواية جيلا يأخذه عن جيل، إذ ليس بمستطاع المقلد أن يفيد من الكتب بنفسه، دون المرور بشيخ يأخذها عنه بالسماع والمشافهة. هذا بالإضافة إلى ندرة الكتب، وصعوبة التحصل عليها، وما يستتبع ذلك من حرص على اقتناء ما وجد منها وأتيح، مهما كان مصدره، ومعتمده. وبالرغم من ذلك، فقد ظلت ترتفع بين الحين والآخر، نقاشات داخل صفوف الفقهاء، يعرضون فيها لهذه المسألة كلما دار خلاف حول نازلة فقهية ما فتعقدت ملابستها وقرائنها، وتعددت فيها الآراء، والفتاوى. ونظم المختار الكتب التي اعتمدها في فترته، لمذهب الإمام مالك في مقطوعة شعرية،[1] عبَّر فيها عن همومه الفقهية:

وإن تبتغي إتقان مذهب مالك ... فنَّص الموطأ حققه وانتسب

ومن بعده جاءت فروع كثيرة ... واتقنها اختصار نجل الذي حجب

وانفعُها نصُّ الرسالة قبله ... ونصُّ خليل جاء بالدرِّ والخشب

طوى القولَ منهم وانتقى الحقَّ مذهبا ... ولكن قصب السبق من كلِّهم سَلَب

يشير المختار في أبياته إلى أن الأصل الأول ــ من الكتب المعتمدة ــ في فقه مالك هو الموطأ، وقد وضعت كتب أخرى كثيرة مثل: مختصر ابن الحاجب.[2] ومن أهم الكتب المعتمدة هي الرسالة لابن أبي زيد القيرواني،[3] وهذه الرسالة استهلها صاحبها

---

[1] ــ المختار الكبير، الأجوبة، و24 ظ.

[2] ــ ابن الحاجب: هو عثمان بن عمر بن الحاجب، صاحب المختصرين العجيبين وغيرهما. وهو فقيه، محصل، مدرك، توفي سنة 647 هـ / 1249 م. ينظر: محمد حجي، ألف سنة من الوفيات، ص: 71.

[3] ــ ابن أبي زيد القيرواني: هو محمد بن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة، وهو فقيه متبحر له مؤلفات كثيرة منها: كتاب النوادر على المدونة وهو أزيد من مائة جزء وهو يضم نحو خمسين ألف مسألة. ومختصر المدونة وعليه المعول في المذهب. وتوفي سنة 355 هـ. عن ست وثمانين سنة ودفن بداره بالقيروان. ينظر: محمد النابغة الغلاوي، بوطليحية، ص: 98.

بمقدمة في العقيدة، ورتبها على أبواب الفقه الواردة في المدونة، وختمها بباب جامع ضمنه مباحث في الأخلاق والسلوك. وأشار المختار إلى أن مختصر خليل[1] له مكانة خاصة وكبيرة في المذهب، على اعتبار أن صاحبه التزم فيه على الأقوال الراجحة والمشهورة. وقد أشار أحمد بابا إلى المختصر بقوله: «حتى لقد آل الحال في هذه الأزمنة المتأخرة، إلى الاقتصار على المختصر في هذه البلاد المغربية».[2]

اصطلاحات فقهية ينبه لها المختار:

ينبه المختار تلامذته إلى اصطلاحات رآها هامة في مذهب الإمام مالك، خاصة تلك التي جاءت عند بعض رواد المدرسة المالكية في المغرب، والأندلس. ويشير إلى أن ابن عبد البر،[3] إذا صرح[4] بانعقاد الإجماع في مسألة، فهو يريد المشهور، وذلك لأن إجماعياته غير معتبرة. والمعنى المقصود هو أن ابن عبد البر إذا ذكر الإجماع، فهو في العادة ما عليه الجمهور من الفقهاء. وكذلك الشأن بالنسبة لابن رشد،[5] فإذا حكى الاتفاق، فهو ــ في العادة ــ يعني المشهور.[6]

---

[1] ــ خليل بن إسحاق: هو خليل بن إسحاق بن يعقوب المالكي الكردي، كان رجلا صالحا فاضلا زاهدا عالما عاملا. وله مختصر في الفقه المالكي أجاد فيه كل الإجادة، وأكبَّ الناس على فهمه وحفظه. وتوفي سنة 727 هـ / 1326 م. ينظر: أحمد بن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة والمكتبة العتيقة تونس، ط 1970، ج 1، ص ص: 257 ــ 258.

[2] ــ أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج 1، ص: 58.

[3] ــ ابن عبد البر: هو يوسف بن عبد الله بن محمد ين عبد البر بن عاصم القرطبي، عارف بالرجال والأنساب ومقرئ نحوي. ولد بقرطبة عام 368 هـ / 978 م، وروى عن حلف بن القاسم وعبد الله بن أسد. وتولى قضاء لشبونة. وله مؤلفات كثيرة منها: الاستيعاب، وتحرير التمهيد، والكافي في فقه أهل المدينة. وتوفي سنة 463 هـ / 1070 م بشاطبة شرقي الأندلس. ينظر: الغلاوي، بوطليحية، ص:96.

[4] ــ المختار الكبير، فقه الأعيان، ج 1، و67 ظ.

[5] ــ ابن رشد: هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (455 ــ 520 هـ/ 1063 ــ 1126 م)، الإمام العالم المحقق المعروف بابن رشد من حفاظ المذهب المالكي. تفقه على يد ابن رزق وكان عليه اعتماده، وسمع من الجياني وأبي عبد الله بن فرج وابن أبي العافية الجوهري. وأخذ عنه ابنه أحمد وكذا القاضي عياض ومحمد بن سعادة وغيرهم. وله العديد من المؤلفات منها: المقدمات، والبيان والتحصيل، والفتاوى. ينظر: حجي، ألف سنة من الوفيات، ص: 60.

[6] ــ المختار الكبير، الوثائق، مخطوط الطالب التهامي بأقبلي أولف، رقم 47، و8 ظ.

ويصرح المختار أن خلافيات الباجي[1] لا يعتد بها، على اعتبار أنه غالبا ما يذكر حكما مختلفا فيه، وهو غير مختلف فيه.[2] ولذلك فالخلافيات التي يذكرها، غير معتبرة. وبيّن الشيخ زروق،[3] بأن الشيوخ حذروا من إجماعات ابن عبد البر، واتفاقات ابن رشد، وخلافيات الباجي، فإنه يحكي الخلاف فيما قال اللخمي[4] يختلف فيه.[5] ومن الذين تناولوا هذه المسألة أيضا الونشريسي،[6] الذي لمح إلى تلك المسائل في معياره. كما تعرض لها الغلاوي[7] في منظومته:

---

[1] ـ الباجي: هو أبو الوليد سليمان بن خلف التميمي (403 ـ 473 هـ/ 1012 ـ 1080 م)، فقيه وحافظ، أخذ عن أبي الأصبغ وابن شاكر ومحمد بن إسماعيل وأبي محمد المكي. وأخذ عنه الخطيب أبو بكر وابن عبد البر وهما أسن منه. وتفقه به جماعة منهم: ابنه أحمد وأبو عبد الله الحميدي وأبو بكر الطرطوشي. وكانت بينه وبين ابن حزم مناورات ومجالس وهي مدونة. ومن مؤلفاته: مختصر المختصر في مسائل المدونة، والاستيفاء شرح الموطأ. ينظر: حجي، ألف سنة من الوفيات، ص: 57.

[2] ـ المختار الكبير، التذييل الجليل العادم المثيل، و89 و.

[3] ـ زروق: أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البُرنُسي الولي الصالح، أخذ عن الإمام القوري، وعن جماعة، حسبما في فهرسته. توفي سنة 899 هـ /1493 م بإزليتن قرب طرابلس، وقبره مزار هناك. ينظر: ابن القاضي، درة الحجال، ج 1، ص ص: 90 ـ 91.

[4] ـ اللخمي: هو أبو الحسن علي بن محمد الربعي، رئيس الفقهاء في وقته وإليه الرحلة. تفقه بابن محرز، والسيوري، والتونسي. وبه تفقح جماعة منهم الإمام المازري، وأبو الفضل بن النحوي، وأبو علي الكلاعي، وغيرهم. له تعليق على المدونة، سماه: التبصرة، مشهور معتمد في المذهب المالكي. توفي سنة 478 هـ / 1085 م. ينظر: ابن مخلوف، شجرة النور الزكية، ج 1، ص: 117.

[5] ـ الحطاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، مطبعة دار السعادة مصر، ط 1328 هـ، ج1، ص:4.

[6] ـ الونشريسي: هو أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي التلمساني، نزل بفاس عام 874 هـ / 1469 م، وكان قبل ذلك قد أخذ عن أبي الفضل العقباني وولده أبي سالم العقباني وأبي عبد الله جلاب وابن مرزوق الكفيف. له تعليق على ابن الحاجب الفرعي، وكتاب القواعد في الفقه. وأشهر كتبه هو المعيار المعرب. وتوفي سنة 914 هـ / 1508 م. ينظر: محمد حجي، ألف سنة، ص: 264.

[7] ـ الغلاوي: هو محمد النابغة بن عبد الرحمن بن عمر الغلاوي، من مواليد العقد السابع من القرن 12 هـ / 18 م، أخذ عن خاله عبد الله بن الحاج حماد الله، وعن والده، وعن الشيخ أحمد بن العاقل. وقد طبع حياته الحل والترحال أملا في التحصيل والاستزادة والارتواء. وله منظومات منها: العدة في أحكام الردة، وبوطليحية، التندغية أو ذاتالوليين، والأزهري في عبادات الأخضري، والمباشر شرح ابن عاشر. وتوفي سنة 1245 هـ / 1828 م. ينظر: الغلاوي، المصدر السابق. ص ص: 24 ـ 40.

وحذّر الشيوخ من إجماع عن ابن عبد البر في السماع
وحذروا أيضا من اتّفاق عن ابن رشد عالم الآفاق
لكن أقلُّ ذلك الجمهور كما أقلَّ ذا هو المشهور
وحذروا منَ الخلافيات أي ما منَ الباجي منها ياتي[1]

التمذهب ورفضه:

وجرى نقاش ساخن بين العلماء في أزواد، وبلاد شنقيط، حول التمسك بالمذهب، فذهب بعضهم إلى أن الحق لا يكون إلا بالرجوع إلى الكتاب، والسنة. بينما تمسك آخرون بالمذهب، باعتباره الوسيلة لفهم القرآن، والسنة. ومن المتمسكين بالمذهب المالكي محمد المامي،[2] ومحمذن فال بن متالي،[3] وكان رأيهم بأن العمل بظاهر نصوص القرآن، والسنة، لا يجوز إلا للمجتهد. ودعا المامي إلى إقامة الحدود، وتنصيب الإمام الأعظم، وفتح باب الاجتهاد. ووقف المختار موقفا وسطا بين الفريقين، وأشار إلى ذلك في قوله:

قبضت على ديني بهدي رسولي تمسكت بالأصلين آياً وسنة
على أني والحمد لله لم أكن فما هو إلا جامع المذهب الذي
وتلك لعمري حجتي ودليلي فلم أك أصغي فيهما لعذول
لأترك بين الناس نص خليل نهاه إلى الأصلين كل نبيل[4]

وكما هو ملاحظ فإن المختار يشيد بالأصول وهي القرآن، والسنة. على اعتبار أن القرآن هو عمدة الملة، وكلي الشريعة وأصل أدلتها. والسنة هي المصدر الشرعي الثاني

---

[1] ـ النابغة الغلاوي، بوطليحية، ص:97.

[2] ـ محمد المامي: هو محمد المامي بن البخاري من قبيلة أهل باركله ولد عام 1206 هـ / 1791 م، وتوفي سنة 1282هـ / 1865 م. عالم ضليع وشاعر متصوف، بلغت مؤلفاته المئين في شتى العلوم، ومن مؤلفاته: كتاب البادية، وجمان البادية، والدلفينية، وله فتاوى متفرقة. ينظر: النابغة الغلاوي، المصدر السابق، ص: 18.

[3] ـ محمذن فال بن متالي: هو عالم جليل وصالح نبيل، أذعنت العلماء لعلمه، وتضلع كثير من طلبة الزوايا من معينه، وصار حرما آمنا يفر إليه الخائف فيؤمنه. وهو من شعراء تندغ الكبار. وتوفي في عجز القرن الثالث عشر، وقد عمّر طويلا. ينظر: ابن الأمين، الوسيط، ص ص: 343 ـ 345.

[4] ـ المختار الكبير، هداية الطلاب، و68 ظ.

بعده، وهي مكملة له في بيان الأحكام. ثم يذكر مختصر خليل بن إسحاق، وهو أحد أهم المصادر المالكية، ولا يخفى الاعتناء الكبير الذي أظهره علماء أزواد بهذا المختصر، فوضعوا عليه العديد من الشروح، والمختصرات.

ورفض أحد أبرز الوجوه العلمية في شرق أزواد، وهو المجيدري[1] مبدأ التمذهب في الفقه، وشنّع على من يمدح الخلاف وذهب إلى أن كل مجتهد في الفروع مصيب، والاختلاف بين العلماء رحمة، ووبخ الذين قالوا بأن تقليد العلماء يؤدي إلى السلامة. معتبرا هذه المأثورات، مناقضة لصريح النص القرآني. وخاطب علماء عصره، بنبرة لا تخلو من حدة: «وأما تعصبكم في فروع الدين، وحملكم الناس على مذهب واحد، فهو الذي لا يقبله الله منكم، ولا يحملكم عليه إلا محض التعصب، والتحاسد. ولو أن الشافعي، وأبا حنيفة، ومالكا، وأحمد، أحياء يرزقون لشددوا النكير عليكم، وتبرءوا منكم فيما تفعلون».[2] وفي أسئلته كثير من الإشكالات مثل: استغرابه تحريم الانتقال من مذهب إلى مذهب آخر، بل ما وجه تحريم تقليد الأئمة الأربعة دفعة واحدة، فيقلد هذا في مسألة وتقلد ذاك في الأخرى.

---

[1] ـ محمد المجيدري: هو محمد بن حبيب الله ـ وقد يسمى حب الله ـ بن الفاضل اليعقوبي الشمشوي. نشأ في وسط علمي، إذ كان خاله الذي كفله من كبار العلماء، وكان أخوه أحمد لغويا، ضليعا. ومن أوائل شيوخه ابن بونا الجكاني، ثم تاقت نفسه إلى التصوف فأخذ عن الشيخ أحمد محمود، نجل الفقيه الخطاط وخليفته، في تدريس العلوم وبث أوراد الطريقة الشاذلية الناصرية. ثم أعمل الرحلة ـ بعد أن تضلع في علوم بلده ـ إلى حواضر المغرب الأقصى، ومصر، والحجاز. وكانت له في كل هذه المناطق صلات علمية، نجد لها صدى في بعض الكتب، والدواوين، وفي أغلبها إشادة بنبوغه في العلم، والحفظ. ففي مدينة فاس، كانت له صلات وثيقة بالسلطان العلوي محمد بن عبد الله. ومن أشهر الأخذين عنه في مدينة فاس، أحمد بن إدريس الحسني، الذي سيصبح ذا شأن كبير. وقد عاد المجيدري إلى بلده، داعيا إلى العودة إلى الأصلين: القرآن، والحديث، والاقتصار عليهما. ونبذ فقه الفروع، وعلم الكلام الأشعري، فأثارت دعوته ضجة فكرية عظيمة. توفي 1204 هـ / 1790 م. ينظر: ابن الأمين، الوسيط، ص ص: 214 ـ 216.

[2] ـ ددود ولد عبد الله ولد الهاشم، «جوانب من الصراع الفكري في بلاد شنقيط خلال القرن الثاني عشر /18 م»، ص: 67.

وكانت هذه الدعوة الصارخة للمجيدري، سببا في رد[1] المختار الكبير عليه بعد رفضه التمذهب في الفقه، قال المختار الكنتي: «... وقد بلغني أن ابن حب الله،[2] طعن في مالك بن أنس إمام الأئمة،[3] وعالم دار الهجرة، وحامل لواء السنة، وزعم أنه إنما يأتي بالأقاويل الظنية كسائر المجتهدين من جميع الأئمة، وليس كذلك».[4]

ويستطرد المختار على إيراد المجيدري آيات النهي عن الاختلاف، معتبرا تأويل الآيات لتوجيهها إلى الحث على الالتزام بمذهب واحد، ووصايا إمام واحد، جنوحا إلى مذهب الروافض من الشيعة. وعلى العكس من هذا المنزع الأحادي، فإن المختار يرى وجوب الثناء على جميع السلف الصالح[5] من العلماء، واعتقاد أفضلية الخلفاء الأربعة، وأنهم على بصيرة من ربهم ولو اختلفت مذاهبهم.

وأما التقليد المذموم فهو الذي يعني الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وهذا ممنوع في الشريعة. ويكون الإتباع أولى، لأنه الرجوع إلى قول الدليل والحجة. والإتباع في الدين جائز، ومسوغ. واعتبر البعض أن التقليد بدون دليل شر وفساد، وصاحبه لا فرق بينه وبين البهيمة، حيث قال:

---

[1] ـ وهناك من ناصروا المجيدري منهم: بداه بن البصيري التندغي في كتابه القول السديد في الرد على أهل التقليد، ومحمد المامي الشمشموي في قصيدته الزعفرانية التي اختصر فيها مذهب المجيدري، ومحمد بدر الدين بن عمار السمسدي في كتاب ذم التقليد. ينظر:

KANE (O), l'enseignemet islamique dans les Dans Les mederasas du mali, éditions jamana Bamako., 1991 .p . 97.

[2] ـ وهو لقب المجيدري.

[3] ـ وانبرى للدفاع عن الإمام مالك ومذهبه والرد على المجيدري، مجموعة من الفقهاء من أزواد أهمهم: البشير بن أمباركي اليدمسي، في كتابه الدفع عن مالك. وعبد الله بن الحاج حماه الله الغلاوي في منظومته التي سماها: الرد على المجيدري اليعقوبي. ينظر: محمد المختار ولد أبّاه، دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا. ص: 105.

[4] ـ المختار الكبير، جذوة الأنوار، و 106 ظ.

[5] ـ هذا المسلك اتبعه بعض العلماء بأزواد منهم: ألب بن عبدي بن الجيد الغلاوي في كتاب المقلد والمجتهد، وماء العينين القلقمي في كتاب أحكام التقليد، ومحمد بن محمد النابغة التندغي الذي وضع مكتوب في حكم الاجتهاد والتقليد. ينظر:

KANE (O), Op. Cit. p.95.

لا فرق بين مقلد وبهيمة تنقاد بين جنادل ودعاثر[1]

ويشنّ المختار الكبير حملة على فقهاء عصره، الذين اقتصروا على المختصرات الفقهية، واكتفوا بها عن الأصول والأمهات. فهو لا يعتد بهم إذ حبَّسوا أنفسهم في دائرة المختصرات والتعليقات، ولا يطمئن إلى ما يجترونه من سفاسف وترهات، ويعتبرهم آفة على العلم وخطرا عليه، وكان يقول ويردد: «من لم يثبت على دعيمة أصل، تلاعبت به أقوال المذاهب».[2] وله في ذلك قصيدة طويلة، توضح منهجه العلمي، وطريقته في استنباط الأحكام، يقول في بعض أبياتها:

وإياك ترضى باقتناص فروعها بغير ارتشاف من مشاربها العذب
فإن الأصول كالقواعد تقتضي طمأنينة للقلب والنجح بلا ريب
ومن يترك القرآن نسيا وراءه فقد زلَّ في التمثيل عن ناجح الرتب
ومن حاد عن نص الحديث سفاهة فقد أبدل الجياد بالحمر الحدب
ولا تقف ما لست تعلم إنه ضلال وإضلال وداهية تشب
وثق بكتاب الله والسنة التي أتت عن رسول الله والعكس فاجتنب[3]

وقوله (ضلال وإضلال). يشير إلى المقولة المتداولة عند الفقهاء: «الجمود على النصوص ضلال وإضلال».[4] على اعتبار أن الجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف. والضلال هو العدول عن الطريق المستقيم، أما الإضلال فهو صرف الناس عن الهدى إلى الضلال.

---

[1] ـ ابن عبد البر، جامع بيان العلم، ج 2، ص: 140.
[2] ـ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، ص: 228.
[3] ـ المختار الكبير، قصائد مجموعة، بخزانة بيت العود بأقبلي، دون رقم، و 12 ظ.
[4] ـ عبد الله بن الحاج إبراهيم، نشر البنود على مراقي السعود، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ط 1977، ج 2، ص: 272.

وينبّه المختار إلى مسألة علماء السوء، وينعتهم بجهلة القلوب فهم يدعون إلى الضلالة بأقوالهم، وأفعالهم. لأن أهواؤهم مالت بهم إلى ترك العمل بما علموا. وأخطر ما في هذا الأمر أن الجُهَّال يغترون بأفعال هؤلاء، وربما قالوا: لم يفعلوا ذلك إلا لعلم عندهم لم يبلغنا! فيكنون أشد في الضلالة من الجُهَّال. وربما يحملهم الغرور على الفتوى بالشاذ، وارتكاب التأويلات البعيدة، حبا في منصب أو رياسة، أو طمعا في أمر دنيوي ينالونه. فيكون الواحد منهم: «قد اقتحم بابا من أبواب السحت بعد إضلاله المقتدي والمستفتي؛ فيضل المقتدي به بحيث لا يعلم فيكون مُستَدرَجاً ومُستَدرجاً».[1] وهذا أمر غاية في الخطورة، لأن العالم مهمته تبيين الحق من الباطل، وخاصة الفقهاء حماة الشريعة الذين يفتون الناس في أمورهم المتعلقة بالعبادات والمعاملات. ولا يصلح للإفتاء إلا من كان عرفا به حيث يفتي بما يليق، وإلا هلك من أفتاه في الغالب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يذهب العلماء الأول فالأول، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهلة فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا).[2]

4ـ القضايا الفقهية التي اهتم بها المختار:

إن القضايا التي تناولها المختار عديدة ومتنوعة، فمنها السياسي، والاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي، هذا الأخير الذي أولاه أهمية خاصة، بسبب البيئة التي كان يعيش فيها. وسأتناول من خلال الجدول التالي المسائل الاقتصادية، التي أفتى بها المختار في أحد أبرز كتبه وهو فقه الأعيان.

---

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 361.

[2] ـ حديث متفق عليه، ولفظه عند البخاري: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فأفتوا بغي علم فضلوا وأضلوا). كتاب العلم ـ باب كيف يقبض العلم.

موضوع الفتوى	عددها
البيوع وما يتعلق بها	126
السلم	24
القيم وأنواعها	23
القرض	23
الضمان	22
الإجارة والكراء	31
الشركة	17
الربا	24
المداراة	26
الزكاة	56
الحبس والأوقاف	67

ويتضح من هذا الجدول أن الإشكالات المتعلقة بالمعاملات التجارية، هي أهم القضايا الاقتصادية المثارة. وإذا ما اقتصر الباحث على الفتاوى الواردة بهذا الجدول، فإن القضايا التعبدية ذات الطابع الاقتصادي، لا تتجاوز نسبة 23 %، مما يؤكد أن المعاملات، كانت تطرح على المجتمع من المشكلات أكثر مما يطرحه غيرها. أما إذا أخذنا كل قضية على حدة، فإن البيوع تتصدر هذه القائمة (126 فتوى)، وتأتي الأحباس في الدرجة الثانية (67 فتوى)، والإجارة، والمداراة، والسَّلم، في مستوى واحد. وكاد عدد الفتاوى المتعلقة بالقيم، والقرض، والضمان، أن يتكافأ.

وعلى الصعيد الاجتماعي، فإن الجدول التالي يبين أهم الإشكالات الاجتماعية، المطروحة على المختار، بوصفها نتائج لممارسات المجتمع، ونظام القيم السائدة به والذهنية الغالبة:

موضوع الفتوى	عددها
الزواج وما يتعلق به	168
الطلاق	99
العتق والولاء	80
المغارم	65
الفداء	64
وضعية الرقيق	66
استغراق الذمة والنظرة إلى بني حسان	78
قضايا الزوايا	126
الجنايات	77
القضاء والتقاضي	92
الصدقة والهبة	73

ويمكن بوجه عام أن يقسم الباحث القضايا الاجتماعية الواردة في هذا الجدول، تبعا لحضورها في مدونة المختار الفقهية، إلى محاور ثلاثة وهي:

ـ الأنكحة، أو ما يقع بين الرجل، والمرأة، في حالة الزواج والطلاق.

ـ الممارسات الاجتماعية ذات العلاقة بالزوايا.

ـ العلاقات بين الفئات الاجتماعية.

ويبدو أن المحور الأول، قد شكل المشغل الاجتماعي الأساس في حياة الناس بأزواد آنذاك، باستحواذه على نسبة 46 %. وتعكس تفاعل النصوص الشرعية مع الواقع المعاش، بنظمه العرفية السائدة، وشبكات بناه القرابية، والفئوية، بمستوياتها المختلفة.

ومثل الزواج نسبة 74 % من فتاوى الأنكحة، بينما أخذ الطلاق نسبة 26 %. وهو ما يشكل مؤشرا على أن تفشي هذه الظاهرة، في المجتمع إذ ذاك كان محدودا نسبيا، وأن الحياة الأسرية تتسم بنوع من الاستقرار.

وتمثل الممارسات الاجتماعية ذات العلاقة بالزوايا، المنزلة الثانية من الناحية الكمية. وينبغي التنبيه أن الفتاوى المتعلقة بالزوايا أو المحاضر عرفت ازديادا كبيرا، لأن ظاهرة التصوف حققت انتشارا أفقيا لم يسبق له مثيل في أزواد، وأن تلك الفتاوى صادرة عن الشيخ المختار الذي كان رائدا للقادرية في زمانه.

أما محور العلاقات بين الفئات الاجتماعية فقد اشتمل على نسبة 15 % من مجموع الفتاوى الاجتماعية، منها 80 مكرسة لإشكالات العتق والولاء، و78 خاصة باستغراق الذمة ونظرة الزوايا إلى بني حسان، و66 بالرقيق ووضعيته الشرعية في المجتمع، و65 بالمغارم، و64 بظاهرة الفداء.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا إشكالات العتق والولاء والرقيق أخذت كل ذلك الاهتمام؟ أما فيما يخص العتق والولاء، فإن منظومة القيم الاجتماعية المحلية، تضع أصحاب هذه الفئة في المنزلة السفلى من السلم الاجتماعي بحكم تقدم الرق عليهم.

وقد شكلت هذه الفئة، بحكم وزنها العددي الكبير بالمنطقة، وكونها القوى الإنتاجية الأساس في المجتمع. وعلى الرغم من المكانة الاجتماعية السامية التي يمنحهم الشرع إياها، فإن وضعهم سار في الاتجاه السلبي، بسبب تحكم سلطان العادة ونزعة الفئات الجائرة في مجتمع السيبة، وذلك تكريس عقلية التبعية.

ويبدو من فتاوى المختار أن تلك التجاوزات قد طالت مختلف أوجه الاستفادة من أموال الموالي(التصرف فيها تصرف المالك في ملكه، المغارم، الزكاة، الهبات) وحاولت أحيانا التشكيك في وضعيتهم الشرعية، والنيل من كفاءتهم الاجتماعية.

واتصفت أجوبة المختار التي عالجت أحكام الولاء بوجه عام، والعلاقة بين المولِيين الأعلى والأسفل بوجه خاص،[1] بالإنصاف وشدة النكير على السلوكات المخافة لصريح الشرع في هذا المجال.

وبينت تلك النوازل أن الولاء بالعتاقة كالولاء بالنسب، يمنح أصحابه ــ نظريا على الأقل ــ الحقوق نفسها ويحملهم الواجبات نفسها بصفة متكافئة، نافية بذلك أية صبغة شرعية عن الممارسات الاجتماعية، التي تسعى جاهدة إلى أن تجعل من المولى (الحرطاني)[2] مصدر منفعة اقتصادية جارية ثمرة لمنة العتق.

ويبدو من تعدد فتاوى المختار حول هذه المسألة، أن العلاقة بين المولِيين قد طرحت بإلحاح في تلك الفترة، وأن الجدل بشأنها تمحور ــ أساسا ــ حول الجانب المادي منها، كتصرف المولى الأعلى في ممتلكات المولى الأسفل، واستئثاره بزكواته وإتاواته ومختلف هباته.

ويطرح اختلاف ولاء الأبوين ــ أحيانا ــ إشكال ولاء الأبناء لا سيما مع حصول ريبة شرعية في علاقة الأبوين الزوجية، إما بحكم التساهل في مراعاة القواعد الشرعية أو لميل بعض الفقهاء إلى الطعن في درجة تقيد العوام والموالي منهم خاصة بالسلوك

---

[1] ــ المولى الأعلى هو معتق العبد، أما المولى الأسفل فهو العتيق. ينظر: محمد بن جزي الكلبي، القوانين الفقهية، دار الكتاب العربي بيروت، ط الثانية 1989، ص: 373.

[2] ــ تناول المختار هذه الكلمة في مؤلفاته بمعنى الحر الثاني، غير أن هناك تخمينات كثيرة حول اشتقاقها منها: نوع من الرطب يدعى أحرطان، وهناك من يقول أنها من أحرضان بالأمازيغية وتعني الهجين، وما أميل إليه أنها مشتقة من الحراثة، كون هذه الفئة كانت في الأساس تشتغل بحراثة الأرض، فغلبت عليها هذه التسمية. ولمزيد من التفصيل حول الحراطين ينظر:

LERICHE (A) . les Haratin . Bul, de I. R. S. Alger., n° 6, 1951. p p. 46 – 56.

الديني لا سيما إذا كان أولئك الأتباع من أهل البادية التي يعتبر فقهاء الأمصار عادة أن الأحكام الشرعية لا تنالهم.

أما فيما يخص الرقيق أو العبيد، فإن أغلب الفتاوى التي تناولتهم تعرضت لبيان الحدود الشرعية لواجبات، وحقوق الأرقاء، والتشهير بالتجاوزات في معاملاتهم. أما الأهلية الشرعية التي تعكس إلى حد ما نظرة الأسياد الاجتماعية إليهم، فقد عولجت بصفة محدودة نسبيا كإشكال فقهي من قبل المختار، نظرا لكون التابع لا حكم له، لا سيما من جعل الشرع زمامه بيد غيره. وتمحورت تلك المعالجات حول إمامة العبد، وشهادته، وحقه في التعامل التجاري، أو ما تطلق عليه الكتب الفقهية اصطلاح(العبد المأذون).

إمامة العبد:

لم تنص المصادر الفقهية على الحرية كشرط من شروط الإمامة، إلا في الجمعة عند مالك،[1] وأحمد بن حنبل، المعتمدين لحديث طارق بن شهاب، في حين جوّز أبو حنيفة، والشافعي، إمامة العبد والمسافر في الجمعة.

والملاحظ أن فتاوى المختار بهذا الخصوص قليلة بل نادرة (فتوى واحدة). وقد يكون مرد ذلك إلى العوائق العرفية التي تحول بين العبيد، وبين الاضطلاع بإمامة الصلاة. ويظهر أن بعض أفراد هذه الفئة، وإن استوفى الشروط الفقهية لتقلد ذلك المنصب الشرعي الجليل، لم ينصفه الواقع الاجتماعي تماما وإن منحه حقه الشرعي.

وبذلك تظل أهلية العبد الشرعية ناقصة، ما دام لا يُرغب فيه راتبا لفرض، ويُمنع إماما في جمعة. ولا يطال هذا النقص في الكفاءة الشرعية مسألة الإمامة ذات البعد الديني والاجتماعي الرمزي فحسب، وإنما تعداها إلى حد الإدلاء بشهادة معتبرة شرعا، لأن ما يقدح في الإمامة يقدح في الشهادة.

---

[1] ـ وكرّه إمام دار الهجرة أن يكون العبد راتبا خلافا لأصحاب المذاهب الأخرى. ينظر: محمد بن جزي الكلبي، المصدر السابق، ص: 69.

تصرفات العبد المأذون:

كثرت الفتاوى المتعلقة بهذه المسألة وبتبعاتها المادية، مما يوحي باضطرادها كممارسة اجتماعية تولدت عنها نوازل فقهية بشأن حدود تصرفه المادي، وحق سيده فيما بيده، ومسؤولية كل من السيد، والعبد، المدنية تجاه الغرماء.[1] ويبدو أن إعطاء حق التصرف في التجارة من بيع، وشراء، قد شاع في عموم أزواد، ولم يكن ــ بالتالي ــ مقصورا على جهة دون سواها. وكان لوضعية العبد المأذون أهميتها بحكم ما تمنحه لهؤلاء العبيد من هامش للتحرك، وحرية التصرف فيما بأيديهم من أموال. والشرع[2] جوّز لهم التصرف في كل ما يدخل في التجارة.

التدبير:

والتدبير عتق معلّق، بالممات ويثبت بصيغة: أنت حر عن دبر مني أو بعد موتي، أو إن متُّ فأنت حر. لا بقوله: «أنت بعد موتي بيوم، أو إن متّ فعبدي فلان حر فوصية تبدأ بالثلث».[3] والمختار يشير هنا إلى مسألة هامة وهي الفرق بين التدبير والوصية بالعتق، لأن التدبير ليس للسيد أن يتراجع فيه،[4] بخلاف الوصية بالعتق فله الرجوع فيها. أما الثلث[5] الذي ذكره فقصد به أن السيد إذا مات وترك مدبرا قيمته عشرون دينارا، وترك معها أربعين دينارا فتركته ستون دينارا، أعتق جميع المدبر لأن قيمته ثلث التركة. وقال المختار بعد ذلك: «وصحَّ بشرط التكليف».[6] ويريد بالتكليف هنا أن من شروط

---

[1] ــ محمد جمعة عبد الله، الكواكب الدّرية في فقه المالكية، دار التوفيق النموذجية القاهرة، ط 1993، ج 3، ص: 162.

[2] ــ ابن جزي، المصدر السابق، ص: 286.

[3] ــ المختار الكبير، هداية الطلاب، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: 372 د، ص: 147.

[4] ــ ابن جزي، المصدر السابق، ص: 376.

[5] ــ حول هذه المسألة ينظر: عبد الوهاب بن علي بن نصر، المعونة على مذهب عالم المدينة، ج 2، ص: 396.

[6] ــ المختار الكبير، المصدر السابق، ص، 147.

التدبير، كون المالك غير محجور عليه. وإلى ذلك أشار خليل: «تعليق مكلّفٍ رَشِيد».[1] ويصبح التدبير باطلا إذا تعمد المدّبر قتل سيده، أو استغرق دَين السيد المدَبّر والتركة جميعا.

الولاء من جوالب العتق:

والولاء[2] كالنسب لمن ثبت العتق عنه ولو بعوض،[3] ولو اشتراه لنفسه فولاؤه لبائعه. فإن: «الولاء لِمُعتقٍ».[4] وإن أعتق نصراني عبده النصراني ثم أسلم بعد عتقه ومات عن مال، فماله لعصبة سيده النصراني وولاؤه للمسلمين. لأن الولاء كان لسيده حين كان نصرانيا فلما أسلم السيد رجع إليه ولاؤه.[5] ومعنى رجوع الولاء إنما هو الميراث، والولاء قائم لا ينتقل عنه، لأن الولاء كالنسب فكما لا تزول عنه الأبوة[6] إن أسلم ولده فكذلك الولاء. والنساء لا يرثن من الولاء شيئا، وإذا ترك المعتق ذكورا وإناثا فالولاء للذكور من ولده دون الإناث.[7] ومسألة الولاء، والعتق، من الأمور التي استدركها الحطاب على ابن غازي،[8] عند تناوله لرأيه: وولاء من يجر من ولد أو عبد أعتقته. وصرّح بأن هناك من استشكله لأن ظاهره أن كل ما يلده من أعتقته المرأة يكون ولاؤه لها. وليس كذلك، فإن المعتقة إذا ولدت من زوج حر لم يكن على ولدها ولاء.

ومن سمات كتاب النزهة البارزة اعتناء صاحبه باستنباط المسائل الفقهية من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ونقله لكثير من الأقوال، واجتهادات، من سبقوه. ومما

---

[1] ـ خليل بن إسحاق، مختصر العلامة خليل، أشرف على تصحيحه والتعليق عليه أحمد نصر، دار الشهاب باتنة الجزائر، د ت، ص:295.

[2] ـ الولاية المقصودة هنا هي ولاية العتق، وحكمها العصوبة وهي تفيد الميراث.

[3] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص: 160.

[4] ـ خليل، المختصر، ص: 300.

[5] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص: 160.

[6] ـ محمد جمعة عبد الله، الكواكب الدرية، ج 4، ص: 224.

[7] ـ وهذا ما أجمع عليه الصحابة. ينظر: عبد الوهاب المالكي، المعونة ، ج 2، ص: 370.

[8] ـ محمد الحطاب، تحرير المقالة في شرح نظائر الرسالة، دراسة وتحقيق أحمد سحنون، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ط 1988، ص: 159.

ذكره في سياق حديثه عن شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... وفي صحيح البخاري عن أنس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول لن تراعوا لن تراعوا وهو على فرس لأبي طلحة عري ما عليه سرج في عنقه سيف فقال لقد وجدته بحرا أو إنه لبحر»[1]. وفيه بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم لسرعته في الخروج إلى العدو وحده، بحيث كشف الحالة فرجع قبل خروج الناس، وبيان معجزته في انقلاب الفرس سريعا بعد أن كان بطيئا، واستنبط المختار من هذا الحديث مسائل فقهية منها:

- جواز ركوب فرس الغير عند مهاجمة العدو لتخليصها أو تخليص نفسه أو تخليص العامة.
- وانه لا ضمان عليه إن عطب بسبب ذلك.
- العفو عن زغب الدابة ووبرها إذا تعلق بثياب الراكب.
- وجواز تقد القائد إلى نحور العدو عند الفزع.

وطريقة عرضه لهذه المسائل فتتمثل في سرده لأقوال وآراء العلماء في المسألة، مع تدخله أحيانا بالتصحيح، والتعقيب، إذا رأى فيما عرضه تحريفا أو فهما خاطئا، كما أنه يرجح بين الأقوال، ويبين أوجه الخلاف مع الانتصار للمذهب المالكي.

الحِرَابة:

ويصرح المختار أن الحرابة كل فعل يقصد به أخذ مال على وجه تتعذر معه الاستغاثة عادة وإن لم يقتل، كان بسلاح أو بغيره في داخل المصر أو خارجه،[2] وكذلك إن

---

[1] - صحيح البخاري، كتاب الأدب، رقم الحديث: 5573.

[2] ـ المختار الكبير، الأجوبة المهمة، و18 ظ.

لم يطلب مالا ومنع الناس من سلوك الطريق، سواء قطع الطريق على ذمي أو مسلم.[1] وعرفها بعض الفقهاء بأنها: «فعل لأخذ مال محرم بإذهاب عقل، أو مقاتلة، أو بإخافة سبيل».[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسعَونَ فِي الأرض فَسَادًا﴾.[3] والمحارب إن قتل وأخذ المال قُتل وصلب، وإذا قتل ولم يأخذ المال قُتل، وإذا أخذ المال ولم يقتل قطّعت يديه ورجليه من خلاف، وإذا أخاف الناس ولم يقتل ولم يأخذ المال نُفي من الأرض. وقال تعالى: ﴿وَكَتَبنَا عَلَيهِم فِيهَا أَنَّ النَّفسَ بِالنَّفسِ وَالعَينَ بِالعَينِ والأنفَ بِالأنفِ والأُذُنَ بِالأُذُنِ والسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.[4] وقال في موضع آخر: ﴿وَلَكُم فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.[5] والمراد أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَل قُتِل، كفَّ عن القتل. وهذه المسألة لها تفصيلات عدة وهي:

1 ــ مشهر السلاح محارب، والسارق بالليل والنهار في دار أو زقاق. والذي يخدع صبيا فيأخذ ما معه محارب، وقتاله جائز باتفاق.[6]

2 ــ وإذا انحاز المحاربين إلى فئة فمنعتهم، فللإمام أن يناشدهم[7] الله أن يسلّموا له المحاربين إن أمكن قبل قتالهم وإلا قُتل الجميع، والواجب في عقوبتهم إن أخذوا القتل، أو الصلب والقتل بعده أو قطع اليد والرجل من خلاف أو النفي، والإمام مخير فيما شاء من ذلك.[8]

---

[1] ــ ابن جزي، المصدر السابق، ص: 355.

[2] – أبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف بالبرزلي، فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 2002، ج 6، ص: 174.

[3] ــ الآية 33 سورة المائدة.

[4] ــ الآية 45 سورة المائدة.

[5] ــ الآية 179 سورة البقرة.

[6] ــ محمد بن الحاج، المدخل، ج 3، ص: 5.

[7] ــ خليل بن إسحاق، المصدر السابق، ص: 290.

[8] ــ المختار الكبير، أجوبة في حكم الأموال المأخوذة من أيدي المحاربين اللصوص، نسخة مخطوطة بخزانة الأنصاري بأولف، و 4 ظ.

3 ـ وذو الفلتة للإمام أن يضربه مع النفي.

4 ـ ويُقتل المحارب وإن لم يَقتل، وإذا قُتل فلابد من قتله، ولا عفو[1] لولي المقتول عنه إن أخذ قبل أن يتوب.[2]

5 ـ ويقتل من أعان منهم في القتل ومن لم يُعن، ولو كان عدد هؤلاء جميعا مائة ألف، أو يزيدون.[3]

6 ـ ويسقط حد الحرابة بالتوبة قبل الظفر به لا بعده،[4] ويُغَّرم كالسارق ويُغَّرم الواحد عن الجميع تائبا جاء أو غير تائب، وما بأيديهم من المال الذي سلبوه إن طلبه طالب دفع إليه بعد الانتظار، واليمين، ويثبت بشهادة رجلين من الرفقة، وتثبت الحرابة بشهادة اثنين، أنه فلان المشهور بالحرابة، وإن لم يعايناها.

فبان من هذا أن لا خلاف في ردة من استحل دماء المسلمين وأموالهم. وأما المشرك غير المحارب، فإنه لا يجوز أيضا قتله إلا بعد الدعوة إلى الإسلام، أو إلى إعطاء الجزية، فإن أبى عنهما قوتل بإذن الإمام، وعلى هذا انعقد الإجماع.

أكل الميتة:

إن المحرمات وإن كانت منهي عنها، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد يحلها برحمته وشفقته حالة الاضطرار. قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضطُرَّ فِي مَخمَصَةٍ غَيرَ مُتَجَانِفٍ لِإثمٍ﴾.[5] وهو يبين الشرط المبيح لذلك وهو كونه غير مائل إلى إثم بسفره، أو بمباشرته ما اضطر إليه من أكل ما حرّم عليه. ومن اضطر إلى أكل الميتة، أو إلى غيرها في المجاعة فليأكل

---

[1] ـ الحسن البغوي، شرح السنة، حققه علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1992، ج 5، ص: 446.

[2] ـ ابن جزي، المصدر السابق، ص: 355.

[3] ـ وهو رأي ابن القاسم. ينظر: المختار الكبير، المصدر السابق، و5 ظ.

[4] ـ ابن جزي، المصدر السابق، ص: 355.

[5] ـ الآية 3 سورة المائدة.

بشرط ألا يكون متعرض لمعصية في مقاصده كلها.[1] وأختلف في التزود منها، إن كان في فيافي لا يجد فيها عمارة ولا يرجوها فله أن يأكل ويتزود،[2] وإن كان في العمران ويظن أنه يصل إلى العمران قريبا فليس له أن يتزود منها، بل له أن يأكل حتى يشبع أو حتى يسد رمقه ثم يرتحل.

وأما المسافر إذا كان في سفر معصية حتى اضطر إلى أكل الميتة، فإنه لا يحل له أكلها. لأن الرخصة والتوسعة إنما جعلها الله لأهل طاعته، ثم يبين أنه يغفر لهم ما باشروه مما حرّم عليهم في حالة الضرورة،[3] فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[4] لمن أكل الميتة في حالة الجوع، والاضطرار.

التجديد:

يؤمن المختار بالتجديد الجماعي، ويعطي أسماء عديدة من المجددين ابتداء من القرن الهجري الأول. وفيها الخلفاء، والفقهاء، والقراء، والمتكلمين، والمحدثين، والزهاد. وتلك الأسماء لا تختلف عن الأسماء التي أوردها علماء الشريعة في هذا الباب، إلا في القليل النادر. غير أن المفاجئة الكبرى، هي وجود عبارة تدل على أن المختار ادعى لنفسه التجديد في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، حيث أشار إلى أن مجدد هذا الزمان: «على ما يقوله أولياء الوقت صاحب التصنيف والله أعلم».[5] ويعتقد الباحث أن هذه العبارة من زيادات النُسَّاخ، وليست من وضع المختار. إذ لا يعقل أن ينسب لنفسه أمرا كهذا. وحتى العبارة فيها من الارتباك ما يدل على أن المختار لم يقلها مثلا: (أولياء الوقت)، أي وقت هو المقصود؟ هل المختار كان يسمع أراء (أولياء الوقت)

---

[1] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ص: 176.
[2] ـ ابن جزي، المصدر السابق، ص: 173.
[3] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص: 176.
[4] ـ الآية 192 سورة البقرة.
[5] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 312.

حوله؟ وإنما تدل العبارة على أن الناسخ سمع أو بلغه أراء (أولياء الوقت) حول شخصية المختار، فأثبت له التجديد. وقد تكون هذه العبارة من وضع أحد الكنتيين، أو أحد تلامذة المختار المنبهرين بشخصية شيخه. وما يزيد هذا الافتراض الأخير تأكيدا، أن محمد الخلفية[1] ادعى لوالده الاجتهاد والتجديد وحكى ذلك في أشهر مؤلفاته.[2] كما أن بعض العلماء الذين يوالون الزاوية المختارية، أثبتوا أحقية المختار بدرجة الاجتهاد في فترته ونعته بأنه: «أحد المجددين في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الذي بعده».[3] وكما هو ملاحظ فإن عتيق السوقي يؤمن هو الآخر بفكرة التجديد الجماعي.

مسألة التبغ:

عرفت أزواد التبغ[4] منذ عهد الأسكيا، وشاع وانتشر استعمال شربه منذ تلك الفترة.[5] ودخل إلى إفريقيا السوداء والصحراء عن طريق الأوروبيين، ووصل إلى تنبكتو في مستهل القرن الحادي عشر الهجري / أواخر السادس عشر الميلادي، ومن ثم حمله سكان البلاد الذين رافقوا الفيل الذي وصل إلى مراكش[6] عامي 1005 ـ 1006 هـ / 1597 ـ 1598 م، ثم دخلوا إلى فاس عام 1007 هـ / 1599 م.

---

[1] _ *BATRAN (A), Op . Cit. p. 86.*

[2] ـ الطرائف والتلائد، و 179 ظ.

[3] ـ عتيق بن سعد الدين السوقي، الجوهر الثمين في أخبار صحراء الملثمين، ص: 138.

[4] ـ التبغ: أو طابا هو عبارة عن أقماع أهرامية الشكل، مصنوعة من ورق الدخان بعد دقه وهو أخضر في مهراس من خشب، حتى يصير كالعجين. ويجعلونه أقماعا ويجففونها في الشمس، وبعد جفافها يبرزونها إلى سوقهم ويتعاملون بها. ينظر: المختار الكبير، الوثائق، و 29 ظ.

[5] ـ كعت، تاريخ الفتاش، ص: 183.

[6] ـ مراكش: تبتدئ هذه الناحية غربا من جبل نفيفة وتمتد شرقا إلى جبل أنماي، ثم تنحدر نحو الشمال إلى قرب وادي تنسيفت لتنتهي في ملتقى هذا النهر مع وادي أسيف أنوال، حيث تبتدئ بلاد حاحا شرقا. ينظر، الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص: 122.

وانتشر التبغ في الصحراء، وبلاد المغرب، بسرعة وأقبل عليه العديد من أفراد المجتمع، غير أن الحظ الأوفر كان للرعاع، والسفلة،[1] الذين أخذوا يتعاطونه في مجالس اللهو. فزاد ذلك من تنفير أهل الورع من العلماء، والشيوخ، وغدو يرون فيه بدعة سيئة تتعين محاربتها، ومنكرا يجب تغييره. ولم تمض غير بضع سنوات على ظهوره في الصحراء، حتى أصبح له أسواق رائجة، وكثر التجار الذين يبيعونه في المدن، والقرى. تحمله إليهم من توات القوافل المنتظمة بين تنبكتو، وجني، وأغاديس.

وما يهم الباحث هنا هو الوضع بأزواد، فالسكان تأثروا منذ القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي بفتوى الشيخ أحمد بابا، الذي كان من المدمنين على التبغ القائلين بحليته. وفتواه عبارة عن كتيب سماه: اللمغ في الإشارة إلى حكم طبغ.[2] وانتهى من تأليفه بتمكروت[3] من بلاد درعة. واستهل أحمد بابا كتيبه بمقدمة قصيرة أجمل فيها رأيه بجواز استعمال التبغ ما دام غير مرقد، ولا مفسد، وليس كل حادث محدث محرم. وأخبر أنه أفتى بذلك وأجاب كلا من قاضي فاس علي بن عمران،[4] وقاضي درعة أحمد البوسعيدي،[5] وغيرهما حين استفتوه في المسألة. ويعتبر الكتيب ردا على أحد شيوخ

---

[1] ـ محمد بن عمر التونسي، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، مطبعة كيبلين الحجرية باريس، ط 1850، ص: 47.

[2] ـ منه نسخة مخطوطة بخزانة تمنطيط بدون رقم.

[3] ـ تمكروت: تقع جنوب الأطلس الكبير، وهو موقع كان يشكل ملتقى القوافل التجارية المتجهة من تافيلالت إلى سوس، وبها الزاوية الناصرية. ينظر: محمد بن عبد السلام الناصري، المزايا، ص: 32.

[4] ـ علي بن عمران: هو علي بن عبد الرحمان بن أحمد المدعو ابن عمران السلاسي، له صيت في العلم والتدريس، ولاه السلطان المنصور قضاء فاس ومراكش واشتهر بقوة عارضته وفصاحته في التدريس بالقرويين. وتوفي مسموما في سجن زيدان بن أحمد المنصور، في ربيع الثاني سنة 1018 هـ / 1609 م. ينظر: القادري، التقاط الدرر، ج 1، ص ص: 51 ـ 52.

[5] ـ أحمد البوسعيدي: هو أبو العباس أحمد بن علي بن محمد البوسعيدي الهشتوكي الصنهاجي، عالم صالح صوفي ولد بسوس عام 990 هـ / 1582 م. وانتقل إلى فاس وسكن مدرسة المصباحية، ومن كبار شيوخه مولاي علي بن طاهر الحسني دفين مدغرة، وتوفي بفاس في 16 ذي القعدة سنة 1046 هـ / 10 أفريل 1637 م. وقبيل وفاته بقليل ألف كتاب: بذل المناصحة في فعل المصافحة، وخصص فصلا منه للكلام على فتنة الدخان كما قال. ونحا البوسعيدي منحى الاعتدال والتأمل في أقوال من تقدمه، غير أنه قال بتحريم التبغ منذ البداية، باحث عن أدلة فقهية وعقلية جديدة تعزز وجهة نظر القائلين بالمنع. ينظر: القادري، التقاط الدرر، ج 1، ص: 105.

وقضاة[1] تنبكتو، وكان من الذين أفتوا بتحريم التبغ. وفي الورقات الأخيرة منه عقد فصلا سماها: الرد على المفتي السوداني وتجهيله. ووصفه بأنه تكلم بغير علم، وتعاطى ما ليس له بأهل، فيجب أن لا يلتفت إليه، إذ: «لم يأت بحجة عليه، فكلامه ساقط، إذ هو فيه لاغط».[2]

بيان علة التحريم والتحليل:

وفي بابا الحلال والحرام قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.[3] فإن الخبيث غير مستطاب، فصارت هذه الآية الكريمة نصا فيما يحل أو يحرم؛ فيحل بهاتين الآيتين الكريمتين كل مستطاب. وأكد المختار على: «تحريم الحشيشة، والخشخاش، لأنهما من المفسدات، والمرقدات، على القول الصحيح المرتضى».[4] وأشار التونسي إلى أن التبغ قوي الرائحة: «يكاد إذا شمه إنسان أن يأخذه الدوار».[5] و يضيف المختار بأنه لا يلتفت إلى قول القائلين بإباحة القدر الذي لا يسكر من الخمر، وبإباحة الحشيشة مع إذهابها العقل. و يورد في هذا الباب قول ابن الخطيب[6]:

قل لمن يشرب الحشيشة جهلا يا خسيسا قد عشتَ شر معيشة

دية العقل بدرة فلماذا يا خسيسا قد بعتها بحشيشة[7]

---

[1] ـ المقصود هو الفقيه محمد بن أحمد بن عبد الرحمن السوداني.

[2] ـ أحمد بابا، اللمغ في الإشارة إلى حكم طبغ، و6 ظ.

[3] ـ الآية 157 سورة الأعراف.

[4] ـ المختار الكبير، البرد، ج 1، ص: 176.

[5] ـ محمد بن عمر التونسي، تشحيذ الأذهان، ص: 47.

[6] ـ ابن الخطيب: هو محمد بن عبد اله بن سعيد السلماني، وبيتهم بقرطبة بيت فقه وعلم، له تآليف كثيرة، وتوفي مخنوقا بسجن فاس سنة 770 هـ / 1368 م. ينظر: أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور الرباط، ط 1974، ج 1، ص ص: 308 ــ 311.

[7] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص ص: 176 ــ177. وهناك اختلاف في هذه الأبيات عند أحمد بابا:

قل لمن يأكل الحشيشة جهلا يا خسيسا قد عشت شر معيشة

دية العقل بدرة فلماذا يا سفيها قد بعتها بحشيشة

ينظر: اللمغ، و 6 ظ.

وعندما يتناول المختار مجمل الآراء حول هذه العشبة، يصرح بأن: «غايتها الشبهة، إذ حقيقة الشبهة ما تجاذبته أدلة الحل، والتحريم، من غير ترجيح لأحد الجانبين، ولو رجح جانب الحلّية، لكان وجها لخلوها عن الوصف الناقل لها عن أصلية العشب وهو السكر».[1] والمختار اطلع على كتيب أحمد بابا كما هو واضح، ووجد أن فقهاء المالكية ــ المشارقة منهم والمغاربة ــ اختلفوا في هذه المسألة كثيرا، فمنهم من حرّم تعاطي التبغ مطلقا، بناءا على القياس، مثل: اللقاني،[2] والفكون،[3] ومحمد العربي الفاسي،[4] وأحمد البوسعيدي، والتمنارتي.[5]

وفي المقابل وجد من أباحه لعدم ورود نص قطعي في المسألة، على اعتبار أن التبغ لم يعرف في صدر الإسلام. وقالوا بأن كل الأدلة حول تحريمه مردودة، ومن أمثال هؤلاء: الشيخ علي زين العابدين الأجهوري،[6] والشيخ أحمد بابا التنبكتي، والشيخ ابن أبي

---

[1] ــ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص: 177.

[2] ــ اللقاني: هو خليل بن إبراهيم بن علي بن غرس الدين أبو مفلح الشهير باللقاني المصري المالكي، توفي سنة 1104 هـ / 1692 م، من تصانيفه: إتحاف ذوي الإرشاد بتحرير ذوي الإسناد في أسماء شيوخه. ومنار أصول الفتوى. أما رسالته في التبغ فهي: نصيحة الإخوان باجتناب الدخان، وألفها في أوائل عام 1025 هـ / 1616 م، وهي مرتبة على مقدمة وأحد عشر فصلا وخاتمة. وتوجد منه نسخة مخطوطة بالمكتبة العامة بالرباط رقمها: 7579.

[3] ــ الفكون: هو محمد عبد الكريم بن محمد الفكون القسنطيني توفي سنة 1073 هـ / 1663 م. الفقيه المشارك، وأمير ركب الحج في المغرب الأوسط ونواحيها، وقد سار فيه أحسن سيرة كأبيه. ومؤلفه حول التبغ هو: محدد السنان في نحر إخوان الدخان. ووضعه عام 1025 هـ / 1616 م، بعد أن اطلع على جواب مفتي القيروان، الذي أباح الدخان بأدلة واهية. ينظر: القادري، المصدر السابق، ج 1، ص ص: 155 ــ 156.

[4] ــ محمد العربي الفاسي: هو أبو حامد نادرة الزمان، ولد في حومة العيون من فاس يوم الاثنين 16 شوال عام 988 هـ / 24 نوفمبر 1581 م، واستقر بتطوان، وقد ألف عام 1035 هـ / 1625 م، سهم الإصابة في حكم طابة. وتوفي في 14 ربيع الثاني 1052 هـ / 12 أوت 1642 م. ينظر: القادري، المصدر السابق، ج 1، ص: 115.

[5] ــ التمنارتي: هو عبد الرحمان بن محمد التمنارتي، والذي جاءها عام 991 هـ / 1583 م، وهو ما يزال طفلا، فلازمها سائر أيام حياته طالبا ثم عالما مدرسا، وقاضيا مفتيا، ومؤلفا لامعا. وإليه يرجع الفضل في تدوين أخبا الحياة العلمية بالمحمدية وسوس عموما خلال القرن الهجري الحادي عشر. وتوفي سنة 1060 هـ / 1650 م. وقد تعرض عبد الرحمن التمنارتي في غير ما موضع من كتابه: الفوائد الجمة لمشكل التدخين، وأورد مجموعة من فتاويه وفتاوى معاصريه من فقهاء سوس، ودرعة، والسودان. ينظر: محمد حجي، الحركة الفكرية، ج 2، ص: 413.

[6] ــ الأجهوري: هو شيخ المالكية في مصر في عصره بلا منازع ولد عام 975 هـ / 1567 م، أخذ العلم عن عدة أعلام منهم: البنوفري، والبدر القرافي، وعثمان القرافي، وغيرهم. وأخذ عنه: الشمس البابلي، والخرشي، والشبرخيتي، وعبد الباقي، وغيرهم. له من الكتب ثلاثة شروح على المختصر. وأما رسالته في التبغ فعنوانها: غاية التبيان لحل شرب ما لا يغيب العقل من الدخان. ينظر: الغلاوي، بوطليحية، ص: 89.

أبي محلي.[1] هذا الأخير الذي دارت بينه وبين السنهوري، مناقشة[2] حول هذه المسألة أثناء إقامته بمصر. وأورد التونسي أبياتا شعرية ينسبها لبعض البكريين،[3] ممن أحل شرب التبغ:

وقد أظهر الله القدير بمصرنا نباتا يسمى التبغ من غير مِريَةِ
ومن يدّعي التحريم جهلا فقل له بأي دليل أم بأيَّةِ آية
وليس بها سكر ولا الله ذمَّها فقولك بالتحريم من أي وجهةِ
فإن تنتشق دخانها فترى الشفا فلا تنس باسم الله أوّل مَصَّةِ
وقُل بعد ذاك الحمد لله وحده فحمدك للمولى زيادة نعمةِ[4]

ويصرح المختار بأن الله سبحانه وتعالى قال:﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾.[5] ويبين بذلك عز وجل بهذه الآية أصول الحلال، والحرام. ويشير في النهاية أن للحلال ثلاثة أصول: «الطيب، والمصلحة، والمسكوت عنه. وللحرام أصلان: الخبث، والفساد».[6] وأعتقد أن السبب في كون المختار لم يحسم الخلاف في مسألة التبغ بأزواد، راجع إلى أن الذي

---

[1] ـ ابن أبي محلي: وهو أبو عبد الله أحمد الرئيس الثائر، ولد بتافيلالت بين عام 960 ـ 968 هـ / 1552 ـ 1560 م. على اختلاف في التقدير بين المؤرخين. درس بفاس، ثم أخذ الطريقة الصوفية عن محمد بن المبارك الزعري التاسوتي، وفي طريقه إلى الحج أخذ عن شيوخ الأزهر، وبها نسخ أهم مصادره العلمية في الفقه والتصوف. وبعد عودته من الحج ادعى المهدوية وقام بحركته الثورية مستغلا ضعف الدولة السعدية بعد المنصور الذهبي. إلى أن قتل بمراكش على يد أبي زكرياء يحي الحاحي، مناصر السلطان زيدان ضد أبي محلي، وعلق رأسه على سور مراكش لمدة 12 سنة. وكتب ابن أبي محلي سؤالا مطولا في كتيب سماه: الحكاية الأدبية والرسالة الطلبية مع الإشارة الشجرية، وبعث به إلى فقهاء المالكية، وكان من بين الردود التي تلقاها فتويان مطولتان بحلية التبغ أثبتهما بنصهما في كتابه الأصليت، وعلق عليهما ونود بصاحبيهما كثيرا. ينظر: القادري، المصدر السابق، ج 1، ص: 61.

[2] ـ زهراء إخوان الشادلي، «الصلات الثقافية بين المغرب والمشرق خلال القرنين 10 ـ 11 هـ / 16 ـ 17 م»، مجلة دعوة الحق، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط المملكة المغربية، عدد 370، أكتوبر ـ نوفمبر ـ دجنبر 2002، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ص: 108.

[3] ـ لم يذكر من هو المعني، لكن يقصد بالبكريين أتباع الشيخ الصوفي محمد البكري المصري، وهو شيخ الطريقة الشاذلية بالديار المصرية.

[4] ـ التونسي، تشحيذ الأذهان، ص: 47.

[5] ـ الآية 4 سورة المائدة.

[6] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص: 176.

استمر عليه أغلب فقهاء أزواد حتى عهده هو عدم التحريم. وإذا كان المختار ذهب إلى أن التبغ من الشبه،[1] والأصل في الشبهة الدرء تعلقا بقاعدة الاحتياط والورع. فإن ابنه محمد قال بحليته! وكان الشيخ بادي ــ وهو جده لأمه ــ من المدمنين عليه، ووقعت له قصة بخصوص التبغ مع أحد تلامذة ابن ناصر الدرعي، يحكيها صاحب الطرائف[2] بكل فخر، ويعتبرها من الكرامات.

ومن خلال تناول أراء المختار الفقهية، بدا جليا أنه ملتزم بمذهب إمام دار الهجرة، هذا المذهب الذي استند منذ البداية على عمل أهل المدينة، وأجوبة الإمام مالك عن إشكالاتهم الواقعية، لما عرف عنه من تشبث بالواقع، وابتعاد عن الافتراضات النظرية. وكان المختار وفيا لسنة إمامه في التشبث بالواقع والإجابة (عما يكون)، وترك (ما لا يكون). وبذلك شكل نمطا قديما وعتيقا في أرائه الفقهية، وبناء مؤلفاته وخصائص محتواها يؤكد أن أراء المالكية هو النص الحجة. رغم إيراده لرأي غيرهم، في مناسبات قليلة ونادرة. ومثلت مؤلفاته الفقهية نوعا من الاكتفاء العلمي الذاتي، في بيئة يندر الحصول فيها على المصادر الفقهية للمذهب بالنسبة للتلاميذ، والمهتمين، على حد سواء.

---

[1] ــ من الذين تأثروا برأيه محمد يحي بن سليمة اليونسي الذي ألف كتابا سماه: شهود العيان في تحريم الشم والدخان. ينظر: ولد أباه، المرجع السابق، ص ص: 123 ــ 124.

[2] ــ محمد الخليفة، الطرائف، و85 ظ.

الفصل الثالث :

الإطار الفكري لتصوف المختار

تمهيد:

إن استجلاء ما أصبح باهتا من المفاهيم الإسلامية في أذهان من ابتعد عن الدين، وغلظت حاشيته القبلية، ومال إلى التناحر بدل التآلف، من الصعوبة بمكان، لا يتيسر إلا لمن أوتي حكمة وحلما، وأتحفه الله بمزايا المنبت والمنشأ، كي ينقاد له من وطّن نفسه على الثأر بدل ما تقتضيه أحكام الشريعة، ويذعن له من تلاعبت به الأهواء، وأغراه الضعف السياسي الذي ميّز المنطقة. وما يمكن ملاحظته أن التصوف هو الغالب على تأليف المختار الكنتي، وما كان منها في غيره، يظهر فيه الميل إليه وغلبته عليه، لأنه جمع بين العلوم الذوقية، والعقلية، والنقلية.

التصوف:

يجد الباحث اختلافا كبيرا في أصل هذه الكلمة، ووضعت حولها فروض متعددة، وليس بعضها أولى من بعض، وهي تسمية رمزية. والتصوف هو رعاية حسن الأدب مع الله[1] في كل الأعمال بالوقوف عند حدود الشرع، والصوفي هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية، أي أصبح من خلالها عارفا بالله،[2] وتلك هي الدرجة العظمى فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة، واستمد جماعة الصوفية إلهامهم من القرآن. وكوّنوا حركة من الورع والصلاة تهدف إلى تنقية القلوب من الدوافع الأنانية ومن المسرات.[3] وحياة المؤمن هي طريق تقود إلى معرفة الله، وعندما يصبح الإنسان قريبا من الله يصبح الله قريبا منه أيضا ويصير: بصره، وسمعه، ويده، ولسانه.

---

[1] ـ عبد الرحمان بن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، دراسة وتحقيق أبو يعرب المرزوقي، المطبعة العربية تونس، ط 1991، ص: 183.

[2] ـ عبد الحليم محمود، المنقذ من الضلال، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط الثانية 1985، ص ص: 155 ـ 156.

[3] ـ ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، تعريب أسعد صقر، دار طلاس دمشق، ط الأولى 1997، ص ص: 105ـ 106.

أ- الأسانيد الصوفية:

إن أسانيد المختار الصوفية شاذلية[1] في عمومها، زروقية[2] جزولية[3] في خصوصها. فإن الباحث يجد إشارات في المصادر الكنتية تشير إلى مجالس التصوف، التي كانت تنعقد في زاوية المختار بأزواد، وهي لا تختلف عن تلك التي كانت تنعقد في المغرب الأقصى. وقد كانوا يقرءون الأوراد المركبة أساسا من الاستغفار، والهيللة، والصلاة على الرسول الكريم بصيغ متعددة، والكثير من تلك الصيغ موافق للصيغ المتناولة في أغلب الزوايا. ويداومون، أيضا، على قراءة أحزاب الإمام الشاذلي، وأسماء الله الحسنى لابن عباد الفاسي، ودلائل الخيرات[4] لمحمد بن سليمان الجزولي.

تأسيس الزاوية:

وكان المختار صالحا تقيا، نشأ على طاعة الله من أول شبابه، مشتغلا بما يعنيه وتاركا لما لا يعنيه، لم تلهه دنياه عن آخرته، وكان سخيا كثير الصدقة والإنفاق على المساكين، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يفعل الخير ويدل عليه، محبا للصالحين وأهل العلم؛ بيته بيت علم وصلاح وتقوى، ويوصف بصاحب الأخلاق المرضية والكرامات الظاهرة.[5] يقول عنه صاحب الوسيط: «... ولم نر أحدا يطعن في ولايته... ومن نظر في كتبه، يتبين له فضله، سواء كانت في الحقائق أو غيرها».[6] ولقد وطّد المختار الكبير وأنار لمريديه طريق إيمانهم[7] بمنطقة أزواد، وثبّت الإسلام في نفوس

---

[1] ـ نسبة لأبي الحسن الشاذلي: وهو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف ينتسب إلى شاذلة قرية بإفريقية، ولد عام 593 هـ وتوفى سنة 656 هـ / 1258 م. ينظر: ابن الصباغ، درة الأسرار وتحفة الأبرار، المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة، ط 2001، ص ص: 5 ـ 6.

[2] ـ نسبة لأبي العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي البرنسي المعروف بزروق. وقد تم التعريف به سابقا.

[3] ـ نسبة لأبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب كتاب دلائل الخيرات توفي سنة 869 هـ / 1464 م، وقيل أنه مات مسموما. ينظر: الفرد بل، الفرق الإسلامية، ص: 393.

[4] - الفلاني، قطف الثمر، ص: 244.

[5] - محمد المختار ولد أباه، دراسات في تاريخ التشريع، ص: 68.

[6] - ابن الأمين، الوسيط، ص: 361.

[7] ـ بول مارتي، كنته الشرقيون، ص: 39.

القبائل الوثنية.

استقر المختار الكبير ــ كما أشرت سابقا ــ سنة 1167هـ/ 1754 م بقصر الحلة،[1] بعد رحلته الشاقة في سبيل تحصيل العلوم، وبمكان يدعى المبروك به مياه وزرع، في طريق مرور القوافل: «تعانقت كأنها عساكر اصطفت لاستقبال عظيم»[2]، رأى فيه المكان المناسب، فاختاره موطنا وبنى فيه مسجدا للصلاة، وزاوية للتدريس. وهي بموقعها الهام مرحلة هامة في طريق التبر،[3] الذي يربط منطقة السودان الغربي مع باقي الأقطار.

ومن تلك الفترة أدت زاويته دورا رائدا، من الناحية الدينية والتجارية. ومما يجدر ذكره أن هذه الزاوية لم تكن تهدف إلى إعطاء الأوراد الكنتية، أو عزل المريدين عن المجتمع،[4] وإنما كانت تتخذ من الزهد طريقا لتصفية النفوس،[5] ومنهجا لإقامة مثل عليا من السلوك والإيمان،[6] تهيئ الصفوة ليكونوا قادة فيما بعد. وزاوية المختار تعتبر محطة للعابر والمقيم، فالأول يتخذها مسكنا مؤقتا، والثاني لطلب العلم والذكر. وأسست لهذه الزاوية فروع[7] بمكناس، ومراكش.

وينتمي المختار الكبير إلى الطريقة القادرية عن طريق أكبر مشايخها المعاصرين له، وهو الشيخ علي بن النجيب. وظهرت ثمرة صحبة المختار لشيخه، إذ لم يلبث أن احتل موقع الصدارة في تلك الطريقة،[8] وحاز مرتبة المشيخة، حيث صار مؤهلا للتصدي للتربية والتدريس، وتلقين علم التصوف لتلامذته ومريديه. وكبح المختار شهواته الجسدية

1- C.E. BOSWRTH. E. VANDONZEL. B.LEWIS and CH. PELLAT. The encyclopedia of Islam. Leiden.E.J.Brill (1986). V 5. p. 393.

[2] - المختار الكنتي، خطبة العيدين، تحقيق وتقديم حبيب الله عمر دمه، دار أتون القاهرة، ط أولى 1993، ص: 03.

[3] - التبر: يطلق على الذهب والفضة كما هي قبل أن تستعمل، غير أنه بالذهب أعرف منه بالفضة. ينظر: دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ص: 283.

[4] ــ الأرواني، السعادة الأبدية، ص: 155.

[5] - *Andre Bourgeot. Les Societies Touaregues. Edition karthala Paris.1995. p . 294.*

[6] -*BOURGEOT (A), Les Sociétés Touaregues. Edition kart hala Paris., 1995. p . 313.*

[7] ــ أحمد الأزمي، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، رسالة دكتوراه بجامعة محمد بن عبد الله بفاس، بإشراف لحسن أغزادي نوقشت 20 أبريل 2000، ص: 133.

[8] ــ حسين مؤنس، الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام، مكتبة الثقافة الدينية مصر، ط الأولى 2000، ص: 56.

بممارسات شديدة القسوة من صوم، وحرمان النفس عن الملذات، وأعدّ نفسه لتحمل أعباء المجاهدة، وتذوّق السكينة بعد ذلك بقليل.[1] ويقول عنه البرتلي: «...أنه شيخ الأشياخ السادات، ساقي المريد، وعمدة أهل التوحيد، كان رحمه الله تعالى وليا زاهدا يأتوه المريدون من كل فج ومكان».[2]

ويذكر محمد الخليفة، أن والده لقّنه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن عشر سنين أو تسع، قبل أخذ الورد القادري. وجعل ما يلزمه اثني عشر ألفا بالليل، ومثلها في النهار. قال: «فرأيت لذلك من أنواع الفتوح، والأسرار، ما لا أسمح بشرحه».[3] ومنحه الإجازة الصوفية التي جاء فيها: «... ليعلم الواقف عليه أنني أجزت ابننا البار في أن يعطي الأوراد السلسلية، والأذكار الإلهامية والمروية، والأحزاب والتوجهات، على وجه الصون والعون، لأني رأيته أهلا أن يباشر ذلك بعد الامتحان، والنظر، والإمعان، والاستخارة وفق الإشارة، حسبما هو مرقوم بيده، والله أسأل أن يعينه ولا يبينه، وأن يثبت عزمه ويقينه».[4]

فرسالة الزاوية المختارية لم تكن ميسورة المسالك وسهلة السبل، ولم يكن مؤسسها يجهل المصاعب، فهو ابن تلك البيئة، وهي بيئة ــ كما مرّ بنا سابقا ــ كثر فيها الكر والفر بين مختلف التشكيلات القبلية. فعزم على إصلاح ذات البين بينها، واستبدل فرقتها بالوحدة، وأحيا ما كان قد اندثر من اتصال بالقرآن والسنة. وكان كثيرا ما يحذر أتباعه من جهلة المتصوفة، فهم يضلون الناس بألسنتهم، و«يدعون من ضلالة إلى ضلالة أشد منها».[5]

---

[1] - بول مارتي، المرجع السابق، ص: 45.
[2] - البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص: 152.
[3] - هارون بن الشيخ سيديا بابه، كتاب الأخبار، ص: 152.
[4] ـ محمد الخليفة، الروض الخصيب في شرح نفح الطيب، و 79 ظ.
[5] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 361.

2ـ طريقة كنته البكائية:

أسس محمد الكنتي طريقة صوفية متفرعة عن القادرية، وقال أصحابه كما يقرأ الباحث في الرسالة الغلاوية، أن جده وصل إلى درجة القطبانية العظمى. وكذلك كان حفيده سيد المختار الكنتي، الذي عاد من رحلته العلمية والتي قادته إلى المغرب الأقصى، وبلاد شنقيط، شيخا في الطريقة القادرية.[1] وكان محمد الكنتي، قد اتخذ له مقاما في قرية صغيرة بين ناحية تيرس[2] والساقية الحمراء.

ومن أجداد المختار الكنتي، علي المذكور في نسبه، وعلي هذا قد تزّهد ووهب نفسه للسياحة في الأرض. واستقر في آخر عمره في قرية تسمى عزي قرب تغازى، وهناك كان المريدون يتوافدون عليه. وذلك في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في أواخر أيام بني مرين.

ومن الطريقة الكنتية تفرعت الطريقة البكائية[3] وقاعدتها توات، وهي من كبار مراكز العمران، فيما بين المغرب، وبلاد السودان. وقد نشرت الطريقة البكائية في أغلب مناطق الصحراء ، وكثرت زواياها حتى لا تكاد تجد قرية في غرب إفريقيا، أو في السودان، إلا وفيها زاوية كنتية، أو بكائية[4]، أو مختارية.

رواد الطريقة الكنتية المختارية:

ومع مر الزمن صارت الكنتية المختارية، من أشهر الطرق بالصحراء الكبرى، والسودان الغربي، والمغرب الإسلامي، وبلغ إلى هذه المناطق إشعاعها من عدة قنوات،

---

[1] - محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و81 و.

[2] - تيرس: وهي ناحية من موريتانيا يقال أنها تنبت الإبل كما ينبت المطر البقل. ومن أجزائها يتى وايكيدي. ينظر: المختار ولد حامد، حياة موريتانيا الجغرافية، ص: 227.

[3] ـ والتي تنتسب إلى الشيخ أحمد البكاي، وهو ابن محمد الكنتي، وهو جد كنته الحجر وكنته أزواد، ولا يعرف تاريخ وفاته وهو من أهل القرن العاشر، وقبره بجبل ولاته الغربي قريبا من الديار جدا. ينظر: البرتلي، فتح الشكور، ص ص: 30 ــ 31.

[4] - *MONTEIL (V), L'islam noir. Editions du seuil Paris., 1964. p.85.*

تصاعد إلى مؤسسها. وعنه أخذها من سوس: العالم الجراري،[1] ثم الفقيه ابن دحّ،[2] الذي شدّ الرحلة من أزمور إلى صحراء أزواد يقصد الشيخ محمد بن المختار الكبير، فلما وجده قد توفي، أخذ عن ابنه الشيخ المختار الحفيد، ولقي ــ أيضا ــ أخاه: الشيخ أحمد البكاي، ثم أقام عندهم عشر سنوات عاد بعدها إلى أزمور، حيث انتصب لنشر الكنتية، وصار مقصد الراغبين في الانتساب إليها، وبذلك تعدّد الآخذون عنه من مختلف الجهات.

وعن الشيخ المختار الحفيد، تلقاها البربوشي.[3] ومن بين هؤلاء من انخرط في هذه الطريقة تلقيا من أربعة شيوخ، والمعني بالأمر هو الدغوغي.[4] وممن أخذ عن الشيخ أحمد البكاي: باشا فاس عبد الله بن أحماد،[5] قَدِمَ عنده إلى صحراء أزواد، وتلقى منه الطريقة لنفسه، وللسلطان محمد بن عبد الرحمان، ولأخيه الوزير موسى بن أحماد.[6]

---

[1] - الجراري: يحي بن عبد الله بن مسعود البكري السوسي، كان عالما مطلعا، توفي حوالي 1260 هـ / 1844 م. ينظر: الجراري، ضوء المصباح (فهرس الجراري). وعبد السلام بن عبد القادر بن سودة، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1980، ج 7، ص: 2570. والكتاني، فهرس الفهارس، ج 2، ص ص: 119-121.

[2] - ابن دح: هو محمد بن أحمد الأزموري الدكالي، كان شيخا جليلا كبير القدر والجاه، محدثا وصوفيا محققا مدققا ناسكا يتكلم بلسان أهل الذوق. نزيل المدينة المنورة ودفين بقيعها سنة 1284 هـ / 1868 م، وكان قصده المجاورة بتلك البقاع. ينظر: ابن سودة، إتحاف المطالع، ج 7، ص: 2634. ومحمد بن المعطي السرغيني المراكشي، حديقة الأزهار (فهرسته)، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقمه: ك 1287. و 46 ظ.

[3] - البربوشي: البشير بن عبد الحي الصحراوي الرحماني، دفين مراكش توفي في حدود سنة 1290 هـ / 1874 م. ينظر: محمد المنوني، «المدرسة الكنتية كأبرز قناة بين الإفريقيتين في العصر الحديث»، ضمن ندوة العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، المنعقد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سنة 1992، منشورات عكاظ الرباط، ط 1992، ص: 66.

[4] - الدغوغي: هو أبو شعيب بن الجيلاني البيضاوي، فيأخذها عن سيديّ بن المختار، وأحمد المعروف بسيديّ، ابن الأعمش، ومحمد بن المختار الجكني، والأربعة من تلاميذ المختار الكبير، وكانت وفاة أبي شعيب بعد سنة 1330 هـ/ 1912. ينظر: عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج 2، ص ص: 239 ــ 240.

[5] - عبد الله بن أحماد: البخاري السوسي باشا فاس، توفي سنة 1304 هـ/ 1886 م. ينظر: عباس بن إبراهيم، الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، ط 1977، ج 8، ص: 338.

[6] - موسى بن أحماد: وهو أخ عبد الله المتقدم باني الزاوية الكنتية في حي صدراته بمكناس، وعن ممارسة السلطان محمد الرابع للطريقة الكنتية يذكر محمد المختار السوسي أنه رأى عند مولاي مبارك العلوي الأستاذ بالحمراء، كناشا فيه القدر الذي يذكره من الأذكار في ورد شيخه الكنتي. ينظر: حول مائدة الغداء، مطبعة الساحل الرباط، ط 1983، ص: 21.

ومن الوافدين الذين ساهموا في نشر الكنتية المختارية، محمد السوداني،[1] تلميذ المختار الكبير، وتلقاها منه محمد بن عبد الحفيظ بن عبد الرحمان الدباغ الحسني الفاسي المدعو بوطربوش،[2] بالإضافة إلى محمد بن حبيب الله الصغير الشنقيطي.

ومن أبرز الذين نشروا الكنتية تلميذ محمد السوداني وهو العربي بن الهاشمي العزوزي الزرهوني ثم الفاسي.[3] وكذا محمد السوداني دفين مراكش،[4] وهو من تلاميذ الشيخ أحمد البكاي كذلك. ويعتبر هؤلاء أبرز الذين ساهموا في نشر الطريقة الكنتية المختارية بأقصى المغرب الإسلامي والسودان الغربي، لكن يبقى أبرزهم ــ بدون شك ــ هو الفقيه ابن دحّ.

تلاميذ ابن دحّ الذين نشروا الطريقة الكنتية:

عُرف عن ابن دحّ دوره الكبير في انتشار الكنتية، من خلال تلامذته الذين يتقدمهم السبتي،[5] الذي توجد إجازة ابن دحّ له بتلقي الكنتية في بداية كتاب نفح الطيب للشيخ

---

[1] ــ محمد السوداني: هو محمد السوداني المراكشي، كان أستاذا مجودا يحفظ السبع، وكان محققا مدققا جامعا بين العلم والعمل، صالحا متبركا به، توفي في رجب سنة 1308 هـ / 1890 م، ودفن بروضة الإمام السهيلي. ينظر: ابن سودة، إتحاف، ج 8، ص: 2784.

[2] - بوطربوش: هو محمد بوطربوش بن عبد الحفيظ الدباغ الحسني، من أهل الخصوصية والعرفان والتصوف، شهد له بذلك أهل وقته. توفي يوم الثلاثاء سابع محرم الحرام سنة 1291 هـ / 1870 م، ودفن بزاوية الشيخ عبد القادر بن علي الفاسي الكائنة بأول حومة القلقليين. ينظر: عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج 1، ص ص: 114 ــ 115.

[3] - العربي الزرهوني: هو العربي بن محمد العزوزي الزرهوني، ولد عام 1196 هـ / 1781 م، كان عالما مشاركا مطلعا مفتيا نوازليا، ولي القضاء بصفرو ثم بفاس مدة يسيرة. له شرح على المرشد المعين، وشرح على تحفة الحكام، وشرح على لامية الزقاق، وله بلوغ المرام في شرح الشواهد للشيخ المكودي وابن هشام، وحواش على الأجرومية، وشرح على شواهد التلخيص، ونوازل في مجلد ضخم يغني عن عدة أسفار. توفي يوم الخميس ثامن جمادى الثانية سنة 1260 هـ / 1844 م. ينظر: ابن سودة، إتحاف، ج 7، ص: 2568.عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج 2، ص: 170.

[4] - ابن الموقت، السعادة الأبدية، ج 2، ص ص: 105-106.

[5] - السبتي: هو عبد الرحمان بن محمد الفاسي، كان بقيد الحياة عند فاتح ربيع النبوي سنة 1284 هـ/ 1867 م، وهو تاريخ فراغه من تأليف رسالة ياقوتة الأسرار. ينظر: السبتي، ياقوتة الأسرار، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 12764. و52 و.

المختار الكبير.[1] ومن جملتهم كذلك الدباغ،[2] يقول عنه الكتاني: «من فقراء الطريقة الكنتية، مقدما على العاملين بها من فاس أخذها عن الشيخ سيدي محمد بن دحّ».[3]

ومن الأعلام الذين أخذوا عن الدباغ، محمد الغياثي.[4] ومن تلاميذ ابن دحّ كذلك السرغيني،[5] والرحالي،[6] وهو مقدم الكنتية بمكناس، والكداني.[7] ومنهم كذلك الحاج العربي الشاوي[8]، فيذكر الكانوني[9] أنه جال في أصقاع عديدة بغرض نشر الكنتية، ودخل مدينة

---

[1] - المختار الكبير، نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: ك 237، و 3 ظ.

[2] - الدباغ: محمد بن عبد الهادي الحسني الفاسي، توفي سنة 1284 هـ/ 1867 م، ودفن بالزاوية التي شرع في بنائها بالعيون. ينظر: جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثات الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس، طبعة حجرية فاس، ج 1، ص ص: 283-284.

[3] - الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 1، ص ص: 283-284.

[4] - الغياثي: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد المخلوفي الودغيري الإدريسي الكنتي طريقة نزيل فاس الشيخ الجليل الفاضل المجتهد في الذكر والعبادة المتبرك به. كان شيخا صالحا ولد بالوداغير من واحة فجيج وانتقل مع أمه صغيرا لجبال غياثة فنشأ بها ثم انتقل إلى فاس فاستوطنها إلى أن توفي. مات رحمه الله بعدما أصيب بالفالج بضعة أشهر يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة سنة 1318 هـ/ 1900 م. ينظر: عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج 1، ص ص: 32- 33.

[5] - السرغيني: هو محمد بن المعطي بن أحمد المراكشي، شيخ الجماعة في وقته بمراكش. كان عالما مشاركا حافظا مطلعا، له فهرسة سماها حدائق الأزهار في ذكر معتمدي من الأخبار، وله شرح على البردة للإمام البوصيري، وله شعر متوسط الجودة. وتوفي ثالث محرم سنة 1296 هـ/ 1879 م. ينظر: ابن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج 7، ص: 31. وابن سودة، المصدر السابق، ج 7، ص: 2662.

[6] - الرحالي: الجيلاني بن عزوز المكناسي، من ذرية الشيخ أبي محمد رحال الكوش دفين زمران. كان رحالا بحاثا عن الصالحين وأهل المقامات والأسرار وقورا مهابا ملحوظا بعين الإجلال والإكبار عند الخاص والعام فقيها نزيها. ووصفه ابن سودة: بالفقيه، العلامة، الحيسوبي، الموقت، البركة، المشارك. توفي في ربيع النبوي سنة 1309 هـ/ 1891 م، ودفن بالزاوية الكنتية بمحروسة مكناس. وقبل ابن دحّ، كان أخذ الطريقة الكنتية عن محمد عبد الهادي الدباغ سابق الذكر. ينظر: عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية بالرباط، ط الثالثة، د ت، ج 2، ص ص: 112- 114. وابن سودة، المرجع السابق، ج 8، ص: 2789.

[7] - الكداني: أبو الشتاء بن عبد الله الشاوي البورزقي السطاتي قاضيها، توفي سنة 1309 هـ/ 1892 م. ينظر: العربي بن قاسم الشاوي البورزقي السطاتي، نشر المحاسن والمآثر لرجال الشاوية المشاهر، قطعة مخطوطة بخزانة بيت العود بأقبلي، دون رقم، و 11 و.

[8] - الحاج العربي العبدوني الشاوي: توفي سنة 1309 هـ/ 1892 م. ينظر: محمد المنوني، المدرسة الكنتية، ص: 70.

[9] ـ الكانوني: هو محمد بن أحمد العبدي الآسفي، نزيل مراكش ثم الدار البيضاء، وبها كانت وفاته ومدفنه. ولد عام 1312 هـ / 1894 م، وهو علامة ومؤرخ مطلع ومشارك، قرأ أولا على بعض علماء بلده ثم رحل إلى فاس فقرأ على السيخ عبد الله بن الشيخ إدريس العلوي الشهير بالفضيلي، والشيخ أحمد بن الجيلالي الأمغاري وغيرهم. وقد ذكر أشياخه في فهرسته التي سماها بالهداية والإرشاد إلى معالم الرواية والإسناد. وله تآليف عديدة. توفي سنة 1357 هـ/ 1938 م. ينظر: ابن سودة، المصدر السابق، ص ص: 3060 ـ 3061.

آسفي[1] في جملة من أتباعه، وأسس زاوية قرب سطات.[2] وكذلك ابن اهبالو،[3] والمنوني،[4] الذي أخذ الكنتية عن ابن عبد الهادي الدباغ سابق الذكر، وعن ابن دحّ، حيث رحل إليه لبلده أزمور[5] ــ راجلا ــ مرتين، وصار هو مقدم الزاوية الكنتية بمكناس بعد وفاة شيخه الرحالي. ومن أبرز رواد الكنتية المتأخرين المختار السوسي،[6] يقول عنه عبد الحفيظ الفاسي: «...وأخذ الطريقة الكنتية عن الشيخ أبي عبد الله بن دحّ الشهير».[7] وكان كثير التعاون مع السعيد المنوني في القيام بشؤون الزاوية الكنتية بمكناس.

أفراد لم يذكر شيخهم الذي تلقوا عنه الطريقة الكنتية:

ومما يستدعي الانتباه، أنه في مقابل ذلك الاهتمام الذي خصصه كُتّاب التراجم لمن أخذ عن أوائل العلماء الذين نشروا الكنتية، يكاد يكون إهمالهم عمن أخذت فئات أخرى لهذه الطريقة مطلقا. ومن بين الذين لم يعرف شيخهم في هذه الطريقة: أحمد دنية،[8] وابن

---

[1] ــ آسفي: هي مدينة بناها الأفارقة الأقدمون، بها عدد كبير من الصناع. والأرض المحيطة بالمدينة خصبة جدا. ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص: 147.

[2] - محمد الكانوني، جواهر الكمال في تراجم الرجال، القسم المنشور في المطبعة العربية برحبة الزرع القديمة بالدار البيضاء المغرب، ط 1937 م. حيث يذكر أن زاوية العبدوني اشتهرت من عهد مؤسسها، وقصدها الناس للقراءات والعلم. ص ص: 13 ــ 16.

[3] - ابن اهبالو: هو أحمد بن عبد الرحمان العبد الركيني، توفي سنة 1317 هـ/ 1900. ينظر: محمد الكانوني، جواهر الكمال، ص: 33.

[4] - المنوني: السعيد المعروف بالسعيدي بن محمد بن الهادي الحسني المكناسي، كان عالما موقتا حيسوبيا، أخذ عنه الشيخ العرائشي وذكره في فهرسته، تولى خطة التوقيت بالمسجد الأعظم من حاضرة مكناس. توفي سنة 1334 هـ/ 1916 م. ودفن بزاوية الشيخ الكنتي. ينظر: ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص: 114. وابن سودة، المصدر السابق، ج 8، ص: 2892.

[5] ــ أزمور: هي مدينة في دكالة من بناء الافارقة على مصب نهر أم الربيع في البحر المحيط، وهي كبيرة وآهلى بالسكان، وتنتج هذه المدينة كثيرا من القمح. ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص: 157.

[6] - السوسي: هو محمد المختار بن عبد الله بن أحمد البخاري المكناسي الوزير الصدر والعلامة الفقيه الكاتب. كان من ذوي العلم والفضل والدين والمروءة والنزاهة والعفاف، حسن السمت ظاهر السكوت دمث الخلاق قليل الكلام كثير الحياء. تولى الكتابة بالحضرتين الحسنية والعزيزية، عينه السلطان مولاي عبد العزيز صدرا للوزارة فسار سيرة تدل على ما له من حسن السيرة وكان له بطانة خير. توفي رحمه الله منتصف شعبان سنة 1325 هـ/ 1917 م. ينظر: عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج 2، ص ص: 174- 175.

[7] - الفاسي، معجم الشيوخ، ص: 175.

[8] - دنية: هو أحمد بن عبد السلام الأندلسي ثم الغرناطي وهو مفتيها، كان عالما مشاركا ومطلعا، توفي سنة 1282 هـ/ 1865 م. ينظر: محمد بن علي دنية، النسمات الندية، المطبعة الاقتصادية الرباط، ط 1355 هـ، ص: 16.

يعقوب،[1] الذي يقول عنه صاحب الاغتباط: «...وكان مختاري الطريقة، ومقدم الزاوية المختارية بالرباط حيث دفن».[2] ومنهم كذلك: محمد دنية،[3] وهو من كبار مريديها وكان: «يذهب صباح الجمعة للزاوية، بقصد إرشاد السادات المختاريين طريقته».[4] ومن أفرادها بمراكش الدباغ،[5] وكان فقيها، ومدرسا، نبيلا. وفي الرباط المكي بن عمرو.[6] فقد صمتت المصادر، عن عدم ذكر الشيوخ، الذين تلقى أولئك العلماء أوراد الطريقة المختارية عنهم. ولا يتعدى ما ورد عنهم في بعضها مستوى الإشارات العابرة. وقليلة هي الدراسات[7] التي أشارت وتنبهت إلى أهمية هذه المسألة.

3ـ المريد وصفاته في فكر المختار الصوفي:

المريد شخص يتصف بالحب والاقتداء، لأن الله أظهر نبيه رحمة للعالمين ليقتدوا به في جميع حركاته وسكناته. والمريد لله لا يريد إلا بإرادة وهداية من الله عز وجل تقدمت له. قال تعلى: ﴿يُحِبُّهُم وَيُحِبُّنَهُ﴾.[8] وقال عز وجل: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ﴾.[9] وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيهِم لِيَتُوبُوا﴾.[10] ووجب على المريد أن يقتدي كما يقول

---

[1] - ابن يعقوب: هو الحاج محمد الرباطي، ويشار إليه بالخير والصلاح والدين، وتوفي ببلده في ليلة الخميس من محرم سنة 1306 هـ/ 1888 م. ينظر: الاغتباط، مطابع الأطلس الرباط، ط 1986، ص: 203. وابن سودة، المصدر السابق، ج 8، ص: 2776.

[2] - دنية، النسمات الندية، ص: 203.

[3] - دنية: هو محمد بن أحمد بن علي الأندلسي ثم الرباطي من أشهر علمائها، وكان علامة مشاركا ومطلعا وخطيبا مصقعا، توفي ببلده الرباط سنة 1316هـ/ 1898 م. ينظر: دنية، النسمات الندية، ص: 34. وابن سودة، المصدر السابق، ج 8، ص: 2814.

[4] - دنية، المصدر السابق، ص: 34.

[5] - الدباغ: عبد الخالق بن أحمد المراكشي، من أفراد الطريقة المختارية بمراكش. ينظر: ابن إبراهيم، الإعلام، ج 8، ص: 53.

[6] - ابن عمرو: هو المكي بن الهاشمي بن محمد التهامي الأوسي الأندلسي ثم الرباطي، كان عالما مشاركا ناسكا ورعا، حج عام 1224 هـ، وتوفي يوم الأحد 12 صفر سنة 1301 هـ/ 1883 م، ودفن بالزاوية المختارية ببلده. ينظر: ابن سودة، المصدر السابق، ج 8، ص: 2761.

[7] - أهمها بدون شك هو مقال محمد المنوني، المدرسة الكنتية كأبرز قناة بين الإفريقيتين في العصر الحديث.

[8] ـ الآية 54 سورة المائدة.

[9] ـ الآية 119 سورة المائدة.

[10] ـ الآية 117 سورة التوبة.

المختار: «بشيخه، وتشبهه به في جميع شمائله، واتصافه بصفاته، واستعماله لما علّمه، واقتدائه به».[1] والاقتداء الذي يقصده المختار هو الالتزام والتعلق بالله، والسكون إليه،[2] حتى ينقطع رجائه ممن هو مخلوق مثله. ويجب أن يعلم المريد أن حق الشيخ أعظم من الوالد،[3] ومرتبته مقدمة على مرتبته، وطاعته أوجب. ومن خصائص المريد أنه محمول، وركابه الذي يُحمل عليه هو لا حول ولا قوة إلاّ بالله، وهو الذي: «يجذبه الحق جذبة القدرة، ويكاشفه بالأحوال».[4] ولأنه يتصف بالتسليم المطلق لله في ذاته وأحواله وأفعاله، فالله تعالى يتولاه، والمريد وإن كان سالكا فهو يلاحظ مراحل سيره على الطريق. ويرى العلامات الإلهية ويلاحظها في كل شيء، وبعبارة أدق: كل شيء في عينيه آيات بيِّنات.

حقيقة الإيمان:

يريد الله سبحانه وتعالى أن يرى عبده يُفرده بالكمال، ويرى تبعا لذلك نقص العبد وحاجته إليه. وكلما أفرد العبد ربه بالكمال زاد إيمانه، ويتكون الإيمان من: «أصلين وفرعين ونتيجتين ...أما أصلاه: فالشكر، والعفة. وأما فرعاه: فالحياء، والسكينة. وأما نتيجتاه: فالخشوع، والأمانة».[5] واعتقاد الملائكة لا يزيد ولا ينقص، واعتقاد الأنبياء، والأولياء، يزيد أبدا لترقيهم أبدا في مراتب المعارف ودرجاتها، فكما أن معارف الله لا تتناهى، فكذلك أمداد الأنبياء والأولياء لا تتناهى. لأن علو البنيان يكون على قدر قوة الأساس، فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان،[6] والعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه. وكذلك المرتقي: «في درجات العرفان كلّما ظن تناهيا، ناداه مناد في سره: أن

---

[1] ـ المختار الكبير، زوال الإلباس في طرد الوسواس الخناس، ص: 7.
[2] ـ ابن الحاج، المدخل، ج 3، ص: 116.
[3] ـ محمد الخليفة، الطرائف، و 11 ظ.
[4] ـ أبي بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ضبطه وعلق عليه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1993، ص: 158.
[5] - المختار الكبير، كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة، ص: 149.
[6] ـ ابن القيم، الفوائد، ص: 197.

تَرَقَّ، فإن الذي تطلب أمامك».[1] والأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيرا من الآفات. وأثبت الله[2] نعمته لعباده المؤمنين، بأن يذوقوا حلاوة الإيمان في الدنيا، وينالون جزاء إيمانهم في الآخرة، بدخولهم الجنة في درجات عالية مع الصديقين، والشهداء، والصالحين.

الشكر:

والشكر ــ كما مر بنا سابقا ــ أصل من أصول الإيمان، قال المختار:«وحقيقة الشكر استعمال الجوارح فيما خلقت له وأن ترى الكون كله نعمة».[3] قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.[4] وإذا شكر الإنسان، زاده الله توفيقا،[5] وهو اعتراف للمُنعِم وإقرار بالربوبية، والقيام له: «بطاعته والتقرب إليه بأنواع المحبة ظاهرا وباطنا».[6] ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم، لما شرح الله صدورهم للإسلام، وقبلوا نور الهداية على بينة من ربهم، صرفوا الاهتمام إلى الأعمال، وراعوا أنفسهم وشكروا الله على ما أتاهم من نعمة الإسلام. ويشير ابن خلدون[7] أن الشكر يختلف تفسيره باختلاف باعث المريد على المجاهدة، والمعنى أنه غير محدد أو لا يمكن الإحاطة بمعناه، وذلك متروك للمريد حسب درجة ترقيه في الطاعات. ومن علامات الشكر لله اجتناب نواهيه،[8] والاجتهاد في التزام أوامره، حتى يرزق الإنسان الخوف منه

---

[1] ــ المختار الكبير، كتاب المنة، ص: 97.

[2] ــ عثمان بن فودي، إحياء السنة وإخماد البدعة، نشر الحاج طن أغي طابيريرو، دار الكتب المصرية القاهرة، ط 1981، ص: 36.

[3] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 780.

[4] ــ الآية 7، سورة إبراهيم.

[5] ــ الكلاباذي، المصدر السابق، ص: 117.

[6] ــ ابن القيم، الفوائد، ص: 165.

[7] ــ شفاء السائل، ص: 203.

[8] ــ ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وأدولف فور، مطبعة أكدال الرباط، ط 1965، ص: 3.

تعالى. وأعلى درجة من هذا حصول الورع التام، وترك الطمع وبغض الدنيا ومن تمسك بها.

العزلة والخلطة:

والعزلة أو الخلوة أصل من أصول التصوف، وسبب من أسباب التعرف، درج عليها المرسلون، وتنافس فيها الأولياء والصالحون، وفيها يعيش الإنسان في الفكرة والتدبر وحتى تحصل له العبرة. واختلف في العزلة والخلطة، أيهما أفضل؟ فذهب البعض[1] إلى تفضيل العُزلة، لقربها من السلامة، ولكونها تُثبت حزن الآخرة في القلب، وترسِّخ الخشية من الله.

وهناك من قال بأن الخلطة أفضل، لكثرة الأجر المستفاد منها، من تعليم الجاهل، وإرشاد الضالّ. ووقف المختار وسطا بين الفريقين، فهو يرى أن الخلطة أفضل لأنها تؤدي إلى تحصيل «العلم، والجليس الصالح، وصحبة الأخيار، وزيارة الصالحين»[2] وصلة الأرحام، والجهاد في سبيل الله، وإغاثة الملهوف، وإطعام الجائع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتحمل الأذى، إلى غير ذلك مما لا ينال في الخلوة. وإن كانت الخلوة تعيين على المجاهدة، وأصلها من السنة[3] تعبد النبي عليه الصلاة والسلام في غار حراء، إلا أنها أصبحت ــ فيما بعد ــ من التفريعات المحدثة[4] والرهبانية المبتدعة.

والمختار يرى بأن الخلطة أفضل عندما يأمن الإنسان الفتنة على نفسه، فإذا خاف الفتنة، فالعزلة خيرٌ له. أما العالم الراسخ فالخلطة أفضل له مطلقا، لما له من قدرة على تبيان الحق من الباطل، كما: «أنه يمنع الناس في حالة الفتنة من التوغل في الهرج، ويدعو إلى السداد، ويكف العباد عن الفساد».[5] وفي كلام المختار الكثير من الإشارات

---

[1] ــ ابن الحاج، المدخل، ج 3، ص: 61.
[2] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 63.
[3] ــ عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر بيروت، ط 2003، ص: 189.
[4] ــ ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 224.
[5] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 64.

العامة، إذ لو اعتزل العلماء واشتغلوا بالعبادة دون تعليم الناس وإرشادهم إلى طريق النجاة، فمن يقوم بهذا الدور؟ ومن يملأ هذا الفراغ؟ بدون شك سيتولى ذلك أدعياء العلم أو المتعالمون، الذين يُعرفوا بجرأتهم على الدين وهم لا يفقهون منه شيئا. والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر عليهم أفضل عند الله.

وأما الإنسان القاصر عن منزلة العلماء، فينصحه المختار بالعزلة فهي أولى له مطلقا، ما لم يخف أن يدخل في العُجب،[1] فالخلطة حينئذ تصير خيرا له، و: «ربَّ عزلة أورثت عِزا وافتخارا، خير من خلطة أورثت ذلاً واحتقارا».[2] وأول ما يستفيده المرء القاصر من خلوته، الإخلاص في العمل،[3] والصدق فيما بينه وبين الله تعالى، وهي بذلك تُعد راحة للقلب وتطهيرا للنفس. والفرد في تلك الحالة يزهد في الناس وينقطع[4] إلى الله عز وجل، ويرجع إليه من فعله. وأخبر البعض[5] أن أفضل الزهد هو إخفاء الزهد. وهكذا يتضح أن الحلول عند الصوفي قاصرة ومحصورة، اهتمت بتحرير الإنسان لا بالمجتمع بل من المجتمع، لا بالانخراط الفعال بل بالفرار والانغلاق على الذات بشكل كبير.

تحسين الهيئة:

يقف المختار هنا في مسألة هيئة المسلم موقفا يخالف ــ إلى حد ما ــ ما درج عليه المتصوفة من التقشف في الملبس، والاقتصار على الخشن منه. ويوصي كل مسلم بتجميل الظاهر بالثياب الحسنة والوضوء والغسل، وتحسين الرائحة بالتطيب والاستياك. ولا يفوت الفرصة حيث يشير أن جمال الملبس والرائحة لا يكفيان ما لم يلتزم صاحبهما بتجميل الأخلاق بالآداب الحسنة، وتحسين الطبائع بالكرم والجود والشجاعة، فإذا اجتمعت

---

[1] ــ العجب: المقصود به أن يساوره الشك في نفسه ويفتن، وهي من الاستعجاب، وعادة ما يأتي العجب بعد التجريد. ينظر: الكلاباذي، المصدر السابق، ص: 170.

[2] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 64.

[3] ــ ابن الحاج، المدخل، ج 3، ص: 62.

[4] ــ الكلاباذي، المصدر السابق، ص: 117.

[5] ــ ابن القيم، الفوائد، ص: 152.

في الإنسان هذه الخصال فقد أسبغ الله عليه نعمه، و: «تحلى بالجمالين: جمال الظاهر والباطن، وقد فاز بالحبين: حب الله وحب رسوله؛ لأن الله جميل يحب الجمال، كامل يحب الكمال، نظيف يحب النظافة».[1] وقال تعالى: ﴿قُل مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.[2] وعبارة المختار جامعة لفكرة أساسية وهي أن الاهتمام بالظاهر ونسيان أو إغفال الباطن، يعد تفريطا من المسلم الذي يوصف بالكياسة والفطانة. والملفت كذلك أن الشيء الذي يسايره العقل أن يقول المختار عكس ذلك، خاصة وأنه يعيش في بيئة صحراوية متواضعة، عرف عن الساكنة بها قلة الحال ولبس ما وجد،[3] وعدم التنوع في الملبس، والمشرب.

ولو أخذ الباحث مثالا للزاهد بالخليفة الورع عمر بن عبد العزيز، الذي جعله المختار مجددا[4] للقرن الأول من أولي الأمر، لوجدنا أن هذا الخليفة قبل توليه أمر المسلمين كان كثير الاهتمام بلباسه: «ما لبست ثوبًا قط فرآه الناس عليَّ إلا خُيِّل لي أنه قد بلى».[5] غير أنه لما وُلي أمور الناس خرج من ذلك كله، وتقشف وأمسك عما في أيدي الناس. وفي اعتقادي أن حالة الخليفة عمر تمثل وضعا فريدا للزهد الفعلي الخالي من الرياء والتصنع، لأنه زهد جاء بعد مقدرة صاحبه على المعيشة الرغيدة، غير أنه فضّل الخشونة على الانبساط والتوسعة. أما الذي حُرم ملذات الحياة فكيف له أن يزهد فيها، إذا كان وضعه قد فرض عليه التقشف أصلا؟

ويحاول المختار أن يبرئ ذمة الصوفية مما التصق بهم في مسألة لباس الخرقة والخشن من الثياب، حتى وصفوا بأوصاف[6] لا تليق بالمسلم الذي أمر بتحسين حاله:

---

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 535.
[2] ـ الآية 32 سورة الأعراف.
[3] ـ عثمان بن فودي، إحياء السنة، ص: 206.
[4] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 310.
[5] ـ ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، دار الفجر للتراث القاهرة، ط الأولى 1999، ص: 127.
[6] ـ من جملة تلك الأوصاف: الدروشة والدرويش!

«ولذلك كانت القادرية، والشاذلية، تُجمِّل هيئاتها».[1] وهناك من آثر التحلّي بالفقر في كل أحواله، شأن من لم يجعل الدنيا أكبر همّه، وجعل أقصى ما يأخذه منها من اللباس الصوف، وأصبح هذا الصنف من اللباس شعارا لبعض أهل التصوف، على اعتبار أن القوم[2] لم يختصوا بلباس دون آخر.

الأخوة:

وأصل الأخوة عند المتصوفة هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار،[3] التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم عقب هجرته إلى المدينة المنورة. ويلمح المختار أن أهل التصوف اختصوا بالأخوة التامة من هذه الأمة ، فبقوا على ما كان عليه سلفهم الصالح من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يزد لديهم إلا تأكيدًا؛ فأوجبوا تقديم حق الأخ من الشيخ على الأخ للأب والأم: «بل صيَّروا أخا النسب أجنبيًا؛ فلا يستحلون في طريقهم أن يمنع أحدهم من أخيه ما يحتاج إليه من ماله، ويتحرجون من قوله: مالي، وهذا لي، إلى ما لا يدخل تحت حصر من مآثرهم رضي الله عنهم».[4] وقول المختار فيه نظر، إذ كيف يعقل أن يصير الأخ من النسب أجنبيا إذا كان مؤمنا صالحا؟ والإسلام أمرنا بصلة الأرحام، والإحسان إلى الأقارب والصبر عليهم، بل جعل الصدقة أولى فيهم.

والمجتمع الإسلامي يطالب كل فرد وكل مجموعة، بأن تقوم مقام الكفيل[5] لكل الأفراد والمجموعات الأخرى على قدر الوسع، وهذا لا يقتصر على أفراد الطرق الصوفية وحدهم. والكفيل كما شرحه أحد المفسّرين هو: «الشاهد والضامن والرقيب على الشيء المراعي لتحقيق الغرض منه».[6] وهذا المعنى الجامع للكفالة هو المطلوب بهدف

---

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 535.
[2] ـ ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 182.
[3] ـ ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص: 114.
[4] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص ص: 284 ـ 285.
[5] ـ عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، ص: 59.
[6] ـ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط 1984، ج 14، ص: 262.

تمكين ذوي الحاجات والعاجزين من الارتقاء إلى حال القدرة على أداء مهامهم، وتخليصهم مما حلّ بهم من النقائص المعطلة لهم.

أنواع القلوب:

يدرك المختار أن صلاح الفرد أو فساده متعلق بالقلب، هذه المضغة التي أوضح النبي عليه الصلاة والسلام بأنه إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد كله. والقلوب أنواع منها: القاسية، وهذه النوعية لا تقبل الموعظة ولا النصيحة، «ولا ترحم الصغير ولا تشفق على الكبير والفقير».[1] وهي التي قصدها الخطاب القرآني، قال تعالى:﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُهُم مِّن بَعدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أو أَشَدُّ قَسوَةً﴾.[2] ثم بيَّن كونها أشد قسوة بقوله:﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنهُ الأَنهَارُ وَإِنَّ مِنهَا لَمَا يَهبِطُ مِن خَشيَةِ اللَّهِ﴾.[3] وهذه القلوب خالية من الإيمان وليس فيها خير، مليئة[4] بالكبر، والرياء، والحسد، والحقد، والظلمة، والشيطان استراح من إلقاء الوساوس إليها[5]، وبالتالي فقد عششت فيها الفتن والبلايا، وتحكمت فيها الشهوات والنقائص.

ومن أنواع القلوب كذلك قلوب الخاصة، وهي قلوب الأنبياء والوارثين من الأولياء، تتفجَّر منها أنهار العلم والحكمة. قال تعالى:﴿سَنُقرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾.[6] فقلوب الأنبياء تتفجر بالوحي وبالإلهام، وتارة برؤيا المنام، ومرة يؤخذون عن عالم الحسِّ إلى عالم الغيب: «وأما الأولياء، فكذلك! إلا أنهم لا يأتون بشرع جديد، ولم يؤخذ عليهم العهد بالتبليغ، كما أخذ على الأنبياء، بل واجب عليهم الكتمان، إلا ما لابد منه».[7] والأولياء ليسوا كالأنبياء أبدا، غير أن المختار دائما يقارب بين النموذجين وشتان بينها! وهو عندما يقول بأن

---

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 46.
[2] ـ الآية 74 سورة البقرة.
[3] ـ الآية 74 سورة البقرة.
[4] ـ ابن خلدون، شفاء السائل، ص: 177.
[5] ابن القيم، الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص: 41.
[6] ـ الآية 6 سورة الأعلى.
[7] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ص: 46.

الأولياء وجب عليهم الكتمان، فإن عبارته هذه تظل غامضة جدا، لأن الشرع لا يجوز كتمان شيء منه على الإطلاق. ومسألة الكتمان عند المتصوفة متعلقة بالعلم اللدني ــ التي تناولناها سابقا ــ أما الأنبياء فإن قلوبهم عاكفة أبدا على محبة الله سبحانه وتعالى، وجوارحهم عاكفة على طاعته،[1] بالإخلاص له، ومن لم يتعلق قلبه بالله تعلق بأمور أخرى دونه.

وهناك القلوب التي تهبط من خشية الله، وهي قلوب كانت في تعيش في غرور، ثم رضيت برتبة التواضع. ومثاله ماء الغيث، فإنه يهبط من رفعته، وتبتلعه الأرض ولا يمكث إلا أياما حتى يُرى وقد علا الأشجار، ويكسوها خضرة، ثم يصير زرعا وثمرا: «فيأكله الأنبياء، والأولياء، والمؤمنون، فيصير لحما ودما، فيصير حيوانا بعدما كان من جنس الجمادات، ثم يدخلون به الجنة، فيكون خالدًا بعدما كان فانيا».[2] وهذه القلوب محشوة بالإيمان،[3] تعهدها الله سبحانه وتعالى بالحراسة من الوسواس، وهي قلوب المؤمنين الذين امتثلوا أوامر الله، واجتنبوا نواهيه، فقلوبهم مستقرة بالتوحيد والمحبة والإيمان.

الذكر:

أشرت في السابق إلى أن الطريقة الكنتية هي قادرية شاذلية، ومؤسسها كان يواظب على الأذكار، ووضع تأليفا خاصا بذلك سماه: نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب.[4] والطريقة الكنتية تمتاز بالإكثار من الصلاة والتسليم على النبي الكريم ومحبته، يقول المختار: «اللهم صلّ عليه عدد دوران الأفلاك، وصلّ عليه عدد تسبيح الأملاك، وصلّ عليه عدد الأنوار والأحلاك، وصلّ عليه مبلغ الإدراك، وصلّ عليه عدد الجبال

---

[1] ــ ابن القيم، الفوائد، ص: 241.

[2] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 46.

[3] ــ ابن القيم، الوابل الصيب، ص: 41.

[4] ــ توجد منه نسخ عديدة في الخزائن الخاصة والعامة، وهناك من يسميه بالصلاة الكنتية. شرحه محمد الخليفة في كتاب ضخم سماه: الروض الخصيب في شرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب. وتوجد منه نسخة مخطوطة بخزانة الشيخ باي بأولف.

الراسيات، وصلّ عليه عدد الأموات والناميات، وصلّ عليه عدد نقط البحار الزاخرات، وصلّ عليه عدد الأزهار الفاخرات».[1] وواضح الاحتفاء والتزام السجع، إذ يتكرر حرف الكاف في خواتم الجمل الأولى، والتاء في خواتم الأخرى، وهذا الولوع بالألفاظ عادة ما تضيع من خلاله المعانى.

والله تبارك وتعالى أمرنا بالصلاة عليه إكراما لنا وإجلالا لرسوله، فلما أمرنا بذلك لم تكن صلاتنا من تلقاء أنفسنا كفئًا له صلى الله عليه وسلم فأحلناها على الله. قال المختار: «لتكون الصلاة من رب قاهر على نبي طاهر؛ فحصل مقصود الشارع، وهو كرامتنا بأن تكون صلاتنا تبعا لصلاة العلي الأعلى، أو مقتدين في ذلك برب الأرض والسماوات العلى».[2] قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا تَسلِّمًا﴾.[3] فالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم من خواصه التي لا تُوازى، ومزاياه التي لا تنازع، إذ لم يعطها نبي قبله.

ومع ذلك فإنه لم يلتزم بتلقين أذكار مخصوصة ــ على غرار بعض الطرق[4] ــ لمريديه، وإنما كان يشدد على الالتزام بأوامر الشريعة. ثم اشتهر عن هذه الطريقة ــ فيما بعد ــ أوراد وأدعية وتسمى بالوظائف، وهذا الورد يُذكر دبر كل صلاة من الصلوات الخمس، وهو: حسبنا الله ونعم الوكيل مائتي مرّة، وأستغفر الله مائتي مرّة، ولا إله إلاّ الله الحق المبين مائة مرّة، واللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم تسليما مائة مرّة.[5] وهذه الأوراد يداوم عليها المريد وتقرأ بصفة جماعية في ليلتي الخميس والجمعة، ويوم الجمعة بعد صلاة العصر.[6] وبعد ذلك كله يذكر حزب السيف المعروف

---

[1] ــ المختار الكبير، نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب، ص: 3.
[2] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 606.
[3] ــ الآية 56 سورة الأحزاب.
[4] ــ من جملتها الدلائية. ينظر: محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط 1988، ص: 55.
[5] ــ وثيقة مخطوطة بالزاوية الكنتية بمكناس دون رقم.
[6] ــ باحمد عمر دمه، الزوايا الكنتية أعلاما وجغرافية، مطبعة البركة نيامي النيجر، د ت، ص: 125.

بسيف الحكماء، وهو: يا أالله يا أالله يا أالله، يا رب يا رب يا رب، يا رحمان يا رحمان يا رحمان، يا رحيم يا رحيم يا رحيم.[1] ومن المحظورات[2] في هذه الطريقة الرقص، والصراخ، والتأوهات السخيفة، ورفع الصوت عند الذكر، والحركات التي يقوم المشعوذين. وهي تنكر تلك الأمور بعدما شاعت في زوايا المغرب والصحراء، حتى بدأ بعض الشيوخ[3] حملة ضد الرقص ونفروا منه، فما حضروا حلقة للرقص ولا أثنوا عليها ولا استحسنوها،ولم يثبت عن الكنتيين أنهم أقاموا الحضرة في مجالسهم الصوفية.

وصرّح الإمام عز الدين بن عبد السلام عمن يقول في الذكر: الله، الله، الله، مقتصرا على اسم الجلالة، بأنه بدعة. كما أشار الناصري إلى أن ذكر لا إله إلا الله، أفضل من ذكر لفظ الجلالة مطلقا.[4] ومن البدع التي نبّه إليها بعض متصوفة المغرب رفع الصوت بهيلولة: يا الله، يا الله. ورغم ذلك فذِكر يا الله خير من الغيبة، ولكن من غير هيلولة، كل يذكر وحده في نفسه،[5] ومنها بلية الحضرة[6] وما يضاهيها.[7] ورأي الناصري الأخير فيه من الحكمة الكثير، فهو لا يرى بأسا في الذكر المنفرد، وهذا ما التزم به البعض[8] الذي أخذ في التسبيح والتهليل في نفسه، حتى يرق قلبه ويجتمع خاطره. إذ أن المؤمن لسانه رطب بذكر الله. والذي يذكر ربه والذي لا يذكره، مثل الحي والميت. وأعتقد أن ذكر لفظ الجلالة وحده (الله) وتكراره منفردا، يجعل الجسم يهتز، وسرعان ما يشعر الإنسان بحرارة ربما تؤدي به إلى الصراخ والقفز. وطبعا كل هذه الأشياء تتنافى

---

[1] ـ وثيقة الزاوية الكنتية بمكناس.
[2] ـ محمد الخليفة، الطرائف، و 76 ظ.
[3] ـ من جملتهم محمد الطاهر الفاسي. ينظر: عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج 1، ص: 24.
[4] ـ الناصري، طلعة المشتري في النسب الجعفري، ج 1، ص: 148.
[5] ـ الناصري، المزايا، ص: 79.
[6] ـ ألف الفقيه علي بن الصادق الجبالي العيادي تأليفا في نحو الخمسة عشر كراسا في الرد على ما يقع من فقراء الزمان من المخالفة، وسماه: تحفة الإخوان في التحذير من حضور حضرة فقراء الزمان. ينظر: حمزة أبو فارس، أضواء على جوانب من حياة ليبيا العلمية، منشورات فاليتا ماطا، ط 2001، ص: 74.
[7] ـ الناصري، المزايا، ص: 100.
[8] ـ ابن قنفذ، أنس الفقير، ص: 105.

مع الفطرة الإنسانية، التي تدعو إلى الهدوء، والثبات، خاصة أثناء الذكر الذي يتطلب الوقار، والالتزام.

ومن الأذكار التي يوصي بها المختار الباقيات الصالحات، وهي الأعمال الصالحة التي تبقى مع الإنسان في حياته، وتحفظه عند الموت، وتقرّ بها عينه بعد الوفاة، ويبتهج بها عند البعث. وقيل هي: «سبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».[1] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الباقيات الصالحات: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله).[2]

وكان المختار في أدعيته وأذكاره كثيرا ما يردد: «فلا تكلنا إلى أنفسنا فنهلك ولا إلى غيرنا فنضيع».[3] وهو كلام مأخوذ عن إبراهيم بن أدهم،[4] وهذا الدعاء مشهور عند العديد من الطرق قالوه بصيغ مختلفة: ولا تكلنا للأصدقاء، ولا تسلمنا للأعداء، وكن لنا بما كنت به لأحبائك وأصفيائك.[5] ومن أدعيته التي كان مداوما عليها: «إلهي بك أستغيث وعليك توكلت فاكفني يا كافي، اكفيني المهمات من أمر الدنيا والآخرة، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها، إني عبدك ببابك ذليلك ببابك أسيرك، اللهم أنت أمرتنا بدعائك ووعدتنا بإجابتك، وقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا، يا ذا الجلال والإكرام إنك لا تخلف الميعاد».[6] وهي أدعية تظهر ضعف المريد وحاجته إلى خالقه، فهو يتضرع ويطلب

---

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 55.

[2] ـ أخرجه النسائي، وصححه ابن حبان والحاكم. وقيل ضعيف، وهو من دراج عن أبي الهيثم، ودراج ضعيف في روايته عن أبي الهيثم. ينظر: ابن حجر العسقلاني، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، تحقيق محمد بيومي، دار الغد الجديد المنصورة مصر، ط الأولى 2005، ص: 314.

[3] ـ المختار الكبير، نفح الطيب، ص: 5.

[4] ـ إبراهيم بن أدهم: هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور، من كورة بلخ، كان يأكل من عمل يده. وكان من كبار الشأن في باب الورع. ينظر: أبي القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1998، ص: 22.

[5] ـ محمد حجي، الزاوية الدلائية، ص: 56.

[6] ـ المختار الكبير، حزب المغني، مخطوط خزانة الطالب التهامي بأقبلي أولف، دون رقم، و 2 و.

القول. وأهم شيء يمكن ملاحظته هو الاتحاد الواضح بين القلب واللسان، فالذكر ينتقل من اللسان ولا يخلو القلب منه.

والمسلم دائم الذكر حتى عند النوم، فعليه أن لا ينام إلا على طهارة، واستقبال قبلة، وإقبال على الله، ثم يقول: «اللهم اجعل نفسي نفسا طيبة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتحب أهل طاعتك من أنبيائك وأوليائك».[1] ثم يقرأ قصار السور، وآية الكرسي، ولقد جاءكم. ومن أدعية المختار السابقة يستشف الباحث أن فيها كثير من المبالغة، لأن الدعاء المطلوب هو الذي يكون جامعا.

الاجتهاد في العبادة:

فينبغي للإنسان أن يفعل كل شيء فيه طاعة لله، لأنه تبارك وتعالى خبأ رضوانه، فلعله يصادف ساعة الإجابة في بعضها فيسعد السعادة الأبدية، فقد خبأ اسمه الأعظم في أسمائه، كما خبأ الصلاة الوسطى في الصلوات، «وساعة الإجابة في الجمعة، والأولياء في عباده، وليلة القدر في الليالي»،[2] وذلك كله بحسن النية، وتصحيح العقد. والهدف من ذلك كله هو التشمير واستغلال الوقت بأفعال الخيرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.[3] أي تقلبا في فعل الخيرات. وفي الجملة السابقة للمختار عودة جديدة لموضوع الولاية، وكأنه لا يستطيع أن يتناول أي فكرة دون ربطها بهذا الأساس، الذي ألزم نفسه به وجعله الركيزة في مجاله الصوفي. بالرغم من وضوح العلاقة بين المجاهدة والولاية، لكون هذه الأخيرة متعلقة بموالاة الطاعات، وهذا لا يأتي إلا بالمجاهدة. ومدار المجاهدة هو النفس، إذ وجب تصفيتها[4] وتخليصها من نقائصها. حتى تتخلص من المكدرات الغريزية التي جُبلت عليها.

---

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 440.
[2] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 439.
[3] ـ الآية 7 سورة المزمل.
[4] ـ ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 186.

وعلى المسلم أن يشمر برياضة النفس حتى يكفها عن الميل إلى الشهوات، وهو أمر صعب في البداية، غير أنها سوف تلين. ولا أمان لها لأنه بقدر ما يوسع الإنسان عليها تسوء وترمي صاحبها في الضلالة، وجهادها هو الجهاد الأكبر وهي: «أخبث من سبعين شيطانا، فاقهرها بقيد الهمة، وافطمها بكم العزلة، وزمها بزمام الحكمة، واضربها بسوط الكتاب والسنة».[1] وعلى الإنسان أن يسيرها في ميدان الحقيقة، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.[2] وعليه أن يجعل العقل سائسها، والتقوى هي من تحرسها، فتصير داعية إلى الخير، لا تخطر الشهوة لها ببال، فحينئذ تطمئن. قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.[3]

ويوصي المختار المريدين بالتزام صلاة الجماعة، وأن يحفظوا خطاهم من السعي بها إلى الإثم والمأثم، لأنه أصل عظيم من أصول الدين، قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ﴾.[4] فجعل الآثار في مقابلة جميع أفعال البدن، «لأنها الواسطة والسبب الموصل إلى ذلك».[5] وطريق السنة في أمر المسجد ألا يشتغل من بداخله إلا بالعبادة[6] من صلاة، وتعلم علم، وذكر. ولذلك سميت جميع الأعمال بالسعي لأنه معظمها والسبب في تحصيلها، قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾.[7] أي عمل الأعمال التي تقضي تحصيل الثواب والنجاة من أليم العذاب بالامتثال والاجتناب.

ومن المجاهدة الإمساك عن الكلام الذي لا طائل من ورائه، وما يُبين خطورته أن ساوى الله بين صاحبه وبين المكذبين بيوم الدين، فقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ

---

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 155.
[2] ـ الآية 13 سورة الزخرف.
[3] ـ الآية 27 ـ 30 سورة الفجر.
[4] ـ الآية 12 سورة يس.
[5] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 517.
[6] ـ عثمان بن فودي، إحياء السنة، ص: 70.
[7] ـ الآية 19 سورة الإسراء.

مِنَ المُصَلِّينَ وَلَم نَكُ نُطعِمُ المِسكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّينِ﴾.[1] وقال عز وجل: ﴿مِنَ النَّاسِ مَن يَشتَرِي لَهوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيرِ عِلمٍ﴾.[2] ويجب على الفرد أن يقسم أوقاته بين العمل للآخرة، والعمل للدنيا فيما لا بد منه من الضروريات،[3] ويشتغل في منافع الخلق، ووقتا يجلس فيه إلى زوجته، ولا يترك نفسه سدى بلا شغل فتخوض فيما لا طائل منه.

وحينما تمتثل نفوس المؤمنين للمجاهدة، فمن شأنها أن تكسبهم روح جديدة في سعيهم نحو استكمال الطاعات، ولا يتم ذلك إلا بعدما تأخذ منهم المجاهدة مأخذ النفير،[4] قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَموَالِكُم وَأَنفُسِكُم﴾.[5] وبالرغم من أن المجاهدة التي وردت في الآية جاءت بمعنى الجهاد في سبيل الله، غير أنه يوجد توافق كبير بين النفير والمجاهدة. فكأن الشخص الذي يُقدِمُ على مجاهدة النفس، فقد أعلن النفير، والحرب، على رغباتها وملذاتها.

الغيبة والنميمة:

وهما من أقبح القبائح وأكثرها انتشارا في الناس، حتى إنه لم يسلم منهما إلا القليل، والغيبة ذكر الإنسان بما فيه مما يكرهه، سواء كان في دينه، أو بدنه، أو نسبه، أو خلقه، أو ماله. وهي مذمومة في كل الحالات. وكما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة، فكذلك يحرم على السامع استماعها، فيجب على من سمع إنسانا يبتدئ بغيبة أحد أن ينهاه إن لم يخف ضررا على نفسه: «فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه، أو مفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته».[6] ويكفي في التوبة من الغيبة الاستغفار للمغتاب، ولست هناك حاجة إلى

---

[1] ـ الآية 42 ـ 46 سورة المدثر.
[2] ـ الآية 6 سورة لقمان.
[3] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 280.
[4] ـ عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، ص: 75.
[5] ـ الآية 41 سورة التوبة.
[6] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 543.

علامه، بل يكفيه الاستغفار وذكره بمحاسن ما فيه في المواطن التي اغتابه فيها. لأن الإخبار يهيج العداوة وهذا ما لا يبيحه الشرع الحكيم، لأن: «مدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها، لا على تحصيلها وتكميلها».[1]

وكما تحرم الغيبة تحرم النميمة، وهي من الكبائر، وهي تسلب العزيز عزه، وتحط من مكانة الأشخاص: «وكم من دم أراقه سعي ساع، وكم من صَفِيَين تقاطعا، ومن متواصلين تباعدا، ومن لبيبين تهاجرا».[2]

ذم الدنيا:

والإنسان الذي يسير في طلب الدنيا إنما يسير في أرض مليئة بالمكاره، ومحفوفة بالشوائب. وقد ينالها بنية الآخرة، ولكن الآخرة لا يمكن أن تُنال بنية الدنيا أبدا. ورغم ذلك فالعلماء لم يذموا الدنيا على الإطلاق، كما أنهم لم يمدحوها بإطلاق. بل تحمد وتذم بحسب ما استعملت فيه بنسب متفاوتة، فهناك قوم رأوا الدنيا، فقالوا: «هذه جيفة، لكن لابد منها إذ قد وضعت على جادة الطريق، ولا يمكن للفرد أن يصل إلا بها، فهم السابقون بالخيرات».[3] لأن الله جعلها في أيديهم، ولم يجعلها في قلوبهم. وهؤلاء هم الذين أماتوا هوى الأنفس فيها،[4] من أجل بلوغ الحياة الأبدية والسعادة النهائية، وشمروا على أيديهم في هذه الدنيا وجعلوها مطية للآخرة وأدركوا المقصد، وأنها دار امتحان.

ووجد من رفضها بالجملة لأنهم لم يتمكنوا من مجارات زخارفها، فطلبوا من الله التأييد باليقين للنجاة، خوفا من الوقوع في ترهات الضلال« فهؤلاء مقتصدون».[5] وهو يريد بالمقتصدين الزاهدين المعرضين عن الدنيا، الذين أدركوا سطوتها وخداعها، وجعلوا همهم محاربة النفس الأمارة بالسوء، فرضوا بالتضرع والالتجاء إلى الله لأنهم فهموا

---

[1] ـ ابن القيم، الوابل الصيب، ص: 225.
[2] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 544.
[3] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 59.
[4] ـ ابن القيم، الفوائد، ص: 62.
[5] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ص: 59.

«المقصود، فأجمعوا الرحيل وشمروا للسير في سواء السبيل».[1] ورأوا بأن الناس متنافسون في فضلاتها، ولذلك اختاروا الحذر من مجاراتها والاقتراب من متعها، إلا ما لابد منه.

ومن الناس من طلب اللذة والاستمتاع بالشهوات في الدنيا، وهؤلاء اقتحموا الدنيا «من غير دليل، فأغرقتهم».[2] فلم تجلب لهم إلا المتاعب والآلام العميقة، وكانت عواقب سيرتهم سيئة، إذ لم تكن محدودة بحدود المصلحة العاجلة والآجلة،[3] وبحدود الخير الذي أتى به الإسلام. وهؤلاء الذين آثروا الدنيا على الآخرة إما لفساد إيمانهم، وإما من فساد عقولهم، «وما أكثر ما يكون منهما».[4] قال تعالى: ﴿اعلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا لعِبٌ ولَهوٌ وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بَينَكُم وتَكَاثُرٌ فِي الأَموَالِ وَالأَولادِ كَمَثَلِ غَيثٍ أعجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾.[5]

صاحب المعاصي كالحيوان:

وصاحب المعاصي يشبه الحيوان، لأنه لم ينتفع بعقله فيما يعود عليه نفعه في عاجله وآجله، فإذا سلب منه العقل ساواها في مجرد التناول على مقتضى الشهوة وما تدعوا إليه النفس: «من ارتكاب هواها في تحصيل مناها على أن فيه رداها».[6] أما بالنظر إلى المآل فهي أفضل منه لأنها لا تحاسب ولا تعاقب، قال تعالى: ﴿إن هُم إلَّا كَالأنعَامِ بَل هُم أضَلُّ﴾.[7] لأن الله تبارك وتعالى جعل العالم الحساس على ثلاثة أقسام: قسم ركب فيه العقل دون الشهوة وهم الملائكة، وقسم ركب فيه الشهوة دون العقل وهم البهائم، وقسم ركب فيه عقل الملائكة وشهوة البهائم وهم الثقلان، فمن غلب عقله على شهوته فهو كالملائكة بل هو أفضل، ومن غلبت شهوته على عقله فهو كالبهائم بل هو أضل، ولأنه:

---

[1] ـ ابن القيم، المصدر السابق، ص: 64.
[2] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ص: 59.
[3] ـ عبد الرحمن الميداني، العقيدة الإسلامية، ص: 50.
[4] ـ ابن القيم، المصدر السابق، ص: 124.
[5] ـ الآية 20 سورة الحديد.
[6] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 258.
[7] ـ الآية 44 سورة الفرقان.

لو تصوَّر ما في ذلك من الألم والحسرة لقطع غلبة الشهوة عليه.[1] إذ أعطاه الله آلة الشرف فضيعها، وبالعقل تحمَّل الإنسان الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، قال عز وجل: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾.[2]

البكاء وأقاسمه:

يتعرض المختار إلى البكاء ويبين بأنه خلق الأنبياء والأصفياء من الناس، فجمود العين عنده علامة على الشقاء، ولذلك فالبكاء لا يستغنى عنه بحال من الأحوال بالنسبة للمؤمن. وهو أقسام فهناك بكاء الخوف من الله، وعادة ما يكون بعد الوقوع في المعاصي التي توجب الذل، وهذا النوع «يقتضي من المريد الفرار، والقلق، والانكسار، وهو بكاء التائبين المقلعين».[3] وذُكر أن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بكا يوما، فقالت زوجته: مم بكيت؟ فقال: ذكرت انصراف القوم بين يدي الله، فريق في الجنة، وفريق في السعير.[4] ورغم أن عمر لم يؤثر عنه إلا الصلاح، ولم يكن من العصاة، إلا أنه بكا خوفا من الله فهو لا يأمن مكره.

وهناك بكاء الخشية وهو بكاء أهل التمكين، وهو الذي «يصاحبه خشوع وسكينة وخضوع»[5] ويكون بدون صوت وانتحاب، يبكي متى شاء وكيف ومتى أراد. وفي العادة أن بكاء الخشية تغلب فيه الباكي عيناه،[6] ويأتي بعد تدبر صاحبه في ملكوت الله، ونعم الصانع وقدرته اللامتناهية، وفي المقابل يحتقر الإنسان نفسه ويستصغرها أمام عظمة

---

[1] ـ ابن القيم، الفوائد، ص: 173.
[2] ـ الآية 72 سورة الأحزاب.
[3] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 583.
[4] ـ ابن الجوزي، سيرة عمر، ص: 157.
[5] ـ المختار الكبير، التذييل الجليل العادم المثيل، مخطوط الخزانة الحسنية الرباط، رقم: 1736، و 42 ظ.
[6] ابن الجوزي، المصدر السابق، ص: 163.

الله سبحانه وتعالى. والعين التي تبكي من خشية الله لا يدخل صاحبها النار، فهي مثل عين المرابط والمجاهد في سبيل الله.

وهناك بكاء الهيبة وهو بكاء يثيره التفكر في جلال الله وعظمته، وهذا لا يوفق له إلا العارفين أهل التمكين. وهذا النوع من البكاء: «لم يبعثه خوف وعقاب ولا طمع في ثواب»[1] بساطهم قوله تعالى:﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَت قُلُوبُهُم وَإِذَا تُلِيَت عَلَيهِم ءَايَاتُهُ زَادَتهُم إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾.[2] فهذا البكاء من مواهب الله، وهو غاية قصوى. وسأل الثوري رابعة عن حقيقة إيمانها، فقالت: ما عبدته خوفا من ناره، ولا طمعا في جنته، فأكون كالأجير السوء، عبدته حبا له وشوقا إليه.[3]

وبكاء الحياء وهو الذي يثيره انكسار واحتقار، «انكسارا أن يكون أهلا للإقبال، واحتقارا لعلمه أن يكون أهلا للقبول، وهو مقام المراقبة».[4] وبساطهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤتُونَ مَا ءَاتَوا وَقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ أَنَّهُم إِلَى رَبِّهِم رَاجِعُونَ﴾.[5] ويأتي هذا البكاء بعدما يكون هم المريد[6] إرضاء ربه ويبذل جهده في الاستعداد للقائه، ويحزن على الوقت الذي مرّ في غير مرضاته، فيصبح ويمسي في بكائه وليس له هم غيره.

ومن أقسام البكاء بكاء الذنب على ما مر، وهو البكاء الذي:« يثيره القلق والخوف والحياء والتملق»[7]. وهو يمتزج مع الشوق، لأنه جاء بعد التوبة والندم على المعصية،[8] والتفكر فيما يجب الندم له. وبساطهم قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعلَمُ نَفسٌ مَّا أُخفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ

---

[1] ـ المختار الكبير، الجرعة الصافية، و 34 ظ.
[2] ـ الآية 2 سورة الأنفال.
[3] ـ ابن خلدون، شفاء السائل، ص: 191.
[4] ـ المختار الكبير، جذوة الأنوار، و 34 و.
[5] ـ الآية 60 سورة المؤمنون.
[6] ـ ابن القيم، الفوائد، ص: 151.
[7] ـ المختار الكبير، الجرعة الصافية، و 36 ظ.
[8] ـ الجويني، الإرشاد، ص: 160.

أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[1] فهؤلاء بكاؤهم من جنس معناهم، لأنهم خافوا[2] من الله، بسبب قدرته عليهم، فهم لم ينسوا ذنوبهم التي اقترفوها في حقه.

وبكاء محبة، وهو الذي أثاره تجلي الجمال، وبعدما أصبح صاحبه لا يدخل موضع يعص فيه الله لم يهنأ له فيه قرار، لأنه فضّل محبته والشوق إليه. فهذا البكاء: «لهيبه زمهريرٌ، ومعين نهره غزيرٌ، لا يوازيه نهرٌ ولا غدير، وتلاطمت أمواجه».[3] وهو بكاء لا يأتي إلا بعد معرفة الله[4] والعلم به، فكلما كانت المعرفة قوية كان الشوق أشد، وكلما اتسع العلم به وأصبح تاما كانت محبته على الوجه الأكمل. وهكذا يميل القلب إلى الله[5] بكليته، وإلى ما أمر به، لأن محبة العبد لله هي تعظيم له، فلا يجيز تعظيم سواه.

وأخيرا بكاء القرب، ويشير المختار أن صاحبه كان في الحقيقة متهتكا، ولا يستطيع أن يتمالك نفسه عن الشهوات، ولكن بعد توبته آثر إتيان الأعمال التي تجعله من أصحاب القربات، وجعل هدفه الآخرة وما فيها، وأصبحت عيونه لا تكاد تجف من الدموع فهي: «بحر البحور، ولجة الحبور، للدخول في البيت المعمور، والرق المنشور، والبحر المسجور، فيعبر عن نفسه بنفسه، ويأخذ علم الشريعة من رمسه، وعلوم الحقيقة من حسه».[6] وهو يحمل معنى التدلل والتذلل، وجاء من قوله تعالى: ﴿واسجُد واقتَرب﴾.[7] بحيث يرى العبد الباكي صنائع خالقه ومننه عليه، وكيف هي كثيرة وغير متناهية، فيستصغر كل أفعاله الخيرة ومجاهداته الكثيرة.

---

[1] ـ الآية 17 سورة السجدة.
[2] ـ الكلاباذي، التعرف، ص: 109.
[3] ـ المختار الكبير، جذوة الأنوار، و 54 و.
[4] ـ ابن القيم، الفوائد، ص: 72.
[5] ـ الكلاباذي، التعرف، ص: 129.
[6] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 583.
[7] ـ الآية 19 سورة العلق.

1ـ الولاية والأولياء:

إن الخصومات بين العلماء حول موضوع الولاية والتي وصلت إلى درجة العنف وتابعت عبر الأجيال، وهي غالبا ما كانت تستند في احتجاجاتها على دعاوى التبديع والتفسيق، وقد عرضها البعض[1] في مؤلفاته عرضا منهجيا لم تفتر ولم تتوقف، وإنما ظهرت بأقوى من ذي قبل مع ظهور الحركة السلفية، وامتدت حديثا إلى بلاد شنقيط، وانتهت هذه المناقشة إلى وضع المختار لكتابه في الدفاع عن الأولياء، حيث يقول في خطبته: «هذا وإنه عنَّ لي أن أذبَّ[2] عن حرمات أولياء الله الصالحين، بما أملي من نصوص كتاب الله، ونصوص سنة خير خلق المرسلين، وما أجمع عليه السواد الأعظم من العلماء الراسخين، من وجوب تصديقهم، وتخليد تحقيقهم في مقامات التمكين، والسبب في ذلك ما بلغني مستفيضا من خروج رجلين متقولين من تلقاء أنفسهما لا بنص صريح ولا تبيين، أحدهما يقال له ابن بونا،[3] أعلن بتكفير من يعتقد صدق أولياء الله».[4]

فكان هذا التأليف رغبة في الانتصار لجانب أولياء الله، وليبين لعامة المسلمين حقيقة هذا المنكر، حتى يكون على بصيرة من ظلمه، وهذيانه، على حد تعبير الشيخ المختار. والمؤلف يهدف من خلال هذا الكتاب إلى إقناع ابن بونا بالرجوع عن غيِّه، فإن انتهى وتاب إلى الله فذلك هو المطلوب، وإن تعصب لأطروحته فالله حسيبه:﴿وَسَيَعلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.[5]

---

[1] ـ من جملتهم الإمام ابن تيمية.

[2] ـ أي أدافع.

[3] ـ يقصد السيخ المختار ولد بونا الجكاني، والثاني هو المجيدري.

[4] ـ المختار الكبير، جذوة الأنوار في الذبّ عن مناصب أولياء الله الأخيار، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 2579 ك، و1 ظ.

[5] ـ الآية 227 سورة الشعراء.

إن القضايا التي دافع عنها المختار الكنتي من خلال كتابه الجذوة لمناقشة خصمه ابن بونا هي: البرهنة على حقيقة الولي وشروطه، التحذير من الإنكار على أولياء الله الأخيار، وذكر المفاضلة بين العلماء بالله وبين العلماء بشرع الله.[1]

وراثة الأنبياء:

وفي النصوص المتعلقة بالوراثة، يلفت المختار الكبير نظر الباحث إلى كيفية وراثة الأنبياء، فينبه إلى أن الإرث النبوي تحكمه صلات نظام الإرث في علم المواريث، والعلاقة بين الولي وإرثه النبوي، علاقة تؤثر في سلوك الولي، وتطبعه بخصائص معينة، لا تخطئها العين. هذه الخصائص هي الخشية وعبادة الله حق العبادة، فشرع لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نعبد الله كأنّا نراه،[2] وأدخله لنا في الخيال، وهذا هو معنى التصوير، إلا أنه نهى عنه في الحس أن يظهر في هذه الأمة بصورة حسية. ومعنى ذلك أن عبادة الله تعالى كأنّا نراه، أي العبادة مع تدخل قوة الخيال، أو ملكة الخيال.

ويُبيّن المختار الوراثة في معرض إجابته عن سؤال ورد عليه ونصه: هل أصل الورد هو متلقي من تلقاء الإلهام الذي تلهمه الأولياء، أو له سند إلى الوحي الذي يختص به الأنبياء؟ فأشار المختار إلى أن الورد من حيث هو ورد أصله من الوحي النبوي والإلهام الغيبي: «... وبساطه الكتاب المنزل والأثر المسلسل، لأن الولي إنما هو نتيجة النبي، فكراماته دلائل على معجزات نبيه المتشبث بأذياله، حتى قيل كل ما صح أن يكون معجزة لنبي يجوز أن يكون كرامة لولي».[3] والتسلسل الذي ذكره المختار هنا يقصد به أن الورد يجب أن يؤخذ عن شيخ متمرس، وله سند متصل. وهو أمر صرح به غيره ممن تمسك بطريق التصوف (طريق القوم)، حيث المنهج الاقتداء بشيخ «سالك قد خبر

---

[1] ـ هذه المسائل تعرض لها في العديد من مؤلفاته خاصة: الجرعة الصافية والنفحة الكافية، وزوال الإلباس في طرد الوسواس الخناس، والكوكب الوقاد في فضل المشائخ وحقائق الأوراد، والمنة في اعتقاد أهل السنة وغيرها.

[2] ـ إشارة إلى حديث جبريل الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم:«أن تعبد الله كأنك تراه».

[3] ـ المختار الكبير، الكوكب الوقاد في ذكر المشايخ وحقائق الأوراد، نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، رقم 3827 د، و 17 و.

المجاهدات».[1] وذلك حسب زعمهم استجلابا لمسرتهم[2] واغتناما لبركة دعوتهم، وإلا فاللائق بالعبد عدم سلوك هذه المضايق، على اعتبار أن الخطر عظيم[3] لما يخشى عليه من الأحوال[4] الرديئة إذا لم يتمسك بربه وينقطع إليه.

والجزء الثاني في الحديث: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك). فهو أمر خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو من أصول هذه الأمة، والولي ــ بطبيعة الحال ــ لا يمكن له أن يتجاهل هذا الجزء الثاني من حديث جبريل أو يتغافل عنه. وقد اتفق الأولياء: «أنه لا يتقطّب الرجل من هذه الأمة، حتى يسلم شيطانه الذي هو قرينه. وهو من خواص هذه الأمة، لم تعطه أمة من الأمم السالفة أنبياؤها فضلا عن صلحائها».[5] والفكرة التي يتناولها المختار هي الرجل القطب، وهي درجة سامية من درجات الصوفية بل أعلاها على الإطلاق، لأنه لا يوجد في كل عصر إلا قطب واحد.[6] ويبدو هنا أن نموذج القطب له دلالة خاصة في الفكر الصوفي، فهو باعتبار وظيفته ومهمته ينتمي إلى درجة القطبية إضافة إلى أنه قد يحتفظ بالمنصب الظاهري للخليفة، ثم هو ــ وكأي ولي آخر ــ وارث للعلوم.

وبما أنه يجمع بين كل الأحوال والمقامات، فإنه يأخذ مكانه في سلسلة التصوف في طبقة أخيرة يتسم فيها بأعلى درجات الولاية وأقصاها. وبذلك يمثل القطب القمة القصوى في هذه السلسلة. ويظهر كأنه من المتفردين من البشر، لأنه بلغ نهاية الكمال في سلم المقامات الروحية. ويتميز الأقطاب بالمعرفة، ونهاية المعرفة لديهم هي: «اعترافهم

---

[1] ــ ابن خلدون، شفاء السائل، ص: 198.
[2] ــ عبد القادر الفاسي، الإجازة الكبرى والصغرى، تحقيق محمد بن عزوز، دار ابن حزم بيروت، ط الأولى 2003، ص: 124.
[3] ــ ابن الحاج، المدخل، ج 3، ص: 116.
[4] ــ يشير الكلاباذي أن علوم الصوفية هي علوم الأحوال، والأحوال هي مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلا من صحّح الأعمال. ينظر: التعرف لمذهب التصوف، ص: 97.
[5] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 58.
[6] ــ ميشيل شودكيفيتش، الولاية، ترجمة أحمد الطيب، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط 1999، ص: 86.

بعزهم عن المعرفة، إذ حقيقة معرفتهم أنهم لا يعرفونه إحاطة وكمالا، وأنهم لا يمكنهم ذلك البتة».[1] وواضح ما يحاول المتصوفة من إحاطة هذه الدرجة من هالة وغموض، والهدف بيِّن وهو محاولة تكريس مفهوم التميز بين مختلف الدرجات استجلابا للطاعة وزيادة في الهيبة وفي خضوع المريدين. إذ ما معنى وجود قطب واحد لكل عصر؟! هل القطب هو عالم بالشرع أم هو أعلى درجة من ذلك؟ لعل السبب في إحداث هذه الدرجة هو إضفاء هيكل تنظيمي[2] روحاني لأصحاب الطرق، رغم وجود الكثير من الاختلافات فيما بينها.

ويوضح المختار في خضم حديثه عن وراثة الأنبياء أنه في رسول الله انقطعت النبوة، وبذلك لا يمكن لكائن ما أن يُسَمِي نفسه نبي أو رسول، وهذان الاسمان من الأسماء البشرية أو التي يتسمى بها البشر. وإذن فالاسم الوحيد الذي بقي: «صالحا للاشتراك في التسمية هو الولي، يتسمى به المخلوق».[3] وهي لا تخلو من مظهر من مظاهر التشريع، سواء كانت حقيقة مباشرة فيكون العلم بها مباشرا من مصدرها،[4] أو تضمنت في الكليات والقواعد العامة وهو التشريع الناشئ من الاجتهاد، واستنباط الأحكام[5] وتفسير نصوص الشريعة. ولو سَلَّم الباحث بصدق رأي المختار من أن الولي هو الوصف المتبقي، وهو الصالح للاشتراك، فما هو موقع العلماء في هذه المعادلة؟ وهذا ما يطرحه الحديث الشريف: (العلماء ورثة الأنبياء). مع ملاحظة أن المتصوفة يرون بأن الأولياء هم المستحقون لهذا الوصف، أو هم الذين ينطبق عليهم مفهوم الوراثة.

---

[1] ـ المختار الكبير، نضار الذهب في كل فن منتخب، ج 1، ص: 55.
[2] ـ في خضم الصراع بين الإصلاحيين والطرقية يتحدث الميلي عما أسماه: الحرب على حكومة القطب. ينظر: رسالة الشرك، ص: 203.
[3] ـ المختار الكبير، الكوكب الوقاد، و68 ظ.
[4] ـ عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، ص: 95.
[5] ـ الكلاباذي، المصدر السابق، ص: 6.

ومن ناحية أخرى يجد الباحث أن فكرة الوراثة، التي تتضمن بالضرورة انتقال شيء ما من مواريث الأنبياء الخاصة بهم إلى الأولياء. هذه الفكرة لا شك تعني أن الولاية بصورة أو بأخرى ــ تابعة للنبوة، وأنها على العموم تمثل صورة من صور التبعية النبوة قد تشاركها في ذلك أمور كثيرة.

وهذا الذي استنتجه الباحث تؤكده نصوص أخرى للمختار، يقول: «الأولياء ورثة الأنبياء، فالأنبياء حجج الله على خلقه، والأولياء أدلة على تصحيح ملته».[1] و أشار أحد مريدي[2] الطريقة المختارية وهو يمدح المختار إلى هذا بقوله:

وأخرجه ذو العرش للناس نائبًا عن المصطفى والأمرُ فاشٍ وذائعُ
ويُرضع من ثدي المعارف مَن أتى مُريدا ولم تُرضِع كذاك المَراضعُ[3]

وهو يريد بأن الله أخرجه نائبا عن الرسول في هداية الناس، وهي مبالغة واضحة ومكشوفة. ويذكر أنه يغذي مريديه الكثيرين، الذين يأخذون العهود عليه من المعارف الربانية، غذاء لا يماثله أي غذاء لشيخ من شيوخ الطرق الصوفية الأخرى. وفي النص السابق للمختار تحريف مفضوح للمراد بالوراثة، إذ أن العلماء هم ورثة الأنبياء وليس الأولياء. غير أن ما يشفع له هو تناوله لهذه المسألة في نص سابق،[4] حيث وضّح بأن الولي هو الذي جمع بين العلم والخشية، وبالتالي فالولي ــ عنده ــ هو عالم بالضرورة. وللولاية في فكر المختار الصوفي الدور الرئيس من حيث الوراثة، في بناء مفهوم متكامل للولاية وتكوين إطار شرعي حول حقيقتها.

---

[1] ــ المختار الكبير، التذييل الجليل العادم المثيل، مخطوط بخزانة بالأعمش بتندوف، الرقم: 24، و1و.
[2] ــ المقصود هو الشاعر محمد الأمين. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف، و 234 ظ.
[3] ــ شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص: 599.
[4] ــ تناول الباحث هذا النص في خضم الحديث عن العقيدة. ينظر: المختار، البرد الموشا، ج 2، ص: 47.

هذا الاستدراك الذي يحاول المختار أن يهذّب به رأيه، يبدو أن غيره من الصوفية لا يوافقه عليه، فالولاية حسبهم قد تُنسب لغير العالم، فهذا أبو الرواين[1] كان شيخا، ووليا، وأحد رجال التصريف،[2] ومناقبه لا تحصى، ويتكلم دائما بكلام فاحش! ومع ذلك فإن سكان مكناس[3] يستسقون به، فتنهل عليهم السماء «كأفواه القرب».[4] ومعروف الكرخي[5] ومكانه في التصوف بالغ الأهمية حتى عدّه المختار[6] مجدد المائة الثانية في الزهد، قيل فيه لأحمد ابن حنبل إنه قليل العلم. فقال للقائل: «وهل يحتاج العلم إلا لما وصل إليه معروف».[7] والعلم الذي يقصده ابن حنبل دون شك هو العمل، ودرجة الالتزام بتعاليم الإسلام، إذ أن العلم المطلوب هو الذي يورث الخشية ولو كان قليلا.

الأنبياء والأولياء:

ومرة أخرى يبدو للباحث أمر العلاقة ــ هاهنا ــ بين النبوة، والولاية، أكثر تأكيدا وأشد قوة. ويقر المختار أن الأنبياء أفضل من الأولياء، ويشير إلى أن الإمامية[8] من الرافضة فضّلوا الأولياء على الأنبياء، وهو جهل كبير وتقصير منهم في فهم النصوص. قال المختار: «فإذا كان الأنبياء متفاضلين بحسب مناصبهم، فكيف لا يفضلون من

---

[1] ــ أبو الرواين: هو أبو عبد الله محمد أبو الرواين، هو من عجائب الدهر، توفي آخر العشرة السادسة، ودفن في باب روضة شيخه ابن عيسى. ينظر: ابن عسكر، دوحة الناشر، ص ص: 74 ــ 75.

[2] ــ التصريف: وردت هكذا عند ابن عسكر، ولعلها التعريف. والذي يقصد به أن الله يريهم آثار قدرته في الأفاق والأنفس، ثم يُحدثُ فيهم لطفا، تدلهم الأشياء أن لها صانعا، وهذه معرفة عامة المؤمنين، والأولى معرفة الخواص. ينظر: الكلاباذي، التعرف، ص: 70.

[3] ــ مكناس: مدينة كبيرة أسستها قبيلة مكناسة فسميت باسمها. وتبعد عن فاس بنحو ستة وثلاثين ميلا، وعن سلا بخمسين ميلا. وهي تقع في سهل بديع جدا، ويمر بالقرب منها نهر صغير، وتحيط بها على مسافة ثلاثة أميال حدائق عديدة تنتج ثمارا ممتازة. ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص: 214.

[4] ــ ابن عسكر، المرجع السابق، ص: 75.

[5] ــ معروف الكرخي: هو أبو محفوظ بن الفيرزان، ينسب إلى كرخ بغداد. كان من النصارى فأسلم، توفي سنة 200 هـ / 815 م. وقبره ظاهر ببغداد يتبرك به. ينظر: الكلاباذي، المصدر السابق، ص ص: 24 ــ 25.

[6] ــ البرد الموشا، ج 2، ص: 310.

[7] ــ ابن قنفذ، أنس الفقير، ص: 43.

[8] - الإمامية: وهم خمس عشرة فرقة كاملية ومحمدية وباقرية وناوسية وشميطية وعمارية وإسماعيلية ومباركية وموسوية وقطيعية واثني عشرية وهشامية وزرارية ويونسية وشيطانية، وكل فرقة من هؤلاء لها كلام في الإمامة والعقيدة. ينظر: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ص: 38-39.

سواهم؟!».[1] ويظهر من هذا أنه لا سبيل لأحد من الخلق إلى تحقيق مقامات الأنبياء، وكذلك لا يعرف صفاتهم حقّ معرفتها سواهم. بالإضافة إلى أن الخلائق أحوج إلى النبي[2] منهم إلى الولي، وهم أشد حاجة إلى النبي من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس الذي به حياة الأبدان.

ولا يمكن أن يغفل الباحث مسألة العصمة[3] التي أيد بها الله أنبيائه، أما الأولياء فهم بشر محل الخطأ، والنسيان، الذي يدعوهم إلى الاستغفار. وقضية ما أضيف إلى الأنبياء من الزّلل، فهو محمول على أن ما جرى لهم إنما: «جرى على ظواهرهم، وأسرارهم مستوفاة بمشهادات الحق».[4] لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَنَسِيَ وَلَم نَجِد لَهُ عَزمًا﴾.[5] وأما ما ذهب إليه بعض المتصوفة[6] الذين راحوا يدعون بأنهم فوق جميع البشر، لأنهم لا يزالون أبعد حالا عن التجريد[7] الروحي المطلق. وهي إحدى شطحاتهم الكبيرة، التي لا ينطق بها إلا مستهتر. والغريب أن المختار لا يتناول هؤلاء في خضم حديثه عن الأنبياء والأولياء.

وإذا لاحظ الباحث الأسماء الرمزية التي يُلقب بها الأولياء، ومن بينهم بعض أجداد المختار نفسه،[8] وجد أن اسم كل نوع بما هو مندرج يعتبر بصورة أو بأخرى حالة خاصة

---

[1] - المختار الكبير، زوال الإلباس في طرد الوسواس الخناس، ص: 04.

[2] ـ ابن القيم، الفوائد، ص: 196.

[3] ـ هناك أقوال كثيرة في العصمة وأقسامها بينها الرازي في تفسيره. ينظر: تفسير الرازي، ج 3، ص ص: 7 ـ 10.

[4] ـ الكلاباذي، التعرف، ص ص: 77 ـ 78.

[5] ـ الآية 115 سورة طه.

[6] ـ من جملتهم البسطامي. ينظر: عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات الكويت، ط الثالثة 1978، ص: 35.

[7] ـ التجريد: معناه أن يتجرد بظاهره عن الأعراض، وبباطنه عن الأعواض؛ وهو ألا يأخذ من عَرَض الدنيا شيئا، ولا يطلب على ما ترك منها عِوضًا من عاجل ولا آجل، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى لا لعلة غيره ولا لسبب سواه. ينظر: الكلاباذي، المصدر السابق، ص: 131.

[8] ـ من بينهم: محمد الكنتي(الذي هزم قبائل صنهاجة ببركته وكراماته)، وعمر الشيخ (الذي رضخ للمغيلي بعد تفوق هذا الأخير عليه في علم الباطن). ينظر: محمد الخليفة، الطرائف، و 56 و.

ثلمة بذاته. فإذا تناول الباحث نموذج أحمد البكاي(بودمعة)[1] الذي كانت تهابه السباع، والوحوش! وهي تأمن عندما تكون بجواره، وتحكي الرواية الكنتية[2] وغيرها[3] أن الدعوة مستجابة عند قبره. الإشارة الطريفة هنا هي إجابة الدعوة عند الضريح، وهذا لا يخلو من مقاربة لطيفة بين ضريح هذا الولي، والأماكن والأوقات التي تستجاب فيها الدعوة عادة. وإذا كان الأمر كذلك فما جدوى أن تخص الشريعة تلك الأوقات والأماكن بالقدسية، ما دام ضريح ولي في ولاته، أو في غيرها، يكفي ويفي بالغرض المطلوب؟!

ويمكن القول بأن كل الأولياء أو الأفراد[4] ــ حسب المختار ــ الذين تتكون منهم السلسة الصوفية يوهَبون علوما وقوى مختلفة وخارقة، وتوكَل إليهم ــ بصورة أو بأخرى ـ أدوار ومهام يتولونها، وكل ذلك في دائرة الترتيب حسب المكانة. لكن هذه المهام لا تحدد لنا الطبقة التي تُوكل إليها هذه المهمة أو تلك، فالطبقات تنطوي على كمٍّ من الأولياء[5] مضطرب بين الثبات والتغير(منهم الكنتيون وغيرهم)، وهم في مجموعهم مؤهلون للوصول إلى درجة بعينها من درجات مراتب الأولياء.

والولي الذي يستحق هذا اللقب هو الذي رضي بالعيش مع الخلق بقصد تعليمهم وإرشادهم، وبذلك تتحقق له وراثة الأنبياء في أعلى مقاماتها حيث يبلغ رسالات الله إلى العباد، وكمال إرث الأنبياء والمرسلين إنما يكون في تعليم الخلق واجباتهم تجاه الخالق، وسوف يتحمل الولي من أجل ذلك الكثير من الألم وربما فوق ما يطيق. ولا ينبغي أن

---

[1] ــ كان شديد البكاء، ولُقب بأبي دمعة على إثر حادثة مفادها أنه دفن بعد موته غرب ولاته، على حافة الوادي، وبعد بضعة أعوام انهارت ضفاف الوادي بعد أن جرفتها السيول، فرأى أحد السكان الشيخ في المنام وأمره بنقل جسده لمكان آخر، فقرر وجهاء البلدة نقل الضريح من مكانه، ونبشوا الجثمان الذي ظهر كما وسَّدوه الثرى في أول يوم دفنه وعيناه مبللتان بالدموع! ينظر: مارتي، كنتة الشرقيون، ص: 31.

[2] ــ هذه الوقائع يحكيها محمد الخليفة في خضم حديثه عن حياة والده. ينظر: الطرائف، و 75 ظ.

[3] ــ البرتلي، فتح الشكور، ص: 31.

[4] ــ الأفراد: جاءت من التفريد، وهو أن يتفرد عن الأشكال، وينفرد في الأحوال، ويتوحد في الأفعال؛ بأن تكون أفعاله لله وحده، فلا يكون فيها رؤية نفس، ولا مطالعة عِوض، ويتفرد في الأحوال عن الأحوال، فلا يرى لنفسه حالا، بل يغيب برؤية محوِّلها عنها، ويتفرد عن الأشكال، فلا يأنس بها، ولا يستوحش منها. ينظر: الكلاباذي، المصدر السابق، ص: 131.

[5] ــ المختار الكبير، المنة، و 59 ظ.

فهم وجود الولي بين العامة هو نزول عن درجته أو ارتداد عن صفة الولاية، بل ينبغي أن نعده تضحية حقيقة، وهي أفضل وأكمل من الابتعاد والانعزال.

ويمكن أن نلاحظ نوعين من الفروق والاختلافات في طبقة الأولياء، فهناك الواصلون إلى نقطة النهاية في مراتب الولاية،[1] وهي النقطة التي لا يمكن لأي ولي أن يتخطاها أو يتجاوزها، وهؤلاء منحصرون في دائرة مغلقة لا يُزاد عليها أو يُضاف إليها. والنوع الآخر أقل شأنا من الأول ودائرته مفتوحة إلى يوم القيامة، ورغم هذه التفرقة فإن الأولياء هم المقربون، وهكذا تبدو العلاقة وثيقة بين مفهوم الولاية ومفهوم القربى في وجهها الصحيح وتعبيرها الأتم.

ويستعين المختار[2] في تأييد ما يقوله عن درجة الولاية بقصة سيدنا ــ موسى عليه السلام ــ مع الخضر، كما وردت في سورة الكهف. ففي هذه القصة يبدو موسى ــ عليه السلام ــ في صورة المندهش المستغرب، وبرغم وعده المتكرر بعدم سؤال صاحبه الخضر (وهو ولي أو رجل صالح على الأرجح) إلا أنه ــ من فرط دهشته ــ نسي وعوده، وانبرى يجادل صاحبه ويُنكر عليه أفعاله، التي رآها خارجة تماما عما يقرره الشرع. وهذه القصة تتكرر كثيرا في الأبجديات الصوفية، فهناك ارتباط رمزي بين السمكة والحياة الجديدة،[3] فالسمكة كانت معدة للأكل لكنها سرعان ما تعود إلى الماء، وهناك سيجد الخضر الذي سيعلمه مما عُلّم رُشدا.

ويقص علينا المختار ــ في خضم التأكيد على قدرة الأولياء ــ أنه لقي في ليلة واحدة بولاته الكثير منهم،[4] وجلس إلى بعض هؤلاء وسماهم بأسمائهم،[5] رغم أنهم توفوا قبل ميلاده بمدة طويلة. والرسالة التي يريد تبليغها أن هذه الدرجة (الولاية) هي مرتبة لا

---

[1] ــ شودكيفيتش، المرجع السابق، ص: 112.
[2] ــ الجرعة الصافية، و76 ظ.
[3] ــ علي زيعور، الكرامة الصوفية، ص: 181.
[4] ــ محمد الخليفة، الطرائف، و 55 ظ.
[5] ــ ورد في الطرائف اسم واحد منهم فقط وهو: علي بن محمد بن علي بن أحمد الأحوال. ينظر: الطرائف، و 74 و.

ينالها إلا الصفوة من القوم، الذين ترفعت أنفسهم عن الكثير من الرزايا. والفكرة الأخرى أن الولاية لا ينالها المرء بدون مباركة ممن سلك هذا الطريق: «وضعوا أيديهم بالتعاقب فوق رأسه وباركوه».[1] وهذا الذي يبارك يكون ممن بلغ مرتبة الكمال الإيماني فالتقاء الأولياء ــ في اليقظة أو في المنام ــ هو تأييد وإجازة من السابق إلى اللاحق.

ما يعاب على المختار في هذه المقاربات هو أن أغلب الأشياء التي يطرحها مألوفة، لكن الشيء غير المألوف هو محاولة الذوبان التي يشير إليها بين الصوفية والبطل الذي يتقمصون شخصيته (في العادة يكون أحد الأنبياء). وبالتالي تجعله يلغي من نفسه كل ما يفرّقه عن حقيقة ذلك النموذج، لذا فالمتصوف ــ في الغالب ــ يَدَّعون لأنفسهم الأفعال الخارقة، وينفون الفروقات المجودة بينهم وبين النماذج المختارة.

ويشن المختار حملة على الفقهاء وموقفهم الإنكاري للعلم اللدني أو علم الباطن، لأن «المنازل المعنوية منحصرة في مقامات أهمها مقام العلم اللدني».[2] في إشارة إلى قوله تعالى:﴿وَعَلَّمنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلمًا﴾.[3] ويلمح إلى أن الخضر هو الذي أعطى هذا العلم اللدني. وقامت محاولات في السابق على أساس توحيد الفقه والتصوف، واعتبارهما علما واحدا. وردّ الطوسي التصوف والفقه إلى علم الشريعة الواحد.[4] ويرى هذا المؤرخ الصوفي أن الفقه قائم على الرواية، أما التصوف فهو قائم على الدراية. ولا يجوز ــ في رأيه ــ أن يجرد القول في العلم أنه ظاهر أو باطن، لأن العلم متى كان في القلب فهو باطن فيه إلى أن يجري على اللسان ويظهر، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر.

---

[1] ــ بول مارتي، كنته الشرقيون، ص: 67.
[2] ــ المختار الكبير، الجرعة الصافية، و 78 ظ.
[3] ــ الآية 65 سورة الكهف.
[4] ــ محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب، دار النهضة العربية بيروت، ط 1984، ص، 18.

ومن الذين تناولوا العلاقة بين الفقه والتصوف الإمام أبي حامد الغزالي، الذي أشار[1] بأن الفقه ينظر فيما يتعلق بمصالح الدنيا، أما نظر التصوف فهو ما يتعلق بمصالح الآخرة. وأعتقد بأن الفقه متعلق بمصالح الدنيا والآخرة، فالعبادات والمعاملات وإن كانت تجري في الدنيا إلا بمتعلقة بالآخرة من حيث الثواب والجزاء. أما التصوف فإنه أضيق من الفقه، لأنه متعلق بالتزكية وآداب النفس.

ويحاول المختار أن يربط بين العلم اللدني ونهاية الطريق، الذي هو تطبيق الشريعة تطبيقا خالصا. يؤكد ذلك أن الباحث يجد المختار ــ في مناسبات عدة ــ يعرض للحديث القدسي الشهير: «... وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...». مبينا أن القرب الأتم الذي هو معنى الولاية وفحواها ليس هو قرب النوافل المذكور في الحديث؛ لأن أداء النوافل مجالا لتحقيق الاختيار والإرادة من العبد،[2] مع أن العبد في معناه الصحيح مسلوب الاختيار؛ وإذن فالاقتصار على أداء الفرائض ــ كالصلوات الخمس ــ هو في نهاية الأمر مدار اكتمال حظ السالك وتمام قسمته في طريق سيره وسلوكه. وبعد ذلك تحصل له السعادة،[3] حيث يحس السالك اللذة والنعيم بإشباع النفس من غريزة التقوى، وذلك هو كمالها. لأن حقيقة العبد الخالصة، إنما هي امتثال العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى.

وعرض المختار موضوع العلامات الإلهية عرضا شيقا، ميّز فيه بين دلالات عديدة تضمنتها كلمة آية في استعمالاتها المتكررة في القرآن الكريم، ومزج فيه بين استخراج معاني الأشياء في عالمنا، وبين فن تأويل الرؤيا الذي يدخل «ضمن عمل

---

[1] ــ ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 181.
[2] ــ المختار الكبير، الكوكب الوقاد، و 34 و.
[3] ــ ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 189.

الأقطاب»[1] واهتماماتهم. وهي إشارة جديرة بالتوقف، لأن تأويل الرؤيا غير مقتصر على درجة صوفية معينة. غير أن المختار يحاول أن يقارب بين القطب كمرتبة سامية في سلم المتصوفة، وبين الخطاب القرآني في سورة يوسف، إذ أن تفسير سيدنا يوسف عليه السلام للرؤيا في السجن كان سببا لأن يتمكن، ثم فسر الرؤيا الأخرى التي جعلته على خزائن مصر. وهل القطب بتفسيره سيسيطر كخليفة (الوراثة الأكيدة)[2] على جميع أهل المعرفة بالله!؟

5ـ الكرامات:

الكرامة الصوفية هي بنية أساسية في الفكر البشري، مرتبطة بنمط المجتمع، وبأسلوب معيشته ووجوده، وهي ممارسة لمعتقد ديني، وتأكيد لهذا المعتقد. يقول المختار الكبير: «...وحقيقة الكرامات، ظهور أمر خارق للعادات غير مقرون بدعوى النبوءة، على يد من عرفت ديانته، واشتهرت ولايته، بإتباع نبيه فيما جاء به. وإلاّ فهي استدراج، أو سحر، أو إذلال».[3] والكرامة هي أحد آثار الولاية، والولاية هي متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ هي الطريق الموصلة إلى الحق. وبملاحظة واقع حال الكرامات نرى أنها في الغالب تكون بمستويات أقل من مستويات المعجزات،[4] كما أنها تكون بصورة ليس لها صفة الظهور أو الانتشار العام بين الناس. وضابطها هو المداومة على فعل الطاعات واجتناب المعاصي، ومن علامات الأولياء ــ والتي هي شرط في تحقيق ولايتهم ــ لزوم أداء الفرائض العسير منها واليسير، واجتناب المحارم كبيرها وصغيرها، وترك الدنيا على أهلها، إلاّ ما لابد منه. قال المختار الكبير: «... ولما كانت الكرامات من الله البشرى العاجلة دليل على صدق الولي، وتثبيت للمبتدئ الخاص، ينبغي لصاحب الكرامة

---

[1] ــ المختار الكبير، جذوة الأنوار، و 35 ظ.
[2] ــ قلت هنا الوراثة الأكيدة، على أساس أن الولي يمثل الوراثة العادية.
[3] - المختار الكبير، الجرعة الصافية والنفحة الكافية، و 13 ظ.
[4] ــ عبد الرحمن الميداني، المرجع السابق، ص: 347.

أن لا يلتفت إليها، ولا يعوّل عليها، ولا يغترّ بها، لأن مما يُخِل بإخلاصه بل يكون قادحا في إخلاصه».[1] وأعظم الكرامات الاستقامة على منهاج الكتاب، والسنة، وما درج عليه سلف هذه الأمة. قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام:﴿رَبِّ اجعَلنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.[2] وقال لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم:﴿فاستَقِم كَمَا أُمِرتَ﴾.[3]

وتصدى العلماء لإشكالية الكرامة الصوفية، فاحتدم الجدال حول صحتها. وإذا كان الاتجاه الصوفي يعتبر بداهة أكبر من استمات في الدفاع عنها،[4] فإن التيار السني المالكي، ذهب هو الآخر إلى تأكيد وجودها. ويبرز في هذا الشأن الفقيه ابن رشد الجد الذي أفتى بصحتها ووجوب التصديق بها، بل وصل به الحد إلى مهاجمة المنكرين لها واتهامهم بالجهل والضلالة،[5] وهو موقف عَبّر عنه فقيه سني آخر عاش متأخرا عن ابن رشد، وأقصد به الفقيه البرزلي.[6] والشيء نفسه يقال عن الرازي،[7] الذي أثبت العديد من الكرامات للخلفاء الراشدين، وسائر الصحابة رضوان الله عنهم.

ولكن الكرامة لا تعني بالسنة للشخص الذي تجري على يديه شيئا زائدا على العمل، فلا ينبغي أن يعلق عليها كبير اهتمام، إلا من ناحية تثبيت العقيدة بقدرة الله القادر. فالكرامات حوادث خاصة يكرم الله بها بعض المتقين، فلا يصح أن تُتخذ ذريعة لإثبات أحكام شرعية أو نفيها، فالأحكام الشرعية لها مصادرها.

وحاولت الكرامة أن تطرح حلولا، أحيانا واضحة ظاهرة بيّنة، وأحيانا في شكل رمزي، يجسد ــ من خلالها ــ رغبة فردية أو جماعية لبناء المجتمع، وفق معايير وقيم

---

[1] - المختار الكبير، جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار، و 4 و.
[2] - الآية 40، سورة إبراهيم.
[3] - الآية 112، سورة هود.
[4] - ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، ص: 182. ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، ط الجزائر 1908، ص: 110.
[5] - ابن رشد، نوازل ابن رشد، ص: 318.
[6] - البرزلي، نوازل البرزلي، ص: 254.
[7] ــ الرازي، التفسير، ج 21، ص: 87.

منها أصحابها للتخفيف من حدة التوتر الاجتماعي.[1] فما هي هذه القيم والمعايير؟ إن هذا التساؤل يقود الباحث إلى مسألة تتعلق بموقف الكرامة الصوفية من المجتمع، والحل البديل الذي قدمته كتصور لبناء المجتمع الأمثل.

ويمكن تَفهُّم الفكر الكرامي، من خلال تحليل رموز بعض الكرامات التي ظهرت على يد المختار الكبير الكنتي. فسأحاول من هذا المنطلق الوقوف عند بعضها لقراءة ما تحمله من رمزية.

كرامة للشيخ المختار مع أهل ولاته:

فقد حدث في يوم من الأيام في ولاته، أن وجد الشيخ المختار كل الناس في غم عميق، لأن أزَلَايْ تاودني، الذي اشترك فيه كل الوجهاء، لم يعد بعد، وكانت أسوأ الإشاعات تنتشر حول مصيره وفي المقابل كل المشائخ المحليون في حالة عجز تام. لذا أقبلوا طالبين نصيحة ومعونة الشيخ المختار. فوعدهم بجواب في اليوم التالي، وذهب تحت جنح الظلام ليبحث عن الهداية والنور عند ضريح أحمد البكاي. فالتقى هناك بأرواح لم يتعرّف إلا على واحد منهم، وهو: علي بن محمد بن علي بن أحمد الأحول،[2] هذا الأخير أراد أن يمنح المختار مباركته، غير أن المختار قال بصراحة: «أنا لا أطلب مباركة، بل أريد معلومات عن هذه القافلة، التي فجع أهل المدينة لتأخرها».[3] وقد حمل المختار، نبأ عودة القافلة في اليوم التالي تماما، ولم يصدقه العديد من السكان. ولكن الحقيقة استبانت، ووصل أزلاي!

---

[1] - إبراهيم القادري بوتشيش، «الخطاب الاجتماعي في الكرامة الصوفية بالمغرب خلال عصري المرابطين والموحدين مساهمة في دراسة الفكر الاجتماعي للبلدان المتوسطية»، ضمن ندوة جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة مولاي إسماعيل مكناس، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ط 1991، ص: 104.

[2] - علي بن محمد الأحول: أحد الأولياء بولاته الذين اشتهروا بعبادتهم ومجاهداتهم. ينظر: بن بوغتو، المصدر السابق، و 12 ظ.

[3] - محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و55 ظ.

إن تحقيق أمنية المختار في رجوع أزلاي يحمل قيمة ايجابية، حيث أنه نال ما رغب، فنجاحه في عودته دليل نجاحه في حياته الصوفية،[1] وهو الميدان الذي اختاره. والأولياء الذين لم يعرفهم، دليل على أنهم ليسوا في مستوى الحدث وهو تلبية رغبته، أما علي بن محمد الأحول فهو الوحيد الذي نال مرتبة الولاية الحقة، ومع ذلك فهو لم يفهم مقصد المختار (أراد أن يباركه) فكانت نفس المختار أكبر من ذلك، فهو يريد التفريج عن كربات سكان ولاته بإرجاع أزلاي. وأهم إشارة في هذه الكرامة هي في الملح، الذي يرمز إلى الحياة والتجديد.

وذهابه إلى ضريح جده أحمد البكاي، إشارة واضحة إلى أنه اختار طريقه. وكثيرة جدا هي قبور الصوفيين التي تحتفظ بكرامات، فتشفي، وتحفظ، وتصون من الخوف، وتقضي الحاجات، إن لقبور هؤلاء أفاعيل! فسلطانها على النفوس بعيد الجذور مما يذكر بعبادة الموتى أو بتقديس الأسلاف، والخلاصة التي تريد هذه الكرامة إيصالها هي أن الصوفي يموت لكنه يبقى مهتما بالخلق!؟ وهو يخدم أتباعه. وهذه الكرامة بالجملة هي مأمن وهمي، ودفاع عن الجماعة وأمنية بالحماية المفقودة ضد اللصوص.

سجادة الشيخ علي بن النجيب:

وبعد أن أراد الشيخ المختار استرداد سجادة شيخه علي بن النجيب، من زعيم أولاد بلة[2] لم يتمكن من ذلك. غير أن تلك السجادة لم تعد صالحة إطلاقا للسارقين بعد مدة قصيرة من أخذها، لأنهم في كل مرة أردوا الجلوس عليها، كانت خيوطها تتحول إلى ثعابين! وعندئذ منحها الباشا هدية لإحدى بناته، ولكن حدث في اليوم ذاته أن اختطفها غزو مع كثير من الأشياء سواها، وبعد مدة قدموها هدية للشيخ المختار.[3]

---

[1] ـ زيعور، المرجع السابق، ص: 183.

[2] ـ هو ابن فريوة الذي تولى قيادة هذه القبيلة مدة تميزت بعدم الاستقرار وكثرة المشاغبات. ينظر: ابن بوغتو، المصدر السابق، و 14 ظ.

[3] - بول مارتي، كنته الشرقيون، ص:69 .

هذه الكرامة تشير أولا إلى علاقة الشيخ بتلميذه، ويظهر ذلك جليا في الرغبة الملحة في إعادة مسلوبات شيخه، وما هي هذه المسلوبات؟ إنها سجادة (رمز العبادة). والأمر الآخر إلى تتناوله هذه الكرامة هو الثعبان، الذي يرمز إلى انبعاث روحي[1] في حياة الصوفي، وهو اتجاه تجديدي، فنجد أن الثعبان يحرس السجادة، مما يظهر العبادة في حركاتها والثعبان في حركاته في اتصال وثيق. وفي القرآن تصبح عصا سيدنا موسى عليه السلام (حية تسعى)، وتنقل الجميع (السحرة) إلى طور جديد. والثعبان يعبر عن الطاقة الحيوية، وهو كناية عن الشفاء والتحول الداخلي. وهذه الكرامة تعد مأمن وهمي، ودفاع لفظي ضد اللصوص، وأمنية بالحماية المفقودة ــ أحيانا ــ أمام القبائل المحاربة.

اليد والعلوم والجماد:

وكان كثيرا ما يرى محمد الخليفة والده المختار وهو يملي ويتصفح يده اليمنى، ويحد النظر إليها كالمتصفح للورقة، ويتحدث بعد ذلك بأنواع من العلوم اللدنية. وتحدث المختار عن ذلك في قصيدة له:

وتخبره الهتون علوم صدق تقاصر دونها نظر اللبيب

فسأل محمد والده: يا سيدي كيف تخبرهم الهتون بالعلوم؟ فقال: كما يخبر المعلم المتعلم. ثم تناول عودا يابسا ملقى بين يديه، فقال: وهذا أيضا يخبرهم، فسمع محمد العود ينطق بكلام لم يحفظه![2]

هذه الكرامة تبين الرؤية إلى العالم المادي والفهم المتبادل بينه وبين الإنسان، وهي تقيم بينها الاستمرارية، وتفرض القرابة الروحية. كما جعلت الجماد حاملا لصفات خاصة بالإنسان،[3] والصوفي يرى بأنها تفهمه وتخدمه. والشيء الملفت أنها تجعل المختار شخصا متميزا فوق المألوف، وهكذا أضحت وسيلة لا للدفاع عن الشخصية، بل لتمجيدها أيضا

[1] ــ زيعور، المرجع السابق، ص: 186.
[2] ــ محمد الخليفة، الطرائف، و 15 ظ.
[3] ــ زيعور، المرجع السابق، ص ص: 147 ــ 148.

وتميزها بأخلاق رفيعة. والمختار في هذه الكرامة أكبر وأسمى، ويظهر هوس العظمة الشديد البروز، واليد أصبحت أكثر تأثيرا (فهي احتوت على جميع العلوم)، وبالتالي استقلها الصوفي لتمجيد ذاته.

وهذه الكرامة أعادت للمختار الاستقرار الذي يفقده من وجهة نفسية، وحلّت توتره الاجتماعي، لأنها جاءت مباشرة بعد عصيان أفخاذ من قبيلة كنته لأوامره — ومن بينهم أولاد الوافي — حين نصحهم بعدم غزو هقار.[1] وبالتالي أمّنت له هذه الكرامة توازنه المهدد بفعل عوامل صراعية مع الذات، ومع الغير، وحتى مع القيم والمجتمع.

ومن خلال قراءة نصوص الكرامات، يتبين أنها وظفت للدفاع عن المضطهدين، ويمكن تلمس ذلك من خلال كونها وظفت لحماية المستضعفين من جور اللصوص والظالمين والسلطة، حيث استغلت لردع هذه الأخيرة إما بواسطة الدعاء بالشر، أو الرؤيا، أو تسليط قوى غيبية على المستبد. وحاولت الكرامة أن تعيد تصوير مفهوم جديد لدى الأفراد، فأمور الدنيا لا تصبح لها أي قيمة في الكرامة. وكان يستبدل مال الإنسان بمال الله الذي لا يفنى، ويوجد في كل مكان. وهكذا فإن الكرامة تعتبر ميزان لتحقيق العدالة، وهي وسيلة لمساعدة الضعفاء لمجابهة واقعهم.

إن تصوف المختار تصوف بسيط غير معقد، فهو ليس تصوفا فلسفيا تأمليا كم كان عليه متصوفة الأندلس (خاصة ابن عربي)، بمعنى آخر تصوف المختار هو ذلك التصوف الذي يركز على الأخلاق وعلى الإنسان وتربيته. فهو عنده استجلاء لعظمة الله فيما خلق، وشحذ لذوق المؤمن لإدراك السر المكنون في القرآن الكريم، إذ عمل في البداية على مواصلة تلقين المريدين آداب الطريقة البكائية، ثم أخذت تتطور لتصبح منطبعة بطابعه الشخصي الموروث عن شيوخه، ويتجلى هذا الموروث الشخصي فيما يلي:

---

[1] ـ سبق وأن تناولت هذه الأحداث في الفصل الخاص بأوضاع أزواد.

ـ أنه لم يفرق بين الطرق الصوفية الجادة التي تنحدر عن الشاذلي مباشرة، تاركا لمريديه أن يختاروا الورد الذي يروق لهم، وان كان: «ورد السلسلة القادرية المباركة من أجلّ الأوراد قدرا، وأوفرها ذخرا، وأعلاها ذكرا، وهو يغني عن جميع الأوراد».[1] على أن تقديره للقادرية، باعتبارها أصل المختارية لم تدعه إلى معاداة أوراد الطرق الأخرى، بل أجلّها واحترمها.

ـ الجهر بالذكر، وللزاوية المختارية في ذلك غاية تقصر بعض الطرق عن استيعابها، فالزاوية ترى أن مريديها في أزواد، وتوات، صحراويون بدو في أغلبهم، لا قِبَلَ لهم بما درج عليه أهل الحضر من رقة في تقبل الإيقاع الهامس، وتأثيره الخفيف على النفوس المرهفة. ومن جهة ثانية أن الصحراء شاسعة ومسالكها طويلة، ولا بد من تعميرها بالذكر، لإيناس عابرها، وإيقاظ ساكنها به، حتى إذا آلفه، ووجد في نفسه ميلا إليه، أقبل على الزاوية راضيا مرضيا، وانخرط في المنظومة الصوفية المختارية.

وهو بهذا المجهود الضخم كله يسعى إلى تهديم ما تكدس في نفسية الإنسان بأزواد من بنيان فاسد، وحطام دُنيوي فانٍ وتصور للحياة ناقص. وعمل على تشكيلها من جديد حسب المنظور الإسلامي، وتبعا لتصور فكره الصوفي في التشبث بالوحدة ليعيد للصحراء لمعانها العلمي، وإشراقها الروحي. وبدأت الزاوية الكنتية بسيطة في تكوينها، ثم اتسعت وتطورت إلى أن صارت أكبر مركز علمي بأزواد في فترة المختار، تشد إليها الرحال من كل الجهات. وكان غرض مؤسسها صوفيا محضا، يرمي إلى هداية الناس، وتهذيب أخلاقهم، بنشر تعاليم الطريقة الكنتية المختارية.

[1] ـ ماء العينين الشنقيطي، نعث البدايات وتوصيف النهايات، مخطوط خزانة بيت العود بأقبلي، دون رقم، ص: 202.



الباب الثالث:

مساهمة المختار في التاريخ واللغة وآدابها

الفصل الأول: الأهمية التاريخية لكتابات المختار

الفصل الثاني: النظم الإسلامية من خلال كتابات المختار

الفصل الثالث: اللغة العربية وآدابها عند المختار

تمهيد:

يهتم هذا الباب بتحليل آثار المختار الكبير الكنتي العلمية المتعلقة بالتاريخ، والنظم الإسلامية، واللغة والآداب. والمختار لم يخلّف مؤلفات في التاريخ غير أن تآليفه الأخرى تتحدث في بعض جوانبها عن العديد من الوقائع والأحداث التاريخية، هذا التاريخ الذي يتعلق بالمشرق الإسلامي والمغرب والأندلس وبلاد السودان، وأزواد. وترك المختار الكبير كراس صغير في نسب بني حسان، هذا الكراس وضعه لتبيان أصول هذه القبيلة المحاربة، التي كان دور كبير في تحريك مجريات الأحداث بأزواد. وفي النظم الإسلامية نجده يتحدث عن بعض النظم التي عرفتها الدولة الإسلامية، ولعل أبرز ما قدمه في هذا المجال، هو تناول بعض النظم المتعلقة بأزواد في المجال السياسي، والإداري، والقضائي، الاجتماعي. وفي اللغة العربية وآدابها يحاول المختار أن يحاكى النحاة في تناوله لبعض مسائل اللغوية، وفيما يخص الشعر نجد له العديد من القصائد التي تبين تمكنه من ناصية هذا الفن. أما النثر الفني فقد ترك مجموعة من الرسائل التي تخص المجال السياسي بأزواد، وكذلك تطرق لمسائل اجتماعية في قالب نثري بديع.

الفصل الأول :

الأهمية التاريخية

لكتابات المختار

تمهيد:

يتناول المختار العديد من الأحداث التاريخية في أغلب مؤلفاته، خاصة البرد الموشا،[1] ونضار الذهب،[2] ونزهة الراوي.[3] ويمكن أن يعثر الباحث على معلومات دفينة في أجوبته الفقهية[4] إذا تم تحليلها. غير أنه لا يفرد للتاريخ تأليفا خاصا، بينما تعرض لأنساب بني حسان في ورقات.[5] ويجد الباحث وهو يحلل المادة التاريخية التي جاءت في تلك المخطوطات أنها مادة ثرية خاصة ما تعلق بتاريخ أزواد وقبائلها، والسودان الغربي وسلاطينها.

1ـ تاريخ المشرق العربي:

يتناول المختار بعض الأحداث من تاريخ المشرق، بدأها بالسيرة النبوية التي أفاض كثيرا في وقائعها، واعتمد بشكل كبير على كتاب السيرة لابن هشام، ومغازي الواقدي. وعند تعرضه لأحداث الدول الإسلامية بالمشرق، نجده يتحدث باقتضاب عن الحادثة التي يسردها، ويكتفي بذكر ما يريد ذكره من تلك الحادثة، وهذا ما جعله يقع في أخطاء مردها عدم فهمه لبعض الحوادث.

السيرة النبوية:

يتناول المختار العديد من الوقائع الخاصة بالسيرة النبوية، فقد تعرض لبداية الوحي، وإسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، والهجرة إلى الحبشة، وأحداث الهجرة إلى المدينة المنورة، وغزوة مؤتة، وتعرض بشيء من التفصيل إلى موقف سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.[6] ولكن ما يلاحظ على تلك الوقائع أنها منقولة من كتب السيرة والمغازي ــ كما ذكرت سابقا ــ

---

[1] ــ ينظر: اللحق رقم 2.
[2] ــ ينظر: الملحق رقم 3.
[3] ــ ينظر: الملحق رقم 4.
[4] ــ وتسمى الأجوبة المهمة لمن له في الدين همة. ينظر: الملحق رقم 5.
[5] ــ ينظر: الملحق رقم 6.
[6] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص ص: 191 ــ 200.

ولا يضيف المختار أي جديد من خلال تناوله لتلك المادة التاريخية. وعند تتبع السرد الذي يقدمه، يمكن أن نستنتج دون أكبر عناء، بأنه ينقل بشكل خاص عن كتاب السيرة النبوية لابن هشام.

وأثناء حديثه عن الخلافة الراشدة يتناول الوقائع التاريخية كم أوردها أصحاب السير والمغازي، فهو يتحدث عن ادعاء النبوة، ومحاولات جمع الحديث، ويتناول بالحديث عن بعث أسامة بن زيد، وموقعة اليمامة.

دولة بني أمية:

وخلال حديثه عن بني أمية الذين يصفهم بالملوك، يذكر مظالمهم ويشير إلى أنهم اتبعوا في حكمهم أهواءهم فلم يتركوا سنة من السنن «إلا أماتوها ولا بدعة إلا أحيوها، ولا منكرا إلا ارتكبوه، ولا حقا إلا اجتنبوه، إلا أنهم داخلون في سواد الإسلام».[1] وظهرت أبهة الملك في عهد عبد الملك بن مروان، الذي كان «عالمًا مَلِكًا قويَّ الهيبة شديد السياسة».[2] فقد تشبه هو ومن جاء بعده من الخلفاء بالملوك، فكان الخليفة يجلس على عرشه وعلى يمينه الأمراء وعلى يساره كبار رجال الدولة. ويصرح المختار بأن بني أمية استولوا على فيء المسلمين وبيوت أموالهم «وحكموا فيها بحكم الجاهلية لتوليتهم مثل ابن زياد والحجاج بن يوسف».[3]

تشنيع المختار بالسفاح:

ويعرض المختار جانبًا من خصال الخلافة الراشدة في العدل بين الرعية، والحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ثم يتطرق إلى جور بني أمية وبني العباس، ويشير إلى أن الخليفة العباسي السفاح بلغه أن ابن أخيه محمد بن إبراهيم استعرض أهل الموصل وأخذ ما شاء من أموالهم، فسكت الخليفة عن ذلك بعد التشكي إليه ولم ينصفهم.

---

[1] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 313.
[2] ـ ابن طباطبا، الفخري، ص: 123.
[3] ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 313.

ولما سئل السفاح عن سبب استعراضه إياهم، أجاب بأنه لا يدري! قال المختار: «وما ذلك إلا لعدم مبالاته بالعدل وقبح سيرته وعدم مبالاته بما هو لاق يوم القيامة».[1]

أحوال العثمانيين:

أحدث قيام الصفويين انقساما كبيرا في العالم الإسلامي، ولا شك أنهم كانوا يطمحون إلى نشر فهمهم الخاص للإسلام كما جرب أن يفعل ذلك الفاطميون قبل ستمائة عام، وكانت آسيا الصغرى تمثل مرتعا خصبا لنشاطهم المباشر.[2] كان هذا الوضع تحديا صارخا للعثمانيين، فاضطروا إلى إتباع سياسة معادية للشيعة عموما وللصفويين خصوصا، إنقاذا لرقعتهم الآسيوية من أن يبتلعها جيرانهم. فقام السلطان العثماني[3] بحرب: «مع صاحب الشرق، وكسره إياه وأخذه بلاده».[4] والوقائع التاريخية لا تؤكد ما ذهب إليه المختار، فالسلطان العثماني لم يتمكن من إلحاق هزيمة نهائية بالصفويين، بالرغم أن السلطان سليم حقق انتصار كبير على شاه فارس في معركة جالدران سنة 920 هـ / 1514 م، بفضل قوة الجيش وتنظيمه. غير أن الصراع كان في الجهة الغربية من الدولة الصفوية، وبالخصوص على العراق وعلى عاصمة العباسيين،[5] التي استولى عليها العثمانيون سنة 941 هـ / 1534 م، ولكنهم فقدوها سنة 1033 هـ / 1623 م، ولم يتمكنوا من انتزاعها بعد ذلك من الصفويين إلا في عام 1048 هـ / 1638 م.

وكانت هناك عقبات داخلية أمام السلطان سليم، فأضطر إلى أن يزيح عن طريقه والده الطاعن في السن، والمسالم[6] وغير المجدي: «وفي المائة العاشرة كانت فتنة أبي

---

[1] ـ المختار الكبير، نزهة الراوي، و115و.

[2] ـ جون سوندرز، العالم الإسلامي عشية توسع أوروبة، ترجمة محمد ظافر الصواف، دار البشير عَمَّان ومؤسسة الرسالة بيروت، ط الأولى 1994، ص: 70.

[3] ـ المقصود هو السلطان سليم.

[4] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.

[5] ـ البرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، تعريب أسعد صقر، دار طلاس دمشق، ط الأولى 1997، ص: 249.

[6] ـ جون سوندرز، المرجع السابق، ص: 70.

عثمان السلطان سليم شاه، وحروبه مع إخوته، وقتله إياهم، وأولادهم».[1] ومن النتائج التي ترتبت جزئيا عن الصراع مع الصفويين، أن تحرك العثمانيون جنوبا إلى داخل أراضي المماليك، حيث اجتمع السلطان سليم: «بعسكر مصر وسلطانها على مرج دابغ،[2] وقتله سلطانها، وأكابر أمرائها، ثم دخوله إلى مصر في أسرع حال، وأقصر زمان، وفعله فيها مع أهلها ما تقشعر منه الأبدان، وتقصر دون حصره الأخبار».[3] ويرجع الفضل في التفوق العثماني إلى حد كبير إلى قوتهم النارية المتزايدة، وتنظيمهم العسكري، وقد استطاعوا أن يخضعوا الشام، ومصر، وغرب الجزيرة العربية بين سنتي 922 ـ 923 هـ / 1516 ـ 1517 م. ووفد على السلطان سليم وهو بمصر رسل شريف مكة، وقدموا له الطاعة،[4] وسلموه مفاتيح البلد المقدس، ومنحوه لقب خادم الحرمين الشريفين، وهو شرف رفع من قدره كثيرا في مختلف جهات العالم الإسلامي.

تحامل المختار على الأتراك:

يتحدث المختار عن الأتراك الذين يصفهم بأنهم كانوا «عبيدا لبني العباس»[5] في إشارة إلى وضعهم في العصر العباسي الأول وخاصة في عهد الخليفة المعتصم بالله، حيث شكلوا عدة الجيش، والخدم في القصور، واستكثر منهم حتى ضاقت[6] بهم عاصمة الخلافة. وزاحموا الناس في ديارهم، وتأذوا منهم، وهذا الوضع اضطره إلى بناء سامُرّاء لتكون حاضرة لهم.

---

[1] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.

[2] ـ يقصد مرج دابق: وهي الموقعة التي هزم فيها العثمانيون المماليك بالقرب من حلب في أوت سنة 922 هـ / 1516 م، وبذلك تقرر مصير الشرق لأربعة قرون قادمة. ورغم بسالة المماليك فإنهم لم يكونوا ندا للمدفعية العثمانية. ينظر: جون سوندرز، المرجع السابق، ص: 88.

[3] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.

[4] ـ جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص: 78.

[5] ـ المختار الكبير، نزهة الراوي، و126 و.

[6] ـ ابن طباطبا، المصدر السابق، ص: 228.

ثم يشير المختار إلى استئثار الأتراك بالخلافة العباسية «انتقل مُلكُ بني العباس إلى الأتراك».[1] وذلك في عهد سيطرة السلاجقة، فلم يبق للخلفاء العباسيين من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة، ودام النفوذ السلجوقي فيما بين (447 ـ 656 هـ / 1055 ـ 1258 م). على أنه ينبغي ألا نغفل أن معاملة سلاطين السلاجقة للخلفاء العباسيين بالحسنى، قد أحيت في نفوسهم الأمل في إعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان،[2] حتى أنهم استطاعوا في أواخر عهد السلاجقة أن يظفروا بشيء من السلطة، وخاصة عندما قام النزاع بين أفراد البيت السلجوقي. والغريب أن المختار لا يتناول سيطرة البويهيين الشيعة على الخلافة العباسية، فالخلفاء العباسيين أصبحوا ألاعيب في أيدي سلاطين بني بويه.

ثم يتطرق المختار إلى الخلافة العثمانية، التي يعتبرها امتدادا للسيطرة السلجوقية على الخلافة والحكم الذي «هو في أيديهم إلى يومنا هذا».[3] وهو يغفل أو يتغافل أن العثمانيين جاءوا في فترة كان يتحرك الصليبيين بحماس ديني حار،[4] لاسترجاع الأراضي التي فتحها المسلمون من قبل. ولا ندري ما هو الدافع لمشاعره المتعصبة ضد الأتراك والبربر؟ وأعتقد أن ذلك يُحمل على أن المختار من الذين يشترطون النسب القرشي في الخلافة، وهو أمر لا يتوفر عليه الجنسين.

2ـ تاريخ المغرب والأندلس:

يتحدث المختار عن بلاد الأندلس التي نال بها العلماء والعلم المكانة الأولى، ووصفها بعد اتصال المرابطين بكونها: «غرة هذا الدين».[5] فنصر الزلاقة أمّن لهم

---

[1] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 207.
[2] ـ حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، 87.
[3] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 207.
[4] ـ جون سوندرز، العالم الإسلامي، ص: 157.
[5] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.

الاستقرار،[1] وكان لقوة المسلمين العسكرية نتائج كالصاعقة. وفي المقابل كانت نتائج المعركة كارثة على النصارى، ومع ذلك فقد تمكن قائدهم من النجاة رفقة خمسمائة من جنوده. هذا النصر الذي صنعه الأمير يوسف بن تاشفين، بتجربته وخبرته الحربية والسياسية، والتي كان مرجعها الأساسي فتاوى[2] العلماء والفقهاء، تلك الفتاوى التي أقرّت ضرورة القضاء على ملوك الطوائف. وإظهارا لكرم القائد الإسلامي، فقد أدهش الأمير يوسف الجميع، حين عاد إلى المغرب بلا غنائم.

ثناء المختار على الدولة الموحدية:

إن عمال يوسف بن تاشفين سرعان ما فسدوا بعد احتكاكهم بالعادات، والتقاليد الأندلسية. وفي جنوب مراكش راحت القبائل تسير وراء المهدي، الذي بشرهم بالعودة إلى بساطة الحياة والإيمان. وحلّت سلالة الموحدين محل المرابطين في المغرب أولا، وفي الأندلس أيضا. ويشير المختار إلى أن سلاطين هذه الدولة الجديدة كانوا يولون القضاء أعلم طلبة العلم بالأحكام: «ومن مفاخر الدولة الموحدية أنهم كانوا لا يولون إلا أعلمهم بالأحكام الشرعية».[3] وهذا ما ينطبق بصدق على عهد الخليفة الثالث أبي يوسف يعقوب،[4] الذي نال في عهده طلبة العلم ما لم ينالونه على أيام أبيه وجده،[5] بهدف إجراء الشريعة على منهاج الله[6] وسنة نبيه، حتى أن الموحدين حسدوهم على موضعهم منه، وتقريبه إياهم وخلوته بهم، وبالغ ببرّهم وإكرامهم.

---

[1] ـ أمبروسيو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد أكمير، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط الأولى 2004، ص: 25.

[2] ـ محمد المعزوزي، «الأمير المجاهد يوسف بن تاشفين والممالك الأندلسية»، ندوة يوسف بن تاشفين، مؤسسة البشير للتعليم مراكش، يومي 2 ـ 3 محرم 1421 هـ / 7ـ 8 أفريل 2000. ص: 112.

[3] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 12.

[4] ـ أبي يوسف يعقوب: الملقب بالمنصور وهو حفيد عبد المؤمن بن علي وهو ثالث خلفاء الموحدين، دام حكمه من(580ـ 595هـ / 1184 ـ 1199 م)، تم في عهده فرض مذهب الموحدين في العقيدة على كل الدولة.

[5] ـ ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الثالثة 1987، ص ص: 278 ـ 279.

[6] ـ ميراندا، التاريخ السياسي، ص: 376.

غير أن الأمر الذي لم يذكره المختار أن سلاطين هذه الدولة شنوا حملة على علم الفروع، وهذا ما قام به أبو يوسف يعقوب الذي خافه الفقهاء، وأمر بإحراق بعض كتب الفقه[1] من جملتها مدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، والتهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب. وحمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنة. وفرض مذهب الدولة على جميع جهاتها[2] وكلمة التوحيد والهداية في بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة كوكو.

وصف ما حلّ بالأندلس قبيل سقوطها:

شدد سلاطين الموحدين على الاهتمام بالأندلس وإصلاح شأنها، وكان يعقوب المنصور يوصي: «بالأيتام واليتيمة».[3] في إشارة إلى أن الأيتام أهل الأندلس، واليتيمة الأندلس نفسها. غير أن هذا الوضع لم يستمر حيث تعددت التجاوزات بكل أنواعها، خاصة من جانب الحكام الذين مال أغلبهم إلى حياة المسرّات والبذخ، ورفع الله النصر عن أهل الأندلس لما اشتغلوا بالدنيا عن الآخرة، وانهمكوا في سماع الغناء، والرقص، وأبهة الحكم: «فسلط الله عليهم عبيدهم من الروم؛ فأبادوا خضراءهم بعد العز الباذخ والعلو الشامخ؛ فأصبحوا أحاديث بعدما كانوا وجوه الناس».[4] وكان فيهم قبل ذلك الفرسان، والعلماء، والأولياء. قال تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾.[5] وسقطت الممالك الإسلامية تباعا الواحدة بعد الأخرى، واستولى «الإفرنج على أكثر مدائن جزيرة الأندلس كطليطلة وغرناطة»[6] وبسقوط غرناطة سنة 898 هـ / 1492 م،[7] لم يبق للإسلام موقع قدم في الأندلس، فهي

---

[1] ـ الفرد بل، المرجع السابق، ص: 279.
[2] ـ مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص: 111.
[3] ـ مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص: 160.
[4] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص ص: 508 ـ 509.
[5] ـ الآية 11 سورة الرعد.
[6] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.
[7] ـ جون سوندرز، العالم الإسلامي، ص: 151.

آخر معقل إسلامي بها، وتكالبت جيوش الأسبان على المسلمين وأزاحوهم منها، ودخل إلى بلاد المغرب أعداد هائلة منهم.

الأسبان وغزو المغرب:

ولما ضعفت الدويلات الإسلامية عن مقاومة النصارى، فإن هؤلاء سرعان ما استعادوا قوتهم، بعد «التبديل والتغيير».[1] وظلت أطماع الممالك الاسبانية كبيرة في المغرب، نظرا لضعف الدفاعات الإسلامية على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، وكذلك للحروب المتواصلة بين «سلاطين الدويلات في هذه الناحية»[2] وتمكن النصارى من أخذ مرسى المعمورة،[3] وذلك في أواخر جمادي الثانية سنة 1023 هـ / 1614 م، وهنا «اجتمع شمل المسلمين»[4] وكان: محمد العياشي[5] على رأس المقاتلة بدكالة.[6] ويضيف القادري[7] أن أهل سلا[8] لما سقط مرسى المعمورة استغاثوا بالسلطان السعدي، الذي اتصل بمحمد العياشي لإنقاذ المدينة.

---

[1] ـ المختار الكبير، نزهة الراوي، و4 و.

[2] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 27.

[3] ـ مرسى المعمورة: يقع بمدينة المعمورة شمال مدينة سلا على مصب نهر سبو، وقد أسس في العهد الموحدي ولأهميته الكبيرة في الدفاع البحري على منطقة الغرب. وقد تعرض للاحتلال البرتغالي سنة 921 هـ / 1515 م. ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص ص: 210 ـ 211.

[4] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 89.

[5] ـ محمد العياشي: هو أحد أبطال المغرب بالإضافة إلى أهميته الصوفية حيث اعتبره مؤرخو رجال التصوف المغربي في القرن الثاني عشر الهجري قطب زمانه، ولد عام 980 هـ / 1573 م، من أسرة من بني مالك العربية. إحدى قبائل الغرب التي تسكن جنوب القصر الكبير، وقضى حياته في الدفاع عن بلاده وجهاد الأعداء توفي مقتولا رحمه الله 1051 هـ / 1641 م، قتله بعض الخلط بموضع يسمى عين القصب ودفن بإزاء روضة أبي الشتاء من بلاد فشتالة. ينظر: القادري، التقاط الدرر، ج 1، ص: 113.

[6] ـ دكالة: إقليم يبدأ من وادي تانسفت جنوبا إلى وادي أم الربيع شمالا، أما شرقا فغير واضح، وغربا المحيط الأطلسي وعلى هذا الشاطئ كانت حركة محمد العياشي ضد التدخل في شواطئ المغرب. ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص: 147.

[7] ـ القادري، المصدر السابق، ج 1، ص: 67.

[8] ـ سلا: هي من المدن القديمة التي بناها الرومان، ولما دخلت الجيوش الإسلامية إلى هذه المنطقة سلمها القوط إلى طارق بن زياد، وبعد تأسيس فاس انضوت سلا تحت سلطة ملوكها، وبنيت على شاطئ المحيط في موقع جميل، غير بعيدة من الرباط. ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص: 207.

وفي فترة السلطان زيدان،[1] نشطت حركة محمد العياشي ضد التدخل في شواطئ المغرب، وكان في بادئ الأمر مجاهدا متطوعا، وبتوجيه من شيخه الصوفي عبد الله بن حسون،[2] عينه «السلطان زيدان قائدا لحماية تلك النواحي»[3] وأهم مركز لهذه الحركة كان بأزمور، عند مصب نهر أم الربيع.

3ـ تاريخ أزواد:

لم تعرف منطقة أزواد تغيرا يذكر على مستوى الخريطة البشرية منذ قيام الحركة المرابطية، إلاّ ابتداء من القرن 8 هـ / 14 م، عندما بدأت القبائل الحسانية الاستقرار في أطرافها الشرقية، تحت ضغط الموحدين ومن بعدهم بني مرين، مما يجعل الباحث يعتقد بأن صنهاجة ظلت حتى ذلك التاريخ هي المسيطرة من حيث العدد والهيمنة السياسية. وبالتالي تميزت تلك الحقبة بسيطرة القيم، والتقاليد، واللغة الصنهاجية، على المجال الجغرافي المعني. وسيتغير ذلك الوضع منذ وصول: «موجات القبائل الحسانية المعقلية»[4]، التي توافدت على المنطقة على شكل مجموعات قبلية كبيرة، وكان وصولها متفاوتا من الناحية الزمنية، و آخر المجموعات المهمة منها يتمثل في وصول المغافرة في نهاية القرن 9 هـ / 15 م، وبداية القرن 10 هـ / 16 م. ثم إنهم بدأوا يتغلغلون فيها، حتى توزعت أهم مجموعاتهم في أرجاءها المختلفة خلال القرنين 11 ـ 12 هـ / 17 ـ 18 م.[5] ثم تمكنوا من تأسيس عدة إمارات في بلاد شنقيط (البراكنة، والترارزة)، وفي شرق أزواد.

---

[1] ـ السلطان زيدان: هو السلطان السعدي ابن أبي العباس المنصور ابن الأمير أبي عبد الله المهدي ابن الأمير أبي عبد الله القائم بأمر الله، ولاه والده مكناس، وكان أميرها في عهد أحمد بن القاضي عام 999 هـ / 1590م. ينظر: ابن القاضي، درة الحجال، ج 1، ص ص: 277 ـ 278.

[2] ـ عبد الله بن حسون: ولد عام 920 هـ / 1514 م، وتوفي عن سن عالية تزيد عن التسعين، وكانت وفاته 12 محرم سنة 1013هـ / 1604 م، وهو من الفقهاء المتصوفيين وطرقته جزولية شاذلية، وكان له اتصال بأبي عبد الله محمد الحاج الدلائي. ينظر: أحمد بن القاضي، درة الحجال، ج 3، ص: 62.

[3] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 69.

[4] ـ المختار الكبير، الوثائق، و13 و.

[5] – الناني بن الحسين، المرابطون والذاكرة الجمعية الشنقيطية، ص: 131.

السعديون بالصحراء والسودان الغربي:

يتعرض المختار إلى العديد من الأحداث التاريخية التي تهم منطقة أزواد، وغيرها من مناطق الصحراء، وتناوله يزيد من فهم بعض الوقائع التي تظل غامضة في مصادر التاريخ المحلي لتاريخ أزواد.

سقوط تيكورارين وتوات في يد السعديين:

كان يسود بتوات[1] وتيكورارين[2] حكم الجماعة، وذلك على امتداد حكم الدويلات الإسلامية بالمغرب الإسلامي. وبعد تأسيس المغيلي[3] لإمارته في النصف الأخير من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، تضررت تلك الجهات بسبب العزلة التي عانت منها بعد عزوف القوافل التجارية عن المرور بتوات. وظلت الأوضاع على تلك الحالة حتى اعتلاء السعديين الحكم، الذين رغبوا في ضم توات، كونها مرحلة هامة في طريق التجارة إلى بلاد السودان.

وجهز المنصور في سنة 991 هـ / 1583 م، العساكر من مراكش، وفاس، وجعل على جيش فاس القائد محمد بن بركة،[4] وعلى جيش مراكش القائد أحمد بن

---

[1] ـ توات: منطقة تقع جنوب منطقة الساورة على امتداد وادي مسعود، تبدأ شمالا من قصر عريان الرأس وتنتهي بزاوية الركاني. وهي تضم العديد من القصور والزوايا منها: تمنطيط، وزاوية المغيلي، وبودا، وتيمي، وتيطاف، وتازولت. ينظر:

DEVORS (P), Le Touat. étude géographique et médical. Archives de l'Institut pasteur d'Algérie T. 25, n° 3- 4, septembre-decembre 1947. p. 224.

[2] ـ تيكورارين: هي منطقة تقع شمال منطقة توات حدودها الشمالية تبلكوزة وجنوبا تلامس مقاطعة تسابيت، وهي تضم العديد من القصور أهمها: المطارفة، وأوقروت، ودلدول، وتنميمون، وأولاد سعيد، والحاج قولمان. ينظر:

REBOUL (E) , Le Gourara. Etude historique, géographique et médicale. Archive de l'Institut pasteur d'Algérie.. T. 31, n° 2, juin 1953. p. 172.

[3] ـ المغيلي: هو محمد بن عبد الكريم التلمساني ثم التواتي، أخذ عن الجلاب التلمساني وعبد الرحمان الثعالبي، ثم توجه إلى بجاية للأخذ عن علمائها، وعاد إلى تلمسان ثم رحل منها إلى توات أين قام بثروتين على يهودها، تمكن من إجلائهم عنها في المرة الأولى لكنه فشل في الثانية. وتوفي سنة 909 هـ / 1503 م.

[4] ـ محمد بن بركة: هو أبي عبد الله محمد بن بركة ويدعى بحمو بن بركة قائد جيش المنصور الذي احتل تيكورارين وتوات سنة 990 هـ / 1582 م، صحبة القائد أحمد بن حداد العمري المعقلي. ينظر: بن عبد الله، الموسوعة المغربية، ج 1، ص: 178.

الحداد.[1] وتوجهوا إلى تيميمون،[2] وبعد مقاومة كبيرة من سكانها حيث: «أبلى القوم في الدفاع من وراء الجدران وامتنعوا من إلقاء اليد».[3] وهذا ما جعل الجيش السعدي يزيد من أعماله البشعة بعد امتناع أهلها وعزمهم على الدفاع عن مدينتهم بكل بسالة، وجمعوا المؤن واستعدوا للحصار، واجتمعت[4] كلمتهم على صد الجيش السعدي. واستعمل الغزاة البارود وقصفوا القصبة من كل الجهات، من بداية النهار حتى غربت شمس ذلك اليوم. ثم اقتحموا المدينة وانطلقت أيدي العساكر بالنهب، والعيث في المنازل حتى ارتفع نداء الأمان. وقبض على أعيان المدينة ورؤساء القصور، الذين التجئوا إلى تيميمون قبل الحصار ووضعوا في السجن.

ورغم خضوع تيميمون، فإن االقصور «الواقعة بالجهة الظهرانية منها لم ترغب في التسليم للغزاة».[5] فبعثوا إليهم الغزاة يتوعدونهم بشن حملة ضدهم تكون أكثر شراسة من سابقتها. وبث القائد بن بركة عماله في البلاد الخاضعة وأخذ خراجها، وبعث بجبايتها إلى مراكش.

ثم يمم الجيش الغازي وجهه شطر توات، وقصدوا أشهر وأكبر قصورها وهو قصر تمنطيط.[6] ولما أدرك سكانها ألا طاقة لهم في محاربتهم، سلموا بلادهم دون قتال. وفرض عليهم بن بركة جباية الأموال، وحصل منها على أموال كثيرة، ثم أخذ عن أهلها

---

[1] ــ أحمد بن الحداد: هو أبي العباس أحمد بن الحداد العمري المعقلي، وهو عامل السعديين على تيكورارين، كانت له معرفة بالصحراء خاصة الساورة وله لقاء مع ابن أبي محلي ببني عباس عام 1011 هـ / 1602 م، لما كان في طريقه إلى دار الإمارة مراكش، وكان يرافقه القاضي محمد بن عبد الله. ينظر: محمد حجي، الحركة الفكرية، ج 2، ص: 629.

[2] ــ تيميمون: هي عاصمة تيكورارين مدينة يسكنها العرب والبربر، وبها نخيل كثيف وواحات كثيرة. كما توجد بها العديد من القصبات المحصنة.

[3] ــ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 65.

[4] ــ الفشتالي، مناهل الصفا، ص: 76.

[5] ــ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 69.

[6] ــ تمنطيط: هي عاصمة توات إلى غاية ثورة المغيلي الأولى، ثم خمل ذكرها بعد ذلك لصالح زاوية المغيلي ثم تيمي، حتى عادت لها حيوتها مع مجيء السعديين. بها العديد من الأسواق التجارية والقصبات والدارس التعليمية. ينظر: *DEVORS (P), Op. Cit., p. 225.*

الرهن على الطاعة. وتمكن من بسط سلطته عليها بأسرع مما كان يتوقعه، وعزم على العودة إلى تيكورارين لإخضاع القصور التي استعصت عليه في السابق.

وتعمد أن يقصد الجهة الظهرانية من تينميمون، وبعد محاولات يائسة لطلب الاستسلام من السكان، بدأ الهجوم على القصبة بالبارود، وقاتل السكان ببسالة وشجاعة كبيرة، بعدما تجمعوا في قصبة أولاد عبد الله[1] ونظموا أنفسهم للدفاع عنها، وتمكنوا من رد عدة محاولات لإخضاعهم. وازداد حقد الجنود الغازية عليهم والتهبت صدورهم، واجمعوا على استئصال شأفتهم وقطع دابرهم «وحكّموا القتل فيهم رجالا ونساء».[2] وهدموا سور القصبة عليهم، فلم يبق منهم ولا من حيوانهم وسائر ما «يدب على الأرض من نعمهم ودوابهم عين تطرف فأطبق على الجميع تيار الهلكة فأصبحوا مثلا في الغابرين وعادت منازلهم بلاقع كأن لم تغن بالأمس».[3] وبهذه الكيفية تبعت تيكورارين للدولة السعدية، بعدما فقدت تيميمون الكثير من رجالها، ونسائها، دفاعا عن المدينة.

أما توات ــ كما رأينا ــ فقد خضعت رهبة لا رغبة، مخافة أن يلحق بها ما لحق بتيميمون. ومع ذلك يتحدث البعض عن فتح توات وتيكورارين؟! أي فتح هذا؟ أعتقد أن الطريقة التي سقطت بها تيكورارين تبقى وصمة عار في وجه الغزاة، الذين لم يراعوا حرمة لإنسان أو حيوان. فالغزاة كانوا من الجنود المرتزقة، الذين لا تحكمهم أي حدود أو معايير للحرب، غير معايير الكسب، والنهب، والسلب. وما يزيد هذا تأكيدا أن الهدف من احتلال توات، كان السيطرة على الطريق التجاري[4] الذي يصل المغرب ببلاد السودان الغربي، على اعتبار أن السعديين سيخضعون السودان في مرحلة تالية.

---

[1] ــ قصبة أولاد عبد الله: هي قصبة توجد في الجهة الشرقية من تيكورارين بها عرب وبربر، ويمتهنون الزراعة والتجارة. ينظر:

REBOUL (E), Op. Cit., p. 173.

[2] ــ المختار الكبير، الوثائق، و14 ظ.

[3] ــ الفشتالي، المصدر السابق، ص: 78.

[4] ــ عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية، ج2، ص: 19.

وعقب هذه الأحداث يمكن استنتاج أمور كانت لها دلالتها الكبيرة؛ أهمها إلغاء حكم الجماعة بالمنطقة وأصبح هذا النظام محظورا، واستبدل بحكم القادة أو العمال، الذين يتم إرسالهم من مراكش، ومعهم عمال الجباية، والقاضي الشرعي. وأول عامل تم تعيينه على توات وما وراءها من النواحي هو أحمد بن الحداد، وذلك بعد نجاحه في ضمها للدولة السعدية. وأول من تولى القضاء بها محمد بن عبد الله،[1] الذي أسند إليه أحمد المنصور هذه المهمة بتيكورارين وما وراءها من المناطق الصحراوية، ولقب بقاضي الجماعة، ولم تصرفه مهامه في الحكم[2] عن التدريس وإرشاد المريدين على طريقة الشيخ السماحي.[3]

كما أن الحياة الاجتماعية للسكان تدهورت بسبب الإفراط في الضرائب، وتعدد المظالم. واستعان سلاطين الدولة السعدية في بسط نفوذهم ببعض الحاميات العسكرية التي كانت ترابط بعدد من القصور، بالإضافة إلى قبائل المخزن التي كانت تنتشر على خط وادي الساورة وهي مدججة بالسلاح، وأوكلت إليهم جباية الضرائب وحماية حدود الدولة الجنوبية، وقامت هذه القبائل بالعديد من التجاوزات، والمناكر، في حق سكان القصور، فأصبحوا: «يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها».[4] ومن هنا بدأ اتصال هذه القبائل بتوات والمناطق المحاذية لها، وتحولوا من أداة للتأمين في أيدي الدولة السعدية وممثلين لها في التخوم الصحراوية، إلى مستأثرين بإدارة فوضوية لشؤون تلك المناطق، شأنهم في

---

[1] ـ محمد بن عبد الله: هو محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الوطاسي الجراري التقى مع ابن أبي محلي في بني عباس، ثم التقيا مرة ثانية بتيكورارين عام 1013 هـ / 1604 م، وهو في طريقه إلى الحج فمكث هناك أربعة أشهر حاول القاضي أثناءها عبثا أن يصلح ذات البين بين ابن أبي محلي والسماحي، وزعم أنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام فأخبره أن كلا من ابن أبي محلي والسماحي على صواب، وصاغ القاضي ذلك بأسلوب منمق في شبه مقامة مع قصيدة تائية، غير أن ابن أبي محلي لم يعجبه ما قاله القاضي وانتقده نظما ونثرا، ومما قاله فيه: فلو وجد القاضي في اليقظة دليلا يذب به عن صاحبه البغي ما عدل إلى الأحلومة الزائفة. توفي بعد سنة 1017هـ / 1608 م. ينظر: أحمد بن أبي محلي، منجنيق الصخور لهدم بناء شيخ الغرور ورأس الفجور، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 582. ص ص: 206 ـ 214.

[2] ـ محمد حجي، الحركة الفكرية، ج 2، ص: 629.

[3] ـ السماحي: هو عبد القادر بن محمد السماحي المدعو بوسماحة، كان فقيها وأديبا وصوفيا شهيرا، يستقبل في زاويته بفجيج عددا كثيرا من المريدين، وتزوج ابن أبي محلي ابنته وساكنه مدة في بيته، لكنه انفصل عنه بعد مضي ثلاثة أشهر وطلق ابنته وألف عدة كتب في انتقاده والتشنيع عليه. توفي حوالي سنة 1030 هـ / 1621 م. ينظر: ابن أبي محلي، منجنيق، ص: 132.

[4] ـ المختار الكبير، الوثائق، و 14 ظ.

ذلك شأن مختلف القبائل التي تتطلع إلى الاستقلال بإدارة شؤونها عندما تبتعد عن مركز السلطة.

مملكة سنغاي:

بلغت إمبراطورية غانا ومملكة مالي الإسلامية شأنا عظيما، واستطاعتا السيطرة على أراض شاسعة من مناطق غرب إفريقيا، ولكن أيا من هاتين القوتين لم تبلغ ما بلغته سنغاي من القوة، والسيطرة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين / الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

وعن أصل سنغاي يشير المختار أن جدهم، وجد ونكر، كانا أخوين شقيقين. وأنا أباهما كان ملكا من ملوك اليمن. وعندما مات الأب خلفه على الملك أخوه، فضيَّق الخناق على أبناء أخيه أشد التضييق، فهاجروا من اليمن إلى التكرور، ومعهم زوجاتهم.[1] وتحدث صاحب مخطوط فتح المنان،[2] عن شعب السنغاي الذي جاء من بلاد الشرق، على مراحل حتى وصلوا إلى السودان، واشتغلوا بالرعي، ثم بالتجارة.

ومن المؤرخين[3] من يرى بأن السنغاي مزيج من الشعوب الثلاثة: الأقزام، والزنوج، والحاميين. مع العلم أن شعوب غرب إفريقيا، اختلطت منذ زمن بعيد بشعوب بيضاء، من بينها العرب، والبربر. وهناك من قال بأن: «معظم شعب سنغاي أصله من دندي».[4] ثم ساروا مع مجرى نهر النيجر، حتى وصلوا إلى كوكو، ووجدوها مدينة ذات خيرات وفيرة، فاستقروا بها. وتمكنوا من أخذ السلطة، وخضعت لهم شعوب كثيرة.

---

[1] ــ المختار الكبير، الوثائق، و13 ظ.
[2] ــ محمد مرحبا، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، و 27 و.
[3] ــ من جملتهم نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في أفريقيا الغربية، الجزائر، ط 1975، ص: 17.
[4] ــ نقولا زيادة، المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبي، بيروت، ط 1967، ص: 30.

واستقل علي كلن بسنغاي سنة 736 هـ / 1335 م عن مالي تحت اسم سني علي،[1] وكان قبل ذلك يعيش في قصر إمبراطور مالي، قال المختار الكنتي: «خروج خارجي ببلاد التكرور ويقال له صَنَنُ علي على نمط تمرلنك أباد العباد وخرّب البلاد وأقام على ذلك الفساد ما ينيف على عشرين سنة حتى أهلكه الله تعالى وجنوده سنة سبع وتسعين بالسيل».[2]

استيلاء السعديين على تنبكتو:

يحاول المختار أن يتناول المظالم ويصف الأعمال التي ارتكبها الجيش السعدي بأزواد، والسودان الغربي، قال المختار الكبير: «فخربا بلاد التكرور واستأصلوا شأفته».[3]

ويجب أن أشير أن العلاقات بين السعديين وسلاطين سنغاي ترجع إلى عهد أسكيا داوود، حيث بعث السلطان أحمد المنصور وفدا إلى الأسكيا يطلب منه تسليم خراج معدن تغازى لمدة عام واحد. فاستقبل الأسكيا داوود الوفد بكل حفاوة وتكريم، وأرسل للسلطان المغربي هدية كبيرة من الذهب، تمثلت في «عشرة آلاف مثقال ذهب».[4] فتعجب المنصور من سخائه، وجود كرمه. وكانت تلك الهدية سبب المودة بينهما، ولما توفي أسكيا داوود، حزن المنصور لموته، وعزاه أكبر قادته وجنوده.

وفي عهد أسكيا إسحاق، بدأت تطلعات سلطان المغرب من جديد نحو السودان الغربي، وأفتى شيوخ المغرب بأحقية وضع يد (الإمام) على المعادن بتلك الجهة. وبعث المنصور برسالة تتضمن خطابا طويلا، مع فتاوى العلماء إلى الأسكيا، ودعاه إلى تنظيم تجارة ملح تغازى والذهب بين المغرب والسودان، من أجل الاستعانة بهما على حرب

---

[1] ـ سني علي: سلطان سنغاي أخذ كرهينة لدى إمبراطور مالي وكان ذلك دليلا على خضوع أسرة ضياء لسلطان مالي على عاداتهم في ذلك الوقت، وهو ابن أسيباي آخر سلاطين سنغاي قبل آل سني. ينظر: عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، ص: 21.

[2] ـ المختار الكبير، البرد الموشا في قطع المطامع والرشا، ج 2، ص: 9.

[3] ـ المصدر نفسه، ج 2، ص: 9.

[4] ـ محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص: 127.

الكفار. غير أن الأسكيا رفض ذلك، ورد عليه: «أنت أمير ناحيتك، وأنا أمير ناحيتي».[1] وأعطى للوفد المغربي هدية بسيطة، من جملة ما جاء فيها نعلين من حديد![2]

ولما وصل الوفد إلى المنصور، سلمه الهدية وأعلموه بما جرى بينهم وبين أسكيا إسحاق من حديث، فجمع السلطاني السعدي، أعيان دولته وأهل الرأي والمشورة، وأخبرهم بالأمر وكان يوم اجتماعهم يوما مشهودا، وأشاروا عليه: «بالبغي في الأرض، والتسلط على البلاد السودانية».[3]

وأدرك الأسكيا إسحاق أن الأمور تسير نحو التوتر مع الدولة السعدية، فأرسل ألفين من التوارق، وأصدر لهم الأوامر بأن يغيروا على آخر بلاد درعة إلى جهة مراكش، دون أن يقتلوا أحدا فأغاروا على أحد الأسواق، وأخذوا ما فيه من سلع، ورجعوا كما أمرهم.

وجعل المنصور يستعد ويعدّ العدة فما جاءت سنة 976 هـ / 1569 م، حتى كان الجيش السعدي جاهزا، وفي اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة 998 هـ / 1589 م، تحركت الجيوش من مراكش، ونزلت بوادي تانسيفت،[4] وبلغ عددها اثنين وعشرين ألف رجل، بقيادة جودر،[5] ومحمود[6] بن زرقون،[7] ويساعدهما جماعة من خيرة أعيان الدولة. و«على رأس المائة الحادية عشر، دخل جنود أحمد الذهبي إلى تنبكتو»[8]،

---

[1] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 8.

[2] ـ السعدي، تاريخ السودان، ص: 138.

[3] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.

[4] ـ وادي تانسيفت: يوجد على ثلاثة أميال من مراكش، ومنبعه من بلد دمنات، يصب فيه وادي وريكة ووادي نفيس وأودية كثيرة، ومصبه في ساحل رباط جوز. ينظر: مجهول، الاستبصار، ص: 209.

[5] ـ جودر باشا: هو القائد جودر قائد جيش المنصور السعدي، وهو الذي سيطر على بلاد السودان سنة 999 هـ / 1590 م، وتميز بالحزم الشديد والقوة على الحرب. ينظر: ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج 1، ص ص: 233 ـ 235.

[6] ـ عند المختار : سعيد، وهو خطأ واضح.

[7] ـ محمود بن زرقون: أحد قادة الرماة، له بسالة وشجاعة كبيرة، وهو من مماليك أبي العباس المنصور السعدي. ينظر: ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، ص ص: 325 ـ 327.

[8] ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 9.

وبالضبط في المحرم سنة 999 هـ / 1590 م، وكان قائد الحملة يحمل رسالتين : واحدة للشيخ أحمد بن آد،[1] والأخرى للقاضي عمر بن محمود بن عمر بن أقيت.[2] وحثهما على لزوم الجماعة. وخص المنصور ابن آد في رسالته بعبارة: «فانظر حال السلطان وصلاحه، سبحان من خص من شاء بما شاء».[3]

ولقد ركز السلطان السعدي على هاتين الشخصيتن، دون سواهما على اعتبار أن عائلة ابن آد لها وزنها الروحي في المنطقة، فأهالي السودان يتبركون بهم، ويسيرون وفق تعليماتهم، فهم يتزعمون المجتمع ويدافعون عن حقوق الناس. بالإضافة إلى أن القاضي له مكانة متميزة، فهو محل ثقة ومشورة.

وعندما علم إسحاق أسكيا بوصولهم إلى تنبكتو وعزمهم على مغادرتها إلى جاو، حشد لهم من جيش السودان ما يقارب المائة ألف، ومن التوارق أربعة آلاف. وكانت أسلحتهم: «السيوف، والرماح، والحراب».[4] وبدأت المعركة واستمرت من الضحى إلى العصر،[5] وكانت غير متكافئة من حيث السلاح، وانهزم الجيش السوداني وفر إسحاق من الميدان، عبر نهر النيجر، ولحق به: «ابن زرقون وأدركه، وأخذ كل ما عنده من مال».[6] غير أنه لم يتمكن من قتله، فقد هرب إلى الصحراء حيث مات.

ورجع محمود بن زرقون من جاو وترك بها جودر، وعند وصوله إلى تنبكتو، شيد قصبة وأسكن فيها الرماة. وأرسل نصف الجيش للمنصور السعدي، مع هدية كبيرة فيها ما لا يحصى، وهي: «ألف ومائتان من أفضل الرقيق جواري وغلمان، وأربعون حملا

---

[1] ـ أحمد بن آد: هو ابن محمد بن أبي بكر قدم من بلدة السوق إلى كيدال، ومنها إلى أروان وهو من أوائل الذين سكنوا تلك المنطقة، وهو من الفقهاء المشهورين وتوفي بأروان بعد عودته من الحج سنة 1044 هـ / 1634 م، وتولى بعده ابنه محمد الملقب باكين أمر القضاء في أروان. ينظر: الدالي، التاريخ الحضاري لأفريقيا، ص: 224.

[2] ـ عمر بن محمود: هو عمر بن محمود بن عمر أقيت، قاضي تنبكتو وأحد أكبر فقهائها وعلمائها الذين امتحنوا عشية الغزو السعدي للسودان الغربي، توفي بمراكش سنة 1003 هـ / 1594 م. ينظر: الدالي، المرجع السابق، ص: 254.

[3] ـ مجهول، الجواهر الحسان في تاريخ السودان، و10 و.

[4] ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 8.

[5] ـ محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص: 152.

[6] ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 8.

من التبر، وأربعة سروج ذهبا»[1] وكتب له بإخضاع السودان الغربي. ويشير المختار إلى أن عدد الأسرى كان ثلاثين ألفا، وقد استعان بهم أحمد الذهبي في جيشه، وجعلهم في مشرع الرمل[2] وهم: «إلى الآن فيه يجاهدون الروم».[3]

وضع السودان الغربي بعد الحملة السعدية:

ولما توفي المنصور ــ وهو صاحب فكرة غزو السودان ــ انقطع المدد عن الجيش، فاضطر الباشاوات لسد هذا الفراغ في صفوفه، بعناصر من الزنوج من أهل البلاد، لا يبلغون مبلغ جند مراكش في التدريب والكفاية. وتزوج الجند من نساء البلاد، وأنجبن عنصرا مولدا خليطا، «فاختلطت الأنساب والأحساب».[4] وهذا الجيش المختلط الذي جمع بين البربر، والزنوج، أطلق عليه لقب الرماة.[5]

وكان هؤلاء الجند ينتخبون الباشاوات الحكام الذين اتخذوا تنبكتو مقرا لهم، والتي كانت: قبل نزول هذه المحنة بها في غاية الحسن والجمال وإقامة الدين وإحياء السنة بها.[6] وعينوا بعض الولاة في بمبا، وجاو، وجني، وغدا الباشاوات ألعوبة في أيدي الجند يخلعونهم إذا شاءوا، ويولونهم إذا أرادوا. حتى لقد تولى منهم في الفترة ما بين (1076 ــ 1164 هـ / 1665 ــ 1750 م) نحو من مائة وثمانية وعشرين!

وأصبح لا همَّ للجند إلا الثراء بأية وسيلة، والمغالاة في فرض الرسوم، والمكوس، والضرائب، وشاركهم الرماة في هذا النهب، والسلب. وقد ساءت أحوال البلاد بسبب اضطراب الأمن، وعزل الباشاوات، وانحلال الجيش وانحطاط مستواه. وبلغ ضعف الباشاوات حدا جعلهم يدفعون الجزية لملوك سيجو الوثنيين. ثم استقلت حامية جاو،

---

[1] ــ محمود الأرواني، الترجمان، و 11 و.

[2] ــ مشرع الرمل: محل جعله السلاطين خاصا بالعبيد وعائلاتهم بالقرب من سيدي سليمان، ومن مشرع الرمل يوزع العبيد على الحاميات ويرجعون دوريا إلى ومركزهم، وتكاثر عددهم بعد ذلك. ينظر: عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة، ج 2، ص: 346.

[3] ــ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.

[4] ــ المصدر نفسه، ج 2، ص: 11.

[5] ــ السعدي، تاريخ السودان، ص: 120.

[6] ــ كعت، تاريخ الفتاش، ص: 178.

ني، وبمبا، ولم تبق للباشاوات إلا مدينة تنبكتو. ثم لم تخلص لهم هذه المدينة آخر مر، فقد اغتصب قادة فرق الجيش السلطة، وظلوا على اغتصابهم حتى آخر القرن امن عشر، و«ما قامت للسودان قائمة».[1]

وكانت القوافل تخرج في سيل مطرد من مدن أزواد، والسودان، تحمل الذهب عاج، وخام النحاس،[2] وتبيعه بأسعار مرتفعة تعود بأرباح طائلة على ملوك السودان. لباشاوات بدلا من أن يضاعف هذه التجارة وينميها، أساء إليها،[3] وأضعفها، ثم قضى يها بسبب المغالاة في فرض المغارم، والمكوس، «فركبوا أهواءهم، ففعلوا ما تقشعر جلود من ذكره من القبائح، والجور البواح، الذي لم يسمع بمثله».[4] وتبعا لذلك فقد سطرب الأمن في مسالك التجارة، وساءت الأحوال كثيرا.

لاقة الجيش السعدي مع القبائل:

ولم يسيء الرماة إلى الناحية الاقتصادية فحسب، بل أساءوا أيضا إلى الناحية علمية.[5] وتاريخهم بالسودان حافل بأنباء نفي العلماء وتشريدهم، وأحمد بابا فقيه السودان، مؤرخها، عاش شطرا من حياته في مراكش مكرها، وحبس بعض أهل العلم وصودرت والهم وقتلوا «منهم ما ينيف على ستين في المسجد وهم يصلون، وقتلوا رجلا عالما من سودان وتلاميذه، وهم ذاهبون إلى المسجد يوم الجمعة بغير سبب».[6]

وهذا المجتمع السوداني الذي أصبح ضعيفا في أغلب نواحيه، صار نهبا لغارات بدو من التوارق وغيرهم من القبائل، الذين أرادوا أن يسيطروا على المراعي الخصبة ي منحنى نهر النيجر. وفي سنة 1133 هـ / 1720 م، وقعت معركة بين تدمكت،

---

1 ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.
2 ـ زبادية، الحضارة العربية، ص: 33.
3 ـ حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص: 216.
4 ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 10.
5 ـ أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج بعرفة من ليس في الديباج، مخطوط خزانة الشيخ باي بأولف، بدون رقم، و 1 و.
6 ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.

وجني، وبمبا، ولم تبق للباشاوات إلا مدينة تنبكتو. ثم لم تخلص لهم هذه المدينة آخر الأمر، فقد اغتصب قادة فرق الجيش السلطة، وظلوا على اغتصابهم حتى آخر القرن الثامن عشر، و«ما قامت للسودان قائمة».[1]

وكانت القوافل تخرج في سيل مطرد من مدن أزواد، والسودان، تحمل الذهب والعاج، وخام النحاس،[2] وتبيعه بأسعار مرتفعة تعود بأرباح طائلة على ملوك السودان. والباشاوات بدلا من أن يضاعف هذه التجارة وينميها، أساء إليها،[3] وأضعفها، ثم قضى عليها بسبب المغالاة في فرض المغارم، والمكوس، «فركبوا أهواءهم، ففعلوا ما تقشعر الجلود من ذكره من القبائح، والجور البواح، الذي لم يسمع بمثله».[4] وتبعا لذلك فقد اضطرب الأمن في مسالك التجارة، وساءت الأحوال كثيرا.

علاقة الجيش السعدي مع القبائل:

ولم يسيء الرماة إلى الناحية الاقتصادية فحسب، بل أساءوا أيضا إلى الناحية العلمية.[5] وتاريخهم بالسودان حافل بأنباء نفي العلماء وتشريدهم، وأحمد بابا فقيه السودان، ومؤرخها، عاش شطرا من حياته في مراكش مكرها، وحبس بعض أهل العلم وصودرت أموالهم وقُتِلوا «منهم ما ينيف على ستين في المسجد وهم يصلون، وقتلوا رجلا عالما من السودان وتلاميذه، وهم ذاهبون إلى المسجد يوم الجمعة بغير سبب».[6]

وهذا المجتمع السوداني الذي أصبح ضعيفا في أغلب نواحيه، صار نهبا لغارات البدو من التوارق وغيرهم من القبائل، الذين أرادوا أن يسيطروا على المراعي الخصبة في منحنى نهر النيجر. وفي سنة 1133 هـ / 1720 م، وقعت معركة بين تدمكت،

---

[1] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.
[2] ـ زبادية، الحضارة العربية، ص: 33.
[3] ـ حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص: 216.
[4] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 10.
[5] ـ أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج بعرفة من ليس في الديباج، مخطوط خزانة الشيخ باي بأولف، بدون رقم، و 1 و.
[6] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 9.

وجيش الرماة، ومات من هؤلاء خمس مائة من خيرة قادتهم العسكريين، وعدد لا يحصى من الجنود. «فكان ذلك أول وهن دولة الرماة[1] واستيلاء تدمكت على البحر، وأعاذنا الله والمسلمين من فتنة هذه المائة وما بعدها».[2] يقصد المختار بالبحر، نهر النيجر.

تحامل المختار على البربر:

يقرر المختار بأن البربر هم أخس الأمم، وبأن الله تعالى قسّم الخبث على مائة جزء، فجعل منه تسعة وتسعين في البربر، وجزءا واحدا بين الجن والإنس! «لأنه لا أصل لهم في المكارم ولا حسب لهم في أصول الأمم».[3] وهو رأي فيه كثير من التجني والافتراء، فالبربر كان منهم قادة الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، والجنود الذين تحملوا أعباء هذا الفتح. والذي تحتفظ بذكره المصادر الأندلسية، عندما تتحدث عن طريقة فرسان زناته الخفيفة الحركة. وربما يرجع تعصب المختار ضد البربر لثأر قديم، يتعلق باستشهاد عقبة بن نافع في تهوده على يد كسيلة البربري. كما يمكن فهم هذه الحدة لديه، عندما نبحث علاقة كنته بأزناكة (صنهاجة)، هذه العلاقة التي كانت في مراحل عديدة من فتراتها متوترة وغير مستقرة. فهو يتحدث عن صنف من أعدائه المحاربين، الذين أغاروا على مخيمات كنتية.

ولم يكن المختار لسان حال قبيلته وحامل لوائها فحسب بل كان يعيش دوره، مضخما هذا الدور بأحقاده الشخصية، لأن موقفه من أزناكة كان مرده خلافه مع أحد زعماء هذه القبيلة وهو المدعو حمادة.[4] وتلك الأحقاد الشخصية كانت تتلاقى أحيانا وأحقاد قبيلته، فهو يذم البربر، ويندفع في الدفاع عن قبيلته بحماسة، لأن مصير القبيلة مصيره. وليس لمشاعره حدود إلا حدود المجموع الذي ينتمي إليه، وهذا ما جعل الهجوم على الخصوم لا حدود له وبسخرية لاذعة.

---

[1] ـ في الأصل الرمات بالتاء المفتوحة.
[2] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 10.
[3] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 207.
[4] ـ حمادة: زعيم صنهاجي كان ينشط جنوب غرب تنبكتو. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و 168 ظ.

ويحاول المختار أن يقارب بين الجنسين الأتراك، والبربر، هؤلاء الذين ينعتهم بأنهم كانوا«عبيدا لبني مروان».[1] وهو يلمح إلى وضع الزعيم الزناتي زيري بن عطية، الذي رضي بأن يحالف الأمويين السنة المقيمين بقرطبة، فهو حليف لهم ــ كما أشرت ــ وليس خادما عندهم. وفي المقابل رضي زيري بن مناد بأن يحالف خصوم الأمويين، أقصد الفاطميين الشيعة.[2] وسرعان ما شق زعيم صنهاجي آخر وهو المعز بن باديس عصا الطاعة على الخليفة الفاطمي سنة 436 هـ / 1045 م، وخلع بيعته وتخلى عن المذهب الشيعي وتبنى المذهب السني المالكي كمذهب رسمي للدولة تحت تأثير الفقهاء المالكيين الناشطين واستجابة لتربيته السنية، ولطموحات الرأي العام المالكي المتلهف على قطع دابر المذهب الشيعي في إفريقية، على حد تعبير الهادي روجي إدريس.[3] وهكذا يبدو أن الإمارات البربرية كانت تحكمها المصالح في أوقات عديدة، والمبادئ أيضا، في علاقاتها بالدويلات الإسلامية في المغرب والأندلس.

ويستمر المختار في قراءته التي يريد أن يثبت من خلالها أن البربر، سلبوا الأمويين حقهم في الخلافة، والملك هذا الأخير الذي آل «إلى البربر بالمغرب، فتداولوه أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل».[4] والوقائع تشير إلى أن الانقلاب على الأمويين قام به المنصور بن أبي عامر، الذي أقام الدولة العامرية. أما الدول التي قامت في المغرب، فهي دول قامت في المغرب كالمرابطين والموحدين على أكتاف البربر، وإذا كان المختار يريد الدويلات الثلاث المرينية، والزيانية، والحفصية، فهؤلاء ورثوا الموحدين، ولم يرثوا الأمويين.

---

[1] ــ المصدر نفسه، ج1، ص: 207.

[2] ــ عبد الهادي التازي، «زيري بن عطية وسياسته الخارجية»، ندوة المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر، جامعة محمد الأول وجدة، أيام 13ــ 14ــ 15 مارس 1986، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط 1988، ص: 224.

[3] ــ الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1992، ج 1، ص: 164.

[4] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 207.

التجارة والتجار:

وما يهم الباحث هو كون أزواد محطة نحو بلاد السودان الغربي انطلاقا من المشرق أو من عموم بلاد المغرب. وتحتفظ الوثائق[1] إلى غاية سنة 1204 هـ / 1790 م، على سبيل المثال، كان عدد التجار العرب المتواجدين بأزواد يتوزع كالتالي: 542 من توات، وما بين 20 و25 من فاس وتافيلالت، وما بين 6 و7 من طرابلس.

فالملاحظ أن أهل توات يفوقون بكثير أهل فاس والفرق بين الرقم 542 والرقم 25 لا يدع مجالا للشك. ويمكن للباحث أن يسقط هذا الرقم على مراحل سابقة، خاصة وأن البنيات الاقتصادية المتحكمة في التجارة الصحراوية لم تتغير بشكل كبير،[2] ذلك أن المواد والطرق والأشكال نفسها، استمرت طيلة مدة الدراسة، دون أن تتبلور في إطار بنيات جديدة، أو على الأقل الوصول إلى أفق ونظام اقتصادي مغاير.

إن ما سبق يمكن للباحث أن يربطه بضرورات الوساطة الصحراوية،[3] والمراكز الموجودة بجنوب المغرب الإسلامي، كتوات، وتيديكلت، وهقار، وورجلان. وترتبط هذه المراكز بأشخاص، وقبائل معينة، مختصة في قهر الصحراء واختراقها، الشيء الذي لم يكن بقدرة أهل الحضر، إلا القليل منهم، من بعض التجار وبعض الأشخاص الذين يبحثون عن الكسب والارتزاق.

وهذا يجر لطرح إشكالية المبادرة والمغامرة الشخصية، خاصة بالنسبة للتجار. فالظاهر أن المبادرة وروح المغامرة بالنسبة للتجار من سكان الحضر كفاس وتلمسان، كانت محصورة جدا إن لم تكن منعدمة. وهذا لا يمس بأي شكل قيمة ومستوى التجارة الصحراوية، فالاعتماد على الوسطاء والمكلفين كان قويا، وربما كان ذلك سببا في استمرار هذه التجارة الصحراوية تطوير أساليب وطرقها، فالمبادرة تدفع إلى التطور

---

[1] ـ المختار الكبير، الوثائق، و 15 ظ.

[2] ـ حسن الصادقي، مخطوطات في موضوع فاس وإفريقيا، ص: 33.

[3] ـ محمد حجي، الحركة الفكرية، ج 2، ص: 349.

والتغيير، إذ من المستحيل تصور مبادرة في إطار ساكن وراكد، لأن عنصر المبادرة يحمل في طياته آليات التجدد والتطوير.

عادات وتقاليد بأزواد:

ويشير إلى بعض العادات والتقاليد المتصلة بالجنائز والوفاة، منها عادة الجهر بالتهليل أمام الجنازة، فيقوم الناس في جنائزهم عند حملها «بالتهليل والتصلية على صوت واحد».[1] وتعلن الجنازة بعد إحدى الصلوات التي تقام في المسجد، حيث يذكر الإمام أن فلان قد توفي وجنازته ستقام في المقبرة الفلانية، ويعطي الوقت المحدد للصلاة عليه. ثم يقف الرجال عند المقبرة للتعزية، ويقرأ القرآن عند القبر، ويوضع بجانب القبر فرع أخضر من إحدى الأشجار يسمى الجريدة.[2] ويقوم السكان بالتضامن مع أهل الميت بتقديم الطعام وإيواء الضيوف.[3] ومن الأشياء التي انتقدها المختار وبيَّن حرمتها «تزيين القبور وزخرفتها».[4]

ونستنتج مما أورده المختار أن الاحتفال بالمولد النبوي كان يلقى اهتماما كبيرا من قبل سائر فئات المجتمع، حيث اعتاد الناس الاحتفال بتلك المناسبة[5] بالتزين بما حسن من الثياب،[6] وتكثر الصدقات على الفقراء والمساكين واليتامى، وإعداد أطعمة لهم، والتوسعة على الأبناء في المأكل. ويجتمع شيوخ العلم مع صبيانهم في «المساجد للصلاة على النبي، وتلاوة ما تيسر من القرآن»[7] وإنشاد بعض القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويؤخذ طعام الغداء من البيوت ليؤكل في ذلك اليوم بالمساجد.

---

[1] ــ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 63.

[2] - *TANGI (F), Histoire de la Mauritanie orientale à travers deux manuscrits arabes, Paris., 1993. p. 35 .*

[3] ــ أمن بن بوغتو، المصدر السابق، و 3 ظ.

[4] ــ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 243.

[5] ــ جاك ريسلر، الحضارة العربية، ص: 43.

[6] ــ الدالي، التاريخ الحضاري، ص: 85.

[7] ــ المختار الكبير، الوثائق، و 20 و.

الهدى! وخشي عواقب الردى، فموجه إليك النصح إن كنت من أهله، لأنك قد أصبحت اليوم رأس القوات، ومعدن الآفات والهفوات، بتحليلك أموال المسلمين ودماءهم، ظلما وعدوانا ومكابرة على الشرع العزيز، ومجازفة في القول ومجانفة في الصول. ومع ذلك تدّعي الولاية، والأولياء منزهون عن ارتكاب مثل هذا لأنهم محفوظون، كما أن الأنبياء معصومون. وتدّعي العلم وأنت في الحقيقة كلب منافق! بل أصبحت اليوم إلى الكفر أقرب منك إلى الإيمان... وما أراك أن لو كنت عالما إلا من علماء السوء... ولا عذر في عدم مباشرتك، لأنك بعثت بنيك إلى الحرابة بعدما سعيت وعجزت، فلما أتوك بنهبهم وما ارتكبوه من قتل النفوس أويت ومنعت، وما زلت إلى الآن في ضلالك القديم».[1] والمختار في رسالته يتهم هذا الشخص، ومن يسير سيرته بالنفاق، ويبشره بسوء العاقبة، لأنه انتحل العلم وهو منه بريء.

وحدد ابن حامد وظيفة السلب والغصب الاقتصادية في مجتمع أزواد، بوصفها مصدرا من مصادر عيش الفئة الحسانية، فقال: «وأما حسان، فشيمتهم اقتناء السلاح ومداومة الكفاح وامتلاك الرقاب، أموالهم سلاحهم، وحصونهم ظهور خيلهم، عيشهم الصيد وما يأخذونه من المغرم، أو ما ينهبونه من الأعداء وما عدا ذلك فهو عيب عندهم من تجارة أو حرث واقتناء ماشية».[2] وعليه فالحرابة بالنسبة لهؤلاء، نوع من أنواع إعادة توزيع الثروة بشكل قسري، وفوضوي، في بلاد كأزواد لا تخضع ــ أغلب جهاتها ــ لسلطة فعلية قوية. وشدد المختار في كراهة إجابة دعوة الوليمة لأمثال هؤلاء لأن أموالهم مشكوك فيها، كما أنهم يكثرون في العادة من الشبه،[3] أما إذا أقاموها بأشياء لا يبيحها

---

[1] ــ المختار الكبير، النوازل، نسخة مخطوطة لدى فيلي موسى بوسط مدينة تمنراست، وعليها تعليقات للطالب التهامي بن عبد القادر. و24 ظ.

[2] – المختار بن حامد، حياة موريتانيا، الجزء الثقافي، ص: 175.

[3] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 49.

الشرع فتصبح الإجابة حرام. وهذا الرأي أورده[1] كذلك الشيخ محمد المامي عن محمد الخليفة.

وبناء على رأي والده قسَّم محمد الخليفة الكنتي زوايا المنطقة تقسيما معياريا، وثيق الصلة بموضوع الحرابة، فيقول متحدثا عن قومه: «... إن كنته قبيلة من قبائل الزوايا المتقادمة، التي لا نسبة لها في التلصص ولا في البغي ولا في الحرابة. وإن ثبت أنه لا أصل لها في الحرابة، والبغي، وليسوا ممن عرف بذلك واتسم متقدما، دخلوا لا محالة في غمار الزوايا، الذين هم على أنحاء منهم الذين لا يحملون السلاح، ولا يتخذون الأتباع ولا يواسون لصا، وهم زوايا القبلة».[2] وهذا ما يؤكد أنه وجد من كان يتهم كنته بأنها قبيلة محاربة، وليست من قبائل الزوايا. وتجب الإشارة إلى أن بعض البطون الكنتية حملت السلاح دفاعا عن النفس، وتصديا لظلم القبائل المحاربة سواء من بني حسان، أو من أزناكة.

الاعتداءات المتكررة للقبائل الصنهاجية والعربية :

وهو ما يسمى بالنهب المحدود، وفيه يكتفي الناهب أو تقتصر حاجته الآنية من القطيع على دابة أو دابتين. وتبرز مضاعفات هذا النوع من النهب إذا كانت المواشي الممارس عليها لأكثر من مالك واحد، كما هي الحال غالبا لمحدودية مستوى الثراء في هذا المجتمع وعيش أفراده في تكتلات أسرية. وقد يرتكز النهب على نوع معين من الثروة وهي الإبل، لا بحكم أهميتها الاقتصادية، والاجتماعية، في نمط الإنتاج الرعوي لسكان الصحراء فحسب، بل لقدرتها كذلك على الحركة في مجال متسع وغير محدود[3] بالنسبة لأناس يخشون المطاردة والملاحقات، وتبرز أهمية الجمل كذلك في استطاعته

---

[1] – محمد المختار ولد السعد، الفتاوى والتاريخ، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط أولى 2000، ص: 75.

[2] ــ محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، ص: 182.

[3] ــ هوبكنز، التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية القاهرة، ط 1998، ص: 147.

الكبيرة للصمود في صحراء ملتهبة،[1] ولأيام عديدة. و في فترة لاحقة لما تعددت حالات النهب المحدود، اضطرت زوايا المنطقة إلى التركيز في ثروتهم الحيوانية على الأبقار بدل الإبل.

ويذكر المختار أن بعض أمراء القبائل كانوا يحصلون على الرشاوى، والهدايا المحرمة، وحققوا من وراء ذلك ثروات كبيرة، ولذا اعتبروا في نظره من «مستغرقي الذمة».[2] الذين اكتسبوا الأموال، وامتلكوا المواشي، بطرق غير مشروعة ومخالفة لأحكام الدين. ويضيف أن الرشوة شاعت أيضا بين مجموعة من أمناء الأسواق، الذين كانوا يتولون جباية المكوس، أو الضرائب، من الباعة والتجار. كما تفشت السرقة[3] بالإكراه، وقطع الطريق، والتعرض للناس. وجرت العادة[4] أن يحكم الفقهاء لصالح الزوايا بالحق، إذا وقعت خصومة بين العامي والزاوي، لأن العوام من مستغرقي الذمم.

وتعرضت أزواد أيضا لعبث بعض القبائل البربرية، والعربية،[5] بسبب نشوب الحروب بينها، وكان يصحب ذلك غارات وتخريب للممتلكات ونهب وسلب وقتل، وتم خلالها الاعتداء على القوافل وسلبت محتوياتها، كما سفكت بعض الدماء خلال تلك الاحتكاكات وسبيت النساء، ولم يتمكن السكان من وضع حد لاعتداءاتهم، و«عمدوا إلى موادعتهم ومداراتهم بالأعطيات والأنعام».[6] ولم تقتصر عناصر الفساد في أزواد على الأشرار، واللصوص، وقطاع الطرق، بل شملت أيضا الفاسقين،[7] ومرتكبي الرزيلة، فشاع

---

[1] ــ جورج غريستر، الصحراء الكبرى، تعريب خيري حماد، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع بيروت، ط الأولى 1961، ص: 10.

[2] ــ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص: 59.

[3] - *CARDAIRE (M) , L'Islam et terroir Africain, Bamako., IFAN. 1954. p. 132.*

[4] ــ ولد السعد، الفتاوى والتاريخ، ص: 100.

[5] ــ عتيق بن سعد الدين السوقي، المصدر السابق، ص: 74.

[6] ــ المختار الكبير، رسالة إلى جماعة الأبناء والإخوان جماعة أبناء عمنا أبي نعامة، توجد بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم ح 37، ص: 01.

[7] - *CARDAIRE (M), op. cit., p. 89.*

في بعض الجهات «حضور الرجال، والنساء معا، إلى أماكن المعازف واللهو».[1] والجهات التي لمح إليها المختار هي النواحي التي تسكنها زناكة، على اعتبار أن عاداتهم وأعرافهم تبيح لهم الاختلاط،[2] كما أن المرأة تتمتع عندهم بحرية كبيرة في التصرف، وهي أمور أنكرها المختار بشدة.

4ـ نسب بني حسان:

يذكر المختار أن قبائل بني حسان تشعبت وتفرعت في الصحراء بأزواد، ومنطقة القبلة، وشنقيط. ومثلت هجرتهم إلى الصحراء منعطفا تاريخيا هاما بالنسبة للمنطقة، فقيام الإمارات التي جاء تجسيدا لسيطرتهم العسكرية والسياسية، مثل هو الآخر تحولا نوعيا على مستوى التنظيم السياسي لا عهد للمنطقة به. وبني حسان ينتسبون إلى حسان بن عقيل، وعدَّد المختار تفرعاتهم.

الأيتام:

ويدرجهم المختار في البراكنة، وهم بطن من بطونهم ينتسبون إلى اليتيم جد اليتامى[3] بن أمود، وأما أخوه أخيار بن بركن فهو جد أبناء أحمد[4] من البراكنة، وأخوه داود بن بركن جد داوود. والبراكنة هم بنو بكني بن هدَّاج بن عمران بن عثمان بن مغفر، وأقاموا إمارة[5] في كُركَل،[6] والبراكنة. ويغفل المختار عن ذكر أولاد يحي بن كروم وهم أشهرهم،[7] وأولاد طلحة، وأهل القاوصي، وأهل أميكاي، وأولاد حوم، وكل هؤلاء من

---

[1] ـ المختار الكبير، أجوبة فقهية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم د 1429، ص: 03.
[2] ـ محمد سعيد القشاط، التوارق، ص: 89.
[3] ـ المختار الكبير، مكتوب في نسب حسَّان، مخطوط في خزانة الطالب دادة بأولف، و 1 و.
[4] ـ صالح بن عبد الوهاب، الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية، نسخة مصورة عن نسخة سيداتي بن المصطفى نواكشوط، بدون رقم، ص: 67.
[5] ـ المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، ص: 96.
[6] ـ كركل: منطقة تقع جنوب تاكانت وغرب الحوض ضمن إمارة البراكنة. ينظر: بيير بونت، إمارة أدرار، ترجمة بوبة ولد محمد نافع، المركز الإفريقي للأركيولوجيا نواكشوط، ط 2002، ص: 4.
[7] ـ أحمد بن طوير الجنة، تاريخ ابن طوير الجنة، ص: 72.

الأيتام. ولعل السبب في إغفاله لهم أن أغلبهم انقرض،[1] ولم يبق منهم إلا القليل في مجال البراكنة.

ويلحق بهم عرب أمود بن هدَّاج، وهدَّاج هذا هو الذي اجتمعت فيه أبناء وترارزة، وجدهم تروز بن هدَّاج بن مَحمد.[2] ويبدو أن المختار قد وقع في خطأ بين في نسب هدَّاج، لأن هدَّاج مشهور أنه ابن عمران[3] وليس ابن مَحمد. ثم يتحدث عن أولاد الفحفاح وأخيه داوود،[4] وخلّف الفحفاح أمبارك وهم الذين يعرفون بأولاد: «أمبارك الصغار».[5] وكذلك منهم أولاد الغويز، وأولاد اعمر بن الفحفاح، وأولاد الذيب بن الفحفاح.[6] ومنهم أولاد أبو بو فائدة،[7] ويدخل في أولاد بو فائدة أولاد هنون، وأولاد كالة، وأولاد عبد النبي، ويقال لهؤلاء بالرحمانية.[8]

ثم يتحول ليتطرق لأولاد داود امحمد، ومنهم: أولاد طلحة،[9] وأولاد نخله،[10] وأولاد منصور بن محمد بن داوود بن محمد بن عثمان، ويعرفون بالتناكيد.[11] وخلّف عثمان يحي بن عثمان،[12] ومَحمد.[13] ومن أولاد يحي بن عثمان: الطرشان، والعويسات، وأولاد بولحية، في آدرار، وتكانت. ومن العويسات[14]: أولاد تكدي، وأولاد اعمر، وأولاد امحمد، وهم جميعا في شنقيط.

---

[1] ـ غبن كان، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، ص: 13.
[2] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، و 1 و.
[3] ـ محمد المختار ولد السعد، موريتانيا في العهد الحساني، ص: 100.
[4] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ص: و 1 ظ.
[5] ـ المختار ولد حامد، حياة موريتانيا الجغرافيا، ص: 91.
[6] ابن عبد الوهاب، الحسوة، ص: 65.
[7] ـ في الأصل أبو قائد. ينظر: المختار الكبير، المصدر السابق، و 2 و.
[8] ـ ولد حامد، حياة موريتانيا، ص: 92.
[9] ـ في الأصل: طلح. ينظر: المختار الكبير، المصدر السابق، و 2 و.
[10] ـ في الأصل: نحل.
[11] ـ ولد حامد، حياة موريتانيا، ص: 93.
[12] ـ سيدي بابا ولد الشيخ سيدي، إمارتا أدوعيش ومشظوف، ص: 156.
[13] ـ محمد المختار ولد السعد، موريتانيا في العهد الحساني، ص: 100.
[14] ـ ابن عبد الوهاب، المصدر السابق، ص: 71.

وأما ارميث[1] فهو جد ارميثات،[2] ومنهم: أهل دداش، انقرض بعضهم واندمج البعض الآخر في القبائل المجاورة، ثم الرحاحلة، والبيدات.[3] ومن الرحاحلة: أولاد اعلي، وأولاد امحمد، وأولاد صنبة، والحجاج. ومن أولاد اعلي: لحسينات، والغيونات.[4] ومن لحسينات: أهل امبارك، وأهل محم، والعباضله، وأهل ربود. ومن أهل امبارك[5]: أهل محمد التلمودي، وأهل سيدي اعمر، وأهل محمات، وأهل احمد مسكه، وأهل الحيدب، والشيوخ، وأهل الهدار، والدنونات.

أولاد الناصر:

ويتحدث عن مغفر[6] وهو جد أولاد الناصر، ورحال جد الرحاحل بن مغفر، ويلتقي الرحاحل وارميثات ولبيدات في ارميث بن مغفر. وخلّف مغفر كذلك اعروق[7] جد أبناء علوش،[8] وأخوه زيد جد أبناء زيد، وهم أبناء مَمٌّ، ويونس جد أبناء يونس، ويط جد أبناء يط، وازعيم جد أولاد ازعيم، وأكشار[9] جد أولاد أكشار بن مغنبر بن دص. وابناء ارزك[10] ورزك جد أولاد مزودولات.[11] والمختار وقع في خطأ كبير في هذا النسب، لأن اعروق هو أخ مغفر وليس ابنه،[12] وزيد هو أخ علوش، ويونس هو ابن اعروق.[13] وكان

---

[1] ـ في الأصل: ارميت.
[2] ـ في الأصل: ارميئات.
[3] ـ ولد حامد، حياة موريتانيا، ص: 93.
[4] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، و 2 ظ.
[5] ـ أمحمد بن أحمد يوره الديماني، إخبار الأخبار بأخبار الآبار، تحقيق، أحمد ولد الحسن، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط 1992، ص: 22.
[6] ـ في الأصل: غبر.
[7] ـ في الأصل: اعرود.
[8] ـ في الأصل: عكوش.
[9] ـ في الأصل: أكينار.
[10] ـ في الأصل: ارزيك.
[11] ـ المختار الكبير، مكتوب في نسب حسان، و 1 و.
[12] ـ ابن عبد الوهاب، الحسوة، ص: 35.
[13] ـ محمد فال بن بابه، التكملة في تاريخ إمارتي البراكنة والترارزة، تحقيق أحمد ولد الحسن، بيت الحكمة تونس، ط 1986، ص: 24.

الأجدر به أن يذكر أولا داود[1] بن اعروق، لأنه هو أب زيد وعلوش، حتى يمكن فهم النسب متسلسلا. وهناك بعض المصادر[2] تفرق بين أبناء زيد، وأبناء مَمُّ. وهو يتناول الأنباط أما أولاد ازعيم فهم بطن من بطون أولاد يونس بن اعروق.[3] والمختار يقع في الخطأ السابق نفسه، حيث يُتوهم أن ارزك[4] من أبناء مغفر، وهو ليس كذلك بل أخيه. وكذلك الشأن بالنسبة لأولاد أكشار،[5] فهم فخذ من أولاد يحي بن عثمان بن مغفر.

ثم يتحدث عن أولاد عقبة بن اعروق ومنهم: ادياسين[6] الذي سكن في أرض الترارزة، وعقبة جد أولاد عكبه.[7] وينتقل لأولاد يونس بن اعروق والذي منهم: رحمون بن رزك[8] وهم القاطنون الغرب بمكناسة.[9] ومنهم[10] الزبيرات[11] بالصحراء يقال لهم عرب الرقيطاء.[12] والزبيرات من أولاد رحمون،[13] والشيء الملاحظ هو أنه تحدث في السابق عن بعض أولاد يونس وهم أولاد زعيم، ثم عاد من جديد ليتناول آخرين من هذا البطن وهم أولاد رحمون.

ويرجع المختار من جديد إلى الكلام عن والد مغفر وهو أودي[14] بن حسان بن عقيل،[15] وحسان ليس ابن عقيل مباشرة،[16] وإنما هو حسان بن مختار بن محمد بن معقل.

---

[1] ـ ولد حامد، حياة موريتانيا، ص: 96.
[2] ـ ابن عبد الوهاب، المصدر السابق، ص: 37.
[3] ـ ابن طوير الجنة، المصدر السابق، ص: 47.
[4] ـ محمد المختار ولد السعد، موريتانيا في العهد الحساني، ص: 100.
[5] ـ سيدي بابه، المصدر السابق، ص: 156.
[6] ـ في الأصل: دياسين.
[7] ـ في الأصل: ايمكب.
[8] ـ في الأصل: ارزد.
[9] ـ في الأصل: بمكناكسة.
[10] ـ في الأصل: هنهم.
[11] ـ في الأصل: ازبيرات.
[12] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، و 2 ظ.
[13] ـ ولد حامد، حياة موريتانيا، ص: 88.
[14] ـ في الأصل: ادى.
[15] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، و 3 و.
[16] ـ ولد السعد، موريتانيا في العهد الحساني، ص: 100.

ومن بني حسان دليم ، وإنما اشتهر فضل أبناء أودي لأن أمهم من بني هلال. ويشير المختار إلى أن أم دليم هي امرأة كانت تخدم أودي فتزوجها سرًا، وكانت قصيرة جدًا فسموها دليمًا لقصرها، وولدت ابنها قصيرًا على هيئتها، فقالوا: «دليمًا ولدت دليمًا».[1] وهذا الكلام يوضح أن المختار يعتبر أودي هو والد دليم، لأن بعض المصادر[2] ترى أن أودي هو أخ دليم وليس والده، وإنما والد دليم هو حسان. وهذه مسألة[3] مختلف فيها في شجرة الأنساب الحسانية. غير أن أغلب النسابة[4] على أن دليم هو ابن حسان، وهكذا يبدو أن المختار قد خالف المعتمد.

ولما كبر دليم كان والده ينكره: «ابتغاء خاطر الهلالية فلما شبَّ ظهرت شجاعته ونجدته».[5] وارتحل أودي يومًا وبقيت المرأة الهلالية وأبناءها ومعهم دليم، فبينما هم يصلحون هودجها إذ هجم عليهم العدو، ففر أبناء الهلالية جميعًا،[6] غير أن دليمًا قاتلهم حتى استخلصها منهم، وقتل من العدو رجالاً. ولما رجع أبنائها جعلوا يتغذون، وأرادت أمهم أن تقدمهم عليه كعادتها، غير أن دليم رفض ذلك، وخاطبهم بقوله: «لا والله، لا يقدم عليَّ أحد منهم بعد اليوم وقد فروا جميعًا».[7]

ولعل أهم ملاحظة حول ما كتبه المختار عن بني حسان هو أنه تناول المغافرة بشيء من التفصيل عكس غيرهم، ثم تطرق بإيجاز إلى أبناء عقبة بن اعروق، وكذلك تحدث عن دليم دون تناول لأبنائه. والسبب في تفصيل المختار في أولاد الناصر هو الصراع الناشب بين هذه القبيلة وقبيلة كنته، حيث تمكن أولاد الناصر من تأليب القبائل

---

[1] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، و 2 ظ.
[2] ـ ابن طوير الجنة، المصدر السابق، ص: 49.
[3] ـ يراجع حولها: ولد حامد، التاريخ السياسي، ص: 96.
[4] ـ من جملتهم: سيدي بابه، إمارتا ادوعيش ومشظوف، ص: 201.
[5] ـ المختار الكبير، مكتوب في نسب حسان، و 1 ظ.
[6] ـ محمد فال بن بابه، المصدر السابق، ص: 27.
[7] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، و 3 و.

خاصة أزناكة ومشظوف[1] ضد كنته. وازدادت قوة أولاد الناصر بعدما تصاهر عبد الله بن محمود[2] مع أبناء محمد شين[3] من الأنباط، ووصف محمد الخليفة هذه الحرب وتصدر عبد الله بن محمود فيها بقوله: «...اغتال فيها رحمه، فقتل الشيب والشباب والصبيان، وتحمل فيها ما رغب عنه معاشروه من بني حسان».[4] وهو يشير إلى المواقع التي حدثت بين الطرفين، وكانت الحرب بينهما سجال.

ويتعرض المختار إلى نسب دغوغ ويرى بأن الدغوغيين شرفاء، ونسبهم صحيح إلى عليّ بن أبي طالب. وذلك لتواتر علماء بلادهم على إثباتها، وحُكي عنه قوله: «من أثبت انتماءه إلى إبراهيم الدغوغي، أو إلى محمد المختار المعروف باسم أيتّ، فلا شك أنه شريف».[5]

إن فحص المادة التاريخية التي يقدمها المختار تنم عن اطلاعه الواسع على مجموعة من المصادر التاريخية، خاصة السودانية منها وإدراكه العميق لمختلف الوقائع والأحداث التي سبقته. وكل ذلك ينهض حجة على أهمية ومصداقية ما كتبه في التاريخ والأنساب، فضلا عن حسه التاريخي، والذي اكتسبه من خلال التعامل مع واقعه الاجتماعي، وتجربته العميقة، وممارساته الطويلة.

وتتجلى مصداقية ما كتبه أيضا في المصادر التي اطلع عليها. فمن خلال فحصها، يتبين أنها كانت على جانب عظيم من الأهمية. وحسب الباحث أنها تميزت بالتنوع والتعدد، حيث اعتمد على أمهات المصنفات في تاريخ السودان مثل: تاريخ الفتاش لمحمود

---

[1] ــ مشظوف: من أهم قبائل منطقة الحوض دخلت في صراعات مع إيدوعيش وأولاد أمبارك وانتهت تلك الصراعات بتغلبهم على تلك المنطقة، وظهورهم كقوة بارزة يحسب لها حسابها في نهاية القرن الثالث عشر. ينظر: بابا بن سيديا، إمارتا إيدوعيش ومشظوف، ص: 160.

[2] ــ سبقت ترجمته وهو أحد تلاميذ المختار الكبير.

[3] ــ محمد شين: أمير إيدوعيش تولى الإمارة ما بين (1208 ــ 1236 هـ / 1793 ــ 1820 م)، وكان لا يقطع أمرا دون الرجوع إلى العلامة عبد الله بن الحاج إبراهيم، انتصر في معارك عديدة. ينظر: ابن طوير الجنة، تاريخ ابن طوير الجنة، ص: 94.

[4] ــ الغلاوية، ص: 71.

[5] – عتيق بن سعد الدين السوقي، الجوهر الثمين في أخبار صحراء الملثمين، ص: 138.

كعت، وتاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي، وكذلك المصادر المغربية مثل: مناهل الصفا للفشتالي، ورحلة ابن بطوطة. والتي تشكل مرجعيته الخاصة، إلى جانب المصادر المشرقية خاصة تلك التي تناولت السيرة النبوية مثل: سيرة ابن هشام، ومغازي الواقدي، وتاريخ الإسلام للذهبي، فضلا عن استئناسه بكتب الشناقطة وبالخصوص ما تعلق منها بالأنساب ومعرفة القبائل . ويمكن للمادة التاريخية التي قدمها المختار أن تستغل في تغطية الجوانب التي غفل عنها أصحاب الحوليات التاريخية، وترميم الثغرات العميقة التي خلفتها، ومن ثم قراءة تاريخ الصحراء، وأزواد، بعين صاحية وروح جديدة، حتى يصبح تاريخا متكاملا غير مبتور، ويتسم بالعمق، والشمولية.

الفصل الثاني :

النظم الإسلامية من خلال

كتابات المختار

تمهيد:

يجد الباحث أن المختار خصص في مؤلفاته أوراق عديدة للحديث عن النظم الإسلامية، وأهم ما يميز تناوله للنظم هو ما تعلق بمنطقتي أزواد والسودان الغربي، حيث لا يكاد الباحث يعثر على أفكار تخص هذا الموضوع في مراجع أخرى. وهو ما يزيد في أهمية ما كتبه المختار عن المنطقتين في هذا الإطار.

1ـ النظام السياسي:

يتحدث المختار في النظام السياسي الإسلامي عن الخلافة، والوزارة، ويحاول أن يؤكد على أن الخلافة الإسلامية هي النظام الشرعي الذي ضمن للأمة وحدتها، وأحل الوحدة الدينية محل العصبية والشعور القبلي، وهو ما سهل على القبائل المختلفة طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والانضواء تحت لوائه.

الخلافة الإسلامية:

الخلافة هي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم. وبذلك فإن الله سبحانه وتعالى ندب للأمة شخصا خلف به النبوة وحاط به الملة، وفوّض إليه السياسية ليصدر التدبير عن دين مشروع.[1] وعلى اعتبار أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فالخلافة هي نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به.

ويورد المختار فصلا كاملا[2] عن أحقية سيدنا أبي بكر الصديق بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويذكر ما حفظ من الإشارات والإيماءات الدالة على ذلك، وهي تلميحات في مجملها منها:

ـ استخلافه في الصلاة، وكان ذلك في مرض الرسول صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه. ومن تلك الحادثة استنتج الصحابة رضوان الله عليهم أحقيته في هذا الأمر وقالوا:

[1] ـ عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية، ص: 89.
[2] ـ المختار الكبير، البرد الموشا في قطع المطامع والرشا، ج 2، ص: 18.

«ارتضاه لديننا أفلا نرضاه لدنيانا».[1] وقد صلى أبو بكر بالناس والوحي ينزل، وقال صلى الله عليه وسلم:(يأبى الله ذلك والمسلمون).[2] وفي صلاته ــ رضي الله عنه ــ إشارة واضحة وجلية في أن الرسول صلى الله عليه وسلم ارتضاه لخلافته على المسلمين.

ـ استخلاصه لنفسه أثناء هجرته إلى المدينة،[3] فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم جميع الصحابة بالهجرة، واحتفظ بسيدنا أبي بكر الصديق ليهاجر معه ويرافقه، وكان الصديق قد استأذن رسول الله في الهجرة فقال له رسول الله: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا.[4] وكان الصاحب الذي قصده، هو نفسه صلى الله عليه وسلم. وهي إحدى الدلائل على اختياره وتمييزه، عن بقية الصحابة رضوان الله عليهم.

ـ أنه أول من أسلم من الرجال،[5] ولما أسلم أظهر إسلامه، ودعا إلى الله ورسوله. وبدعوته أسلم وجوه الصحابة[6] من أمثال: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.

ـ تقديم النبي له في حجة الوداع،[7] وأمره بالاقتداء به.[8] وكانت له ــ رضي الله عنه ــ تضحياته الكبيرة من أجل الإسلام والمسلمين.

وسرد المختار العديد من الأحاديث الدالة على أحقية الصديق بخلافة النبي، وهي في مجملها تبين مكانة هذا الصحابي الجليل، فهو قرشي النسب، وهو خليل رسول الله، وهو ثاني اثنين إذ هما في الغار، ووالد السيدة عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين.

---

[1] ـ المختار الكبير، البرد الموشا في قطع المطامع والرشا، ج 2، ص: 18.
[2] ـ ابن هشام، السيرة، ج 4، ص: 235.
[3] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 19.
[4] ـ ابن هشام، المصدر السابق، ج 2، ص: 96.
[5] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 120.
[6] ـ ابن هشام، المصدر السابق، ج 1، ص ص: 198 ــ 199.
[7] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 121.
[8] ـ الكتاني، المرجع السابق، ص: 92.

رده على الشيعة:

يردّ المختار الكبير على الشيعة التي ادعت أن أحق الناس بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وعقد بابا في كتابه نضار الذهب، سماه باب ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي).[1] وكان هذا القول من النبي لما خرج إلى غزوة تبوك[2] وخلّف عليا رضي الله عنه على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فتحدث المنافقون وادعوا أنه ما خلّفه إلا استثقالا وانتقاصا لشأنه. واستخلف النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة في أسفاره رجالا سوى علي، وهذا يدل أن هذا الاستخلاف لا يوجب لعي فضلا على غيره، وإنما المعنى الذي قصده صلى الله عليه وسلم أنه استخلفه مختارا لاستخلافه، كما استخلف موسى عليه السلام هارون أيضا مختارا لاستخلافه.

وهذا الحديث تعلقت به الشيعة كثيرا، في أن الخلافة كانت حقا لعلي رضي الله عنه. وأنه وصّى بها فكفرت الشيعة سائر الصحابة بتقديمهم غيره، وزاد بعضهم فكفّر عليا لكونه لم يقم في طلب حقه. والحديث ليس فيه دليل على استخلافه بعده، يقول المختار: «ويؤيد هذا أن المشبه به لم يكن خليفة بعد موسى، لأنه توفي قبل وفاة موسى بنحو ثلاثين سنة».[3] وهذا الرأي قد سبق وأن تناوله ابن حزم الظاهري[4] من قبل، عندما أشار إلى أن الذي خلف موسى عليه السلام في بني إسرائيل ليس هارون، بل خلفه عليهم يوشع بن نون. وهذا دليل آخر على أحقية أبي بكر بالخلافة، كيف ذلك؟ لأن يوشع بن نون، كان هو مرافق سيدنا موسى عليه السلام في رحلة البحث عن الخضر، وكذلك الصديق كان مرافق النبي في هجرته.

---

[1] ـ رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب 9، والترمذي في كتاب المناقب باب 20، وابن ماجه في كتاب المقدمة باب 11.

[2] ـ الجويني، الإرشاد، ص: 168.

[3] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 798.

[4] ـ ابن حزم، الفصل في الأهواء والملل والنحل، ج 4، ص: 26.

شروط تولي الخلافة: ويحدد المختار شروطا لمن يتولى الخلافة على المسلمين وهي:

ـ الحرية: لأن العبد لا يملك حكم نفسه، فكيف يحكم في غيره.

ـ الذكورة: أن يكون الخليفة رجلا، فالمرأة لا تتولى هذا المنصب.

ـ البلوغ: فالصبي لا تنعقد إمامته، لأن النظر في أموره إلى غيره.

ـ سلامة العقل: فلا تنعقد إمامة ذاهب العقل بجنون أو غيره، والعقل هو آلة التدبير، فإذا فات العقل فات التدبير.

ـ العلم: والمقصود به أن يكون عالما بشؤون الدين والأحكام الشرعية.

ـ العدالة: فالفاسق لا تنعقد إمامته، لأن الخليفة مؤتمن على أموال المسلمين وحقوقهم، فينبغي له أن يكون نزيها.

ـ الكفاية: وهي الشجاعة والرأي والنجدة.

ـ النسب القرشي: وهو أن يكون الخليفة من قريش.[1]

ومن الواضح أن المختار يؤكد على الإسلام كونه شرطا ضروريا لمن يتولى أمور المسلمين، وكذلك الذكورة، والرشد والتكليف، بالإضافة إلى العلم، والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء، من أي نقص يؤثر في الرأي والعمل. غير أن هناك من انتقد بعض تلك الشروط، فابن خلدون عندما تناول شرط العلم، ربطه بالاجتهاد في أصول الدين وفروعه على اعتبار أن منصب الخلافة، يقتضي الكمال في الأوصاف والأحوال.[2] وأعتقد أن هذا صعب التحقيق، بالرغم من أن العلم أصل،[3] غير أن الخليفة بإمكانه الاستعانة فيما يلزم من هذه الناحية بالفقهاء والعلماء.

---

[1] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 1، ص: 799.

[2] ـ عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ضبط الحواشي والفهارس خليل شحادة، مرجعة سهيل زكار، دار الفكر العربي بيروت، ط 2001، ج 1، ص: 69.

[3] ـ المرادي، الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق سامي النشار، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء المغرب، ط الأولى 1981، ص: 57.

والكفاية أملتها ضرورات هذا المنصب، لأن الخليفة يجب أن يكون قويا على القيام عبائه، المتعلقة بحراسة الدين وحمايته، وجهاد العدو.

وأما النسب القرشي فهو من الشروط المعتبرة، لحديث رسول الله صلى الله عليه سلم، ولأنه وقع الإجماع عليه يوم السقيفة. غير أن تحقيقه أصبح من الصعوبة بمكان، يكفي ـ كما يرى أبن خلدون[1] ـ أن يكون القائم بأمور المسلمين من قوم لهم عصبية الية على من معها في عصرها، حتى يتبعهم الناس، وتجتمع الكلمة على ما فيه مصلحة غير الأمة، والدين والدنيا، ولا يهم إن كان هذا القائم بأمور المسلمين من قريش أو من يرها.

ستخلاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ولما مرض الصديق رضي الله عنه، أراد أن يستخلف فاستشار الصحابة في عمر ن الخطاب، قال المختار: «وكانت جماعة من المهاجرين غير موافقة لأبي بكر في ستخلاف عمر، ليس إلا لما كانوا يعرفون من غلظته فيقول أبو بكر: هو والله إن شاء الله يركم».[2] ولا أدري من هي هذه الجماعة التي قصدها المختار، والتي لم توافق على ختيار عمر رضي الله عنه، لأن المشورة في اختياره كانت محصورة بين خيرة صحابة. وكان أبرزهم عبد الرحمن بن عوف الذي أشار إلى غلظته،[3] ولم يصرح بعدم وافقته عليه، ورغم ذلك فالخليفة طمأنه أن الأمر إذا أفضى إليه سيترك كثيرًا مما هو عليه، وهكذا لم يشك الصديق بأنه استعمل على المسلمين خيرهم، وخلّف عليهم أشدهم حبا لله. وتمت البيعة لسيدنا عمر دون معارضة من أحد، بعد مشورة[4] أولي الرأي من الصحابة، الذين أجمعوا على أن سريرة عمر خير من علانيته.

---

[1] ـ ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 74.
[2] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص ص: 184 ـ 185.
[3] ـ حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص: 38.
[4] ـ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار الفكر العربي القاهرة، ط 1990، ص: 46.

إمارة الأحداث:

ويتناول المختار إمارة الأحداث ويؤكد أنها ظهرت بعد موت معاوية، وذلك بتولي ابنه يزيد الذي جمع بين الحداثتين؛ حداثة السن، وحداثة الدين. ثم تتابعت من بعده: «وحقيقة الأحداث هو كل من لم يبلغ أشده، وتتكامل قوته العقلية، ولم تحنكه التجارب فيستحكم رأيه، ويستفحل نظره، لأن قوة العقل إنما تستحكم في سن الكهولة، وهو ما بعد الأربعين».[1] وهو بذلك يشترط في متولي أمور المسلمين أن يكون ممن عرف بالتزامه الكبير بالشريعة، مع تجربته في إدارة شئون السياسة، حتى يجمع بين أمور الدين والدنيا معا. وهذا الذي يقصده المختار هو الذي وصفه البعض[2] بسلطان التخليط والإضاعة، وهو الذي يطلب لذة ساعة ويفسد دينه وعرضه، ويخسر الدنيا والآخرة، ويستعجل بأفعاله الفقر والذلة.

وتولي الأحداث الحكم جعل الأمور تجري في غير مجراها، حيث انتشرت الفتن، والبلايا، والفساد،[3] وعظم ذلك على المسلمين. ويضرب المختار مثلا على تولي الأحداث الخلافة بمروان بن الحكم، ويزيد بن معاوية، مع العلم أنهما وُليا بعدما جاوزا سن الأحداث، غير أنه يقول إنما سميناهم أحداثا: «لغلبة الأكثر على الأقل، ولغلبة الشهوة عليهم، حتى فقدا التمييز فركبا في استيفاء أغراضهما متن الهوى، وخبطاء في الأمور خبط عشواء».[4] وبسبب عدم كفايتهما على تدبير الأمور واستحكامها كثر الهرج في أيامهما، وسفكت الدماء الكثيرة. وهو يشير ــ دون شك ــ إلى ما اشتهر به يزيد من المجاهرة بالمعاصي، والقبائح، واللهو،[5] بالإضافة إلى مقتل الحسين رضي الله عنه في

---

[1] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص: 340.
[2] ـ المرادي، المصدر السابق، ص: 108.
[3] ـ الفارابي وأبي القاسم المغربي وابن سينا، مجموع في السياسة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ص:57.
[4] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص: 340.
[5] ـ ابن طباطبا، المصدر السابق، ص: 117.

ده، وهي من أكبر البلايا والمصائب التي جرَّت على الدولة الإسلامية العديد من شاكل الداخلية، التي فرقت المسلمين فرقا وشيعا.

زارة:

وهي مشتقة من الوزر، وهو الثقل لأن الوزير يحمل الثقل عن الخليفة الموزور له. نه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا حُمِلنَا أَوزَارًا مِن زِينَةِ القَومِ﴾.[1] أي أثقالا من أمتعتهم وحليّهم. ل عز وجل: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَربُ أَوزَارَهَا﴾.[2] أي سلاحها، بمعنى حتى يضع أهل رب سلاحهم، لأن السلاح يحمله المحاربون فيثقلهم حمله. وكان الرسول صلى الله يه وسلم يشاور أصحابه في الكثير من الأمور، ويخص أبا بكر ببعض الأمور، حتى أن رب الذين اختلطوا مع الروم، والفرس، قبل الإسلام وعرفوا هذا الاسم عنهم، كانوا مون أبا بكر وزير النبي. ولما كان عمر بن الخطاب يأتي في المشورة بعد أبي بكر، ا: «وزيرا رسول الله صلى الله عليه وسلم».[3] وتشير مصادر أخرى[4] إلى أن الصديق ن بمثابة الوزير للنبي، وإن لم يطلق عليه لقب الوزير، ولم يكن رسول الله صلى الله يه وسلم يقدم عليه أحدا.

صناف الوزراء:

ويقسم المختار الوزراء إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، وهو الذي يُثبّط الأمير إذا راد فعل الخير ويعينه إذا قصد الشر و: «لا يذكره إذا نسي ولا يعينه على حق إذا ذكر، لا يعلّمه إذا جهل ولا ينبهه إذا غفل، يحب الفاسقين ويبغض الصالحين».[5] وهذا الصنف ن الوزراء، هم وزراء السوء الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. وقد نبَّه المرادي[6]

---

[1] ـ الآية 87 سورة طه.
[2] ـ الآية 4 سورة محمد.
[3] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 18.
[4] ـ الكتاني، المرجع السابق، ص: 100.
[5] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 50.
[6] ـ المرادي، الإشارة، ص: 64.

إلى هذا النوع، الذي يتعمّد ضر الخليفة بجميع الوجوه. ولذلك ينبغي للخليفة أن يحترس[1] من هذا الصنف، وأن يتحين الفرص للوقيعة به، لأنه أضر عليه من جميع العباد فهو جليسه وقرينه الذي يعرف كل شيء عنه، فإذا لم يبعده حلت به كل الرزايا والمصائب بمشورته السيئة.

والقسم الثاني هو المقتصد، وهو الذي يطيع أمر إمامه كائنا ما كان، إلا أنه: «لا يأمره بالشر ولا يثبّطه عن الخير».[2] وأفضل الأمثلة عن هؤلاء الوزراء، هم أولائك الذين تولوا هذا المنصب زمن خلافة أبي جعفر، حيث لم «تكن الوزارة في أيامه طائلة، لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته، مع أنه كان يشاور في الأمور دائما».[3] على اعتبار أن المنصور كانت له هيبة تصغر أمامها هيبة الوزراء.

والقسم الأخير وهو السابق بالخيرات، وهو الوزير الصالح،[4] الذي يكون رأيه ثاقبا، وتدبيره صائبا، وعرفه المختار بأنه: «هو الذي قد ميّز الأمور واستجمعها ومارس الأمور فاستحكمها، إذا جهل الأمير علّمه وإذا نسي خيرا ذكّره وإذا ذكر أعانه، لا يساعده على باطل وإن أكرهه، ولا ينهاه عن فعل خير وإن كان فيه ضرره».[5] ولعل أبرز مثال على هذا هو عمر بن الخطاب، الذي كان بمثابة الوزير لأبي بكر الصديق. وكذلك الأمر بالنسبة لعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، فإن عمر كثيرا ما كان يستعين بهما، و يستنير بآرائهما، ويعهد إليهما بأمور من شئون الدولة والرعية. وقد ذكر البعض[6] أن عمر بن الخطاب لما أراد أن يبعث إلى الكوفة بإمام يعلم الناس، اختار عبد الله بن مسعود، حيث جعله معلما ووزيرا لعمار بن ياسر الذي جعله واليا عليها.

---

[1] ـ الفارابي، المصدر السابق، ص: 22.
[2] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 50.
[3] ـ ابن طباطبا، المصدر السابق، ص: 171.
[4] ـ أبو منصور الثعالبي، تحفة الوزراء، تحقيق ودراسة سعد أبو دية، دار البشير عمان الأردن، ط الأولى 1994، ص: 27.
[5] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 51.
[6] ـ حسن ابراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص : 130.

وفي بلاد السودان تذكر المصادر أن دولة سنغاي عرفت الوزارة، ووجد بها من هذا المنصب غير ما مرة، وظهرت أبهة هذه الوظيفة في عهد السلطان أسكيا محمد، ي استوزر العديد من «الرجال على اجتماع».[1] والسبب في ذلك يرجع إلى نصيحة غيلي الذي طلب منه أن لا يقلد إلا كل «خبير عارف أمين».[2] ولم يجد هذه الشروط في ص واحد، فجمع من حوله الوزراء. وهذا الأمر استغربه أحد الشرفاء[3] الذي جاور كعبة والتقى بالسلطان عندها، وأخبره أنه هو الخليفة الحادي عشر الذي ذكره رسول الله لى الله عليه وسلم، ولكن طلب منه أن يتخلى عن مظاهر الملك. واعتبر السلطان كثرت وزراء من تلك المظاهر، وطرد «جميع الوزراء عنه».[4] وانعزل بالبيت الحرام ولازم نة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا دليل على أن الحاج محمد أسكيا كان له عدد ثل من الوزراء والعقلاء الذين يستشروهم، الذين اعتبرهم من الأشياء الضرورية ستقامة أمور السلطنة.

واع الوزراة:

يتحدث المختار عن وزارة التنفيذ فقط ويشير إلى أن صاحبها : «ينفذ أوامر الخليفة لا يحق له أن يتصرف في أمر إلا بعلمه».[5] وهو يكون كهمزة وصل بينه وبين الرعية. عمله هذا حتم عليه أن يكون في خلقه شطر يناسب طباع الملوك من جودة في الرأي معرفة بالسياسة،[6] وشطر يناسب طباع العوام كاتصافه برزانة العقل، ليعامل كلا من فريقين بما يوجب له القبول والمحبة، وهذا أمر يقتضي الكثير من الكياسة والفطانة من وزير.

---

[1] ـ المختار الكبير، الوثائق، و 18 ظ.
[2] ـ المغيلي، أسئلة الأسقيا، ص: 168.
[3] ـ المعني هو: الشريف الحسني مولاي العباس.
[4] ـ محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تحقيق هوداس، مطبعة بردين باريس، ط 1913، ص: 12.
[5] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 54.
[6] ـ الثعالبي، تحفة الوزراء، ص: 55.

شروط تعيين وزير التنفيذ:

يعطي المختار مجموعة من الشروط التي يجب أن تتوفر في الوزير الذي يتولى وزارة التنفيذ ومنها:

- الأمانة: بحيث يكون الوزير أمينا لا يخون ولا يغش فيما يؤتمن عليه أو يستنصح فيه.
- الصدق: حتى يكون موضع ثقة فيما يسند إليه من نهي أو أمر.
- ألا يكون طماعا حتى لا يأخذ الرشوة.
- أن يذكر كل شيء للخليفة، لأنه شاهد له وعليه.
- الذكاء: حتى لا تدلس عليه الأمور، ولا تموه عليه فتلتبس.
- أن يكون بعيدا عن الأهواء، لأن الهوى يخرجه من الحق إلى الباطل.
- أن يكون من أصحاب التجارب حتى يصل إلى صواب التدبير.[1]

ولم يتطرق المختار إلى النوع الثاني من الوزارة وهي وزارة التفويض، وهي التي يرأسها شخص يفوض إليه الخليفة تدبير الأمور برأيه،[2] وإمضائها على اجتهاده دون الرجوع إليه. ولعل عدم تطرقه لوزارة التفويض كون هذا النوع من الوزارة كان أحد الأسباب التي أدت إلى ضعف الخلافة وتراجعها، بعدما استبد الوزراء، والحجاب، ورؤساء الدواوين، في فترات ضعف الدولة الإسلامية وتراجعها بإدارة شئون الدولة دون الخلفاء.

2- النظام الإداري:

كان النبي صلى الله عليه وسلم ينيب عنه عمالا على القبائل وعلى المدن، وكان على مدينة كبيرة وعلى كل قبيلة كبيرة عامل من قبله، وكانت وظيفة هؤلاء العمال الإمامة في الصلاة وجمع الصدقات. وكان يتخير عماله ممن اشتهروا بالصلاح والتقوى والعلم والتفقه في الدين.

---

[1] - المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 55.
[2] - أنور الرفاعي، النظم الإسلامية، دار الفكر دمشق، ط 1992، ص: 54.

الولاية:

ولما اتسعت الدولة الإسلامية بفعل الفتوحات أصبح لزاما تقسيمها إلى ولايات، بحيث صار الوالي بمثابة نائب عن الخليفة، في القيام بمصالح العامة، وإكرام الخاصة وتبجيل العلماء، وكذلك: «تولية القضاة، والقواد، والوزراء، والجباة، وإقامة الموسم».[1] والمختار يشير إلى مسألة هامة في عبارته الأخيرة وهي جواز اتخاذ الوزراء من قبل الولاة، لكن في العادة يكون هذا الوزير وزيرا للتنفيذ.

الإمارة:

على الأمير أن يقوم بإمامة الناس في الصلاة، والفصل في الخصومات، وقيادة الجند في الحرب وجمع الأموال، وما إلى ذلك من مهام الدولة. وبذلك تتضح أهميتها، قال المختار: «فإذا ضيعت الأمانة التي من أعظمها الإمارة، وأسند الأمر إلى غير أهله بأن تولى الإمارة من لا يستحقها ولا يقوم بأعبائها، فذلك دليل على انقراض هذه الأمة، إذ بانقراضها تقوم الساعة».[2] وهو يصرح بأن الحفاظ على السلطة بتولي هذا المنصب الحساس من تتوفر فيه الشروط اللازمة ضرورة لحماية هذا الدين، إذ بضياع أمانة الإمارة تقوم الساعة.

أصناف الأمراء:

وعند تناوله للأمراء، يشير المختار إلى أنهم لا يخرجون عن ثلاثة أصناف: وأولهم الظالم لنفسه، وهذا الأمير يسيطر على الإمارة بالقوة، وبعدما تنعقد له الأمور يسعى: «في الأرض بالفساد وظلم العباد، فيضيّع الفرائض، والحدود، فهذا من شر العباد».[3] وواضح أن هذا النوع من الأمراء، هو الذي دعته كتب الأحكام السلطانية بأمير

---

[1] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 13.
[2] ـ المصدر نفسه، ج 2، ص: 13.
[3] ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 49.

الاستيلاء،[1] حيث أن الأمير يستولي على بلاد بالقوة، فيضطر الخليفة أن يقلده إمارة ذلك البلد، ويفوّض إليه تدبيره وسياسته. ويكون الأمير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير. وقد انتشر هذا النوع في العصر العباسي الثاني لما دب الضعف في الدولة، حيث استبد الولاة وابتكروا الأساليب لجمع المال والإسراف في إنفاقه، وكان الوالي يقيم في ولايته كأنه ملك مستقل عن الدولة.

والنوع الثاني هو المقتصد، وهو من عقدت له الولاية وكان من كفاة رجال الدولة القادرين على القيام بهامها، «فلم يفسد في الأرض وأقام الحدود، إلا أنه ربما تعدى نادرا فأخذ ما لا يستحق فلتة».[2] وهذا النوع من الإمارة نجد له صورة في عهد بني أمية خاصة ولاية زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف.[3] وكان الحجاج يجمع الأموال حسبما يرى دون مراجعة الخليفة، وسار على خطته عمال كثيرون.

والصنف الأخير هو السابق بالخيرات، المستحق للولاية الذي رضيّته جماعة المسلمين وقدّمته طوعا، وهو كاره لها غير راض بها. قال المختار: «... فلما لم يجد منها بدا، قام فيها بأمر الله فلم تشغله عن وظيفة من وظائف دينه فجعل الليل لربه، والنهار للقضاء بين عباده، لا يرى منكرا إلا غيّره ولا معروفا إلا أثبته وقرّره، أجرى أحكام الله على منوالها وأخذ الحدود فبناها على أصولها، من غير زيغ، ولا محاباة، ولا ملاينة، ولا مداهنة، ولا مدارات».[4] وتشير عبارة المختار إلى أن هذا الوالي من مهامه القضاء بين الناس، وهذه الإمارة سماها علماء الأحكام السلطانية بإمارة الاستكفاء،[5] وتكون فيها سلطة الأمير شاملة لسبعة أمور وهي:

---

[1] ـ أبي يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، صححه وعلق عله محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية بيروت، ط 2000، ص: 37.

[2] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، 49.

[3] ـ حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص: 177.

[4] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص ص: 49 ـ 50.

[5] ـ أبي يعلى، المصدر السابق، ص: 34.

ـ النظر في تدبير الجيوش، وترتيبهم في النواحي، وتقدير أرزاقهم.

ـ النظر في الأحكام وتقليد الوزراء والحكام.

ـ جباية الخراج، وقبض الصدقات، وتقليد العمال فيهما، وتفريق ما استحق منهما.

ـ حماية الدين، والدفاع عن الحرمات، ومراعاة الدين من أي تغيير أو تبديل.

ـ إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين.

ـ الإمامة في الجُمَع والجماعات، حتى يُؤم بها أو يستخلف عليها.

ـ تسيير الحجيج من ولايته، ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا متعاونين عليه.

وإن كان هذا الإقليم ثغرا محاذيا للأعداء، لزم الوالي جهادهم، وتقسيم الغنائم، وأخذ خمسها لأهل الخمس.[1] وهذه الأحكام حددها أغلب[2] من تناول سلطة أمير الاستكفاء، وواضح فيها حضور عنصر الطاعة من الأمير للخليفة، عكس إمارة الاستيلاء التي لا تتعدى علاقة الخليفة بالأمير ضرب السكة، والخطبة على المنابر، وإرسال فضلات الخراج.

الجيش:

لما جاء الإسلام وتفاقم أذى قريش للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، أمره الله تعالى بقتال المشركين، وأذن للمسلمين بالقتال للدفاع عن النفس، وتأمين الدعوة والدفاع عنها ضد من يقف في سبيلها. أما في أزواد فقد وجدت فرق حربية لحماية القبيلة، وبعضها للسطو على أملاك الغير.

أنواع السيوف:

يعدّد المختار أنواع السيوف ويذكر منها: المهند، وهو الذي سقي مرة بعد مرة مع انتخاب حديده المصاغ منه حتى يترطب ويلين بحيث إذا أثبته ثم أطلقته يرجع إلى حاله قبل العطف، وإن بقي معوجًا فرديء، وإن بقي فيه حنو فعيبه بقدر ذلك. ويشير إلى أن

---

[1] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 51.

[2] ـ من جملتهم: أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص: 76.

مثل السيوف الهندوانية،[1] التي تصنع في الهند لكونها تقطع الحديد، إلا أنها إذا ضرب في يوم بارد تحطمت متونها. وهذه الأخيرة هي التي استعملتها بني حنيفة في قتال المسلمين في موقعة اليمامة، ولما خافوا: «عليها أن تتحطم متونها، أبرزوها للشمس تصلب».[2]

أول من حمل اللواء في الحرب:

وأول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام عقده لأبي عبيدة بن الجراح، ويزعم البعض أنه بعثه حين قدم من غزوة الأبواء قبل بلوغه المدينة، وبعث في مقدمة المدينة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر ممن ناحية العيص في ثلاثين راكبًا من المهاجرين، فلقي أبا جهل بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مجزى بن عمر الجهني، وكان موادعًا للفريقين، فانصرفوا ولم يكن بينهم قتال.قال المختار: «كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث أبي عبيدة كان معًا».[3] واللواء لابد له من حامل، وحماة يماثلون حامله أو يدانونه. وكان لا يوصف بحمل اللواء حقيقة أو مجازًا إلا الرجل الكريم المحبب إلى الناس.

الجيش بأزواد:

ويتحدث المختار عن الجيش في مدينة جني، ويوضح بأنه كان مقسما إلى قسمين قسم مكلف بالحراسة: «في جهة البلاد الغربية».[4] وهذه الناحية مواجهة لبلاد سنا، وهذا القسم بدوره مقسم إلى اثني عشر فرقة[5] على كل منها أمير، وعلى هؤلاء الأمراء رئيس

---

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 327.
[2] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 2، ص: 30.
[3] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 431.
[4] ـ المختار الكبير، الوثائق، و 13 ظ.
[5] ـ السعدي، المصدر السابق، ص: 13.

عليهم يسمى بسن فرن.[1] والقسم الثاني من الجيش كانت مهمته حراسة الجهة الشرقية من المدينة والدفاع عنها من هجمات الأعداء، وهذه الناحية[2] من وراء النهر، وهذا القسم أيضا ينقسم إلى اثنتي عشر فرقة ويتولى قيادة كل فرقة أمير من أمراء الجيش.

وتمكن سلاطين سنغاي من إعداد جيش قوي أخضع أغلب المناطق في بلاد السودان، وأزواد، وذلك بفضل الموارد والإمكانيات التي توفرت عليها هذه المملكة. وتمتع هذا الجيش بمكانة مرموقة لاعتماد السلاطين عليه في حماية عروشهم، وفتوحاتهم، واشتهر الجيش: «بالكيد، والحيلة، فقتل الأعداء وسُلّط على الغرباء».[3] وفي عهد سني علي بدأ نظام التجنيد الإجباري،[4] وقُسِّم في فترة حكم أسكيا محمد إلى فرق، ووضع لكل منها نظامها الخاص[5] ومهامها، حيث حددت الأدوار في وقت الحرب والسلام، ومن أشهر هذه الفرق: «المشاة، والفرسان، والخيالة، والمساعدون».[6] وكلها تأتمر بأمر السلطان، وكان للعبيد دور هام في الجيش، من حيث عددهم أو بسالتهم في القتال. وتكونت أسلحة الجيش من الدروع الحديدية، والسيوف، بالإضافة إلى الرماح، والأقواس، والتروس، والسهام، كما استعملت أحيانا الفؤوس الحادة، وكلها من صنع محلي.

وعرفت مملكة سنغاي الحرس السلطاني[7] وهو موجود بصفة دائمة مع السلطان في المعارك وفي غيرها، ومهمته في وقت الحرب حراسة السلطان وحاشيته، والضرب على الطبول، والنفخ في الأبواق أثناء مسيرة الجيش. أما زمن السلم، فهو يقوم بحراسة

---

[1] ـ أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، و 11 و.
[2] ـ الدالي، التاريخ الحضاري، ص: 114.
[3] ـ المختار الكبير، الوثائق، و 20 و.
[4] ـ الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، ص: 318.
[5] ـ سينكي مودي سيسوكو، الصنغاي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، المطبعة الكاثولكية بيروت، ط 1988، ج 4، ص: 212.
[6] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، و 20 و.
[7] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 235.

نصر. وضم الجيش كتائب صغيرة للاستطلاع، وعرف أفرادها بالشجاعة، واستخدمت هذه الكتائب الجواسيس لمعرفة مدى قوة العدو ومسالك أرضه.

وامتلكت هذه المملكة أسطولا بحريا كان يجوب نهر النيجر، وعرفت السنغاي كقوة بحرية فقد تفوقت: «في الأرض وفي النيل».[1] وهي إشارة لطيفة فهو يقصد بالنيل نهر النيجر، لأنه دُعي في المصادر الوسيطة[2] كذلك، فكان الأسطول يحمل الجنود من جاو وتمبكتو، أثناء معاركهم المختلفة خاصة تلك التي كانت على أطراف النهر، وأحصى البعض[3] قطع الأسطول التي بلغت ألفي قارب. وكما هو ملاحظ فإن جيش سنغاي كان نظاميا من حيث القيادة والتدريب والتوزيع، غير أن أسلحته كانت قديمة، بدليل أنها لم تجد نفعا أمام الأسلحة النارية، التي استعملها الجيش السعدي عند غزه لبلاد السودان.

3ـ النظام القضائي:

يعتبر النبي أول قاض، وكان يحكم بين الناس بما أنزله الله عليه من الوحي، وكانت طرق الإثبات عنده البينة واليمين وشهادة الشهود.

القضاء:

وهو إحكام الشيء، ومهمة القاضي هي الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع، وذلك يكون بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة. ولما كان الهدف منه إقامة الحدود والعدل بين الناس، فوجب على القاضي أن يتسم بالمرونة بما يتوافق مع طبيعة الحياة المتغيرة.

وأفضل مثال يتعلق به المختار من قضاة بلاد المغرب، هو الفقيه سحنون المالكي الذي رفض قبول أعطيات السلاطين لما تولى القضاء، وأشار إلى أن أرزاق القضاة ـ

---

[1] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 53.
[2] ـ ابن بطوطة، الرحلة، ص ص: 377 ـ 378.
[3] ـ الفيتوري، المرجع السابق، ص: 318.

في العادة ــ تكون من بيوت الأموال، حين تكون الأموال أخذت من وجوه الحلال.[1] وهو يلمح إلى تعدي الأمراء الحدود في الخراج، والأخماس، وأخذهم المكوس ظلما من المسلمين. والقاضي سحنون كان يترفّع عن المطامع التي تفسد القلوب، ففسادها يؤدي حتما إلى فساد الدين.

أصناف القضاة:

ويقسمهم المختار إلى أصناف ثلاثة: أولهم الظالم لنفسه، وهذا طلب القضاء لغرض من الأغراض الدنيوية فلم يعدل ولم يستقم، يأخذ الرشوة، ويرغب في الهدايا، وهذا الصنف مغضوب عليه: «ولو أتقن جميع العلوم فهو أخسّ العباد عند الله تعالى منزلة، وأبعدهم من رحمته، وأقربهم من سخطه وغضبه».[2] وهو المعني بقوله تعالى:﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.[3] ومثل هذا القاضي الرجل الذي يقدمه الناس للقضاء وهو جاهل، فيحكم عن جهالة. وهذا الصنف من القضاة نبّه إليه البعض،[4] وسماهم بلصوص الدين، وهم أضر على المسلمين من جميع المفسدين، فهم يأكلون أموال الناس بالباطل، وقال المغيلي:

قضاة زماننا أضحوا لصوصا عموما في البرية لا خصوصا
فلو عند التحية صافحونا لسلوا من خواتمنا الفصوصا.[5]

والصنف الثاني وهو المقتصد، وهو ذلك الرجل الضعيف الحال الذي لا قدرة له على الكسب إلا بوظيفة القضاء، وكان: «عالما، محققا، وورعا، تقيا، وظهر في زمن الأمراء وفي بلادهم، فحكم بالعدل، ولم يزغ ولم يمل عن الحق».[6] وقد حرص الخلفاء

---

[1] ــ المختار الكبير. البرد الموشا، ج 2، ص: 11.
[2] ــ المختار الكبير. نزهة الراوي، و51 ظ.
[3] ــ الآية 15 سورة الجن.
[4] ــ المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص ص: 165 ــ 166.
[5] ــ المغيلي، المصدر السابق. ص: 166.
[6] ــ المختار الكبير. البرد الموشا، ج 2، ص: 51.

الأتقياء على اختيار قضاتهم من أهل العلم والدين،[1] وأجزلوا لهم العطاء في صورة رواتب عالية، على اعتبار أن الشحّ هو الذي يحمل بعض القضاة على ما لا يحل من أخذ الرُشا والهدايا.

وكان الذين تولوا القضاء زمن الخلفاء الراشدين أبرز المقتصدين، إذ أن أبا بكر كان يباشر هذه المهمة بنفسه. ولما جاء عهد عمر فصل بين الولاية، والقضاء، بسبب كثرة الفتوحات، واتساع رقعة البلاد الإسلامية. وامتاز عهده بكتابه الذي بعثه لأبي موسى الأشعري قاضي الكوفة، وقد استوفى فيه شروط القضاء، وبيَّن أحكام التقليد.

والصنف الأخير من القضاة هو السابق بالخيرات، فإنه رجل تعلم العلم أولا لوجه الله تعالى فأتقن جميع فنونه وأحاط بشؤونه، ولما بلغ الأمراء علمه وورعه طلبوه للقضاء، ليكون في قضائه صلاح الأمة: «إذ بصلاح القاضي يكون صلاح الوالي، وامتنع وأبى ثم أكره، فلما أكره تنزَّه عن بيوت الأموال».[2] والمختار هنا يطرح الوجه المثالي للقاضي، إذ أن الخلفاء الراشدين ولّوا هذه الخطة لمن اشتهر ورعه وتقواه، ومع ذلك جعلوا لهم رواتب من بيت المال.

الأمور التي يجب أن يلتزم بها القاضي:

وقبل أن يتولى القاضي هذه الخطة يجب أن يتصف بأمور منها التسوية بين الخصمين، القوي منهم والضعيف، وقطع الطمع مما في أيديهما عاجلا وآجلا. وكذلك الحكم بينهما بما أنزل الله أو بما يبلغه اجتهاده من الحق الذي لا غبار عليه، وإقامة الحدود على مستحقيها.[3]

---

[1] ـ محمود إسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح الكويت، ط الثالثة 1992، ص: 82.
[2] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص ص: 50 ـ 51.
[3] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 73.

كما يجب عليه تصفح الشهود والأمناء،[1] واختبار النائبين عنه من خلفائه، ومن ضعف منهم أستبدل بمن هو أقوى منه. فإن أحسّ في نفسه بتضييع فرض من هذه الفرائض، وجب عليه ترك القضاء بينهما تخليصا لنفسه من النار.

ويعد منصب القضاء من المناصب الصعبة بأزواد، رفضه أهل التقوى والورع، خوفا من إصدار حكم جائر عن غير قصد. ويشير المختار إلى أن القضاء: «ينفي عن العين الكرى ويلزم السهر، ويكدر العيش».[2]

القضاء ببلاد السودان:

كان القضاء قائما ومستمدا من أحكام الشريعة الإسلامية،[3] وكان ذلك طبيعيا بعد أن انتشر الإسلام في مملكة مالي. وعادة ما كان القضاة يختارون من العلماء، والفقهاء، الذين اشتهروا بشدة التقوى والورع، ويتحدث المختار في نضار الذهب، عن القاضي وسلطته عند سلاطين السودان الغربي، هذه السلطة التي كانت ــ أحيانا ــ أعلى من سلطة الحاكم نفسه زمن الأسقيين.

والأدلة متعددة عن المكانة الكبيرة التي حظي بها القضاة في السودان الغربي، حيث كان القاضي صريحا أمام الخاصة والعامة، وإذا شاهد خطأ من السلطان يزجره ولا يعبأ بمنصبه. فقد شنَّع الشيخ أبي البركات بأسكيا موسى، الذي تولى أمر سنغاي، بعد اغتصاب الحكم من والده أسكيا الحاج محمد، عندما جاء السلطان إلى تنبكتو، بقصد زيارة القاضي أبي البركات: «فلم يقابله القاضي ولم يجالسه»[4] وعندما سأله أسكيا موسى عن السبب، صرَّح له بأنه لا يستقبل وجها خلع أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد. فلم يكن من السلطان إلا أن قال له: «ما فعلت ذلك إلا خوفا على نفسي».[5] وطبعا مقولة السلطان

---

[1] ــ أبي يعلى، المصدر السابق، ص: 66.
[2] ــ مجهول، تاريخ أزواد، و9 و.
[3] ــ عطية مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا، ص: 282.
[4] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 2، ص: 37.
[5] ــ محمود كعت، المصدر السابق، ص: 83.

جاءت حفظا لماء الوجه أمام القاضي، لأن الأسكيا الحاج محمد لم يكن يشكل أي خطر عليه وهو والده، أو على غيره فقد اشتهر بالعدل والإنصاف، وتقريب العلماء، والفقهاء، ونالوا من الحظوة ما لم ينالونه في عهد غيره.

وباشر بعض السلاطين النظر في المظالم بنفسه، وهذا ما يلاحظ عندما زار أسكيا إسحاق مدينة جني، حيث طلب من البَرَّاح أن يجمع له سكان المدينة، وعندما تجمعوا قال لهم أسكيا: «إذا كان هناك أحد، اقتطع حق أحد ظلما، نأخذه الآن بالقوة».[1] ويشير عبد الرحمن السعدي أن الفقيه محمود بن أبي بكر بغيع، خاطب السلطان ــ وهو جالس للمظالم ــ وقال له: «أنت أكبر الظلمة».[2] ومع ذلك لم يرد عليه السلطان، وغادر المجلس عائدا إلى بيته. وهذا ما يوضح عدم تدخل السياسة في القضاء، واستقلالية هذه الخطة التي تهدف إلى إقامة العدل، والأخذ بحقوق المظلومين من الظالمين، حتى وإن كان الظالم سلطانا أو مقربا منه.

وشاع أن يرث الأبناء أبائهم في تولي خطة القضاء: «ثم صار يرثه الابن عن أبيه».[3] وخاصة إذا كان الولد معروفا بالصلاح، والعلم، فقد تولى القضاء[4] ألفع بن محمود بن عمر، بعد وفاة أبيه. ومن أشهر الذين تولوا هذا المنصب بكشنة، وكانو، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي ترك وصية هامة لسلاطين تلك الممالك،[5] ليستعين بها قضاتهم في أحكامهم. ويعتبر محمود بن عمر أحد وجوه القضاء بتنبكتو، وقد كان: «شأنه كبيرا، وعدله معروفا».[6] وحين خرج للحج عام 915 هـ / 1509 م، كان موكبه أشبه بمواكب الملوك، وحضر أسكيا محمود وداعه في يوم مشهود، وعمت الأفراح سائر مملكة

---

[1] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 2، ص: 46.
[2] ــ السعدي، المصدر السابق، ص: 90.
[3] ــ المختار الكبير، البرد، ج 1، ص: 24.
[4] ــ السعدي، المصدر السابق، ص: 93.
[5] ــ آدم عبد الله الألوري، موجز تاريخ نيجيريا، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ط 1965، ص: 133.
[6] ــ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 1، ص: 29.

سغاي. وكذلك اشتهر من القضاة العاقب بن محمود، في فترة حكم أسكيا داود. وكثيرا[1] ماتولى هذا المنصب في بدايات انتشار الإسلام قضاة من بلاد المغرب، ويشير المختار إلى أحدهم وهو المدعو عبد الرحمان بن علي، الذي قضى مدة ببلاد الهوسا، التقى[2] خلالها الفقيه مخلوف البلبالي.

ونتيجة للحظوة التي نالها القضاة، طلب بعضهم الشفاعة للخارجين عن طوع السلطان، والمعني هو القاضي أبي حفص عمر بن محمد، حينما بعث رسالة إلى المنصور الذهبي، يطلب منه الصفح عن الذين عارضوا القائد مصطفى التركي، وأنهم في: «طاعة الله ورسوله وطاعته».[3] وقبل المنصور شفاعة القاضي،[4] وأكرم المعارضين، ومكثوا بمراكش سنة، ثم عادوا إلى تنبكتو.

ونقرأ عند المختار أنه وُجد بأزواد ما يسمى بقاضي الفريضة، وهو: «مكلف بتحديد النصيب الراجع إلى كل وارث».[5] وهكذا يمكن تصور مدى عناء ضبط الحسابات المتعلقة بالتركات، خاصة في بيئة تعوَّد سكانها أن يعيشوا دون قسمة، بالإضافة إلى الجور الذي كان يقع في العادة على البنات. وقد عُرف هذا المنصب في المغرب الأدنى[6] منذ فترة متقدمة، وكانت مهمته مشابهة إلى حد كبير لتلك التي كُلف بها قاضي الفريضة بأزواد وما جاورها.

وكانت مهام القاضي الفصل في الأمور المتصلة بحياة الناس اليومية، فيحكم في الخصومات من طلاق، وديون، وقرض، وتجارة، وعقارات. والقاضي هو نائب الإمام في تنفيذ الأحكام الشرعية، ولذلك فعليه: «أن يفصل في هذه المسائل».[7] ولم تقتصر مهام

---

[1] ـ الفيتوري، المرجع السابق، ص: 282.
[2] ـ محمد بن شريفة، من أعلام التواصل بين بلاد المغرب وبلاد السودان، ص: 160.
[3] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 2، ص: 36.
[4] ـ السعدي، المصدر السابق، ص: 167.
[5] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 2، ص: 37.
[6] ـ الحشائشي، الرحلة الصحراوية، ص: 36.
[7] ـ المختار الكبير، الأجوبة المهمة، و 13 ظ.

القضاة على الفصل في تلك المسائل، بل تعدتها إلى مراقبة التسيب في الزراعة ونحوها، فهو الذي يرشد ويزجر.[1] وكان للقاضي أعوان[2] يستعين بهم وفي العادة يكونون من طلبته، وهو الذي يتولى الإشراف على أرزاق اليتامى، حيث يأخذ لهم بحقهم، وإذا ما توفي غريب فإن ماله يحفظه القاضي إلى أن يأتي وكيله، أو وريثه الشرعي، وكان بيت القاضي مأوى وملجأ، يلتجئ إليه الفارون من الجور والظلم.

ومنصب القضاء يتفاوت من مدينة إلى أخرى، فقاضي تنبكتو[3] له سلطة أكثر من زملائه، الذين يوجدون في جني، وولاته، وكيدال، أو المبروك. وتشير بعض[4] المصادر إلى أن قاضي تنبكتو كان له التفويض في عزل من أراد وتوليت من يراه صالحا من القضاة، دون الرجوع إلى السلطان.

وهذا يعني أن لقاضي تنبكتو أهمية كبيرة ترجع لمكانة المدينة ذاتها في الحياة السياسية والإدارية لمملكة سنغاي. فقد نعتها المختار[5] بالبلاد التي تعج بالعلماء والأولياء، ووصفها صاحب السعادة الأبدية[6] بأن مقامها من السودان كمقام الوجه من الإنسان.

وكان القاضي مراقبا في إصدار أحكامه من طرف الرعية، فعندما يشعر أحدهم بالحيف وعدم تطبيق الشريعة الإسلامية، يرفع أمره إلى السلطان ويقوم هذا الأخير باستفتاء العلماء في المسألة، وإن ظهرت أقوال العلماء على قول القاضي، رجع إلى أقوالهم ورد الحق إلى أصحابه.[7] ويبدو أن هذا الأمر كان يحدث في الحواضر الأخرى دون تنبكتو، التي كان يتواجد بها قاضي البلاد.

---

[1] ـ الهادي المبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط الأولى 1999، ص: 136.

[2] ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص: 124.

[3] ـ المختار الكبير، الوثائق، و 21 ظ.

[4] ـ آمن بن بوغتو، و 4 ظ.

[5] ـ محمد الخليفة، الطرائف، و167 و.

[6] ـ أحمد بابير الأروانى، و 10 و.

[7] ـ المختار الكبير، الأجوبة المهمة لمن له بأمر الدين همة، توجد منها نسخة مخطوطة بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم: ح 37 د، و 32 ظ.

وإذا تغيب القاضي، وسافر إلى بلاد بعيدة مثل الأراضي المقدسة أو نحوها، فإنه ينيب عنه قاضيا يختاره هو، وقد ولّى القاضي محمود بن عمر لما حج، القاضي عبد الرحمن، وبعد رجوعه مكث القاضي محمود مدة بتنبكتو ولم يسلمه القاضي عبد الرحمان أمر القضاء! وحدث أن حكم القاضي عبد الرحمان، في نازلة: وخالف فيها الكتاب والسنة.[1] فأرسل له القاضي محمود ينقض ذلك الحكم لمخالفته النصوص الشرعية، فأبى إلا أن ينفذ حكمه، فأبلغ الخبر إلى أسكيا محمد، فأمر رسله بعزل القاضي عبد الرحمان، وإرجاع القاضي محمود إلى مكانه،[2] وحضر لتولي القاضي محمود منصبه العلماء والفقهاء.

والمسجد هو المقر الرئيس للقاضي للفصل في المنازعات، غير أن بعض القضاة حكموا في ــ بعض الأحيان ــ في القضايا تحت ظل الأشجار،[3] وذلك ما يشير بصدق إلى الحياة البسيطة التي كان عليها سكان السودان.

رواتب القضاة:

كانت الرواتب تدفع للقضاة من بيت المال[4] أو الخزينة، وفي العادة كان يأخذ القضاة، وأعوانهم، أجورهم من أموال الأوقاف. فقد أشارت بعض المصادر[5] إلى أن أرزاق القضاة، تقدم لهم من أوقاف المساجد، أو الأوقاف المطلقة.

ويبدو أن الإجارة انتشرت بين قضاة البادية في عهد المختار وقبله،[6] وهو يصرح بأن مانعي أخذ الأجرة: «لا حجة لهم في ذلك بل حجة عليهم».[7] ويستدل برأي ابن ناصر

---

[1] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 57.
[2] ــ السعدي، المصدر السابق، ص: 76.
[3] ــ المختار الكبير، الأجوبة، و42 ظ.
[4] ــ السعدي، المصدر السابق، ص: 294.
[5] ــ أمن بن بوغتو، المصدر السابق، و 9 و.
[6] ــ المغيلي، أسئلة الأسكيا، ص: 164.
[7] - المختار الكبير، البرد الموشى، ج 2، ص: 192.

الدرعي في أجوبته[1] الذي يرى بأنه من اتخذ إجارة على قضائه في البلاد السائبة، ولم يطله شيء من بيت المال وافتقر إلى ذلك، فإن الإجارة على القضاء جائزة من بيت المال، وتحرم إن كانت مفروضة على جميع أهل البلد. وتبعا لذلك يمكن الاستنتاج أن القضاء نظير أجر كان تقليدا شائعا في فترة المختار بأزواد.

وجعل الخلفاء للقضاة أجرة على عملهم، فقد جعل عمر بن الخطاب للقاضي سليمان بن ربيعة الباهلي 500 درهم في الشهر، وخاطب علي بن أبي طالب عامله على مصر وقال له: «أفسح للقاضي في البذل ما يزيل علته وتقل حاجته للناس».[2]

وكان قاضي الكوفة شريح يأخذ على القضاء أجرا من بيت المال يفرضه له الخليفة عمر، حيث رتّب له في الشهر مائة درهم مع مؤونته من الحنطة. وصرحت السيدة عائشة رضي الله عنها أنه للقاضي أخذ أجره بقدر عمالته،[3] وقد أخذ أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما.

ولما كان شريح أول قاض نصبه علي رضي الله عنه للقضاء، حين شغل عنه بقتال الخوارج، اعتبر ما يأخذه من بيت المال[4] في مقابل الأجرة على القضاء، فرتب له 500 درهم في الشهر.

العقوبات:

العقوبات تتفاوت، بحسب الجرم الذي يقترفه الشخص، فالقاضي له حق السجن،[5] وضرب من استحق الضرب،[6] وهذا ما كان يفعله القاضي محمد بغيع. وقد ذكر السعدي[7]

---

[1] ـ محمد بن ناصر الدرعي، الأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1111، و 57 ظ.

[2] ـ أنور الرفاعي، النظم الإسلامية، ص: 120.

[3] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 67.

[4] ـ أنور الرفاعي، المرجع السابق، ص: 120.

[5] ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 124.

[6] ـ كعت، المصدر السابق، ص: 125.

[7] ـ تاريخ السودان، ص: 93.

أن القاضي محمود عندما جاءه بعض سكان تنبكتو، يطلبون منه عزل أحد الأعوان وتعيين آخر، رفض طلبهم وهددهم بالسجن إذا لم يغادروا. وكان عقاب من يمشي بالنميمة بين الناس، أن يركب على حمار، ويطاف به في البلاد بالنداء، ويقولون هذا جزاء من يسعى بالنميمة. وتشير بعض المراجع[1] إلى أن القضاة لجأوا ــ في بعض الأحيان ــ إلى عقوبات غريبة عن الشريعة الإسلامية، كقطع الأذن، وخرم الأنف، وذلك حسب درجة الجريمة.

الحسبة:

وهي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله. وأصلها من القرآن قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدعُونَ إلى الخَيرِ وَيَأمُرُونَ بالمَعرُوفِ وَيَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ﴾.[2] ومن شروط المحتسب أن يكون حرا، عدلا، ذا رأي وحزم، وخشونة في الدين، عالما بالمنكرات الظاهرة، وعليه لا يجب أن يكون المحتسب عالما من أهل الاجتهاد في الأحكام. ويكفي أن يكون عارفا بالمنكرات المتفق عليها، فالحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم. قال المختار: «والمنكر أي شيء قبيح قبحه الشرع قولا وفعلا ولو صغيرا».[3]

والمنكر إذا شاع وظهر وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لم يعلم عدم الفائدة، فإذا علم عدم الفائدة وجب الفرار حينئذ. وفي ذلك أنزل الله قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُم خَاصَّةً﴾.[4] وذلك أن المنكر إذا ظهر ببلدة ولم ينكر عم العقاب فاعله وغير فاعله.

ويصرح المختار أن العلماء اتفقوا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال بأمر العامة قد سقط وجوبه من القرن التاسع؛ لأن الأمة: «قد انتحلت لنفسها

---

[1] ــ الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي، ص: 139.
[2] ــ الآية 104 سورة آل عمران.
[3] ــ محمد بن المختار الكنتي، أوثق عرى الاعتصام، ص: 27.
[4] ــ الآية 25 سورة الأنفال.

المذاهب وعوائد اتخذتها دينًا قويمًا وسبيلاً مستقيمًا، فمن دعاهم إلى الحق اتخذوه هزءًا؛ لما تدوغلوا فيه من الضلال وما تعودوه من ارتكاب المحال».[1] وهذا الرأي لم يلتزم به المختار، حيث نجده ــ طيلة حياته ــ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وربما قصد بأمر العامة الفتن التي تكون بين المسلمين، بحيث لا يعرف الظالم من المظلوم.

أ- النظام المالي:

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها، وقد سارت الدولة الإسلامية على هذه السياسة منذ ظهورها، فأنشأت بيتا للمال يقوم على صيانته وحفظه، والتصرف فيه لصالح الجماعة الإسلامية. ولما ضعفت السلطة استحدثت العديد من الضرائب الخارجة عن حدود الشرع، وهي أشياء كانت مدعاة للدخول في صراعات بين الرعية وولاة أمورها.

أ- موارد بيت المال: وهناك موارد عديدة لبيت المال أهمها: الزكاة، الجزية، الغنيمة، والخراج.

الزكاة:

يرد ذكر الزكاة في أغلب الكتب الفقهية التي تناولت موضوع موارد بيت المال، غير أنه لا يرد جابي الزكاة إلا في الكتب المتأخرة بأزواد، حيث كان يتجول ويدعى بالساعي. وهذا الاسم نجده كذلك في المصنفات الفقهية، ولذلك عندما تناوله المختار يحتمل أنه حافظ عليه كما ورد عند الفقهاء، لأن الباحث لا يكاد يجد اسم آخر للساعي في المصادر المتاحة حول أزواد، والسودان الغربي. وكانت مهمته هي الطواف بالقبائل: والضغط عليهم لحملهم على الدفع.[2] ومنذ فترة مبكرة اعتبر أمر تحصيل الزكاة وتوزيعها من مهام الدولة. وحتى في الحالات الكثيرة التي يُمتدح فيها سلطان لإبطاله الضرائب غير

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 534.
[2] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 78.

المشروعة فإنه يُذكر بأنه لم يحصل سوى ما أمر الله تعالى بـــه وأوجبـــه حكـــم الكتـــاب والسنة.

الجزية:

بعدما استتب الأمر للمسلمين بالصحراء، تركوا لأهل الذمة الاتفاق فيما بينهم على النسبة التي ينبغي على الأفراد دفعها. والجزية يدفعها الذمي، بخلاف المسلم الـــذي يـــدفع الزكاة. تشير الدلائل التاريخية ببلاد السودان أنه بعد السيطرة السعدية أســـلم عـــدد مـــن اليهود، وقد ذكرت أسماؤهم،[1] ولم: «يعرضوا لهم الرماة ولم يخرجوا الأرض من أيـــديهم وأزالوا الجزية عن رقابهم».[2] وعبارة (عن رقابهم) واضحة صريحة تقطع بـــأن اليهـــود أعفوا من ضريبة الرأس. ولم تذكر الرواية أنهم أعفوا من ضريبة الأرض. لكن الـــسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل اليهود دخلوا إلى الإسلام رغبة، أم لأنهم أنفوا من عار ضريبة الرأس؟ فهناك إشارات توضح بأن بعضهم كان ينافق، لأن الجزية تعتبر ســـمة للـــصغار والتحقير. ولا يمكن أن تكون الجزية قد شكلت أمرا هاما في ميزانية الدولة، على اعتبـــار أن عدد اليهود والنصارى كان قليل، وأخذوا في التناقص مع انحصار الأمن حول المـــدن الكبيرة. مع الإشارة إلى أن اليهود كانوا أكثر عدد من النصارى بالسودان الغربي، لأنهـــم كانوا يشتغلون كوكلاء للتجار المغاربة.

الغنيمة:

وهي ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى أخذوه عنوة، وتشمل أربعة أقسام: أسرى، وسبي، وأرض، وأموال. قال تعالى: ﴿وَاعلمُوا أَنَّمَا غَنِمتُم مِن شَيءٍ﴾.[3] من أي شيء كان، فإن لله خمسه. والخمس الباقي لخمسة أصناف كما ذكر الله عز وجل:

---

[1] ـ مجهول، تاريخ أزواد، و2 ظ.
[2] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 1، ص: 80.
[3] ـ الآية 41 سورة الأنفال.

﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُربَى وَالْيَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابنِ السَّبِيلِ﴾.[1] وكان خمس الغنيمة يقسم خمسة أسهم توزع على الرسول وذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. أما ابن السبيل،[2] فهو المسافر البعيد عن ماله ،وأهله، فيعطى من خمس الخمس ما يسد فاقته.

على أن يصرف سهم الرسول بعد موته في مصالح المسلمين كأرزاق الجيش والقضاة. أما أرباع أخماس الفيء الباقية، فكانت تقسم في صدر الإسلام على الجند والأعمال الحربية كشراء الأسلحة، حتى دوّن عمر بن الخطاب الدواوين وعين أرزاق الجند فأصبح الفيء يوضع في بيت المال، بدليل أن بلال بن رباح وأصحابه[3] سألوا عمر بن الخطاب قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق، والشام، وطالبوه بأن يقسم الأرض على الذين افتتحوها كما قسم الغنيمة بين الجنود، فأبى عمر وقال: قد أشرك الله الذين من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته بينكم لم يبقى لمن بعدكم شيء، ولئن بقيت ليبلغن الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه في وجهه.[4]

وقرر عمر بذلك أن يجعل مال الغنيمة في عامة مصالح المسلمين[5] من تجهيز العساكر، واستعداد الكراع، والسلاح، وتقوية المسلمين على الكفار وأهل الأهواء، وإقامة موسم الحج، وأرزاق القضاة، والجباة، والجواسيس والعيون، وتحصين الثغور، وبناء المساجد، وأرزاق الأئمة المرتبين لإقامة الصلاة. وفي إجابات[6] المغيلي على أسئلة الأسكيا نصوص صريحة لتحديد وضعية الأرض التي فتحها السلطان الحاج محمد، بعد قضائه على سلفه سني علي.

---

[1] ـ الآية 41 سورة الأنفال.

[2] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 16.

[3] ـ وهم: عبد الرحمن بن عوف، وعمار بن ياسر، وقد رأوا أن تخمس الأرض، ويقسم أربعة أخماسها على الغزاة، والخمس لمن ذكروا في كتاب الله تمسكا بآية الغنيمة. ينظر: مناع القطان، تاريخ التشريع الإسلامي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الرابعة عشرة 1996، ص:139.

[4] ـ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: 146.

[5] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 16.

[6] ـ المغيلي، أسئلة الأسكيا، ص: 174.

ب ـ التجارة:

أصبحت التجارة الخارجية بأزواد قبيل نهاية حياة المختار، مهددة بعنصر جديد هم الأوروبيين أو الكفار كما ينعتهم. وأصبح هذا الموضوع محورا هاما من المحاور التي تناولها في بعض مؤلفاته. لأن هذه التجارة أضحى لها انعكاس على الحياة العامة بالبلاد، من خلال تغيير العلاقات الاقتصادية القائمة قبل ذلك، وربط مصير الاقتصاد المحلي بالاقتصاد الأوروبي.

ووضع المختار قاعدة للتبادل التجاري مع الكفار، وذكّر بأسس المعاملات في هذا المضمار، والتي تحددها طبيعة العلاقات بين المسلمين وغيرهم. ويمكن للباحث أن يستنتج مما أورده، أن المبادلات التجارية مع غير المسلمين يجب أن تقوم على شروط معينة. فما دامت القواعد الفقهية تضع تشريعات للمباحات، والممنوعات، في هذه المعاملة. والمعنى أن تلك العلاقات موجودة ومباحة بالأساس، ولكنها مشروطة بعدم مد الكفار بكل ما يمكن أن يوهن المسلمين كبيع الحبوب، والمواشي، والمواد الأولية لصناعة الأسلحة، في حين أن المسلمين في أشد الحاجة إليها.

واتخذ موقفا حاسما من الامتيازات التي قد يحصل عليها التجار النصارى أو الكفار، واعتبرها الأساس ــ في حال حصولهم عليها ــ في الإخلال بالتوازن الاقتصادي للبلاد في مرحلة أولى، ثم الأدهى من ذلك أنها قد تصبح سببا في الإخلال بالتوازن العقائدي «إذا انفتح لهم باب كان مسدودا عليهم من قبل».[1] وهذا ما جعله ينكر ويضيق حدود تلك المعاملات، مراعاة منه لخطورة الوضع، وعدم التكافؤ الواضح بين إمكانات النصارى وإمكانات المسلمين.

ج ـ المكاييل: يتعرض المختار إلى بعض المكاييل الشرعية، والتي كانت تستخدم في فجر الإسلام في إطار تطبيق الأحكام الشرعية للدولة الإسلامية، منذ أقرها الرسول صلى

[1] ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 121.

له عليه وسلم، وكانت لها أهميتها القصوى التي تتعلق بأحكام العبادات من وضوء، واغتسال، وطهارة، وتأدية لكفارة اليمين، وزكاة الفطر، وزكاة الأرضين، وغير ذلك من أمور العبادات وهذه المكاييل هي:

الصاع:

وهو مكيال أهل المدينة، وتدور عليه أحكام المسلمين ويشير المختار أن صاع النبي صلى الله عليه وسلم: «أربعة أمداد، وكل مد رطل وثلث».[1] وقد تطرق ابن سلام إلى هذا المكيال في كتابه الأموال، وصرح بأنه أعظم المكاييل الإسلامية.[2] وإذا ما اعتمد الباحث على تحديد المالكية والشافعية للمد برطل وثلث، فيكون الصاع كما يقول المختار: «خمسة أرطال وثلث».[3] وهو التحديد الذي اعتمده أبو يوسف القاضي،[4] واعتمده كذلك الماوردي.

وكذلك ذكر الخطيب الشربيني أن الصاع بالوزن خمسة أرطال وثلث، والرطل 128 درهم، وأشار إلى أن الأصل فيه الكيل وإنما تدر بالوزن استظهارا، والعبرة بالصاع النبوي.[5] وأما يحي بن آدم فقد ذكر في مواضع عدة في كتاب الخراج أن الصاع هو ثمانية أرطال، وهو متفق مع ما ذهب إليه الحنفية.

إذا فقد باتت هناك مشكلة وهي اختلاف الفقهاء في تقدير الصاع، ففي الأخذ بآرائهم تقديران للصاع أولهما خمسة أرطال وثلث عند أهل الحجاز أو المالكية، وثانيهما ثمانية أرطال في الكوفة والعراق عند الحنفية، وبذلك لا تتفق جميع تقديرات المكاييل الأخرى حيث أنها ترتبط بعلاقات قياسية بعضها مع بعض وأساسها جميعا الصاع.

---

[1] ـ المصدر نفسه ص: 113.
[2] ـ ابن سلام، الأموال، ص. 514.
[3] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 114.
[4] ـ أبو يوسف، كتاب الخراج، ص: 53.
[5] ـ سامح فهمي، المكاييل في صدر الإسلام، ص: 27.

ويتحدث المختار عن سبب تحديد أهل العراق للصاع بثمانية أرطال، وهو أنهم سمعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بالصاع، وسمعوا في حديث آخر أنه كان يغتسل بثمانية أرطال، وسمعوا في حديث ثالث أنه صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ برطلين فتوهموا أن الصاع ثمانية أرطال، وقد اضطرب مع هذا قولهم.[1] وذكر بأن أهل الحجاز لا يوجد اختلاف بينهم فيه، قال ابن سلام: «يعرفه عالمهم وجاهلهم، ويباع في أسواقهم، ويحمل عمله قرن عن قرن».[2] ويظهر أن تحديد الصاع كان كذلك في مختلف العصور التاريخية.

ويمكن أن يستنتج الباحث بأن رأي مالك، وأبو يوسف، والشافعي، هو أن الصاع النبوي خمسة أرطال وثلث. وقد صرح المختار بأن سبب المشكل في تحديد أهل العراق يرجع إلى ما يسمى: «قفيز الحجاج».[3] ذلك أن الحجاج وضعه فلقب به، وهو الذي عرفه أهل الكوفة وقدروا الصاع عليه.[4] ويمكن أن يطلق عليه الباحث مكيالا عرفيا، عرف عند أهل العراق فقط، ولم يعرفه أهل المدينة أو تعاملوا به.

المد:

وهو مكيال كان يستخدم عند الرومان للسوائل والجوامد،[5] ويختلف عندهم باختلاف البلدان والأزمان. وشاع استعماله منذ صدر الإسلام في المدينة، ومنها انتقل إلى سائر الأقطار الإسلامية. وقد حدده المختار برطل وثلث،[6] أو ملئ كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما وبه يسمى مدا.[7] بينما جعله الحنفية رطلان.[8] وبمنطقة السودان

---

[1] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 117.
[2] ـ ابن سلام، المصدر السابق، ص: 519.
[3] ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 123.
[4] ـ سامح فهمي، المرجع السابق، ص: 29.
[5] ـ الكرملي، النقود العربية وعلم النميات، ص: 41.
[6] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، ج 2، ص: 127.
[7] ـ باي بن عمر، النوازل، ص: 285.
[8] ـ فالترهنس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص: 47.

العربي هناك من جعل سعة المد أربعة ألواح بجمع اليدين،[1] وقد قدره موني[2] أيضا بما يعادل ثلاثة أرباع اللتر، ويبدو أن هذا التقدير الأخير بعيد عن الصحة، على اعتبار أن المد أكثر من هذا المقدار. ومع مقارنته بالصاع يمكن القول بأن المد يساوي ربع الصاع، أي ما يوازي رطل وثلث.

المودي:

وكان من بين المكاييل المستعملة في أزواد، ويعرفه المختار بأنه: «ما يحمله العبد أو الرجل من حبوب أو غيرها في كيس كان يتخذ من الجلد».[3] وهذا المكيال لا يرد له ذكرا عند العلماء والفقهاء الذين تحدثوا عن المكاييل الشرعية، وإنما يجد الباحث مكيال يدعى المُدى، وهو مكيال ضخم استعمله أهل الشام ومصر. ونقرأ عند ابن سلام أن عمر ضرب الجزية على أهل الذهب: «أربعة دنانير وأرزاق المسلمين من الحنطة مديين وثلاثة أقساط زيت، لكل إنسان كل شهر، وعلى أهل الورق أربعين درهما وخمسة عشر صاعا لكل إنسان».[4] كما أشار البلاذري[5] إلى أن مروان بن محمد صالح قوما من أهل الخزر، على أن يؤدوا مائة ألف مدى، وقوما آخرين منهم على عشرين ألف مدى. وأول من أشار إلى المودي من مؤرخي السودان محمود كعت.[6]

د ـ الإيرادات خارج نطاق الشرع:

ومن المسائل التي اهتم بها المختار هي التنظيم المالي، وخاصة ما تعلق بجمع الأموال وكيفية تنظيم تصريفها. فقد عزا فراغ بيت المال إلى الاختلال الذي يحدث من الجباة، والسرقات التي يقترفها القائمون على الوظائف. وناد المختار بالبحث على تولية

---

[1] ـ عبد القادر زبادية، الحضارة العربية، ص: 54.

[2] _ *MAUNY (R.), Tableau géographique de L'Ouest Africain au moyen Age. Dakar., 1961. p. 412.*

[3] ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 133.

[4] ـ ابن سلام، المصدر السابق، ص: 519.

[5] ـ فتوح البلدان، 216.

[6] ـ محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص: 249.

شؤون المالية لأشخاص يوثق في نزاهتهم، والإشراف مباشرة على «جمع المستحقات عند فرضها».[1] دون توظيفها أو استنزاف الرعية.

المكوس:

أكثر المعلومات المتوفرة تتناول الضرائب على التجارة سواء أكانت في شكل مكوس، أو رسوم على البضائع المرسلة إلى المدن، أو في شكل ضرائب على السلع عند بيعها في الأسواق. والسبب في ذلك يعود جزئيا إلى كون معلوماتنا مستمدة إلى حد كبير من الوثائق المتفرقة،[2] ومن المختار الذي كان يتولى قيادة قبيلة تجارية، فقد كان شديد الاهتمام بمثل هذه الأمور. وهذه الرسوم هي أسهل الضرائب من ناحية الجباية، ولذلك كانت أكثر ذيوعا.

وفي عصر كانت فيه المدن محاطة بأسوار عالية، لم تكن لدى التاجر فرصة لجلب بضاعته إلى المدينة سرا فيتفادى بذلك دفع ما يطلب منه من رسوم عند الباب. وكان على التجار الخارجين من تنبكتو إلى بلاد المغرب وبالعكس، أن يؤدوا ضريبة: «على كل حمل ومَحمل وجمل».[3] وفي زمن المختار كانت هذه الضريبة تدفع في كيدال. وهذه القوانين ــ على ما يبدو ــ قديمة ترجع إلى عهد ابن حوقل.[4] وفرضت مغارم[5] على القوافل من بعض العصابات،[6] وعدها المختار من المشاكل الكبيرة ـــ هي وبعض الإعانات الإضافية المستمرة ــ التي كانت يفرضها العمال، واعتبرها حتما من المكوس المحرمة، حيث ربط جواز فرضها بمجموعة من الشروط:

---

[1] ــ المختار الكبير، نزهة الراوي، و 58 و.

[2] ــ هي أربعة عشر وثيقة توجد بخزانة الأغزيري بالجديد أولف، غير أنها لا تحمل اسم مؤلفها و بها تواريخ التقييد، وغير مرقمة الصفحات وبدون رقم. وهي تفيد أنها ترجع إلى فترة قريبة من عهد المختار.

[3] ــ المختار الكبير، الأجوبة المهمة، و42 ظ.

[4] ــ ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 68.

[5] ــ هذه المغارم كانت تفرض بشكل كبير وشبه دائم على القوافل التي تمر بالمدن من طرف العصابات التي تعترض سبيل تلك القوافل أو فرض حصار على المدينة وفرض أعطاء الحبوب لها. ينظر: رحال بوبريك، المدينة في مجتمع البداوة، ص: 24.

[6] ــ كعت، المصدر السابق، ص: 123.

- إذا علم الإمام ضعف بيت المال وعجزه عن المصالح، وتيقن وجود الشروط التي لا تخفى على علمه وخاف المفاسد المادية.

- يجب على المسلمين الإعانة بقدر الإمكان ويوظف على القادر منهم فقط ما لا يضر بمال الإنسان.

- وينظر في حالة الرعية حتى يعلم من يستحق أن يوظف عليه، ومن لا يوظف عليه بقدر حاله.

- وترجع هذه الشروط إلى حالة الاضطرار فالجواز إذ الضرورات تبيح المحظورات، وإلى حالة الاختيار فالمنع.[1]

وحتى في حالة وقوع الضرورة القصوى، التي تبيح فرض غرامات جديدة[2] فإنها تقيد بشروط، في قدرها، وفي كيفية فرضها. وأما أوجه تصريف الأموال فلقد جعلها المختار في مرافق محدودة معينة، وهي المرافق الأساسية للحفاظ على المصالح والمرافق الهامة للرعية، لأنه في باب الصرف لا يدفع المقبوض منها: «إلا في المصالح العائد نفعها على الإسلام وأهله».[3] وبالجملة فقد تضرر السكان من هذه المكوس لسببين:

- أنها كانت كثيرة وعادة غير منتظمة.

- تجاوزات ممثلي الجباية في فرضها، والتي تصل إلى مستوى الشطط من طرف بعضهم. وهذا ما جعل كثيرا منها زائدا وغير مبرر. وهي أشياء وجدت قبل المختار واستمر العمل بها[4] دون مراعاة للشرع، الذي يؤكد أن من ترك المكوس عوّضه الله خيرا منه، وأسقط فقيه نبيه[5] شهادة السلطان الذي يأخذ المكوس، أو يظلم الرعية.

---

[1] - المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 111.

[2] - مجهول، وثائق الأغزيري، الوثيقة رقم: 7.

[3] - المختار الكبير، الأجوبة المهمة، و 18 ظ.

[4] - فاطمة العيساوي، «كلف البوادي في القرن التاسع عشر»، ندوة البادية المغربية عبر التاريخ، المنعقدة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سنة 1999، ص: 144.

[5] - المقصود هو المغيلي. ينظر: المغيلي، أسئلة الأسقيا، ص: 183.

الخفارة:

وهي نوع من الضريبة على التجارة كانت شائعة، مع أن المصادر[1] تقتصر على مجرد الإشارة إليها، والمقصود بها مال حراسة القوافل، وهي في الأساس إحدى نتائج الحكم الضعيف، وبالتالي فإنها تكثر في المناطق التي لا تمتد إليها لسبب ما سلطة الدولة. وكانت القبائل بين اداغست، وسجلماسة: «تجبي اللوازم على المجتازين بتلك الطريق».[2] وفي جهة أكثر سكانا كانت بعض قبائل زناته[3] تفعل الشيء نفسه بين المبروك وتاودني، وهذه الضريبة، لم تكن تضم إلى خزائن أية دولة، وإنما تذهب إلى جيوب الأقوياء الذين يقومون بالحراسة. ويفهم ضمنا من وجود مثل هذه الضريبة انعدام إحدى الصفات الأساسية لدولة جديرة بهذا الاسم، وهي تأمين الطريق. وتكثر هذه الملاحظات عند المختار في زمان ومكان لم تقم فيهما دولة مستقرة في الصحراء.

المصادرة:

قد يتبادر إلى الذهن بأن المصادرة الفعلية كثيرا ما كانت تمارس وتشكل إضافة مفيدة لموارد الدولة في ظل أنظمة كثيرا ما يكون الحق فيها بجانب القوة، وحيث كثيرا ما يكون للشخصية ما للقانون من اعتبار. وفي واقع أزواد فإن القضايا الخاصة بمصادرة أموال الأفراد لا يرد ذكرها إلا نادرا، ولا يبدو أنه كان لها أثر يذكر على بيت المال. ورغم ذلك فإن، السعديين قاموا بمصادرة أموال بعض الوجهاء شمال تنبكتو،[4] كما تشير بعض الوثائق،[5] إلى أن الرماة صادروا العديد من أملاك القبائل، في بداية تواجدهم بالسودان الغربي بدافع الضغينة وسوء النية.

---

[1] ـ هوبكنز، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة أمين توفيق الطيبي. مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط 1999، ص: 76.

[2] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 2، ص: 48.

[3] ـ ابن حوقل، صورة الأرض، تحقيق كرامرز، مطبعة ليدن، ط 1938، ج 1، ص: 72.

[4] ـ المختار الكبير، نصيحة البت إلى جميع الكنت، و 2 ظ.

[5] ـ مجهول، تاريخ أزواد، و 9 و.

الضرائب على السلع:

وهي نوع شائع من الضرائب، والتي يمكن تسميتها بضرائب السلع أو السوق، أي الضرائب التي تدفع عن البضائع حينما تباع للاستهلاك، أو في نقطة من سلسلة التوزيع قريبة من المشتري. إن الدليل المباشر على مثل هذه الضريبة في فترة انتشار الإسلام الأولى ضئيلة بأزواد، إلا أنها كانت واسعة الانتشار ومتنوعة فيما بعد، كما يستنتج من فقرة يوردها المختار، في حديث دار بين أحد تجار البرابيش بولاته ومؤتمن السوق، الذي: «كلّفه أكثر مما يحتمل».[1] وهذه الفقرة تشير إلى سنة 902 هـ / 1496 م، ونص المختار السابق كان في خضم حديثه عن موارد بيت المال، وزكاة الأموال بأكدس. ولما استقرت الأمور للسلطان الحاج محمد أسكيا أبطل ضرائب عديدة من هذا القبيل، بناء على نصيحة مستشاره: «فكل ما فعله غيرك ثم صار إليك، إن كان خيرا فأثبته، وإن كان شرا فأزله، ولو طال زمانه».[2] وكانت الضرائب تجبى على العديد من السلع كالماشية، والخضروات، والملح، والفحم، والتوابل.

تقسيم أموال الغصب:

لما ارتدّ بعض العرب ومنع بعضهم الآخر زكاة أموالهم، وتوقف آخرون ينظرون على من تكون الدائرة، جدَّ سيدنا أبي بكر رضي الله عنه في جهادهم. فسبى الأموال والذراري فقتل من يستحق القتل وحرّق من استحق ذلك، فلما أقرّوا بالإسلام والتوبة، خيَّرهم بين السلم المخزي، والحرب المجلية، فرضوا بالسلم المخزي.[3] فلما تبيَّنت توبتهم وأذعنوا، اختلف رأي الشيخين في أموالهم، فرأى الصديق أن تحبَّس أموالهم يستعين بها المسلمون على جهاد عدوهم. وكان رأي عمر، ردها لهم لما تبيَّنت عنده توبتهم ورجوعهم

---

[1] ـ المختار الكبير، البرد، ج 2، ص: 123.

[2] ـ المغيلي، المصدر السابق، ص: 176.

[3] ـ يقصد بالسلم المخزي: أن يأخذ منهم الصديق رضي الله عنه الكراع، ويشهدون أن قتلاهم في النار وقتلى المسلمين في الجنة، وأن المسلمين على الحق وهم على باطل، وبذلك يؤدون الدية عن قتلهم للمسلمين.

في الإسلام. فبقيت تلك الأموال بيد الخليفة الصديق رضي الله عنه حتى توفي، فلما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة، ردّ إليهم أموالهم تبعا لاجتهاده لما ولي الأمر.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة، وجد بيوت الأموال مملوءة بالغصب والتعدي لعدم رضاه بأفعال من تقدمه من الملوك المروانية، عمد إلى بيوت الأموال فمن علم له مالكا معلوما رده إليه. والذي لم يعلم له مالكا معلوما، دفعه إلى من يرتضى هديه من العلماء وغيرهم، فإذا ثبت وتقرر أنه يسلك به مسلك الفيء. وبالجملة فإن هذا المال يحل للأغنياء على قدر قيامهم بالمنافع، فينظر الإمام إلى ما هو أصلح للمسلمين فيفعله.[1] ويكون الأمر على نحو ما قاله القرافي، فيبدأ بالفقير ثم بالمسكين ثم بابن السبيل فيفرّق الإمام ذلك بين الناس بحسب الحاجة، فيعطى الأحوج فالأحوج بعد أن يبدأ بأهل بيت رسول الله صلى الله وسلم، ثم بمن ينتفع به المسلمون من أهل العلم من القضاة، والمحدثين، والفقهاء، والمفتين، ثم بذوي الشجاعة والنجدة من فرسان المسلمين.

هـ ـ رد فعل السكان تجاه الجباية خارج حدود الشرع:

أشرت في السابق إلى أن عدد كبير من الكلف المفروضة كان يفوق طاقة الرعية، خاصة بعد حلول الجيش السعدي بأزواد،[2] إذ كثيرا ما تتكرر في الوثائق عبارات مثل: الانحراف عن الخدمة، أو عدم الانقياد للخدمة، أو التمنع عن أداء الكلف.[3] وكثيرا ما يتزامن هذا الامتناع مع ظاهرة الفرار من القبيلة؛ حيث نجد أن هناك عددا من سكان القرى ـ خاصة الغربية[4] ـ كان يفضل مغادرة أرضه رغم ما تعنيه بالنسبة إليه على مواجهة «الكلف المخزنية».[5] على اعتبار أن تلك القرى كانت مكشوفة أمام الاعتداءات، من قبل القبائل المحاربة في بلاد شنقيط.

---

[1] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 2، ص: 69.
[2] ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص: 38.
[3] ـ المختار الكبير، الوثائق، و 23 و.
[4] ـ السعدي، المصدر السابق، ص: 154.
[5] ـ المختار الكبير، الوثائق، و 23 ظ.

وكإجراء ردعي للممتنعين قام الرماة بتوجيه رسائل التحذير والإنذار، وسجن بعض من تم القبض عليه، كما استعمل أسلوب العنف بالغارة على بعض القرى،[1] وترصد المتقاعدين عن تأدية الكلف وتعقبهم لإجبارهم على العودة إلى قراهم وتسديد ما عليهم منها. وفي المقابل قامت محاولات للحد من الخروقات التي كان الجباة يقترفونها تجاه السكان بمضاعفة الكلف عليهم وعدم احترام ضوابطها. إلا أن هذه المحاولات لم تكن تخرج عن نطاق توجيه رسائل التنبيه والرفق بالرعية.

ويمكن الاستنتاج أن نظام الجباية بأزواد كان هشا، فالبنسبة للكلف فتوجد سلبيات عديدة في تطبيقها مثل تعددها وعدم انتظامها وعدم تعميمها لدرجة تصبح معها نوعا من الفوضى، تضر بالرعية ولا يستفيد منها بيت المال. كما يظهر بوضوح أن عبء الجبايات كان يقع في أغلبه على سكان القرى لطبيعة الضرائب المفروضة خلال تلك الفترة، ولنظرة عمال الجباية تجاه سكان القرى.

5ـ الأزياء واللباس بأزواد:

يتنوع اللباس بتنوع الأماكن وفئات المجتمع، فسلاطين سنغاي كانوا يضعون: «عمائم على رؤوسهم».[2] وهي دليل الرفعة وعلو المكانة، وهذا ما يفهمه الباحث من خلال ما ذكره السعدي الذي أشار إلى تولي أسكيا إسحاق الحكم، وتمكن من ملاحقة أعدائه وقبض على أحدهم، وأراد إهانته فقال لرجاله: «هاتوا كرزي فجيء به فقال له خذه واستر به هذا الشيب السوء».[3] وهو دليل أن عمامة خصمه قد سقطت عن رأسه وأصبح مكشوفا، وبالتالي فهو لا يصلح للحكم. كما يرتدي سلاطين سنغاي السراويل، والقمصان السوسية الخضراء: «وهي أفضل لباس عندهم».[4] وكانت تلقب

---

[1] ـ مجهول، تاريخ أزواد، و 5 ظ.
[2] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، و 16 و.
[3] ـ السعدي، المصدر السابق، ص: 129.
[4] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، و 16 و.

عندهم بالعالية.[1] كما أن بعض أبناء السلاطين كان يتزين بالذهب المرصع، فقد خلع أحد أبناء السلاطين قلنسوته ليغتسل فرأى الحاضرون ذهبا مرصعا في رأسه، فتحدثوا فيما بينهم بأنه ابن سلطان. على اعتبار أن أبناء السلاطين كانوا يتزينون بالذهب، وهو خاص بهم دون غيرهم من الخاصة.

وأما أمير تادمكة فاشتهر بعنايته باللباس المزركشة على غرار أمير ماسنة،[2] فالأول اشتهر بعشقه: «العمائم الحمراء، والقمصان الصفراء، والسراويل الزرقاء».[3] وسكان تادمكة اشتهروا بالثياب القطنية المصبَّغة،[4] وكان الغالب على التجار في شمال أزواد ارتداء الملحفة السوداء، والقلنسوة الحمراء، وأما أعوانهم فعرفوا بسوار الفضة في يدهم اليمنى. ولعل ذلك مما يسهل الاتصال بكل فئة حسب موقعها في بيئة عرفت بتعدد اللهجات، وكذلك بأعداد التجار من كل الجهات.

واختص قادة الجيش في فترة حكم الرماة بجنوب أزواد بلبس بدلات عسكرية حسنة «وواسعة وفضفاضة»[5] وانبهر بهذا الزي السكان، الذين لم يتعودوا على مثله من قبل، حيث كان لباس الجيش بسيطا. وكان القادة يعلقون سلاسل فضية في رقابهم، واستمتع بعضهم[6] برخاء الذهب ببلاد السودان، فجعل يتحلى به رغم حرمته على الرجال في الشريعة الإسلامية. وأشتهر الفقهاء والأئمة بارتدائهم الملابس الطويلة، واللثام الأبيض،[7] وهي عادة أدخلها المرابطون بعد سيطرتهم على بلاد السودان.

ويبدو أن بعض الفئات الاجتماعية بأزواد اختصت بلباس خاص في جهات مخصوصة، وهذا ما ينطبق على شرفاء ولاته الذين اشتهروا بلبس: «جلابيب طويلة

---

[1] ـ كعت، تاريخ الفتاش، ص: 115.
[2] ـ الدالي، المرجع السابق، ص: 35.
[3] ـ المختار الكبير، الوثائق، و 17 ظ.
[4] ـ مجهول، الاستبصار، ص: 223.
[5] ـ المختار الكبير، المصدر السابق، و 18 و.
[6] ـ محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في إفريقيا فيما وراء الصحراء، دار الرشيد بغداد، ط 1982، ص: 101.
[7] ـ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص: 163.

وعمائم حمراء».[1] والشيء نفسه يقال عن الرجال الذين ينحدر منهم سلاطين سنغاي، فقد كانوا يرتدون القمصان والقفاطين المصنوعة من الكتان، وفيها بعض الحرير، بالإضافة إلى السراويل الكبيرة[2] والبرانس، ويظهر أن هذه الأخيرة لم تكن حكرا على هؤلاء، فقد ذكر السعدي[3] أن بعض الفقهاء كانوا يرتدونها. ويمكن الاستنتاج أن الزي بكيدال وما جاورها كان يختلف بحسب المناطق، ويكون على قدر طاقة الشخص ومرتبته الاجتماعية، فلا تكاد تشير المصادر إلى زي مخصوص بتلك الجهات.

وأوضح المختار بعض الأعراف فيما يخص اللباس بأزواد في فترته، من ذلك اللثام عند الطوارق والذي عم كل قبائل المنطقة ــ تقريبا ــ وصار من «عاداتهم الحميدة»[4] حيث ينشأ الصبيان على تضييق اللثام[5] الذي يعتبر زيهم المميز.

ومن خلال المادة التي يقدمها المختار حول النظم، يمكن للباحث أن يستنتج بأن أزواد عرفت العديد من التشكيلات المختلفة في مجال الإدارة الإسلامية، لا تختلف في مجملها عن تلك التي عرفتها الجهات الأخرى من بلاد الغرب الإسلامي. بالرغم من وجود شيء من التمايز، الذي يرجع إلى طبيعة النظام السياسي الذي ساد بها على امتداد فترة تاريخية تبدأ منذ دخول السعديين إلى تنبكتو، حيث غيَّروا الوضع السياسي، الذي عرف استقرارا في فترة السنغاي. وحلت بتلك البلاد أزمة سياسية سرعان ما استغلتها القبائل المحاربة، التي لم تتورع في استعمال كل الوسائل لإضعاف سلطة الرماة. ورغم الوضع السياسي المتردي الذي نتج عن الغزو السعدي، فإن عناصر هذا الجيش حملوا معهم العديد من العادات، التي أثرت الحياة الاجتماعية والثقافية بأزواد.

---

[1] ــ المختار الكبير، الوثائق، و 18 و.
[2] ــ محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص: 144.
[3] ــ تاريخ السودان، ص: 216.
[4] ــ المختار الكبير، النوازل، و 26 ظ.
[5] ــ القشاط، التوارق، ص: 89.

الفصل الثالث :

اللغة العربية وآدابها

عند المختار

تمهيد:

لقد تعرض المختار في ثنايا تآليفه لمواضيع لغوية كثيرة، كما اشتهر بقصائده العديدة والتي جمعت في ديوانه. وعند تناوله للأخلاق، كان يضرب الأمثال بالقصة القصيرة على لسان الجماد. كما احتفظ صاحب الطرائف برسائل مختلفة لوالده، تبادلها مع سلاطين وزعماء قبائل بأزواد.

اللغة العربية:

حظيت اللغة العربية بإقبال كبير في الزوايا والمحاضر، لما لها من اتصال وثيق بعلمي القرآن والحديث. والغرض منها إفادة الكلام، حيث تتضح المقاصد. ولما اختلط العرب بغيرهم مع ازدياد الفتوحات فسدت ملكة اللسان لديهم[1]، فاضطر العلماء لوضع القواعد، واستنباط القوانين لحفظ اللغة. وهذا الوضع لم تشذ عنه أزواد، التي تعددت بها الأجناس والقبائل.

مؤلفات المختار في اللغة العربية:

ترك المختار العديد مجموعة من الآثار في اللغة العربية منها: بغية النبيل في بيان جمل التسهيل،[2] وفتح الودود في شرح المقصور والممدود،[3] وألفية[4] في العربية.[5] ومع ذلك اعتبر اللغة العربية من فروض الكفاية، التي إذا قام بها البعض سقطت عن المجموع، مثلها مثل علم الحساب، والطب. وهو يرى بأن المسلم لا يلزمه: «أن يتعلم من صناعة النحو، إلا ما يؤدي إلى الوقوف على كيفية التكلم، وما عدا ذلك فإنه فضول كرافع المبتدأ،

---

[1] – عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص: 756.

[2] – لا يزال يعتبر هذا المخطوط في حكم المفقود.

[3] – حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه مأمون محمد أحمد، مطبعة الكاتب العربي دمشق، ط الثانية 1991.

[4] ــ قال ابن مخلوف بأنه: «ضاهى بها ألفية ابن مالك». ينظر: ابن مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 377.

[5] ــ البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص: 153.

وناصب الظرف».[1] وهو لا يعفي طالب العلم من تعلم اللغة العربية، على اعتبار أن مقصده في العلم لا يتم إلا بتعلمها.

1ـ المواضيع اللغوية التي اهتم بها:

إن أزواد عبارة عن بوتقة انصهرت فيها عناصر قبلية مختلفة، بعضها عربي وبعضها أعجمي، وقد وضعت جنبا إلى جنب واندمجت، وذلك في والوقت الذي استمر فيه تأثير تقاليد قديمة. وقد كان من نتائج التواجد الإسلامي انتشار اللغة العربية، التي ستتقسم بوصفها لغة الخطاب بين القبائل العربية إلى ثلاث فئات أساسية من اللهجات: لهجة قريبة من العربية، ولهجة بني حسان، ولهجة مختلطة. وعلى أطراف أزواد نمت لهجات تجارية مركبة من عناصر متعددة.

والمختار اهتم بمواضيع رآها هامة في فهم اللغة العربية منها المقصور والممدود، والمؤنث وأوصافه، وحروف الجر، مسألة المصدر والفعل، وتعرض كذلك لفقه اللغة. على اعتبار أن سكان أزواد غلبت عليهم العجمة خاصة في الناحية الجنوبية من المنطقة، والجهة الغربية منها، وهي الحدود التي يلتقي فيها السكان مع القبائل السودانية والصنهاجية على حد سواء. وهذا أمر دعاه إلى الرجوع إلى التراكيب اللغوية أي إلى النحو والصرف، وغرضه بذلك تعليمي بحت، كي يتعود تلاميذ محضرته على تعابير القدماء.

اختلاف الألفاظ حسب القبائل:

يركز المختار في درسه اللغوي على الطريقة المتبعة في بقية المحاضر، بحيث يرجع إلى المصادر اللغوية القديمة ليستمد شواهده منها، ويتناول عدد من الكلمات التي تحتمل أكثر من معنى عند القبائل العربية. ويرى بأن ذو في لسان غير قبيلة طي من العرب بمعنى صاحب، فهو أحد الأسماء الخمسة التي ترفع بالواو وتنصب بالألف

[1] ـ المختار الكبير، البرد الموشا، ج 1، ص: 28.

وتخفض بالياء لكن بشروط «منها أن تكون مكبرة لا مصغرة، وأن تكون مفردة لا مثنّاة ولا مجموعة، وأن تكون مذكرة لا مؤنثة، وأن تكون مضافة وأن تكون إضافتها إلى غير ياء المتكلم، وأن يحذف الميم من الفم».[1] وكذلك يكون ذو بمعنى الذي، كما في قول الشاعر:

فإن الماء ماء أبي وجدي ويبري ذو حفرت وذو طويت[2]

وقد يؤتى بها مقصورة على لغة تميم،[3] ومنقوصة على لغة هُذيل، قال الشاعر:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا من المجد غايتاها[4]

وسكان المدن عادة ما يتكلمون على لغة من نزل فيهم من العرب، وهذا ما حصل مع بني حسان في أغلب جهات أزواد، إذ أصبح لسانهم هو المتغلب على لسان غيرهم.

ما يفتح أوله فيقصر ويمد باختلاف المعنى:

والمقصور عبارة عمَّا حبس آخره عن ظهور حركات الإعراب فيه من غير بناء، فيتسبب عن ذلك ختمه بألف لفظا قبلها فتحة لازمة. وإنما لفظا لأنه ليس بألف حقيقية، إنما هو صفة لما يشاكل الفتحة عند الإشباع، وهو الألف، كما تشاكل النون التّنوين لقصد التمكين. قال المختار: «ولذلك يرسم تارة بألف، وتارة بياء، مراعاة لأصله، وهو فعله أو تثنيته أو جمعه أو مفرد مؤنثه».[5] فإن ظهرت الواو في هذه المواضع، رسم ألف المقصور ألفا، وإن ثني أو جمع بواو أو ياء معا، حمل على الأغلب منهما،[6] فإن لم يكن له شيء من ذلك اختبر بالإمالة والتفخيم.

---

[1] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 208.
[2] ــ ابن جكني المختار، نظم المدافن، نسخة مخطوطة بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي نواكشوط، و 9 ظ.
[3] ــ محمد ولد بادي، بلوغ الغاية على الوقاية، مخطوط بخزانة الشيخ باي بأولف بدون رقم، و 123 و.
[4] ــ بوبكر المحجوبي الولاتي، حوليات ولاته، نسخة مخطوطة مبتورة بخزانة بيت العود بأقبلي بدون رقم، و 11 ظ.
[5] ــ المختار الكبير، فتح الودود شرح المقصور والممدود، ص: 21.
[6] ــ محمد ولد بادي، المصدر السابق، و 89 و.

والممال عند العرب ــ عادة ــ يرسم بالياء، وغيره بالألف، ويرسم من ذوات الياء بالألف ما أضيف، مثل: هدا الله،[1] ويرسم بالألف باجتماع ياءين ما كان مثل: الحيا والزكا، والنجا،[2] ويرسم ألف ما كان مثل: هوى ياء لظهور الياء في فعله،[3] وهو هويت بكسر الواو، لأن ذلك يدل على أن الألف في الرسم ياء.

أوصاف المؤنث:

يتطرق المختار إلى الحالات التي يأتي فيها المؤنث بغير الهاء، ويصرح بأن الفعل إذا جاء على وزن مُفعِل فتحذف هائه خاصة إذا كان مما لا يوصف به مذكر، ومن أمثلته: امرأة مرضع. فالرضاع شيء لازم للمرأة، لا يوصف به الرجال. ولما لم يخاف النحاة الالتباس بينهما تم حذفها، لكن إذا أريد الفعل فهنا يقال مرضعة ولا يقال مرضع، وشاهده قوله تعالى: ﴿تَذهَلُ كلُّ مُرضِعةٍ عَمَّا أرضَعَت﴾.[4] ويشير بعض النحاة[5] إلى فرق هام بين مرضع، ومرضعة، بحيث تكون المرأة مرضع إذا كان لها لبن رَضَاع، أما إذا أرضعت ولدها فهي مرضعة.

كذلك منه ما يكون على وزن فاعل، ولا يكون من صفات المذكر، ومن جملة أمثلته أن تقول: امرأة طالق، أو حامل. فهذه أوصاف خاصة بالنساء كما هو واضح. ويستدرك المختار عند تناوله لوزن فاعل في هذه المسألة، لأنه جاءت أمور على هذا الوزن تكون للمذكر وللمؤنث على حد سواء فلا يفرق بينهما، ومنها: رجل عاشق، وامرأة عاشق. وكذلك رجل عاقر، وامرأة عاقر. غير أن العرب إذا أرادت الفعل قالت: طالقة. وشاهده قول الأعشى[6]:

---

[1] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 2، ص: 69.
[2] ــ جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، دار الكتب العلمية بيروت، د ت، ج 2، ص: 160.
[3] ــ ابن جكني المختار، المصدر السابق، و 13 و.
[4] ــ الآية 2 سورة الحج.
[5] ــ ابن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة مصر، ط الرابعة 1963، ص: 229.
[6] ــ الأعشى: ويدعى أعشى قيس والأعشى القديم، وهو ينتسب من ناحية أمه وأبيه إلى ثعلبة وضبيعة، ولد في الحيرة سنة 570 م، وله قصائد شعرية جيدة أبرزها المعلقة. ينظر: بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ج 1، ص: 324.

أيا جارتي بيني فإنك طالِقَه كذاك أمورُ النَّاس غَادٍ وطَارِقُه

وهناك حالة أخرى في وزن فاعل، وهي أن يأتي وصفا للمؤنث معنيين، وهنا تثبت الهاء في أحدهما وتسقط من الأخرى، وذلك للتفريق بين المذكر والمؤنث. ومن هذا القبيل: امرأة طاهر، فهذا الوصف يوضع إذا كانت طاهر من الحيض. والذي يقابله: طاهرة، وإذا وصفت بهذا الأخير فهي نقية من العيوب. على اعتبار أن المرأة منفردة بالطهر من المحيض لا يَشرَكها فيه المذكر أو الرجل، وهذا الأخير يشركها في الخلو والطهارة من العيوب.

ويوضح المختار المتعدي من الأفعال ويتطرق إلى حروف الجر التي يقول عنها بأنها : «موضوعة لإفضاء بفعل معناه آيل إلى مفعول لولاها لم يفض إليه».[1] فلو أخذنا أكرمتُ كمثال نجده فعل يتعدى بنفسه، فهو لا يحتاج إلى تعدية بحرف. وقد وجد من ادعى من الكوفيين[2] إلى أنه إنما عدي به لضعفه عن العمل بالتأخير، كقوله تعالى:﴿إن كُنتُم لِلرُّءيَا تَعبُرُونَ﴾.[3] لكن قولهم فيه شذوذ على اعتبار أن المُطَّرد في مثله أن يتعدى الفعل باللام،[4] لما فيه من معنى الاختصاص دون غيرها من الحروف الجارة.

ويشير المختار إلى أن النادر لا حكم له، بمعنى أنه لا ينفرد بحكم يصير به أصلا، بل يجب أن يرد إلى أحد الأصول المعلومة في لغة العرب.[5] والهدف من ذلك المحافظة على تقرير تلك الأصول والاحتراس من نقضها، لأنه ما من علم إلا وقد شذت منه جزئيات مشكلة فترد إلى القواعد الكلية. وهي قاعدة أقرّها جل علماء اللغة وغيرهم.

---

[1] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 380.
[2] ــ بوبكر الولاتي، حوليات ولاته، و 14 ظ.
[3] ــ الآية 43 سورة يوسف.
[4] ــ ولد بادي، بلوغ الغاية، و 42 و.
[5] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 2، ص: 73.

ويتناول المختار ترتيب ساعات الليل وساعات النهار، فأول ساعات النهار حسبه هو:« الشروق، ثم البكور، ثم الغداة، ثم الضحى، ثم الهاجرة، ثم الظهيرة، ثم الزوال».[1] وبعده يأتي القصر، والعصر.[2] وبعد العصر هناك الأصيل، والعشي، والغروب. وبذلك تكون للنهار اثنتا عشرة ساعة.

وتبدأ ساعات الليل بالشفقُ، ثم يأتي الغسق، وبعدها العتمة، ثم السدفة، ثم الجهمة، ثم الزلة، ثم الزلفة، وهي عند السحور وهي أفضل الساعات،[3] ويأتي بعدها النزهة، ثم السحر، وبعد السحر يأتي الفجر، وبعده الصبح، ثم الصباح.[4] وبذلك يكون عدد ساعات اليل اثنتا عشرة ساعة. وتكون ساعات الليل مساوية لساعات الليل.

الفعل والمصدر:

يتناول المختار مسألة حصل حولها الخلاف بين البصريين والكوفيين، وهي الفعل والمصدر أيهما أصل. وقد ذهب علماء البصرة إلى أن الفعل مشتق من المصدر، وقال الكوفيون المصدر مشتق من الفعل. وهنا وجب بيان حد الاشتقاق، وأن المشتق فرع عن المشتق منه.

ويوضح أن نسبة المشتق إلى المشتق منه نسبة الأخص إلى الأعم، وبذلك لدى المختار أن يكون الفعل مشتقا من المصدر لموافقته للمصدر في معناه وزيادته عليه بالدلالة على الزمان المخصوص. ويأتي بأدلة منها:

ـ وجود حد الاشتقاق في الفعل،[5] وذلك يدل على حدث وزمان مخصوص فكان مشتقا وفرعا على المصدر كلفظ ضارب ومضروب.

---

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 441.
[2] ـ باي بن عمر، شرح فتح الباري، و 24 ظ.
[3] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص ص: 441 ـ 442.
[4] ـ الولاتي، حوليات ولاته، و 15 و.
[5] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 2، ص: 84.

ـ أن الفعل يشتمل لفظه على حروف زائدة على حروف المصدر، تدل تلك الزيادة على معان زائدة على معنى المصدر، فكان مشتقا من المصدر، ومعلوم[1] أن ما لا زيادة فيه أصل لما فيه الزيادة.

ـ أن المصدر لو كان مشتقا من الفعل لأدى ذلك إلأى نقض المعاني الأولى، وذلك يخل بأصول العربية.

ـ لفظ الفعل يشتمل على حروف زائدة ومعان زائدة وهي دلالة على الزمن المخصوص،[2] وعلى الفاعل الواحد والجماعة والمؤنث والحاضر والغائب والمصدر، يذهب ذلك كله إلى الدلالة على الحدث، وهذا نقض للأوضاع الأولى، والاشتقاق ينبغي أن يفيد تشييد الأصول وتوسعة المعاني، وهذا عكس اشتقاق المصدر من الفعل.

ورغم هذه الحجج التي يحاول من خلالها الانتصار للبصريين إلا أن علماء الكوفة لهم أدلتهم التي يستندون إليها ومنها أن المصدر يعتل باعتلال الفعل والاعتلال حكم تسبقه علته، وإذا كان الاعتلال في الفعل أولا وجب أن يكون أصلا ومثال ذلك قولك: صام صياما وقام قياما.[3] كما أن الفعل يعمل في المصدر كقولك ضربته ضربا، فضربا منصوب بضربت، والعامل مؤثر في المعمول.

لكن رأيهم مردود على إعتبار أن الاعتلال شيء يوجبه التصريف وثقل الحروف، ومجال ذلك هو الأفعال، فصيغها تختلف لاختلاف معانيها. فمثلا: قام، أصله قوم فأبدلت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، فإذا ذكرت المصدر من ذلك كانت العلة الموجبة للتغيير قائمة في المصدر وهو النقل.

---

[1] ـ ابن جكني، نظم المدافن، و 7 و.
[2] ـ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 1، ص: 59.
[3] ـ السيوطي، الأشباه والنظائر، ج 1، ص: 69.

كما أن العامل والمعمول هي أشياء من قبيل الألفاظ، والاشتقاق هو من قبيل المعاني، ولا يدل أحدهما على الآخر اشتقاقا. بالاضافة إلى أن المصدر قد يعمل عمل الفعل، ومثاله: يعجبني ضرب زيد عمرًا، وهذا لا يدل على أنه أصل.

2ـ النثر الفني:

والنثر الأدبي بأزواد في نشأته وتطوره إنما هو جزء من النثر العربي، وهو حصيلة تجاوب قوي وتفاعل وجداني بين الكاتب والمتلقي. ولابد أن الهجرات العربية التي وصلت إلى هذه البلاد قد حملت معها زادها الأدبي النثري والشعري الكافي. غير أن الملاحظ هو قلة النثر الأدبي، وربما يعود ذلك إلى غياب الدرس البلاغي في سياق النسق التعليمي في المحاضر، وقلة كتب التراث الأدبي، وطغيان الثقافة الشفوية.

كانت زاوية المختار تزدان بنشاط كبير في ميدان الترسل وضروب النثر الفني، وكانت السهولة هي السمة الغالبة على أسلوب المختار، سواء في ذلك رسائله الديوانية في الأغراض الإدارية السياسية أو الرسائل الإخوانية. فكانت له خصائص وقيما فنية، وتوسعت أجناسه لديه حيث خلّصه من الصناعة اللفظية وقرّبه من الجزالة والرشاقة. وقد اعتنى أكثر بالمضمون الاجتماعي، حيث جاء بعضه في ثوب مواعظ جعل عضدها الأدلة والآراء التي تؤيدها؛ فتداخلت فيه المقالة، والرسالة، والخطبة.

الرسائل السياسية:

كثرت الرسائل السياسية التي يعثر عليها الباحث في مدونات تاريخية عديدة للمختار، وتتميز أغلبها بالطول، وكثرت الشواهد من القرآن، واعتماد لغة قوية، واستعمال غريب اللغة في بعض الأحيان. ومن ذلك رسالته إلى جماعة اكلاد جوابا على كتاب بعثوا به إليه على وجه التشكي، فقال: «الحمد لله الذي جعل القلم نائبا عن القدم، ويغني عن مشافهة الكلام بما يعم ... أما بعد، فإنه بلغني عنكم ما لا أرضاه لكم من تفرقكم، لمَّا دهمكم الدهر ببعض ما هو من عاداته، مما بَيَّنَهُ لكم ربكم في محكم آياته، إذ

يقول: ﴿ولَنَبلُوَنَّكُم بشيءٍ مِنَ الخَوفِ والجوع ونقصٍ من الأموالِ والأنفس والثمراتِ وبشِّر الصَّابرينَ﴾.[1] فالبشارة تقتضي أمور ثلاثة: ذهاب الخوف بالأمن، وذهاب النقص بالخلف والزيادة.[2] فلا يشغلنكم عن دينكم ما نزل بكم، فتخسروا الدنيا والآخرة! فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعبُدُ اللهَ عَلى حَرفٍ فَإن أَصَابَهُ خَيرٌ اطمَأَنَّ بِهِ وَإن أَصَابتهُ فِتنَةٌ انقَلَبَ عَلى وَجهِهِ خَسِرَ الدُّنيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسرَانُ المُبِينُ﴾.[3] ومدح أقواما بالثبات على ما كانوا عليه قبل نزول البلايا، فقال: ﴿الَّذِينَ استَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرحُ﴾.[4] واعلموا أن الذي أصابكم لم يصبكم إلا بذنوب اقترفتموها، وبأحوال بينكم وبين الله غيرتموها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفسِكَ﴾.[5] وقال: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم﴾.[6] فدواء ما أصابكم الرجوع إلى الله بالتوبة واللجوء إليه بالدعاء...».[7]

إن أهم ما يميز هذه الرسالة هو أسلوبها السهل والواضح، إذ أن أبلغ الكلام ما كان القليل منه يغني عن الكثير، ومعناه ظاهرا في لفظه.[8] والمختار في رسالته السابقة يستعمل الألفاظ التي تحدث وقعا في نفس المتلقي، وتكون متقاربة في التراكيب (القلم، القدم)، وهو جناس ناقص. وأخرى متناقضة في المعنى من باب الطباق (الدنيا، الآخرة)، (الخوف، الأمن)، (النقص، الزيادة). وأبرز شيء في عباراته هو الإكثار من الاستشهاد بالآيات القرآنية، لأنه يدرك مدى تأثير الخطاب القرآني في النفس البشرية المؤمنة. كما يحاول أن يربط بين البلايا والمصائب والذنوب التي يرتكبها العباد، فالجزاء من جنس العمل، غير

---

[1] ــ الآية 155 سورة البقرة.
[2] ــ محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، و 457 ظ.
[3] ــ الآية 11 سورة الحج.
[4] ــ الآية 172 سورة آل عمران.
[5] ــ الآية 79 سورة النساء.
[6] ــ الآية 11 سورة الرعد.
[7] ــ محمد الخليفة، المصدر السابق، و 357 و.
[8] ــ الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص: 61.

أنه لا يقفل الباب ويسده أمام التائب المنيب، فالدواء والعلاج يكون بالعودة إلى جادة الطريق وهي طاعة الله فيما أمر واجتناب نواهيه.

ارتبط المختار بعلاقات عديدة مع الزعماء المحليين بأزواد، كما أشرت إلى ذلك سابقا. تلك العلاقات فرضت عليه ــ كزعيم قبلي وشيخ زاوية ــ أن يحدد علاقة قبائل الزاويا بزعماء القبائل المحاربة. وفي هذا الإطار بعث رسائل إلى علي بن محمد بن رحال زعيم البرابيش، منها رسالة بعثها إليه في تجارة كنته المجلوبة من توات، ونصها: «الحمد لله الذي لا يدوم إلا وجهه، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، من عبد ربه المختار بن أبي بكر إلى ابنه وخديم حضرته، ورئيس البرابيش غير منازع، وأميرها غير مدافع علي بن محمد بن رحال، ألف سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، ما دام الفلك وحركاته، أما بعد: فإنه بلغني كتابك صحبة محمد بن المختار فأخذته وتأملته، فإذا هو مشتمل على التشكي من كناتة[1] وأنهم حادوا عنكم ببعض متاع أهل توات، الذي لك عليه تسلط. فإن صح ذلك فلست آمرك ولا أنهاك، لأني إن أمرتك بالمكس فقد شركتك في الإثم. وإن نهيتك فقد أوقعتك في حرج أخشى عليك أن تقتحم النهي، فيكون في ذلك ما فيه من تغيير الخاطر. فارتكاب الجرأة مع ما نحن فيه من فسحة عدم التكليف بالأخذ على يديك، وأما متاع كناتة الذي ضربوا إليه أكباد إبلهم من أزواد، إلى توات، فلست بجاعل لك عليه سبيلا، فإن الأمر فيه قد علمته في حياة أبيك، وبعد وفاته، وحجتك وحجته بيدك. فلست بالذي ينهى عن الشيء ثم يأمر به، ولا بالذي يأمر بالشيء ثم ينهى عنه، إلا أن يكون في ذلك سخط الله أو خلاف أمره فأتبرأ منه. لأن أمر الله مقدم على صيانة مالك، فأنفق مالك على عرضك، يبقى معك في حياتك ويصحبك بعد مماتك، ودانق من عرض خير من قنطار من مال، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض، وعليك بالسعي في طلب العافية، فإن مشّارة الرجال تظهر العورة. وأما أمر أبناء أحمد، فإني منه

[1] ــ يقصد كنته.

بمعزل فإن نكثوا فوبال ذلك عليهم، وإن نكثت فكذلك، قال تعالى:﴿وَلا يَحِيقُ المَكرُ السَّيِّئُ إلاَّ بَأهلِهِ﴾.[1] والخير أردت وإليه قصدت، والله الولي وهو المحتفي. وأما أمر أمحمد معهم فلم أرضه، ولم آمر به، وإنما سوّلته له نفسه وزيّنه الشيطان بين عينيه، لأن البرابيش أحقر وأصغر من أن يبلغ حد هذا المبلغ والسلام».[2]

المختار في رسالته ينادي الزعيم البربوشي بالابن والخديم! حتى يُلَيِّن قلبه لأنه يملك السلاح (وهو أداة القوة)، فقبيلة البرابيش من القبائل المحاربة. ثم ينبهه إلى أنه يعترف بسلطته على قبيلته ومجالها، الذي أُختُرِقَ من طرف بعض أفراد كنته. وهو مع ذلك لا يأمره ولا ينهاه في العمل الذي قام به، لأن الأمر يعني الاشتراك معه في جعل المكوس حلالا وهي محرمة، وإذا نهاه فإنه يخشى تغيير خواطر المحاربين، الذين ينعمون بحرية التصرف في البلاد السائبة. لكن المختار ينتهز الفرصة ليذكر الزعيم البربوشي بأن تجارة كنته ــ وخاصة أولاد الوافي ــ يجب ألا تخضع لابتزاز البرابيش حتى ينالوا رضا الزوايا، ويطالبه بأن يبقى الأمر كما كان في عهد أبيه. وفي هذا الصدد يذكّره المختار بعواقب الشر وأهله، ويشير إلى ضرورة الاحتفاظ بالعهود التي كانت بين البرابيش وأولاد أحمد، حتى لا تكون سببا في إيقاع الأذى بالآخرين، ويحذر كل فريق من مغبة بدء الحرب. وينبه في الأخير أن العمل الذي قام به المدعو أمحمد (وهو الإغارة على البرابيش) لم يكن المختار يعلم به، فمثل هذا العمل لا يأمر به إلا الشيطان.

تحمل هذه الرسالة العديد من الإشارات الأدبية، والبلاغية، التي تخدم المقصد الذي يريده المخاطب، ولعل أبرز تلك الإشارات هي الطباق بين (النهي، الأمر). فلو تأمل الباحث جيدا في الرسالة، لوجد أن مدارها على الإجمال هو النهي والأمر، فكل الجمل فيها نهي وأمر، وعادة هذا الأسلوب يكون من القوي إلى الضعيف، أو من الأعلى إلى الأسفل وهذا شيء لم يدركه الزعيم البربوشي! والمختار يستعمل العديد من الألفاظ التي

---

[1] – الآية 43 سورة فاطر.

[2]- محمد الخليفة، الطرائف والتلائد و 60 و.

تخدم هذا المعنى (لك عليه تسلط، شركتك في الإثم، الفساد في الأرض). والمختار يريد بأسلوبه هذا أن يحتفظ بسلطته الروحية على إحدى أقوى القبائل المحاربة (البرابيش). ويلمس الباحث تبعا لذلك بعض اللين والرقة في الخطاب (تغيير الخواطر، أخشى عليك أن تقتحم النهي، السعي في طلب العافية). ويستعين بألفاظ تذكّر بالآخرة (سخط الله، بعد مماتك، أحسن كما أحسن الله إليك).

ومن رسائله السياسية رسالته التي أرسلها إلى المختار بن أقريش[1] وفيها يقول: « .... فسلام... وإنه لبسم الله الرحمن الرحيم، والعاقبة للمتقين، وقد بلغنا كتابك فنشرناه، وأمعنا النظر فيه فقبلنا ما في سطوره، وتلقينا بالمبرة ما في منشوره، فإذا بك تتعرف إلينا على رسم ما ألفيت عليه آباءك دونهم، فاجعل إحسان الله إليك بالتقرب والإحسان إليه بحسن السيرة مع من جعلت لك اليد الطولى عليهم لا سيما من انتسب إلى الله...أرشدك الله إلى سبيل الرشاد، وأخذ بيدك عن الميل إلى الزيف والفساد، وجعلك ممن يده مفتاح للخير مغلاق للشر...وأما ما بيدك، وفقك الله لإنفاقه في وجوه البر، وقولك: ابعثوا إليَّ من يأتيكم بكذا، فنحن ممن يتعفف، ولسنا ممن يتكفف، ولسنا بصدد الرسائل المالية، بل ما وفقك الله له، أتانا من غير مسألة، ولا إشراف نفس، وما لا تأثير له في تأكيد محبة ولا تحقيق صحبة و﴿اللهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾.[2] والسلام عليكم وعلى من أنضاف إلى حومتكم والسلام».[3]

يحاول المختار أن يقلد سيدنا سليمان عليه السلام في رسالته لبلقيس ملكة سبأ، باستعماله للبسملة في وسط الرسالة، وهو تكلف كان بالمكان تجاوزه، فشتان بين الوضعين. وواضح أن هدف الرسالة هو النصح والأخذ بيد هذا الأمير إلى جادة الطريق، وبألفاظ تخدم الغرض (الإحسان، التقرب إلى الله، سبيل الرشاد)، وفي المقابل التخويف

---

[1] ــ المختار بن أقريش: زعيم عرب المغافرة، كان ينشط كغيره من زعماء القبائل المحاربة بأزواد. ينظر: الولاتي، حوليات ولاته، و 6 ظ.

[2] ــ الآية 58 سورة الذاريات.

[3] ــ وثيقة بخزانة بيت العود بأقبلي، بدون رقم.

من عاقبة الهلاك (الزيف، الفساد). ويذكره بأن المختار لا يطلب الأموال في سبيل ما يقوم به من الإصلاح رغم ضائقة الحال في بعض الأحيان. وينبهه إلى أنه ليس في موقع الرسالة المالية، التي قد يفهم منها طلب المساعدة. ويستعمل البديع لزيادة التأثير على السامع، فيظهر الطباق في (مفتاح للخير ومغلاق للشر، يتكفف ويتعفف، الرشاد والفساد). ويبدو الجناس الناقص في (محبة وصحبة)

فضل الأخلاق الحميدة والتودد إلى الناس:

عرفت الفضيلة عند الإنسان في ما يقوم به من عمل الخير في سبيل أخيه الإنسان، ولذلك فعلى كل فرد: «أن يدن منه ذا النسب البعيد حتى يسكنه قصاء داره بالمد، وإذا فعلت هذا بقصي النسب، فمن باب أحرى قريبه. وإن النفيس لا ينال ولا يشترى بالخسيس. والعسجد، إذ هو الخليق بأن يرفع من شرفك ما قدم، ويبني من عرشك ما هدم، ويقدم للعدو إذ أعد، فارفع همتك واربأ بها عن سفاسف الأمور، واجنح إلى معاليها، فإذا وقعت إساءة منك إلى أحد، فامحها بأحسن شيء عندك وأنفسه، فقرِّب بقصي أخلاقك الواسعة الأطراف، كل من تقصَّى عنك إلى الفِناء والأكناف، لتكون من ذوي الهيئات الأشراف».[1] يطلب المختار من كل إنسان أن يقرِّب منه كل من تجمعه به علاقة قرابة، وإن كانت بعيدة ويسكنه (قصاء داره بالمد) أي فناء داره، وهي كناية عن الإحسان والقرب. والذي يفعل ذلك مع من بَعُد عنه، فسوف يكون أكثر إحسانا مع ذوي الأرحام دون شك. وفي المثل: «دانق تحبب وتقرُّب، خير من قنطار نسب مع تجنب».[2] ويشير إلى أن الشيء الغالي الثمن، لا يستبدل بالرخيص أبدا لأنها معاملة فاسدة. ويوضح بأن العسجد وهو الذهب النفيس الأحمر، أفضل شيء يتعلق به المرء، لقيمته العالية التي لا يساويها غيره من معدنه، وهو يقارن هنا هذا المعدن بحسن الخلق، الذي يجب أن يتحلى

[1] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص ص: 204 ــ 205.
[2] ــ هارون، الأخبار، ص: 18.

به الإنسان العاقل، الذي يستطيع بذكائه وهمته العالية أن يسع حتى الخصوم والأعداء، فما بالك بالرفقاء والأصدقاء.

وخلال تناوله لهذا الموضوع استعمل المختار العديد من الكلمات المؤثرة في السامع: النفيس، الخسيس، العسجد، سفاسف. وهي كلمات لها وقع خاص في أذن السامع، خاصة حرف السين الذي يتكرر ويحدث جرس كالمنبه للغافل والمتغافل. وموضوع الخلق أخذ حيزا كبيرا في مدونة المختار الأدبية على اعتبار أن الحياة في عصره كانت آخذة في الانحلال والانحطاط الاجتماعي، فمن سيطرة المحاربين إلى الفتن والقلاقل، ومن ظلم الباشاوات إلى جور عمال الجباية.

فضل الإبل:

والإبل أو الجمال هي الوسيلة الوحيدة لقطع المسافات الطويلة عبر الصحراء، وهذا ما جعلها تأخذ مكانة كبيرة في نفوس سكان الصحراء، ومن الآيات الدالة على الإبل، قوله تعالى: ﴿وَالأنعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنهَا تَأكُلُونَ﴾.[1] فبيّن بهذه الآيات أن الحيوانات ليس فيها ما يشاكل الفُلك، إلا هي لأنها سُفن البر.[2] وقد صرّح القرآن الكريم بتحملها للمشاق، والأثقال التي لا يستطيع حملها غيرها من الحيوان، في قوله عز وجل:﴿وَتَحمِلُ أثقَالَكُم إلى بَلَدٍ لَّم تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلا بِشِقِّ الأنفُس﴾.[3] إشارة إلى مواطن الغزو، أو سائر البلدان، وقوله تعالى:﴿أَوَلَم يَرَوا أَنَّا خَلَقنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَت أَيدِينَا أَنعَامًا فَهُم لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلنَاهَا لَهُم فَمِنهَا رَكُوبُهُم وَمِنهَا يَأكُلُون وَلَهُم فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشكُرُونَ﴾.[4] ولولا أنه ذللها لنا ما انتفعنا بها، فهي حيوان كبير الحجم وفيها الفحل الذي يصعب التحكم في مزاجه.

---

[1] الآية 5 سورة النحل.
[2] ــ المختار الكبير، نضار الذهب، ج 2، ص: 48.
[3] الآية 7 سورة النحل.
[4] الآية 71 ــ 73 سورة يس.

وقد سميت إبلا لأنها تأتي بالبلاء، وتذهب به. قال المختار: «الإبل فيها من أخلاق الكرام أوصاف، منها أن تكون مثقلة بالأحمال، ضمرا من الجوع والهزال، فإذا حداها الحادي، نسيت ما كانت فيه، فتراها تجد في السير محاكاة للحادي، فتراها تمد الأعناق استعذابا للصوت، وتحرك الآذان، وربما سحت الدموع على الخدين».[1] والإبل تحمل الأثقال، وقد أنصفها الذي يقول:

ألا فرَعَى اللّهُ الرَّواحِلَ انما مَطايا قلوبِ العاشِقِينَ الرَّواحِلُ

على أنهنَّ الواصِلاتُ عُرى النَّوَى اذا ما نَأى بالآلِفِينَ التَّوصُلُ[2]

التحذير من أخوة اللئام والمنافقين:

ومن الأخوة ما يكون ضارا للفرد، وهي أخوة اللئام والمنافقين، ولذلك فالواجب على الإنسان أن يكون: «بذوي القرابة شديد الاسترابة، فالمدخر الشفيق لا الشقيق، والمعتبر الوداد لا الولاد ».[3] أي كثير ظن السوء بجميع الأقارب، ولا يطمئن إلى أحد منهم سواء كان ابنا أو أخ. والظاهر من كلامه أن غاية ما يجتنى من صحبة اللئام والمنافقين السلامة من شرهم وغوائلهم، كما أنه لا يجتنى من الشوك العنب. وأخوتهم ليست لها عاقبة تحمد، كما قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في التحذير من خلطتهم، وأخوتهم، وأمره بتجنبهم، وعدم مصافاتهم: ﴿وَإِذا رَأَيتَهُم تُعجِبُكَ أجسَامُهُم﴾.[4] إلى قوله: ﴿فاحذرهُم قَاتَلَهُم اللّهُ أنَّى يُؤفَكُونَ﴾.[5] وحقيقة أخوة اللئام هو أن تكون أخوتهم منعقدة على الأغراض الدنيوية، إن وجد من أخيه ما أحب وما هوى شكره، وإن رأى غير ذلك يومًا ما أنكر ثم كفر.[6] وفي مثلهم يقول تعالى: ﴿فإن أعطُوا مِنهَا رَضُوا وَإن لَّم يُعطَوا مِنهَا إذَا هُم يَسخَطُونَ﴾.[7] ومن

---

[1] ــ المختار الكبير، الوثائق، و 13 ظ.

[2] ــ أبي العباس المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف بيروت، د ت، ج 2، ص: 4.

[3] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص:292.

[4] ــ الآية 4 سورة المنافقون.

[5] ــ الآية 4 سورة المنافقون.

[6] ــ ولد بادي، بلوغ الغاية، و 38 ظ.

[7] ــ الآية 58 سورة التوبة.

الإخوة ما هو سفيه لا يعرف التصرف، فإذا قدم على أمر لم يتثبت فيه، وهو ضد الرشد والحلم، وحقيقة السفيه هو الخفيف الطائش الذي لا يستفيد ولا يستفاد منه، ولا يكظم الغيظ.[1] ولا يطلب الفضل، ولا ينظر إلى العواقب. وهو بذلك يخبط في كل اتجاه، وبكل الوسائل فهو يلحق الضر بنفسه قبل الغير.

إكرام الضيف:

ومن عادات بدو أزواد إكرام الضيف، وليس ذلك بإشباعه فقط بل لابد من إكرامه وكرامته، والكرامة خدمته بالنفس ومن ذلك «إنزال رحله، ورعي دوابه، والمبادرة إليه قبل النزول، والترحيب به، وبسط الوجه».[2] وأشار الشافعي إلى أن خدمة الضيف إحدى الأشياء التي لا يتولاها إلا كريم، ولا يأنف عنها إلا لئيم.[3] والعرب تجعل من الحديث والانبساط والتأنيس، وتلقي الضيف بالبشر من حقوق الضيف.[4] ومن كرامة الضيف أن تبدأه بالسلام، ثم بالطعام، ثم بالكلام، وقد أرشد الله تعالى إلى ذلك بصنيع أول من سن القِرى ويكرم الضيوف وهو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾.[5] فإنه بعدما سلم عليهم ورحب بهم راغ بأن أخفى عنهم ذهابه إلى بيته، لئلا يخجلهم فجاءهم بعجل سمين.

ويستطرد المختار في بيان سنن الإكرام بأن يجئ الشخص إلى الضيف بالطعام، ويحضهم على الأكل، ويناولهم الطيب كالمسك والغالية، وأن يتخير لهم من الأطعمة ما يعلم أنه يعجبهم كالثريد واللحم والفاكهة، وإذا كان زمن الشتاء: «فليأتهم بالنار والحطب،

---

[1] ــ باي بن عمر، المصدر السابق، و 37 ظ.
[2] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 321.
[3] ــ والأشياء الأخرى هي: خدمة الشيخ، وخدمة الوالد، وخدمة الفرس. ينظر: باي بن عمر، المصدر السابق، ج 1، و 39 ظ.
[4] ــ الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 13.
[5] ــ الآية 26 ــ 27سورة الذاريات.

وليتول وقودها غيرهم. ومن كرامة الضيف علف فرسه».[1] ومن كرم الضيف كذلك إطالة الحديث والكلام عند المؤاكلة.[2]

ويصنف المختار الكبير الأضياف إلى أنواع: منهم الكريم وهناك اللئيم، فإن كان كريما فضيافته ما تقدم ذكره، وإن كان لئيما:« فأشبعه من أرذل الطعام كالفول والجلبان والعدس».[3] وأما إن كان أعلى من اللؤم قليلا فيوصي أن تقدم له الذرة، ويدعو إلى عدم تبجيله لأن التبجيل ليس من طبعه، وربما دعاه إلى المقام فيحرج مضيفه.

والضيف خمسة أقسام: ضيف الله، وضيف رسوله، وضيف الدنيا، وضيف نفسه، وضيف الشيطان. فضيف الله الفقير المسلم، وضيف رسوله العالم، وضيف الدنيا ذو المال الذي لا يرجى نائله، وضيف نفسه السلطان، وضيف الشيطان الظالم. والضيافة ثلاثة أيام.[4] والضيف أول ليلة يكون ذهبا فإذا أصبح مقيمًا صار نحاسًا،[5] فإذا أقام بعده صار حديدًا، وبعدها يكون جندلا[6] لا يباع ولا يقتنى ولا يعبأ به.

3ـ القصة على لسان الجماد:

يحاول المختار أن يستعمل الحوار على لسان الجماد، هذا الحوار الذي يؤدي دور البطولة فيه أحد المحبين (المتصوفة)، وهذه القصة القصيرة معدة لإشهار مثل، أو تفسيره، وكذلك لتنبيه الغافلين إلى الحكمة والهدف من وجودهم. يقول المختار: «انتبه بعض المحبين من نوم الغفلة، ولمع له صباح الوصلة، فرأى قرطاسًا قد اسودَّ وجهه، فقال: عهدي بك أبيض اللون كافوري[7] الأديم، فلما سوَّدت وجهك؟ قال: ما سوَّدته باختياري، ولكن سودني الحِبر، فقال للحِبر: لم سوَّدتَ وجه القرطاس حتى عاد نَهارُوه ليلا؟ فقال:

---

[1] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 322.
[2] ـ الجاحظ، المصدر السابق، ص: 13.
[3] ـ المختار الكبير،المصدر السابق، ص: 322.
[4] ـ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 322.
[5] ـ الولاتي، حوليات ولاته، و 7 ظ.
[6] ـ الجندل: الحجر. ينظر: ولد بادي، المصدر السابق، و97 ظ.
[7] ـ كافوري الأديم، نسبة إلى الكافور المادة البيضاء المعروفة التي تستخرج من شجر الكافور، والكافور طلع النخل، والأديم: الجلد، والمراد أنه أبيض. ينظر: ولد بادي، المصدر السابق، و 26 ظ.

كنت ساكنًا في المحبرة التي هي وطني فجاء القلم بالقهر فاختطفني، فقال للقلم: لم أخرجتَ الحبر من وطنه، وأزعجته عن سكنه؟ فقال: اسمع قضيتي فإني مظلوم، ولعله قدر وأنت تلوم، كنت قصبة نابتة على شاطئ النهر بين الغصن والزهر في نعيم دائم وصلاح قائم، أعانق الرند[1] وأقبّل الورد، فجاءت اليد بسكّين صنعت للقطع والفصل، فأخرجتني من محل الوصل، وأزالت قشرتي التي كانت لي بُردًا وقدَّتني قدًّا، وفصلتني على قدر الشبر، وألزمتني خِدمة المِحبَرة والحبر، فلا أزال في كد وانزعاج، وحثٍّ واستخراج، ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك[2] فاسأل اليد: فقالت اليد: لا أملك لنفسي ضررًا ولا نفعًا، ولا لغيري جلبًا ولا دفعًا، وهل رأيت جسمًا يتحرك بنفسه، أو يتصرف دون أن يصرف؟ وإنما ركبتني فوارس وهي القدرة والقوة والاستطاعة، فقالت الاستطاعة: ليس بيدي تسخير، ولا أقدر على تقديم وتأخير، إنما أنا منتظرة لما يرد علي من حضرة القلب، والإرادة على لسان العقل بواسطة العلم، فأنا لا أعدم ولا أوجد، ولا أقيم ولا أقعد، إنما أنا رق المغدور، ولا أحدث أمرًا من الأمور، فاسأل الإرادة الآدمية ماذا صنعت؟ فقالت: على الخبير وقعت، أنا منقطع الحوالات، إلا أن عندي حوالة أخرى، ولا يمكنني إفشاؤها قال: ولم؟ قالت: لا تفهمها، قال: ولم؟ قالت: لأنك في عالم الملك والشهادة، وأنا مبدأ عالم الملكوت والسعادة، إنما أنا البحر، إن أمكنك أن تطيق تلاطم أمواجي، وإلا فعليك بالساحل، لأن ذلك العالم لا يسمح بهذا الصماخ، ولا يبصر بهذه العين، وإنما تبصر ببصرك الصور وتعي بقلبك العبر، أما سمعت قوله تعالى: ﴿لَو كُنَّا نَسمَعُ أو نَعقِلُ مَا كُنَّا فِي أصحَابِ السَّعِيرِ﴾.[3] وكانوا يسمعون الأصوات، لكنهم أحياء كالأموات، فسأل القلب، فقال القلب: إنما أنا كاللوح لم أنبسط بنفسي، ولكن بُسِطتُ، فاسأل العقل، فقال العقل: إنما أنا سراج لم أشتعل بنفسي، ولكني أُشعِلتُ، فاسأل العلم، فقال العلم: إنما أنا نقش ولم أنقش

---

[1] ــ الرند: شجرة صغيرة طيبة الرائحة صالحة للزينة وتعتبر رمزا للنصر. ينظر: هارون، كتاب الأخبار، ص: 36.
[2] ــ كناية عن الألم الشديد، لأن الملح يثير الجروح.
[3] ــ الآية 10سورة الملك.

نفسي، ولكني نُقِشت، فاسأل القلم، فقال: قد سئلت في أول الأمر، قال: وأي طريق سلكته في النظر؟ أطريق البصيرة، أم طريق البصر؟ قال: طريق البصر، قال: هيهات، تركت الطريق، وخالفت الركب والرفيق، وسلكت طرقًا لا توصل إلى مقصود، ولا تحمل على قرب المعبود: من البسيط:

فانظر بقلبك إن العين كاذبة واسمع بقلبك إنَّ السمعَ خوَّانُ[1]

فاسلك طريق العبرة: وأعدَّ زاد الفكرة تصل إلى الحضرة، فإن لم تقدر على هذه الطريق، فبضاعتك مُزجَاة،[2] وعملك قليل، ومركبك ضعيف، والهلاك في الطريق الذي تتوجَّه فيه كثير، فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت عليه، فما هذا بفعل من يصل إليه، فأدرج فإن كل ميَّسر لما خلق له، فإن الأذن التي في الرأس، عند البهيمة والكافر، فافتح أذن قلبك، وبصِّر بصيرتك لتدرك القلم الذي لا كالأقلام، الذي ينقش على الدوام، أنواع العلوم والإرادات وأسباب الشقاء والسعادات، فلم يخطئ وكاتب لا يسأم، وحروف تعجم بآيات لا تتوهَّم، فقلمه لا كالأقلام، ويده لا كالأيدي، ففتح عين بصيرته، فرأى القلم الإلهي، فسأله: فقال: جوابي جواب القلم الأول، فقال: وكيف وأنت لا تشبهه؟ فقال: وأي فرق بيني وبينه؟ في معنى التسخير هو الظاهر للعيان، وأنا لا أدرك إلا بالأذهان، مَثِّل بعين بصيرتك المَلِكَ، والسموات مطويَّات بيمينه، وكذلك الأقلام في قبضته، فسأل، فقال: سل القادر، فقال: ﴿لا يُسألُ عَمَّا يَفعَلُ وَهُم يُسألُونَ[3]﴾. وقال[4] من البسيط:

لابد من جريان الحكم يا لَكَع[5] والبحث عن سِرِّه في الصدر لا يسعُ
حُكم المهيمن جار في بريَّته وكلهم لنفاذ الحكم قد خَضَعوا
فذا يقرِّبه من غير ما عمل وذا يُبَعِّدُه منهُ فينقطِعُ

---

[1] ــ المختار الكبير. الديوان، نسخة مخطوطة لدى بادي بن باي بن باب المدينة المنورة، بدون رقم، و 24 ظ.
[2] ــ مُزجاة يدفعها كل من يراها لرداءتها أي مغشوشة. ينظر: باي بن عمر، شرح فتح الباري، ج 1، و 38 ظ.
[3] ــ الآية 23 سورة الأنبياء.
[4] ــ المختار الكبير. الديوان، و 25 و.
[5] ــ يا لكع، أي يا لئيم أو يا أحمق. ينظر: ولد بادي، المصدر السابق، و 74 ظ.

وليس يُسأل عني شيء يُقدِّرُهُ لأنه مَلِك والملك مُتَّسعُ

فما أكمل رتبة القلب، وبوّأ له عالم القلب، وفكّه من ربقة السلب، وردّه إلى حضرة القرب، اشترى له زوجته فحرَّرها من ربقة الطبع، فقال: إنَّ اللهَ اشتَرَى مِنَ المُؤمِنِينَ أنفُسَهُم وَأموَالَهُم بِأنَّ لَهُمُ الجَنَّة.[1] فيا له مِن بيع ما أشرَفه! ومن خطاب ما أظرفه! وإذا كان المشتري جليلاً والدَّلال نبيلاً، والثمن جزيلاً، كانت السِّلعة نفيسة، وهذه صفة نفس المؤمن، الله مشتريها، ومحمدٌ دلّالها، والجنةُ ثمنُها، والقلب الشريف مَسكنُها، وإنما اشترى النفس، ولم يشتر القلب، لأن القلب سليم، والنفس معيبة، أو لأن النفس معيبة، والقلوب حبيبة، فاشترى المعيب لمصلحته، لأنه قادر على إصلاح العيوب وذهاب أمراض النفوس. وقيل: إنما اشترى نفس المؤمن ليُؤَيِّسَ منها إبليس، فإن ادَّعى فيها دعوة صارت دعواه باطلة، لأن المشتري الأول أحق بها منه ومن سواه.

واعلم أن القلب مع اتساعه، ليست له إلا وجهة واحدة، كما قال الصادق المصدوق. فقلب العارف لا وجهة له إلا ربه، فوجهته أبدًا إلى فوق، وقلب المؤمن الكامل الإيمان، وجهته أبدًا إلى اليمين، وقلب المنافق لا وجهة له، تقلّبه الرياح أبدًا كالريشة، ووجهة قلب الفاسق إلى الشمال في غالب أحواله، ووجهة قلب الكافر إلى تحت أبدًا».[2]

والمغزى من هذا العمل الأدبي أنه يتجاوز كونه حكاية شفهية، إلى تصوير المبادئ الأخلاقية بكثير من الدقة التي تتعدى الاهتمام بالجانب الشكلي، الذي قد يهتم به البعض. وقد أستعملت في السابق القصص على لسان الحيوان، لكن المختار يفضل الأشياء الأكثر تأثيرا (القلم، القلب، العقل، العلم) وهي أمور حيوية لها حضور في النصوص الشرعية بكثرة، ومن السهل تطويع المغزى الأخلاقي على لسانها. والحبكة التي تدور حولها هذه القصة هي الطريق التي يجب على الإنسان أن يسلكها في هذه الحياة، وهي طريق البصيرة لا طريق البصر. لأن هذا الطريق الأخير هو طريق الهلاك والضياع! ومن سلك

---

[1] ــ الآية 111 سورة التوبة.

[2] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص ص: 39 ــ 42.

فيه فقد خالف ركب المؤمنين، فالرأس عند الحيوان والبهائم. والمؤمن الذي يبصر ببصيرته يدرك أن هناك قلم أعلى ليس كباقي الأقلام، ويد أعلى ليست كباقي الأيدي.

إذا رجعنا إلى عناصر هذه القصة نجد البطل هو أحد المتصوفة، الذي يحاول أن يفهم ما يدور. ويبدأ بالقرطاس وهو أسود الوجه! والحبر هو المسؤول عن سواد وجهه، وهناك من قهر الحبر وخطفه من مسكنه رغما عنه والمعني هو القلم. لكن هذا الأخير يشتكي من اليد التي جاءت بالقلم من محله بعدما قطعته من القصبة بسكين، وأزالت عنه ردائه. واليد تتهرب من المسؤولية وتنحي بها إلى القدرة، والقوة، والاستطاعة، وهي أشياء معنوية كما هو واضح. وهذه الأشياء لا ترضى بتحمل ذلك بل تلوم العقل، والقلب، ثم الإرادة الآدمية.

وستضطر الإرادة الآدمية إلى مخاطبة البطل وهو الصوفي المحب (وقد انتقل إلى عالم الملك والشهادة)، بأنها غارقة في بحر متلاطم! وهي إشارة فريدة ونبيهة إلى وضع الإنسان الذي لا يعرف الطريق وهو تائه في صحراء لا ماء فيها ولا دليل. وستضطر الأعضاء الأخرى (القلب، والعقل) إلى الاعتذار عن معرفة الجواب، لأنها لا تملك تسيير نفسها، وإنما هناك مسيِّر يسيطر عليها جميعا. وهنا لا يجد الصوفي المحب من سبيل غير سؤال القلم، واستفساره عن الطريق الذي سلكها. فيكون جوابه أنها طريق البصر. فيدرك أخيرا أن هذه الوسائل قد أخطأت الطريق، وخالفت الركب الذي أوصى صلى الله عليه وسلم المؤمنين بإتباعه، وهو طريق البصيرة.

وهنا تمكن الصوفي المحب من معرفة حقائق الأمور، والانتباه إلى جوهر الأشياء، فقلم الله ليس كباقي الأقلام، ويده ليست كباقي الأيدي، وسيصاب بذهول كبير عند يفتح بصيرته فيرى القلم الإلهي. وهذا الأخير لا يدرك إلا بالأذهان، ولأن المحب جُبل على السؤال، أراد أن يسأله فطلب منه أن يسأل القادر! وفي الأخير جلس المحب يتفكر في أعضاء الإنسان التي تحدث معها سابقا، وفاضل بينها ورجح مرتبة القلب، لأنها منزلة

مقربة من الله. ويصل إلى نتيجة مفادها أن قلب العارف دوما متوجه إلى ربه، وبذلك فهو متعلق بالأعلى أبدا. وهذه الخاتمة هي خاتمة المؤمنين الصادقين، الذين يكافئهم الله برؤيته يوم القيامة.

4ـ الشعر وأغراضه:

يراد بالشعر ــ الذي هو أهم فروع الأدب ــ كل كلام موزون مقفى مشتمل على الخيال البديع والمعنى البارع والتعبير الجميل. وقد ازدهر الشعر في هذا العصر أكثر مما كان عليه في العهد السابق، واتسعت موضوعاته وتعددت أغراضه من وصف وفخر ورثاء ومدح وعتاب وهجاء والغزل. وقد كان المختار الكبير شاعرا مجيد، وشعره كثير جداً في سائر ضروب الشعر يجيء منه مجلداً.[1]

واحتفظ المختار بميراثه من الألفاظ والأوزان العربية، وقصائده تشتمل على أغراض الشعر العربي من غزل، وهجاء، ومدح، ورثاء، وفخر.[2] وهذا يدل دلالة قاطعة على أن سليقته العربية لا تزال سوية، وهي سليقة تشهد بأن قبيلته قبيلة شعر وقصيد كما كان آباؤهم الأولون.

حكم الشعر وإنشاده:

لقد وقف الإسلام من سائر المثل العليا عند العرب موقفه الواضح، والصارم، وكان الشعر العربي واحدا منها. ولكن في الأساس كان موقفه من مضمون الشعر وهو يفصح عن التحديد الجديد لمفهوم مهمة الأدب الجميل في الإسلام، وهو تحديد على ضوئه يضمن القرآن والسنة كفالة للشعر، الذي يخدم قضية الإسلام ويدافع عنه و: «يُرد به على المشركين إذا هجوا الإسلام وأهله وغضوا منهما».[3]

---

[1] ــ البرتلي، فتح الشكور، ص: 153.
[2] ــ المختار الكبير، الديوان، و 12 و ــ و 29 و.
[3] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 307.

ولما هجا حسان[1] أبا سفيان بن الحارث بشعر وسمعه، قال: هذا كلام لم يغب عنه ابن أبي قحافة، وهو ممن حكم له شعره بالجنة.[2] واتفق العلماء على أن أشعر المدن «أهل يثرب، ثم عبد قيس، ثم ثقيف. وأن أشعر أهل المدر على الإطلاق حسان بن ثابت».[3] وقال كعب يوما لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لي من أجر في هذا الشعر الذي أنافح به عنك وعن الإسلام؟ فأنزل الله تعالى:﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ أَلَم تَرَ أَنَّهُم فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُم يَقُولُونَ مَا لا يَفعَلُونَ إلا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعدِ مَا ظُلِمُوا﴾.[4] فالحكم في الإسلام للشعر أو عليه إنما يهدف للمضمون، وليس ينكر الشكل أبدا. وحجة هذا، قبول الرسول صلى الله عليه وسلم الشعر ممن يقوله إسلاميا، حتى وان كان قبل ذلك فاحش اللسان، فإنه قد عفا عن أنس بن أبي أسيد الشاعر، يوم وفد عليه عند فتح مكة مسلما منشدا:

وما حملت ناقة رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد[5]

ويمكن القول بأن الإسلام زكى الأثر البالغ الذي كان للشعر في المجتمع العربي، وأن القرآن والسنة قد وجها الشعر إلى ما فيه مصلحة المجتمع الإسلامي، وبذلك أخذ الشعر طابعه في الإسلام. والإسلام بذلك يظهر أن أرسى منهج السلوك الملتزم في صياغة هذا النوع من الأدب الرفيع.

ويوضّح المختار[6] أن الشعراء القدماء تغزلوا ببانت سعاد في سبعين قصيدة، غير أن أشهرها القصيدة التي مدح زهير بن أبي سلمى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم،

---

[1] ــ حسان: هو حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو من بني النجار وهم بطن من الخزرج ولد حوالي عام 563 م، أي قبل ثماني أعوام من مولد الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان من أكبر الشعراء الذين دافعوا عن العقيدة الإسلام. ينظر: بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ج 1، ص:315.

[2] ــ جعفر الكتاني، موقف القرآن والرسول من الشعر، مجلة دعوة الحق، تصدرها وزارة والأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط ، العدد الثاني سنة 1962، ص: 151.

[3] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 308.

[4] ــ الآية 224 ــ 227 سورة الشعراء.

[5] ــ جعفر الكتاني، موقف القرآن والرسول من الشعر، ص: 152.

[6] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 50.

وهي ذات قيمة كبرى في التاريخ الأدبي،[1] وتعد بأسلوبها من نتاج العصر الذي نظمت فيه وهو صدر الإسلام، وهي أقدم نموذج شعري احتفالي.

الغزل:

ولعل من مظاهره مقطوعته التي تغنى فيها المختار برمز المرأة، وتبين الحب والإخلاص الذي يطوى في صدره. وقد رفع المختار بعاطفته النبيلة المرأة ولم يصرح باسمها، فارتفع حبه لها إلى درجة نيرة من القداسة، فهو يجمع لها أصناف الحب الذي يعرف أنواعه. وأهم الموضوعات التي جدّت فيه، ولم تكن في العصر السابق هي: القصص الشعري، وكان يسلك فيه مسلك ابن أبي ربيعة.- شعر التوسل، ومن قصائده في الموضوع قصيدته التي مطلعها:

قال المختار الكنتي يتغزل من البسيط:

يا صاح عج بالجمال على الربوع البوالي
ديار سلمى قديما من الليالي الخوالي
غيداء جيداء رود كالشمس عند الزوال
والنجم عند التسامي والبدر عند الكمال[2]

وهو يطلب من صاحبه ومرافقه أن ييمم شطر محبوبته وجمالها، كما طلب امرئ القيس ــ سابقا ــ من صاحبه أن يقف معه، فالمختار كذلك يريد من يشاطره الوقوف على الأطلال، حيث ربوع معشوقته التي دعاها بسلمى، وأشار إلى الليالي التي قضاها بقربها، وقال بأن جمالها وحسنها لا يوصف، فهو ناصعا كالشمس عند الزوال، بل هو سام وعال مثل النجم، والبدر في ليلة اكتماله. وهكذا تلاحظ أن غزله عفيف، جاء أثرا من

---

[1] ــ رجيس بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1986، ج 1، ص: 274.

[2] – المختار الكبير الكنتي، قصائد في مدح النبي، الخزانة الحسنية بالرباط، رقمها: 1141، ضمن مجموع، ص: 607.

آثار المزاوجة بين العواطف الإنسانية، وبين العواطف الدينية، وهو تعبيرا عن النزوع العاطفي، والاستجابة الاجتماعية.

وأكثر من وضَّح غرض المختار من قصيدته الماضية هو ابنه محمد، الذي عارضها بقصيدة يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي قصيدة مكسورة[1] الوزن غير أنها جميلة في مفرداتها المحلية المتداولة بأزواد حيث قال:

سيدي حزت منفردا كل إرث أحمدي أزري بعقد اللئالي
بعدما أسلمته كل يمين من أمين متوج بالمعالي
أجمل الوارثون تفصيل فصل شكره صنته عن الإجمال
الثناء الذي بحسن لقاها قيدوا يد فارطات الكمال
بعدما حزتم المجادة عفوا وقطعتم منها كروم الدوالي
السلامة رأس مالي وربحي في فكاك الأغلال والأنكال[2]

الافتخار بالنسب والأجداد:

لا يكاد الباحث يعثر إلا على نموذج وحيد للمختار، يُجسد فيه شاعر القبيلة أتم تجسيد، وهو بذلك يعد انبثاقا عن المجموع الذي ولد فيه وعاش ونشط. وكان الصراع على أشده بين كنته وأزناكة، وظهر جليا عندما قام حمادة[3] وهو زعيم من قبيلة كل انتصر جنوب غرب تنبكتو، والذي قام بالتشهير بقبيلة كنته وبالمختار الكبير، وناصبه العداء، وصار يذيع في الناس أن هذا الكنتي ليس له علم ولا معرفة، وغرضه من ذلك صد الناس عنه.

وبعد فترة سافر المختار يقصده حتى قابله وتناظرا، فعجز حمادة عن مناظرته أمام من كان يذيع فيهم ويشيع فطلب من المختار الكبير السماح فسامحه وأعطاه هدايا من

---

[1] ــ الأبيات المكسورة لم أرى فائدة في إرادها في النص.
[2] ــ محمد الخليفة، قصيدة في التوسل، رقمها: 2605. خزانة مما حيدرة مالي، و 2 ظ.
[3] – بادي بن باي بن باب، النفي والبيان، ص: 113.

جملتها جملين، ولما كرّ حمادة راجعا صار ينادي في الناس ويشيع بأن المختار الكنتي عالم ولكنه من أصل حدادي[1] أو من أهل المزامير. وهاتان الطبقتان في غرب إفريقيا ينفر الناس من الانتساب إليهما من أي طريقة كانت. فأرسل إليه الشيخ المختار بقصيدته الرائية الطويلة، لم يتكلم بعدها حمادة وهي له خاصة، ولمن صدقه في كلامه عامة، ومطلعها من البسيط[2]:

يا أيها المتحلي غير شيمته أقصر فليس وجود العين كالأثر
هذي ميادين كعّ عن أرومتها حمارك الأعور المهذول ذا الدبر
وإن تزيه الحصرم الملقى بغابته فليس يشبه طعم التمر والسكر
وعقبة المستجاب الغرب فاتحه كفرا فكفرا بإذن سيد البشر
ومات بعد شهيد بالصلاة وقد ساس البرية من بدو ومن حضر
نزيل فصك له قدر ومنقبة شديد ركن عظيم القدر مفتخر
وحظ كل لئيم شتم سيده فلا تظنّن أن المسك كالبعر[3]

يتضح للباحث من خلال قراءة النص، أن هذه القصيدة يمكن وضعها في فضاء تاريخي، وسياسي، وروحي. ويتبين على مستوى المعجم التركيبي، أن الشاعر مزج بين تلك العناصر، وحاول أن يقارب تلك المستويات الثقافية، ليشكل في النهاية بناء فنيا متناسقا.

ولو حاول الباحث أن يتتبع التشاكل الدلالي الرابط بين الاسمين العلمين (عقبة) و(الغرب)، على مستوى البعدين التاريخي، والسياسي، لراعه فعلا ما يشترك فيه اللفظان من تقارب دلالي يتراوح بين التداخل والتوازي. فعقبة كبير قادة الفتح الإسلامي وكذلك

---

[1] – الحدادون: قوم يمتهنون الصيد وهم على قسمين: منهم من يصطاد ذوات الأربع كالغزال وهم قوم لا عهد لهم. ومنهم من يتحيّل على الصيد، بأن يأتي لمحلّ الوحوش. ينظر: محمد بن عمر التونسي، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، حققه وكتب حواشيه خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، راجعه محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة القاهرة، ط 1965، ص ص: 287– 288.

[2] ــ ينظر: الملحق رقم 7.

[3] ــ بادي بن باي بن باب، الكشف والبيان، ص: 19.

الجد (علامة القوة، والعدالة، والفخر)، والقوة الإسلامية بالضرورة عادلة لأنها حق، والحق والعدل بياض وصفاء. ومن كانت هذه صفاته فحق له أن يفتخر.

أما الغرب وهو الجغرافية والرمز، لأن هذا الموقع الذي افتتحه عقبة (بإذن سيد البشر) وساهم في بنائه وتوطينه، سوف يشهد نهايته المأسوية، على يد أحد أعداء الفتح الذي يمثل (الظلم والظلام). والمختار عندما ذكر سيد البشر، فهو يقصد نشر الإسلام، وليس الأمر بالفتح، والقصد المقاربة بين عقبة الفاتح، والرسول صلى الله عليه وسلم الذي أمر بتبليغ الدعوة والرسالة. والمختار يتعامل مع واقعه بطريقة فنية خاصة، ومن خلال وسائط دالة لا تخلو من تعقيد وتداخل، ذلك أن الواقع في النص الشعري ليس واقعا مباشرا، بل هو واقع أعيد إنتاجه بطريقة إبداعية جديدة، لخدمة أهداف تهم الظروف التي عايشها الشاعر.

ويقارب في النهاية بين الفاتح (عقبة)، وبين اللئيم الذي يرمز إلى(الزيف والقبح)، وقد شكلت الألفاظ التي استجمعها لهذا الغرض حيزا مهما، ولا يستهان به: عقبة (مات بالصلاة، الفخر، المنقبة، عظيم القدر، المسك)، اللئيم (الشتم، البعر). وكما يُلاحظ كلها مكونات لغوية وعلامات تستضمر أكثر من دلالة يمكن تفكيك مستغلقاتها، فالشاعر في هذا النص يفتت الحواجز بين المكونات أو العلامات، فيجعل التاريخي يختلط بالروحي والواقعي، وبذلك يؤسس لبناء شعري أراده أن يعبر عن المقصد والهدف الذي رسمه في مخيلته، وهو مكانة قبيلته ومن ثم مكانته الشخصية.

ويتضح أن المختار في هذه القصيدة يتقمص دور شاعر القبيلة، فكل جهد بذله للانفلات من هذه القبضة كانت عبثا، فثمة ألوف من الروابط تشده إلى ذلك التكوين، حتى في المواضع التي يبدو فيها منفصلا عنه. وهو بذلك جسد تناقضات المجتمع البدوي الذي تسود فيه عبادة وتقديس الانتماء القبلي، ونزعة الاستقلال الفردي اللتين تتعارضان وعوامل اندماج الفرد في المجموع.

الشعر الديني:

يمثل الشعر الديني عند المختار العواطف والتأملات الدينية التي كان يبدو أنها ستقتصر على النثر، وسيصل هذا النوع من الشعر عنده حتى يصبح خاصا بالتصوف. وقال المختار في وصف الجنة والترغيب فيها، وفي التحذير من الدنيا من البسيط:[1]

أيقظ جفونك إن القلب وسنان وصمم العزم إن العزم كسلان
وحنّ شوقا إلى أخراك مبتدرا إن اللبيب إلى أخراه حنان
واعمل لدار اللذات قاطبة راح وروح وراحة وريحان

وهكذا اعتبر المختار السعادة في الآخرة، لا في الدنيا، حين تصعد الروح الصالحة إلى الجنة، وتسكن في نعيمها الأزلي. لذلك دعا المختار في شعره إلى طاعة الله، والاستسلام إليه والخوف منه، ليحفظ للمؤمن مكانه في الجنة. فلم يعتمد الإنسان على نفسه لتحسين حالته الدنيوية، وتحصيل سعادته فيها، بل راح يعمل لآخرته، معتمدا على الله لينال حظا وافرا من السعادة.

ومن قصائده في الوعظ قوله من البسيط: 2

فامهد لنفسك قبل الموت صالحة لا تدخر عسجدا عنها ولا ذهبا
وارحل بزاد من التقوى تقدمه نعم الخليل إذا متروكك انتهبا
من لم يكن بنذير الشيب منزجرا فالنار موعده تبا لمن هربا
ألف كيوم ومحشود كمنفرد وذو الغنى كالفقير والحياة هبا
من غره زخرف الدنيا وبهجتها فليستمع ما رووه من حديث سبا
أين الذين بنوا قصرا مشيدا ومن بني الخورنق صاروا عبرة عجبا
كأنهم ما بنوا بيضا مشرفة وما تعاطوا كؤوسا ملئت طربا
ولم يسيروا على خيل مسومة جردا أبابيل في معصوصف لجبا

[1] ــ المختار الكبير، الديوان، و 13 ظ.
[2] ــ المختار الكبير، الديوان، و9 ظ.

بادوا جميعا فلا عين ولا أثر وأصبحوا رمما قد تبيت تبا
في قعر مقفرة سوداء مظلمة تذري عليهم رياح حصبت حصبا
تمحى محاسنهم والدود يأكلهم والذل يغشى وجوها طالما اجتنبا

يوصي المختار الإنسان بأن يعمل الصالحات، وأن يلتزم بالتقوى فهي نِعم الخليل بعد الموت. ويتعجب من الذين لم يأخذوا العبر من الشيب، لأنه دليل الرحيل، وهؤلاء ــ دون شك ــ مأواهم جهنم. ويوم القيامة، يوم كألف يوم، والغني، والفقير، سيان عند الله. وأما الذين غرتهم الحياة الدنيا، فعليهم أن يتفحصوا جيدا في قصة ملكة سبأ.

ويصرح بأن كل الذين تمتعوا في الفانية، رحلوا عنها، ولم يأخذوا منها شيء، غير حصاد أعمالهم. وهم الآن في حفرة مظلمة، وقد أكلهم الدود، والذل يخيم على وجوه طالما تمتعت بالرفعة والشأن، وقد أصبحت أجسامهم منهكة القوة. وأما الذين سمعوا المواعظ واستفادوا منها، فكان مآلهم الفلاح. والآخرين سقطوا في النار ورسبوا، بعدما غرتهم أنفسهم بالتسويف.

ويدعو المختار إلى تزكية النفس، وقتل أفاعي الشهوة، وعقارب الغفلة، وتهذيب النفس لأن قلب الإنسان أشد تقلبا من الريشة الملقاة بأرض تقلّبها الرياح، وقد وعى عباد الرحمان هذا الأمر، لذلك تراهم يقومون بالليل والناس نيام، ويخشعون ودموعهم تجري على خدودهم، وهم يتلون القرآن، فهؤلاء هم أصحاب السر، الذين أدكوا معنى الوجود، وحقيقة العبودية.

التوكل على الله:

والمختار يرغّب في العمل والاتكال على الله، وهو لا يوافق الذين يتكاسلون وإن سئلوا قالوا: نحن نتكل على الله، فهم ليسوا متكلين بل متواكلين، قال المختار فيهم من الطويل:

نظرت بعين الفكر والقلب خاشع فلم أر غير الله للخطب دافع

عليه اعتمادي في جميع مآربي وفوضت أمري والمهيمن سامع
إليه التجائي خانعا ومنازعا ومنه الرجى والنائبات شوارع[1]

وله العديد من القصائد التي يدعو فيها إلى العمل الصالح، والاستعداد للآخرة التي يعتبرها هي الدار الحقيقية التي يجب العمل من أجلها قال في أحد قصائده من البسيط:[2]

أيقظ جفونك إن القلبَ وَسنانُ وصمِّم العزم إن العزم كسلانُ
وجِدَّ شوقا إلى أخراك مبتدرا إن اللبيب إلى أخراه حنَّان
واعمل لدار بها اللذات قاطبة رَوح وراح وراحات وريحان
ظل وماء وأزهار مفتقة عن الكمائم أشكال وألوان
قيعان مسكٍ بها الأنهار جارية خمر وماء وماذِي وألبان

وهو يطالب النائمين عن العمل للآخرة، أن يفتحوا عيونهم، ويعزموا عزما صادقا على العمل لها، والجد فيه، فالعاقل من بادر إلى ذلك اشتياقا للآخرة، وعمل لدار الخلد المشتملة على جميع اللذات، من راحة، وخمر، ومسرات، وريحان عطر، وظل، وماء، وأزهار عبقة، أشكال وألوان، وقيعان مسك، تجري من تحتها الأنهار، وخمر غير مسكر، وعسل مصفى، وألبان. ويسترسل في وصف من بالجنة من الحور العين منشدا من البسيط:[3]

بيض نواعم أبكار منعّمة تحار فيهن ألباب وأذهان
يَرفلن من سندس الفردوس في حلل من فوقها حلل من تحتها بانُ
نشأنَ وسط مقاصير مزخرفة لم يطّمثها بها إنس ولا جان
ريق لذيذ وأنفاس معطّرة ومنطق ساحر الألفاظ فتّان
مهورهنَّ صلاح دائم وتُقى زهدٌ وصبرٌ وإخلاص وإيمان

---

[1] ــ المختار الكبير، التذييل العادم المثيل، و107 ظ.
[2] ــ المختار الكبير، الديوان، و 10 و.
[3] ــ المختار الكبير، الديوان، و 12 ظ.

والمختار يستمد في وصفه للحور العين من سورة الرحمن في القرآن الكريم، فيقول إنهن بيض، ناعمات، أبكار، مترفات، تحار في جمالهن العقول والألباب، يتبخترن في حلل الفردوس السندسية، وقد نشأن في غرف مزخرفة، لم يلامسهن إنس، ولا جان، ريقهن لذيذ، ونفحهن شذى وعطر، ويتحدثن حديثا ساحرا فتانا، ومهورهن صلاح، وتقى، وزهد، وتقشف، وإخلاص لله، ودينه الحنيف وإيمان صادق.

والتعبير لديه في موضوعات التصوف بأسعار لاهبة، ذلك أن حدّة المشاعر المعبَّر عنها، قوية وحارة لدرجة أن المرء يظن أنه يقرأ قصيدة حب جسدي ورغبات جسدية، إذا لم تأتِ كلمة من هنا، ويأتِ بيت شعر من هناك، ليذكره بأنه يقرأ شعرا مستوحى روحيا. لقد أضحت هذه القصائد من المأثورات لدى رواد الزاوية الكنتية، وبعضها لا يزال يقرأ جماعيا في جلسات الدراسة بالمحاضر.

كما أن الرمز في الشعر عنده هو رسالة لا يمكن أن تفقد قيمتها، ولا يمكن فكّ رموزها بدقة. ولا يمكن للفرد أن يندهش، على الأقل عندما يتم الإدراك بأن العزلة الهائلة التي توفرها الصحراء، تُمتع صاحبها بذكاء شعري يقفز بذهن الشاعر إلى الأعلى.

الشعر السياسي:

لقد كانت الحرب سجال بين قبيلة هكار ــ وهي أقوى قبائل البربر ــ وبين أبناء عمومة المختار الكبير الذين يناصبونه العداء، ومات خلالها المئات من كلا الجانبين ودامت سنوات أنهاها تدخله. إلا أن هذا التدخل زاد من عداوة أقربائه، وإلى هذا يشير بقوله:[1]

تناصرت الأعداء من كل جانب ... عليَّ فحسبي من له الخلق والأمر
تعاطوا مقال السوء فيَّ وألّبوا ... قبائلهم تلك السفاهة والغدر
فما منهم إلا حسود مكابد ... كذوب تعاطوا ما يضيق به الصدر

[1] ــ المختار الكبير، الديوان، و 16 ظ.

أ أ صبر حتى يحكم الله بيننا وإن يعف عنهم كان موعدنا الحشر
وإن ينتقم ذاك السبيل وسنة مضت ولها حصر ولا دونها ستر
فدعوة مظلوم وإن كان كافرا تجاب فكيف المخبت الطاهر الحر
فما بيننا حرب تقادم عهدها وما بيننا إرث وما بيننا ثأر
وما نقموا مني سوى أنني إلى مصالحهم أسعى فشأنهم النكر
أحاول عند القوم حقن دماءهم فيأبوا ومكر السوء بالقوم مخفر

إن تمثل الشعر عند المختار، لم يخرج به عن النمط الذي سنه غيرها من الشعراء بأزواد، ووضعوا أسسه عبر فترة طويلة، وتعتمد هذه الأسس على ما يلي:

ـ أن يخدم الشعر العقيدة الإسلامية، أي أن يلتزم بالقضايا الكبرى التي تسكن وجدان الإنسان بأزواد، إذ الفرد بهذه المنطقة حرص بشدة على عقيدته التي تمنحه القوة والمنعة، من الذوبان في هوية الغير.

ـ أن يحافظ الشعر على متانته وسلامة عبارته، إذ به يحافظ الشاعر على هويتهم أمام زحف الأجناس واختلاطها في فضاء الصحراء الواسع، مما جعل المختار الكبير يدعو إلى ضرورة الاهتمام باللغة، بل جعل دراسة وإتقان فنونها والغوص في غوامضها غاية كل دارس، ويحرم على من لا يجيدها أن يخوض في علومها.

ـ أن يسلك الشاعر في قريظه مسلك القدماء. إذ ليس له أن يبدع خارج ما اتفق عليه ذوقهم، وأقره علماؤهم.

ولعل المختار الكبير في التزامه الحرفي بشكل القصيدة العربية القديمة، كان يهدف إلى إعادة تحريك الشعر العربي أولا، بنفض الغبار الذي علاه طيلة عصور الانحطاط.

حكم الهجاء بالشعر:

والهجاء هو المشاتمة بالأشعار على وجه المبالغة، قال المختار: «وهو مما لا

ينبغي شرعًا ولا عادة».[1] والهجاء على قسمين منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم فالمحمود منه ما كان في توهين الشرك، وذم أهله، وتحقير الفجور، وشتم أهل الشرك. والمذموم ما كان في شتم أعراض المسلمين، وهتك أستارهم وحرماتهم. والتفكه بلحومهم، وهذا حرام بلا خلاف، وقبيح، ويجرح أهله، والسبب في تحريمه أن ما يخلفه الشعر في النفوس كبير، خاصة ذكر المثالب فذلك يبقى في الأعقاب.[2] وهذا لا يعني بتاتا أن تعلمه لا ينفع، ولكنه ينبغي كما يقول المختار: «تعلمه تدريبًا وتفصحًا واستعدادًا لرد مثله إن وقع من أهل الكفر والفجور».[3] وإنما ينبغي تعلمه كما يرى المختار لما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة، وليس الهجاء ــ دائما ــ دليلا على إساءة للمهجو ولا على صدق الشاعر فيما رماه به. فقد يكون الهجاء بهتانًا وظلمًا وعبثًا.

5ــ الفصاحة والإيجاز في القرآن:

لقد جاء القرآن الكريم وحمل لواء التحدي أمام أمة عرفت بفصاحة اللسان، والإجادة في النثر والشعر، وكانت عباراته تدل على روعة البيان الذي يبدو في الفصاحة والإيجاز، قال تعالى: ﴿لا عَاصِمَ اليَومَ مِن أمرِ اللهِ إلاَّ مَن رَّحِمَ﴾.[4] وفي هذه الآية من غريب البيان ولطيف الفصاحة أمر عظيم، لأن من الناس من قال عاصم بمعنى معصوم حتى يتمشى له الاستثناء منه. والذي يظهر غير ذلك، وهو أن هذا من غريب الفصاحة والإيجاز لأنه نفى العاصم لمقابلة قول من أثبت الجبل عاصما في قوله: ﴿سَآوِي إلى جَبَلٍ يَعصِمُنِي مِنَ المَاءِ﴾.[5] فأثبت عاصما وهو الجبل، ومعصوما وهو الإله. قال المختار: «لا عاصم اليوم مطلقا لا جبل ولا غيره، إلا من رحم الله استثناء من العاصم والمعصوم».[6] والمنفيين من اللفظ الأول أما العاصم فمن المنطوق، وأما المعصوم فمن المفهوم، لأن

---

[1] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 340.
[2] ــ الجاحظ، البيان والتبيين، ج 3، ص: 615.
[3] ــ المختار الكبير، فتح الودود، ص: 341.
[4] ــ الآية 43 سورة هود.
[5] ــ الآية 43 سورة هود.
[6] ــ المختار الكبير، زوال الإلباس في طرد الوسواس الخناس، ص ص: 5 ــ 6.

عاصماً فاعل فعل متعد بنفسه، فكأنه قال لا عاصم إلاّ الله ولا معصوم إلاّ من رحم الله. والإيجاز الذي يشير إليه المختار هو أن يكون في صدر كلام المخاطِب دليل على حاجته من كلامه، فلا جدوى من كلام: «لا يدلّ على معناك ولا يشير إلى مغزاك».[1] فالكلام الذي ليس له هدف لا فائدة ولا مغزى منه.

تجب الإشارة إلى أن المختار اعتنى باللغة العربية، كعنصر أساس للدراسات الشرعية. ولذلك حرص في أسلوبه على التدقيق في اختيار الألفاظ وتجنب ما يكون منها وعرا وحشيا، أو ساقطا سوقيا. وأهم شيء يمكن ملاحظته هو حضور الشاهد من القرآن، وهو من الأمور الأساسية التي تكثر وتزداد كلما تتابعت الحوادث، وصار السبب حاسما في وسط يحتل فيه الاستدلال بالشريعة مكان الصدارة، فالمرء ينتصر على خصومه لأنه أقوى منهم في الاحتجاج.

[1] ــ الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص: 79.

الخاتمة

تعتبر أزواد هي المنطقة الشاسعة التي تمتد شمال منطقة السودان الغربي، وإلى الجنوب من تنزروفت، وهي بذلك مجالا للعديد من القبائل التي أسست إمارات خاصة في محيطها الجغرافي، وكانت العلاقات بينها ــ في الغالب ــ متوترة وساد النهب، والإغارة المحدودة. ولم تكن للقتال عندهم قواعد مراعاة، وإنما هو كر وفر، واغتيال في مناسبات. وكان السلاح منحصرا في السيوف، والرماح، والخناجر. ولم تكن لهذه الإمارات نظم محددة في اختيار الأمير ــ باستثناء التوارق ــ والغالب فيها أن تكون الإمارة وراثية. وهذا ما جعل حضور شيخ الزاوية يكاد يكون ضروريا في تحديد الواجبات والحقوق المتعلقة بالأمراء، وأبرز الشيوخ في تلك الفترة هو المختار الكبير، الذي أدى دورا فعالا، في تحريك مجريات الأحداث السياسية.

وسعى الأمراء إلى التعامل مع الفقهاء ومن بينهم المختار بكثير من الاحترام، بوصفهم المصدر المحلي للشرعية والمشروعية. رغم ما كان من توتر بين بني حسان، والزوايا، حيث أحيط الفقهاء بالإجلال، بل إن تحالف الفقهاء والأمراء، كان عنصرا تأسيسيا في ظهور تلك الإمارات وتميزها عن غيرها من المشيخات القبلية. حيث كان للفقهاء حرم آمن لا يمكن انتهاكه.

وفي المجال الاقتصادي كانت التجارة، والرعي، هما أكبر الحرف انتشارا بأزواد، على اعتبار موقعها، حيث تعتبر حلقة وصل بين الشمال، والجنوب، بالإضافة إلى كونها جسرا للقوافل التجارية. وكان التعامل يتم ــ في الغالب ــ بالمقايضة، مما يطرح مشاكل جمة حول آجال، وأماكن، تسديد الديون، نظرا لاختلاف قيم البضائع من موسم لموسم ومن مكان لآخر، وكان المعّول على الفقهاء، للسهر على سلامة كل تلك العمليات وحل كل تلك المشاكل. والتعامل في مرات أخرى كان يتم بالودع، وظهر أثر تبادل البضائع على الصعيدين الاجتماعي، والسياسي، من خلال تراكم ثروة الزوايا الاقتصادية، وخبرتهم التجارية. وأرض أزواد ــ في الغالب ــ منبسطة، مكسوة

بالشجيرات، والحشائش، وهذا ما أمّن مجالا خصبا للرعي، وممارسة هذه الحرفة اليومية، ولكن في مجال القبيلة دون مجال غيرها.

وتمخضت هذه الدراسة عن عرض لإسهام المختار العلمي بأزواد، من نهاية العقد الثالث من القرن الثامن عشر الميلادي، وإلى غاية بداية العقد الثاني من القرن التاسع عشر، هذا الإسهام الذي شمل العديد من العلوم المتنوعة، والمعارف المتعددة. وأعتقد أنه بفضل المادة التاريخية الجديدة التي توافرت للبحث، أمكن دراسة الموضوع وجمع شتاته للمرة الأولى فيما أعلم.

وهكذا تبين من خلال فصول هذا البحث، أن أزواد لم تكن طوال مراحل تاريخها خالية من العلم والعلماء، على الرغم من بعض الأوصاف التي وردت في كتابات المؤلفين الغربيين، والتي تدل على قلة العلم والعلماء، ومحدودية الأنشطة العلمية المتاحة لساكينها، مع ضعف مردودية ما وجد منها بالمقارنة مع المناطق الأخرى. بل إنها اجتذبت التلاميذ، والشيوخ، من المناطق الأكثر حظوة من الناحية العلمية. ولقد ظهر أن أزواد متفتحة على البلاد المجاورة لها شرقا، وغربا، وشمالا، وجنوبا، رغم ضعف الإمارات السياسية القريبة من مجالها الجغرافي. وحمل هذا التفتح مؤلفات العلماء وكتبهم، التي كانت تنتقى، وتستنسخ، هنا وهناك في المخيمات.

ويمثل المختار الكبير، بالفعل أحد أقطاب العلم المتميزين، ومظهرا أخّاذا من مظاهر التفاني في طلبه، حيث خاض من أجل ذلك ــ وهو تقليد لا غنى عنه ــ رحلة علمية طويلة وشاقة؛ عاد منها عالما في الشريعة الإسلامية. وأقام بعدها في مكانه ومجاله، يبث ما تعلمه ويحي دارسه. وكل القرائن توحي بأن رصيده المعرفي ــ قبل سفره ــ كان على مستوى متواضع جدا، بل كان بعيدا كل البعد عن العلم وأهله. وخلال رحلته العلمية الطويلة، والشاقة، والمليئة بالمخاطر، قصد العديد من العلماء كان أشهرهم علي بن النجيب، الذي مكث عنده مدة ليست باليسيرة، قبل أن يتابع الرحلة

للأخذ عن غيره، حيث تعددت مشاربه بكِل السوق، وتنبكتو، وشنقيط، وتشيت، والمغرب الأقصى.

وأهم ما يميز حياة المختار الكبير العلمية في جانب التأليف، هو استمرار طابع توابع المؤلفات الكبرى، على شاكلة المختصرات، والحواشي، والمتون، رغم جدية بعضها وأصالته، ومع ذلك فقد أبرزت تعمق صاحبها في الدراسات الشرعية بصفة خاصة، وتجاوزه لمرحلة الاستيعاب، ومناقشة ما قرره المتقدمون، إلى طور البحث الشخصي، والتعمق في البحث. وكوَّن بذلك مدرسة كنتية، مختارية، لها مبادئها الخاصة، أنتجت جيلا من العلماء، والعديد من التلاميذ، في الحضر، والبادية. واهتدى بعضهم إلى عقد حلقات علمية بعد تخرجه، على نحو ما كان يجري في تلمسان، وبجاية، والقيروان، وفاس، ومراكش، وتوات.

وأكد المختار في المجال العقدي الحضور الأشعري الطويل بأزواد، باعتبارها العقيدة الرسمية، جعل مضامينها تؤثر بكيفية أو بأخرى في مجموع مناحي الحياة العلمية. فقد تناولها في أغلب مؤلفاته، وتمثلها من خلال الأدعية، والحكم، والأمثال الثائرة، فعكست جميعها فكرة القضاء والقدر، والقدرة المطلقة للذات الإلهية، وإمكانية رؤية الله. وفي السياسة ترسخت في ذهنية المختار فكرة أشعرية واضحة وهي سلطان ظالم ولا رعية سائبة. أي يهون الصبر على الإمام الجائر أمام التسيب والفوضى.

وخاض المختار في مواجهة الأفكار الجديدة، ومحاولة التعرف عليها مثل الوهابية، والبحث عن الحلول الفقهية لمعضلات جديدة كشرب الدخان أو طابا، والتعرف على ما جد من تطور علمي وفهم المعطيات دون اللجوء إلى الأحكام بدون فهم، ويظهر ذلك جليا في إقراره بكروية الأرض، الذي لا يؤثر ــ في نظره ــ في الاعتقاد السليم للمسلم.

وفي المجال الفقهي لا تختلف الإسهامات التي جاء بها المختار ــ من حيث المتن الدراسي ــ عن السائد في الصحراء وبلاد الغرب الإسلامي عموما. فهنا وهناك مالكية راسخة لم تعد محل نقاش إلا في القليل النادر، وحلت مختصرات الفروع محل أمهاتها، حتى أصبح المعول النهائي على الأحكام الواردة في مختصر خليل بن إسحاق، وشروحه، وحواشيه، وتوابعها من متون. وهو متأثر بطابع الفترة الوسيطة مادة وطريقة، حيث اتبع الطرق التقليدية في التلقين وبخاصة طريقة القرويين.

وفي التفسير تجاوز المختار ما كان سائدا بأزواد وما يحيط بها من التبرك بالقرآن، إلى مرحلة الفهم الدقيق لمعانيه والعمل بأحكامه. غير أن أهم ما يلاحظ على مؤلفاته التفسيرية هو إكثاره من النقول عن المتقدمين، وبخاصة مدرسة المأثور، التي تبنى نهجها، وتأثر بأعلامها. وفي المقابل فهو لم يستغنى عن أراء مدرسة الرأي، التي أخذ بأقوال بعض روادها.

وقد تغلغلت وانتشرت مؤلفات المختار في كامل الصحراء سهولا، وخياما، كنتيجة طبيعية لإخلاص صاحبها، وللسياسة التعليمية التي سار عليها. وهكذا فإن الخريطة العلمية الكنتية، قد تطورت كثيرا في فترة المختار عما كانت عليه في السابق، حيث استعيض عن إبراز دور القبيلة السياسي، والاجتماعي، إلى إبراز دورها العلمي. فضلا عن بروز طريقة كنتية جديدة، وهي المختارية، كتتويج لبلوغ صاحبها مرتبة الولاية، ومقام العالم، وبالتالي وراثة الأنبياء.

وفيما يتعلق بالطريقة الكنتية المختارية، فقد أفضى انتشارها الواسع إلى نتائج غاية في الأهمية، فقد وفد تأثيرها إلى المغرب، والصحراء الكبرى، وشنقيط، وجعلها تحتك مع بقية الطرق الأخرى الوافدة ممثلة في الناصرية، ونجم عن ذلك إثراء للحياة العلمية بأزواد. ثم أبرزت دور الكنتية في انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء، وهو أمر لم يقف عنده الدارسون كثيرا من قبل.

إن بنية الزاوية المختارية القائمة على دورها المركزي نشر العقيدة الصحيحة في الصحراء، وكذلك بإعادة القوة، والوحدة، في نفوس قبائل أزواد، جعلها تقوم بنشر الوعي من أجل فهم وإدراك الظروف الاجتماعية، إذ أن الصحراء ــ لا سيما الواقعة ما بين بلاد شنقيط وأكدس ــ عرفت سنوات عجافا متلاحقة بسبب قلة الأمطار. وعانى خلالها السكان قلة ذات اليد، خاصة عندما يقوم اللصوص بالسطو على القوافل التجارية. فقد كانت الزاوية ملاذا آمنا للعديد من أفراد العشائر المستضعفة، فوجدوا الحماية عند المختار وزاويته. فكانت بذلك توفر الأمن الاجتماعي من ناحيتين:

الاهتمام بكل من يؤم الزاوية، وقضاء مآربه مهما كانت شاقة، وبهذا الوعي الشمولي الواضح، كان مؤسس الزاوية يرى أن رسالتها لا تنحصر في تعليم المريد الكتاب والسنة، وتهيئه للجهاد دفاعا عن الدين والأرض. وإنما تتعداها إلى رأب الصدع في البنية الاجتماعية، بإغاثة الملهوف وإطعام الجائع، وإيواء اليتيم والأرملة، وقضاء حاجة المحتاج.

وقد بعثت الزاوية المختارية في معظم جهات الصحراء حياة جديدة. إذ كان الطالب بها مكفيا كل حاجاته العلمية والمعيشية مؤونة وسكنا، ومن الناحية الاجتماعية فاقتهما بإيجاد نموذج التكافل الاجتماعي في أجل صورة وأبهاها، حيث يقضى بها دين المدين، ويكسي بها العاري، وتزويج العزاب، لكون الزاوية تدفع المهور والتجهيز، وهكذا كان الآلاف من سكان الصحراء الذين يفدون على أزواد يجدون فيها الملاذ الروحي، والإشعاع الثقافي، والأمان الاجتماعي والاستقرار النفسي لما توفره ماديا ومعنويا.

وتمد الباحث كتاباته بمادة تاريخية كثيرة خاصة ما تعلق منها بالسيرة النبوية والمغازي، وهو ينقل هنا عن القدماء دون نقد ولا تمحيص. وأعتقد أن أهم إسهام يقدمها في المجال التاريخي هو إشارات الكثيرة عن تاريخ أزواد وأوضاعها منذ الفترة

السعدية حتى عصره، خاصة جانبها السياسي والعسكري. وتعتبر الأوراق التي خلفها عن نسب بني حسان من أهم آثاره في هذا الميدان، حيث يعطي تسلسلا لأجداد هذه القبيلة من تأسيسها إلى فترة حضورها بأزواد. غير أنه يغفل عن الكثير من المعطيات التاريخية التي تهم

وفي النظم الإسلامية ترك المختار العديد من الإشارات الهامة في المجال الاجتماعي والسياسي والمالي، وفي هذا الأخير لاحظ الباحث أن الخزينة في عهد الباشاوات عرفت موارد مالية خارجة عن الزكوات من جهة، والأعشار من جهة أخرى. واضطر أولي الأمر إلى البحث عن مصادر أخرى جديدة، كانت في حاجة إلى تبرير من جهة الشرع، فضلا عما أثارته من تذمر في أوساط الفئات الاجتماعية الدنيا، والمتوسطة، وما جرته من سخط العلماء في بعض الأحوال. وذكر المختار من هذه الواردات المكوس (أو الضرائب على المبيعات في الأسواق)، والاستعانة (أو طلب المعونة لتمويل الجيش وتنظيمه)، وضريبة الترتيب (أي ما يترتب عن النتاج الفلاحي والحيواني).

وفي اللغة حاول المختار أن يناقش مسائل قديمة بين المدارس النحوية، مثل مسألة المصدر والفعل، وينتصر في الغالب للبصريين. كما أن نثره الفني جاء مطبوعا بطابع اللغوي المتمكن من قواعد اللغة، وبأسلوب قدماء النحاة في الاستشهاد بالشواهد النحوية، واستعمال غريب اللغة. وأهم الأشياء التي خلفها في الأدب هي مراسلاته السياسية مع زعماء القبائل الحسانية بأزواد، وقد جاءت عباراته قوية ومتينة في مجملها.

وفي المجال الشعري عمل المختار على تخليص كلامه الموزون والمقفى من الضعف، الذي اعتراه زمن التدهور، ويظهر ذلك جليا في استقامة قصائده وصحت بنيته الشعرية واتضاح معانيه ووجود أسرار فنية مكنونة، وبذلك فتح الطريق أمام

تابعيه من المبدعين ليجددوا بما تسمح لهم به قدراتهم الفكرية، وجاءت مقطوعاته منسجمة مع الإيقاع العربي مبنى ومعنى. وعند قراءة تلك الأشعار يجد الباحث متعة في تتبع اللغة الشعرية، والتي تذكرنا بلغة الشعراء القدماء.

والغالب عليه هو الشعر الصوفي الذي يتغنى بعشق الجنان، وتربية النفس وتهذيبها، والحض على الورع والتقوى. وقصائده ــ في هذا الإطار ــ مفعمة بالأحاسيس، وتستمد قيمتها من خيال صاحبها الروحي وغنى نفسه. فقد كان المختار يحس الجمال بكل أشكاله، وهو في شعره سيد التعبير عن أفكاره ببلاغة وعبارات ساحرة ومجانسات جميلة جدا.

وسخَّر المختار قلمه لمعالجة مشاكل بلاده السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والبحث عن الحلول الناجعة لها. ويدخل في هذا الإطار ما أنتجه من كتب، ورسائل، وقصائد، وخطب، في الإصلاح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومحاربة الخارجين عن النظام، ومواجهة المتسلطين من أرباب الشوكة، وشيوخ القبائل المحاربة.

إن أهم عبرة يمكن استخلاصها من هذا الموضوع هي أن التجربة العلمية للمختار انطلقت منهجيا ــ في مواجهة مع محيطها الداخلي ــ من إعادة تشكيل الذات علميا من جديد، على أساس إعطاء العلم مكانته في الكون والحياة، وتوظيفه في التعامل مع مشاغل الحياة كلها. وأسَّس المختار بذلك نظاما علميا، حاول من خلاله أن يدمج فيه الخاص (القبلي) بالعام (الآخرين مهما كانوا) أي المصالح الخاصة، بالمصالح العامة. وطبعا كان هدفه القضاء على الأفكار القبلية الضيقة، وتجاوزها إلى حدود الفكر، الذي تحكمه قوانين الشريعة، وفق مبدأ الحق والواجب، والمسيء يعاقب، والمحسن يجاز.

وإذا حاول الباحث أن يضع إسهام المختار العلمي بأزواد في إطاره الزمني، ونظر إليه بمنظار ذلك العصر، أَلِفَهُ وقد اعتمد على تراث أصيل، وتوفرت له عناصر إيجابية عديدة مؤهِّلة، لولا تعثر الجانب السياسي لسوء الحظ. وإلا لكان الدور الذي أداه المختار منطلقا لتغيير الأوضاع في الاتجاه الايجابي، في ظرف مناسب كان في المقابل الأعداء (الأوروبيين) بدورهم ما يزالون يبحثون لأنفسهم ــ في ذلك المجال ــ ويعملون على تأسيس قواعد تكون منطلقا للسيطرة وأساسا للاحتلال.

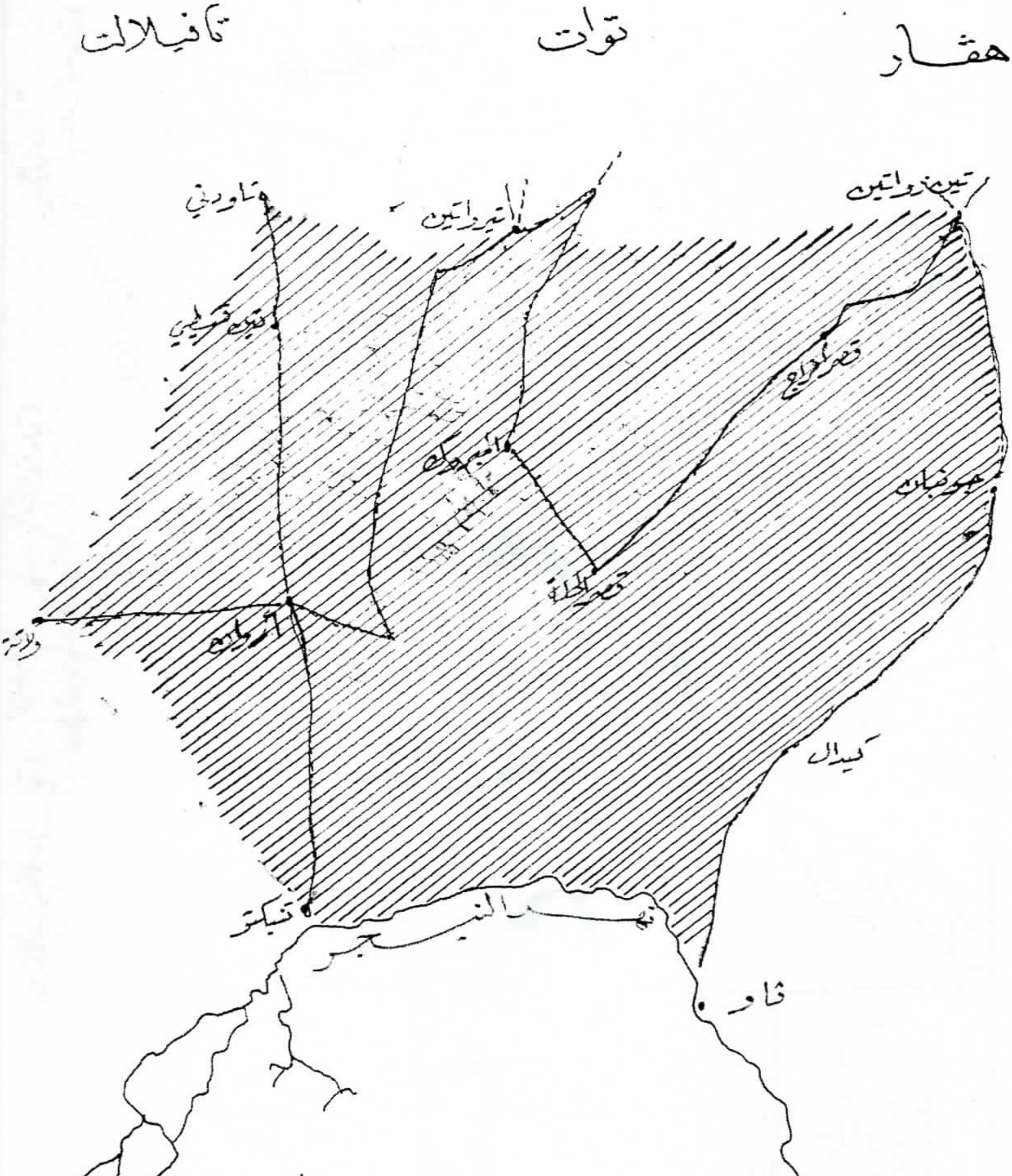
ورغم ما قام به المختار الكبير من جهود علمية ــ خاصة في التأليف ــ بأزواد لم يؤهله لبلوغ مرتبة المجدد، هذه الفكرة التي روَّج لها العديد من رواد الطريقة الكنتية المختارية. والتجديد عند المختار ينبغي أن يشمل جميع ميادين الحياة، وهو بذلك يؤمن بالاجتهاد الجماعي حسب التخصص. وإذا نظر الباحث إلى الجهد العلمي للمختار أَلِفَهُ جهدا لا يختلف عن باقي جهود العلماء الذين عاصروه، وإن تميز عنهم بكثرة التأليف، غير أنه لم يصل إلى درجة الابداع وتطوير العلوم. وإذا كان التجديد يعني في بعض جوانبه التكيف، وإيجاد الحلول للمشاكل والنوازل، والسيطرة على الأوضاع، فإن المختار قد أظهر قدرة وحيوية شملت ــ إلى حد ما ــ أوضاعه الفكرية والسياسية.

ولم تعد العلاقات العلمية بين أزواد وغيرها من المناطق إلى سابق عهدها بعد وفاة المختار بسبب التوغل الاستعماري في المجال البيضاني، وما يحيط به. وتبقى هذه الفترة من الفترات المظلمة في التاريخ العلمي لأزواد، وهي تحتاج إلى أقلام الباحثين من أجل إنارتها، فكيف ــ إذن ــ كانت أوضاعها العلمية خلال تلك الحقبة؟ وما هي أهم التطورات التي مرت بها؟ ثم كيف كانت طبيعة علاقاتها العلمية بالغرب الإسلامي وغيره في الفترة المعنية؟ ومن هم رواد وأقطاب النشاط العلمي وما يتصل به؟ نتمنى أن تتاح المحاولات للإجابة على هذه التساؤلات وما يرتبط بها من إشكالات في دراسات قادمة.

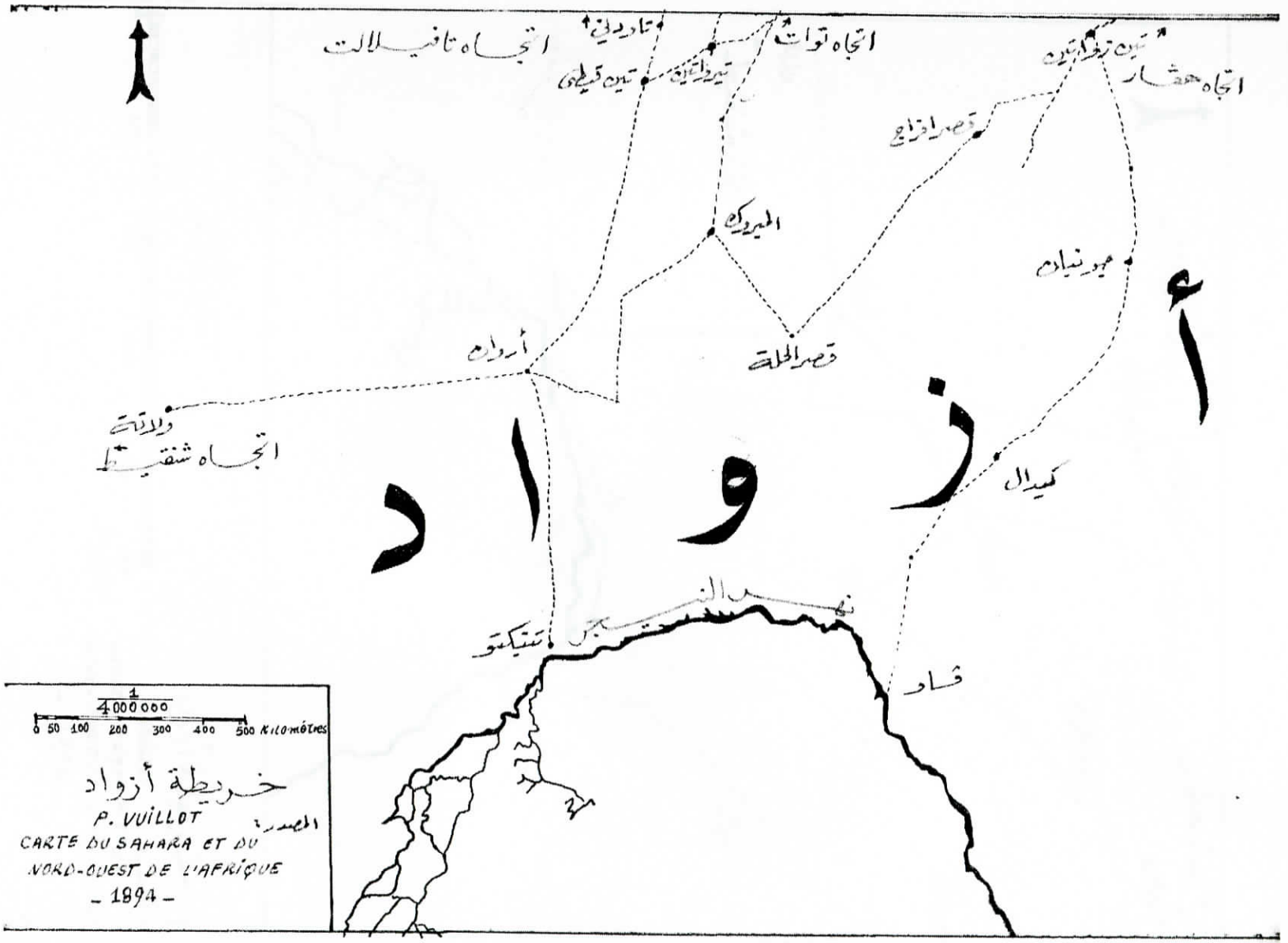
الملاحق

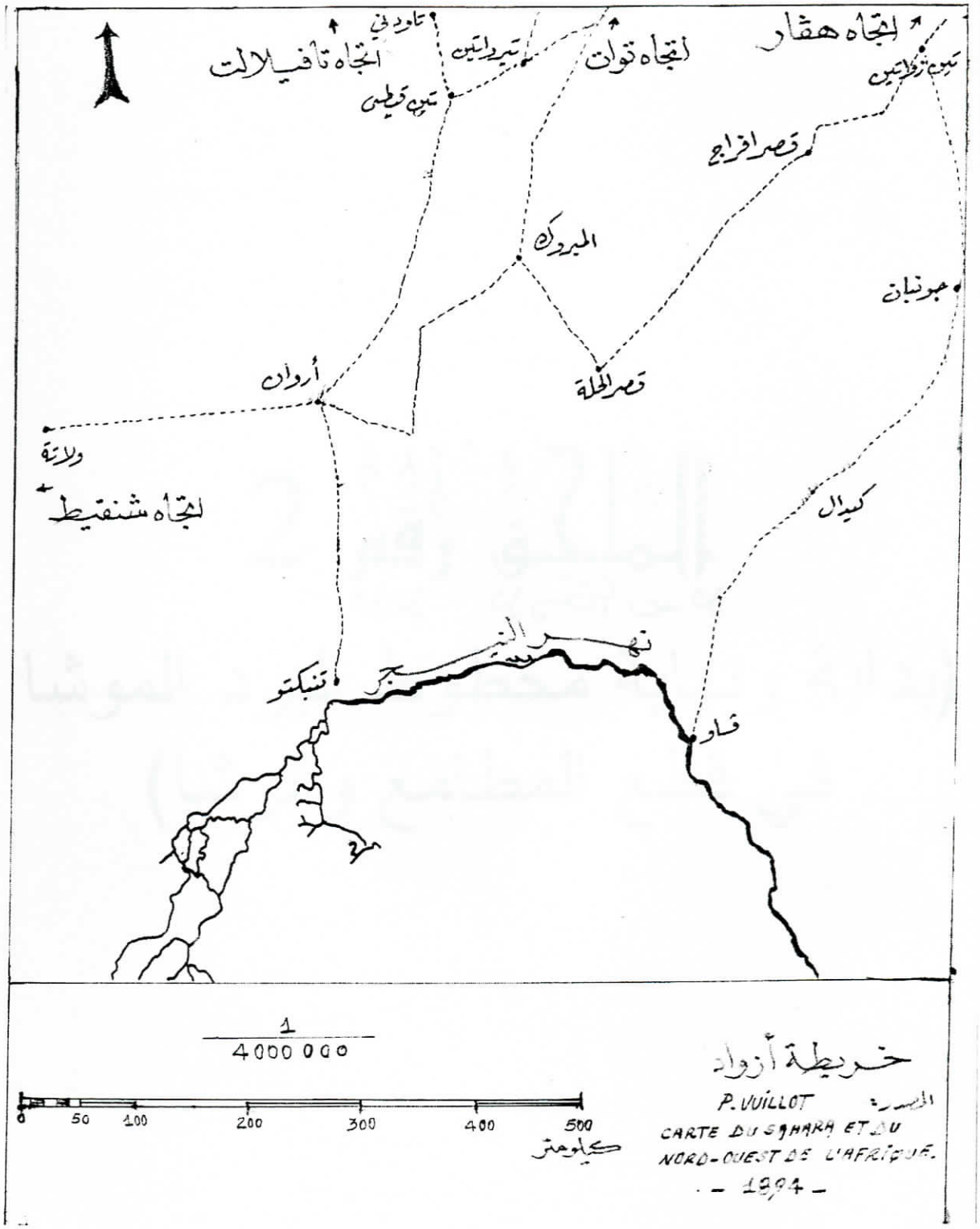
الملحق رقم 1

(خريطة أزواد)



المصدر: P. VUILLOT
CARTE DU SAHARA ET DU NORD-OUEST DE L'AFRIQUE 1894-


أزواد
اتجاه تافيلالت
اتجاه توات
اتجاه هقار
تين زواتين
تين قيلى
تيرداتين
تاديلى
قصر اقزاج
المبروك
مورنيان
قصر الحلة
أرواد
ولاتة
اتجاه شنقيط
كيدال
نهر النيجر
تنبكتو
قاو
1
4000000
0 50 100 200 300 400 500 Kilomètres
خريطة أزواد
المصدر
P. VUILLOT
CARTE DU SAHARA ET DU
NORD-OUEST DE L'AFRIQUE
- 1894 -


اتجاه هقار
اتجاه تافيلالت
اتجاه توات
تاودني
تيرداتين
تين قيلس
تين زواتين
قصر افراج
المبروك
جرنبان
أروان
قصر الحلة
ولاتة
اتجاه شنقيط
كيدال
نهر النيجر
تنبكتو
قاو
1/4000000
0 50 100 200 300 400 500
كيلومتر
خريطة أزواد
P. VUILLOT
CARTE DU SAHARA ET DU NORD-OUEST DE L'AFRIQUE.
- 1894 -

الملحق رقم 2

(بداية ونهاية مخطوط البرد الموشا
في قطع المطامع والرشا)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

كتاب البيوع الفاسدة في فصل الخصام والتراضي

قال الشيخ الفقيه العالم العلامة النبيه، الولي العارف المحدث الحافظ، زعيم الفقهاء والمحدثين، ذي المآثر والفتوحات الشهيرة، والكرامات الكثيرة، الأثير، ذكاء عصرنا، وإنسان عين دهرنا، وبحيدها، ومقيم أودها، ومسدد هداها، شيخنا وسيدنا سلك الله بنا وبه السبيل الأحمد.

الحمد لله الذي علم الانسان ما لم يعلم والصلاة والسلام الأتمان
هذا وإنه عرض لي أن وقفت على وجه
لكل منتسب إلى العلم من البيان وعدم الكتمان

الى الحكم ولعذا وقع التعاون على باطل من أموال الناس بمعنى يأخذها بغير حق قال ابن عباس رضي الله عنهما عند قوله تعالى وتدلوا بها إلى الحكام هذا رجل يكون عليه مال وليس عليه بينة فيجحد ويخاصم إلى الحاكم وهو يعلم أن الحق عليه وأنه آثم بمنعه وقيل أن يقيم شهادة الزور عند الحاكم وهو يعلم ذلك وقيل معناه ولا تحكموا بالباطل وتتسببوا الى الحاكم وقيل لا تدل بما لا تحب الى حاكم وأنت تعلم أنك ظالم فإن قضاءه لا يحل حراما وكان شريح القاضي يقول أني لأقضي لدواء لا أشتهيه كالصبر ولا أكره لا يسعني إلا أن أقضي بما يحل من البينة وإن قضاء الجبار لا يحل حراما ومن حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم عندي حجرته إذ سمع جلبة خصم ببابه فخرج

اليهم

عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم سر على حمار فدوسم في
وجهه فقال لعن الله الذي وسمه رواه مسلم وفي رواية له نهى رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن الضرب في الوجه وعن الوسم فيه ورواه ابو بكر البيهقي باسناد
جيد مختصرا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من يسم في الوجه وعن
جنادة ابن جرادة احد بني غيلان بن جنادة قال اتيت النبي صلى الله عليه
وسلم بابل قد وسمتها في انوفها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يا جنادة بما وجدت عضوا تسمه الا الوجه اما انا فما كك الفصاص
فقال امرها اليك يا رسول الله الحديث اخرجه الطبراني وعن جابر بن عبد الله
قال مر حمار برسول الله صلى الله عليه وسلم قد كوي في وجهه فقور منخراه
دما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله من فعل هذا ثم نهى عن الكي
في الوجه والضرب عليه رواه ابن حبان في صحيحه ورواه الترمذي مختصرا
وصححه والاحاديث في النهي عن الكي في الوجه كثيرة

انتهى الجزء الاول والحمد لله وبليه الجزء الثاني اوله باب ما ينبغي للخليفة
والامام وجميع الولاة والفضلة من تخيير الوزراء الطالحين
وفسحة الجزء من مالك الكتاب لكبر لامر الشيخ العولف رضي الله عنه وعنا بي
ومالك الكتاب محمد النهامي بن عبد القادر فله بيرمي الجازي
لنفسه ثم لمن شاء الله من بعد تغمده الله بما فيه ببركة مولفه رضي الله عنه امين

الملحق رقم 3

(بداية ونهاية مخطوط نضار الذهب في كل فن منتخب)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي أحيا الملة بعد الدثور وبعث من شاء من أرباب الصدور مجددا لما اندرس بتعاقب العصور ومن أمواديس لحو الحميد الشكور وتفسير كتابه المحكم المسطور ونشر الآثار والوارد عن النبي المؤيد المنصور ومشهور ما وصل بالإسناد المتفق من الخبر العاثور وشرح صدور السلف الصالح المحفوفة بالعصم النور والصلاة والسلام دوام الدهور على الفرد العلم المشهور الذي أسفر غرة الصادع وفحص ظلمات أهل الزيغ والفجور صلى الله عليه وعلى آله ذوي العلم المرفوع والفضل المشهور وبعد فهذا كتاب عزيز المثال وحيد المنوال جمعت فيه من كل عقيدة عقبة أفومها وأقواها ومن كل آية قرآنية أحكمها وأوثقها وأشهاها ومن كل رواية أثرية أصحها وأسناها ومن كل عارف قرآنية أغوصها وأخباها فجاء بحمد الله جزل المباني غزير المعاني يغتبط به الناظر والسامع منحا مهذبا مفصلا منيرا مرتبا مقربا والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه خالطه ومن السمعة والرياء خاليا فالصالحون يتبع به فاويه وسامعه والساعي في تحصيله دوام الدهور وارتضاعف ثوابه جلايل الأجور ويعصمه مما يصمه من الخطأ والزور بمنه وكرمه إنه البر الغفور حتى يكون حجة لجوابها وعبنا صافية تلذ بشربها ووسيلة موصلة أتقرب بها إنه القريب المجيب أعلم أرشدني وإياك إلى توحيده تعالى بحر لا ساحل له سوى العجز والتنزيه الخالي من التخمير والتعويه إذ الواسع

ولا اخل بجمعته من كتب جمة واسانيد محققة وسميته نثار الذهب في كل ما
منتخب والله اسال ان يجعله لي حجة انجو بها وعينا صافية الذة يشربها ووسيلة
اتقرب بها اليه على ذلك قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين
هذا انتهى تاليف شيخ المشايخ وذي المجد الباذخ والعز الشامخ والقدم الراسخ بل هو
قطب الوجود ومسند الوجود المسمى نثار الذهب في كل ما منتخب فهو هو وكما سمى
وكنا وصف نفعنا الله به وبما الف عليه عبد ربه سبحانه محمد المصطفى بن عمر بن سيد
احمد لاخيه في الله الحاج محمد الانصاري كان الله لهما ولوالديهما ولبنائهما وتصيراه امين
وكان الفراغ منه عشية الخميس بحمد الله وحسن عونه لمنسلخ شهر شهور
المحرم الشامخ والسيعير بعد المائتين والالف فعرفنا الله خيره وخير ما بعده وكفانا
شره وشر ما بعده امين بجاه النبي الامين صلى الله عليه وسلم وكان الفراغ من نقله
من اصله يوم الاحد من جمادى الاخيرة سنة ١٣٩١ وصح نقله عبيد ربه محمد الناجم بن محمد
الاخضر لشيخه وسيده ومرشده صلى الله عليه به سيدنا الحاج محمد التهامي
ابن عبد القادر كان الله له ولوالديه واشياخه ولبنائهم وتصيراه والله يختم للجميع بخاتمة
السعادة والفوز والرضى من الله في دار الكرامة امين امين امين
والحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده والصلاة والسلام الاتمان
الاكملان على سيد المرسلين والحمد لله رب العالمين

الملحق رقم 4

(بداية ونهاية مخطوط نزهة
الراوي وبغية الحاوي)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي أحيا الملة بعد الدثور وبعث من شاء من أرباب الصدور مجددا
لما اندرس بتعاقب العصور ومن أصول الدين لحو الحميد الشكور وتفسير
كتابه المحكم المسطور ونشر الآثار والوارد عن النبي المؤيد المنصور ومشهور
ما وصل بالإسناد المنيف من الخبر المأثور وشرح طرق السلف الصالح الحقوقة
بالعصمة النور والصلاة والسلام دوام الدهور على البدر العلم المشهور الذي أسفر بجبره
الصادع بمحي ظلمات أهل الزيغ والجور صلى الله عليه وعلى آله ذوي العلم المرفوع
والفضل المشهور وبعد فهذا كتاب عزيز المثال وحيد المنوال جمعت
فيه من كل عقيدة عفة أفومها وأقواها ومن كل آية قرآنية أحكمها وأوثقها
وأشهاها ومن كل رواية أثرية أصحها وأشباها ومن كل عارف بمعرفة ربانية
أفوهها وأحباها فجاء بحمد الله جزل المباني غزير المعاني يغتبط
به الناظر والسامع منحى مهذبا مفصلا منيرا مرتبا مقربا والله
أسأل أن يجعله خالصا لوجهه خالطا من السمعة والرياء خاليا فالصا وأن ينفع
به قارئه وسامعه والساعي في تحصيله دوام الدهور وأن يضاعف لقائله
جلائل الأجور ويعصمه مما يصمه من الحكام والزور بمنه وكرمه إنه البر
الغفور وحسبي بكونه حجة لجوابها وعمدتي طامية التلذذ بشربها ووسيلتي
موصلة التقرب بها إنه القريب المجيب أعلم أرشدنا وإياك إلى توحيده تعالى
بحر لا ساحل له سوى العجز والتنزيه الخالي من التحيز والتشبيه إذ الواسع

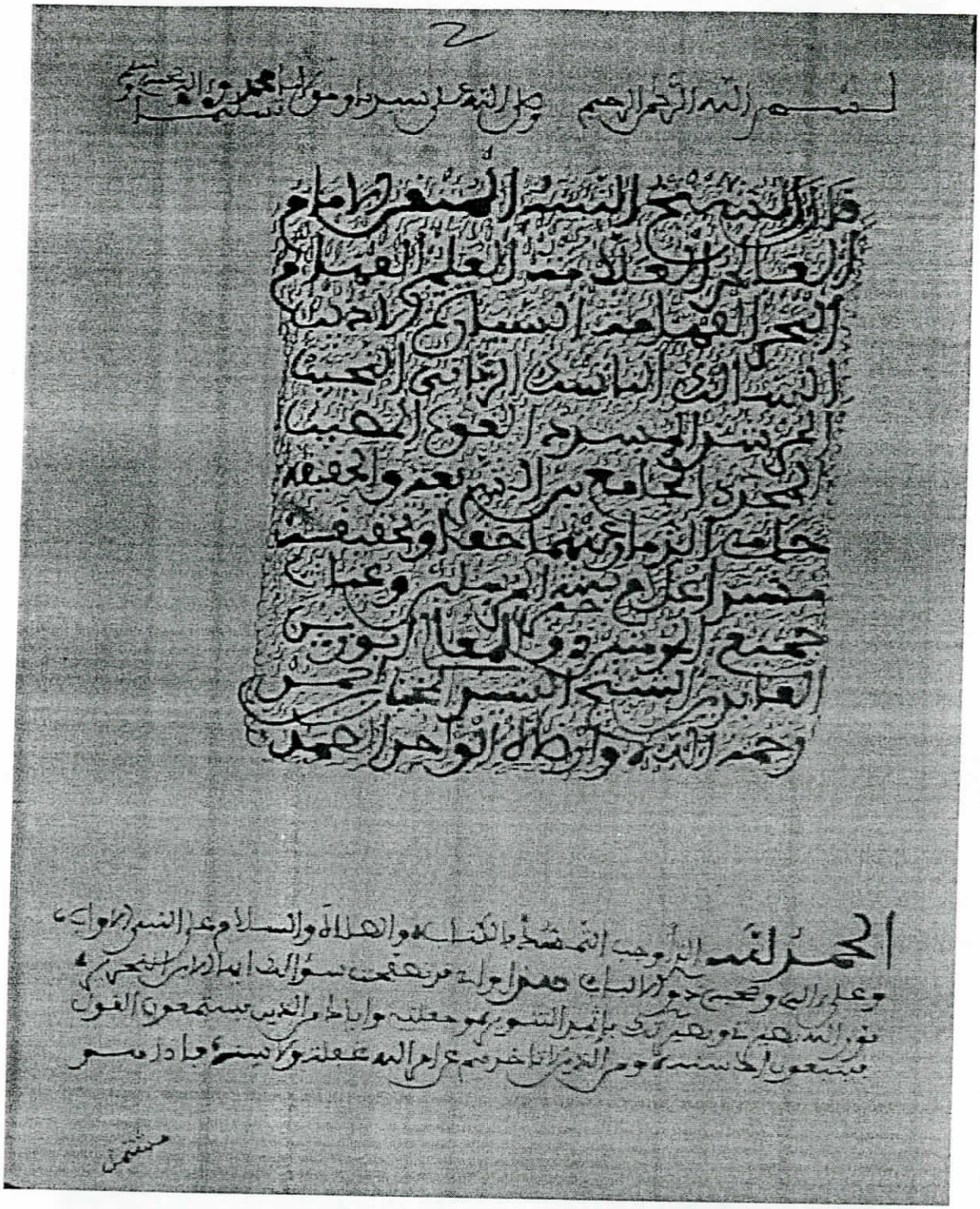
١٣٠٩هـ

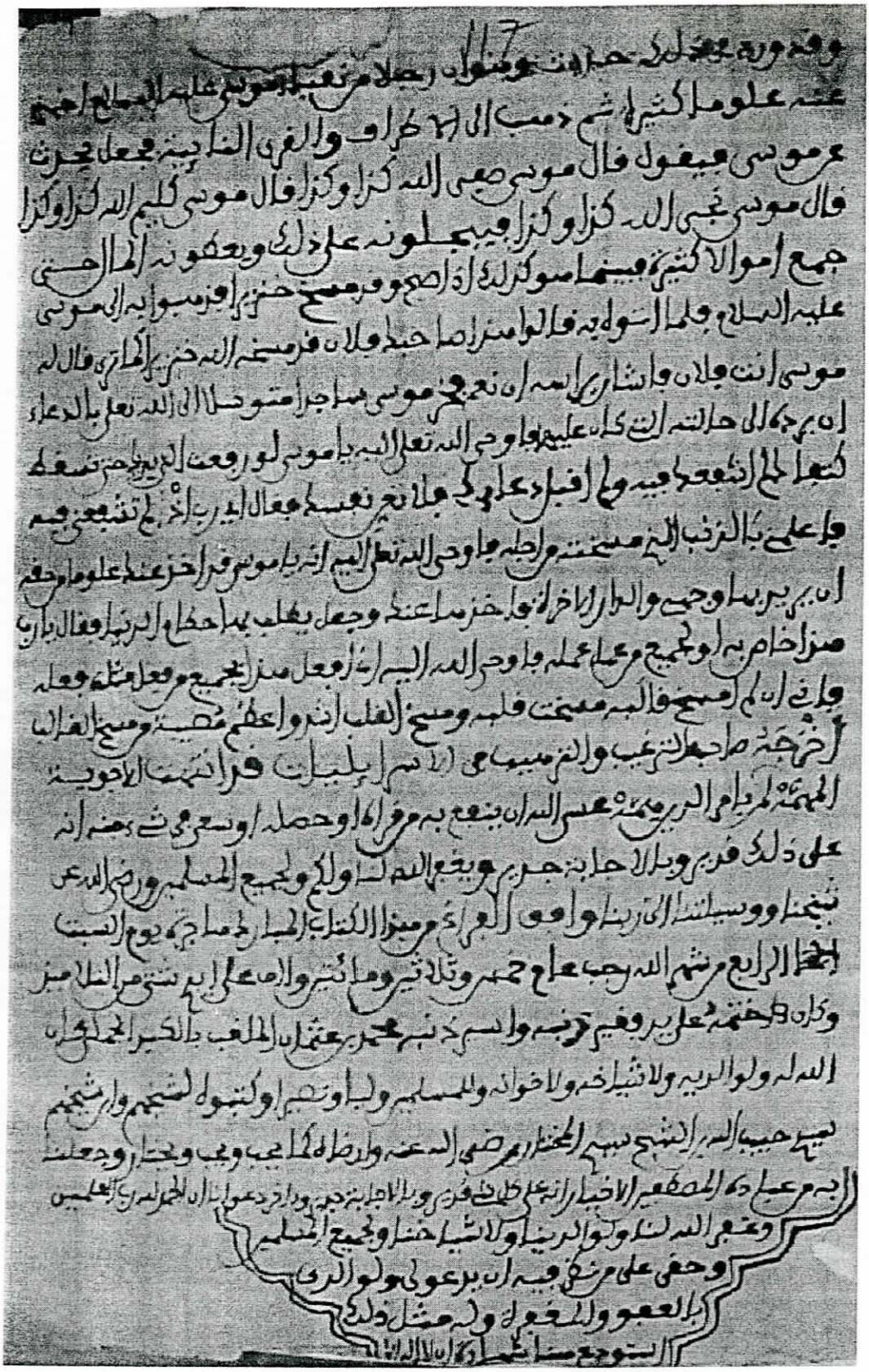
الشيبة المسلم او يعذبه بنار اخرجه ابن ماجة وقال صلى الله عليه وسلم اراحب
عباد الله الى الله الشاب التقي والغني الكريم المتواضع والفقير الصابر وابغضهم اليه
الشيخ العاسي والغني البخيل والفقير المتكبر وقال صلى الله عليه وسلم من
اكرم ذا الشيبة المسلم فيض الله له من يكرمه عند هرمه وشيبته ومن
اهان ذا الشيبة المسلم فيض الله له عند هرمه وشيبته من يذله ويهينه
ومن ذلك قوله صلى الله عليه بارك يبرك ولدك انتهى النصف الاول من نزهة
القارئ وبغية الحاوي للشيخ السيد المختار ويليه الجزء الثاني يسر الله اتمامه اوله الباب الثالث
في ذكر عجائبه واوصافه

نحمدك يا ذا الجلال والاكرام والصلاة والسلام على النبي وآله وصحابته الكرام على يد فقير
مولاه واسير خطاياه الراجي عفو ربه ومولاه وغفرانه ورحمته ورضاه عبيد ربه محمد النهلي
ابن عبد القادر بن الحاج ابي بكر بن الحاج فاجم بن محمد بن محمد الحسيني منشأ القبلاوي مولدا
ودارا ضحى يوم الخميس التاسع من صفر الخير سنة ١٣٠٨ هجرية على صاحبها
افضل الصلاة والسلام

الملحق رقم 5

(بداية ونهاية مخطوط الأجوبة المهمة لمن له بأمر الدين همة)





الملحق رقم 6

(قصيدة في الفخر وأخرى في النصح والإرشاد)

قصيدة الافتخار بالأجداد

يا أيها المتحلي غير شيمته أقصر فليس وجود العين كالأثر
هذي ميادين كعٌّ دون غلوتها حمارك الأعور المهزول ذو البدر
تزبب الحصرم الملقى بغابته وليس يشبه طعم التمر والسكر
وإن تنَّسر عصفور يكّذبه بين البرية نقص القدر والقدر
ما كان لله دام الدهر متصلا وما لغير الإله مجٌّ بالضجر
أينقص الشمس قدرا وهي ضاحية نباح كلب على العلات محتقر
قد ينبح الأسد وهو لا يماثلها وينكر الأعمى ضوء الشمس من ضرر
وينكر الجعل المسك الثمين فلا يحظى بنفحته كالجن والبشر
كل على قدره حكم يصرِّفه بين البرية ليس المسك كالبعر
فحظ كل لئيم شتم سيده فقس فليس درار الشهب كالحجر
ينازع الله في فضل يصرِّفه بين الكرام فيجزى منه بالغير
وإنما الدين نصح الله يتبعه نصح البرية جاء غير ذي عور
لا يحسد الناس إلا كل ذي أبجر منافق فاسق قد جاء في الخبر
والنصح من شيم الأخيار فاصغ لما أبديه منتخبا من نخبة الزبر
لا يجتنى التمر إلا من شمارخه ويقذف الشَّهد إلا النحل بالوكر
طيب الفروع ينال من معادنه وخبثها تقتنيه من طخى المدر
وقد نمتنا الكرام من أرومتها من جذم عبد مناف دُرى الغرر
والخيم يمنعهم من كل يافعة والمجد يحرزهم من كل ذي خور
هم الأئمة قِدما غير ذي كذب المنقذون الورى من ربقة الكدر
أعفة يعلم الرحمن عفتهم والجار يحمونه بالبيض والسمر
منهم ولي ومنهم مقسط بدل والغوث منهم ومنهم قائم السحر
ومنهم السابقون في تصرفهم والكون يطونه كاللمح بالبصر
ومنهم قد يُرى المجددون ومن تحيا بحرمته المومأة بالخضر
السائحون على رغم لشانئهم السائرون مسير الشمس والقمر

الغائثون المستجير في تبلدهم كأنهم عنده إذ مُسَّ بالضرر
والرافعون عن الأكوان همتهم لقربهم من عظيم مالك قادر
هم المدلون إمَّا معشر فخروا عند الفخار بأصل طيب عطر
فعقبة المستجاب الغرب فاتحها كفرا فكفرا بإذن سيد البشر
ومات بعد شهيدا في الصلاة وقد ساد البرية من بدو ومن حضر
فقام عمرو العلا من بعده وبه تقَّطب العشرة الأبدال في الزمر
من جملة التابعين في أرومتها حازوا العلوم وفتحا بيِّن الأثر
وعامر بعده حاز العلوم بها بدأ وعودا وحاز السبق بالكبر
وبعده شاكر يهس ودومانها حازوا التقطب لا نكر لذي نكر
ويحي قد حييت به القلوب وقد سقى بنفحته السبعين من نهري
وردَّ كلا إلى قوم يسددهم والكل مات لديه آخر العمر
وقد علا بعده إلى السماء العلا علي فجرى بسقي الألف مفتخر
نزيل فصك له قدر ومنقبة شديد ركن عظيم الملك معتكر
وهو الذي دوَّخت لمتونة دعوته حتى علتهم بنو حسان بالخفر
ونجله قد بكى تسعين تتبعها عشر مخافة رب الكون مزدجر

قصيدة في النصح والإرشاد

فامهد لنفسك قبل المـوت صـالحة ... لا تـدخر عـسجدا عنهـا ولا ذهبـا

وارحل بزاد مـن التقـوى تقدمـه ... نعـم الخليـل إذا متروكـك انتهبـا

من لم يكن بنذير الـشيب منزجـرا ... فالنـار موعـده تبـا لمـن هربـا

ألـف كيـوم ومحـشود كمنفـرد ... وذو الغنـى كـالفقير والحيـاة هبـا

من غره ذخـرف الـدنيا وبهجتهـا ... فليستمع ما رووه مـن حـديث سـبا

أين الذين بنوا قصرا مـشيدا ومـن ... بني الخورنق صـاروا عبـرة عجبـا

كـأنهم مـا بنـوا بيـضا مـشرفة ... وما تعـاطوا كؤوسـا ملئـت طربـا

ولم يـسيروا علـى خيـل مـسومة ... جردا أبابيل فـي معـصوصف لجبـا

بادوا جميعـا فـلا عـين ولا أثـر ... وأصـبحوا رممـا قـد تبيـت تبـا

في قعـر مقفـرة سـوداء مظلمـة ... تذري عليهم رياح حـصبت حـصبا

تمحـى محاسـنهم والـدود يـأكلهم ... والذل يغشى وجوهـا طالمـا اجتنبـا

والقبح يجري على الخدين يخـضبها ... والبطن منتثـر والجـسم قـد عطبـا

من غره العمر قد طاشت مقاصـده ... ومـن يـشمر سـيجزيه بمـا كـسبا

هي المـواعظ إن تنفعـك موعظـة ... والعمر في ربقة التسويف قـد نـشبا

من يدكر ينزجر عـن كـل غائلـة ... ومن يفرط يُرى في النار قـد رسـبا

خير البرية مـن طابـت سـريرته ... ومن يقم بالدجى والليـل قـد حجبـا

والدمع يجري على الخدين يخـضبها ... والقلـب مرتقـب والـسر ملتهبـا

كأنـه كوكـب والليـل معتكـر ... يتلو كتابـا عزيـزا معجـزا عجبـا

فالـشوق يقلقـه والـذوق يغرقـه ... والوجـد يحرقـه والـدمع منـسكبا

في صدره حيرة فـي قلبـه غيـرة ... في جوفه زفرة تبقـي الكـلا حطبـا

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع:

ـ المخطوطات:

1ـ الأرواني (أحمد بابير)، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط مكتبة الساحل بجاو، بدون رقم.

2ـ البكاي (ديدي)، الحق الظاهر لكل قلب طاهر، مخطوط بخزانة بيت العود بقصبة سيد العابد بأقبلي في أولف.

3ـ البلبالي (عبد العزيز)، غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل، نسخة مصورة بمخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية بجامعة وهران، دون رقم.

4ـ ابن بوغتو (آمن)، جوامع التواريخ، مخطوط مكتبة دياكوزي بجاو، رقمه 18.

5ـ التنبكتي (أحمد بابا)، كفاية المحتاج بمعرفة من ليس في الديباج، مخطوط خزانة الشيخ باي بأولف، بدون رقم.

6ـ التنبكتي (محمد بن محمد)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط مكتبة دياكوزي بجاو جمهورية مالي، رقم 024.

7ـ الجراري (يحي بن عبد الله)، ضوء المصباح في الأسانيد الصحاح، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 4275.

8ـ الدرعي (محمد بن ناصر)، الأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1111.

9ـ الزجلاوي (محمد بلعالم)، النوازل، نسخة مصورة بمخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بجامعة وهران، دون رقم.

10ـ الكنتي (باي بن عمر)، النوازل، نسخة بخزانة الشيخ باي محمد بالعالم بمدرسة مصعب بن عمير بأولف، دون رقم.

11ـ الكنتي (محمد ولد بادي)، بلوغ الغاية على الوقاية، مخطوط بخزانة الشيخ باي بأولف، بدون رقم.

12ـ الكنتي (محمد الخليفة)، الطرائف والتلائد في مناقب الشيخين الوالدة والوالد، نسخة مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بقسم الحضارة الإسلامية جامعة وهران، دون رقم.

13ـ الكنتي (محمد الخليفة)، نصيحة لبعض الإخوان، بخزانة الشيخ أبي نعامة الكنتي بأقبلي في أولف، دون رقم.

14ـ الكنتي (محمد الخليفة)، الروض الخصيب في شرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب، بخزانة بلعمش بتندوف، رقم: 18.

15ـ الكنتي (المختار الكبير الكنتي)، البرد الموشا في قطع المطامع والرُّشا، بخزانة فيلي موسى بوسط مدينة تمنراست، دون رقم.

16ـ الكنتي (المختار الكبير)، نزهة الراوي وبغية الحاوي، بخزانة فيلي موسى بوسط مدينة تمنراست، دون رقم.

17ـ الكنتي (المختار الكبير)، المنة في اعتقاد أهل السنة، نسخة مصورة لدى الشيخ حيمد بحي موفلو بتمنراست، دون رقم.

18ـ الكنتي (المختار الكبير)، مكتوب في نسب بني حسان، بخزانة دادة بأولف، رقم: 14.

19ـ الكنتي (المختار الكبير)، الجرعة الصافية والنفحة الكافية، نسخة مصورة بخزانة الحاج محمد برماكي بزاوية مولاي هيبة بأولف، دون رقم.

20ـ الكنتي (المختار الكبير)، التذييل الجليل العادم المثيل، بخزانة بلعمش بتندوف، رقم: 24. ونسخة الخزانة الحسنية الرباط، رقم: 1736.

21ـ الكنتي (المختار الكبير)، كشف الشبهات بالبراهين والبينات، نسخة مصورة لدى الشيخ التهامي عبد الوهاب بتاهقارت بتمنراست، دون رقم. ونسخة أخرى بخزانة الشيخ أبي نعامة الكنتي بأقبلي في أولف، دون رقم.

22ـ الكنتي (المختار الكبير)، الأجوبة المهمة لمن له بأمر الدين همة، بالمكتبة الوطنية الجزائرية ح 37 د.

23ـ الكنتي (المختار الكبير)، زوال الالباس في طرد الوسواس الخناس، بخزانة الحاج محمد برماكي بزاوية مولاي هيبة بأولف، دون رقم.

24ـ الكنتي (المختار الكبير)، نظار الذهب من كل فن منتخب، بخزانة فيلي موسى بوسط مدينة تمنراست، دون رقم.

25ـ الكنتي (المختار الكبير)، نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب، نسخة مصورة بخزانة الحاج محمد برماكي بزاوية مولاي هيبة بأولف، دون رقم.

26ـ الكنتي (المختار الكبير)، جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار، نسخة بخزانة الطالب موسى بتورفين انغر تمنراست، دون رقم.

27ـ الكنتي (المختار الكبير)، لطائف القدسي في فضائل آية الكرسي، الخزانة العامة بالرباط، رقم: ك 2357.

28ـ الكنتي (المختار الكبير)، مجموع قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، خزانة ماما حيدرة بتينبكتو مالي، رقم: 1141.

29ـ الكنتي (المختار الكبير)، حزب المغني، خزانة ماما حيدرة بتينبكتو مالي، رقم: 2439.

30ـ الكنتي (المختار الكبير)، ذيل الكوكب الوقاد، خزانة بلعمش بتندوف.

31ـ الكنتي (المختار الكبير)، أجوبة في حكم الأموال المأخوذة من أيدي المحاربين اللصوص، نسخة مخطوطة بخزانة الأنصاري بأولف.

32ـ الكنتي (المختار الكبير)، رسالة إلى جماعة الأبناء والإخوان جماعة أبناء عمنا أبي نعامة، توجد بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم ح 37.

33ـ الكنتي (المختار الكبير)، أجوبة فقهية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم د 1429.

34ـ المامي (محمد)، كتاب البادية، نسخة مخطوطة بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي بنواكشوط، بدون رقم.

35ـ ابن أبي محلي (أحمد)، منجنيق الصخور لهدم بناء شيخ الغرور ورأس الفجور، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 582.

36ـ مجهول، خبر السوق، مخطوط خزانة بيت العود بأقبلي، دون رقم.

37ـ مجهول، سلسلة القادرية، مخطوط بخزانة الأنصاري بأقبلي.

38ـ المفتي (محمد)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط متحف الساحل بجاو، دون رقم.

39ـ المشرفي (العربي)، الحسام المشرفي لقطع لسان الساب العجرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن أكنسوس. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم: 2276 ك.

40ـ القصري (بن محمد المختار)، النوازل، نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي نواكشوط، رقمها: 2138.

41ـ السبتي (عبد الرحمان بن محمد)، ياقوتة الأسرار، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 12764.

42ـ السطاتي (العربي بن قاسم الشاوي البورزقي)، نشر المحاسن والمآثر لرجال الشاوية المشاهر، قطعة مخطوطة بخزانة بيت العود بأقبلي، دون رقم.

43ـ السوقي (عتيق بن سعد الدين)، الجوهر الثمين في أخبار صحراء الملثمين، نسخة مصورة بحوزة الأستاذ بن بلال محمد بحي الحفرة تمنراست، دون رقم.

44ـ الوتري (علي)، ما أبرزته الأقدار في نصرة ذوي المناقب والأسرار، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1115 د.

45ـ ابن عبد الوهاب (صالح)، الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية، نسخة مصورة عن نسخة سيداتي بن المصطفى نواقشوط، بدون رقم.

ـ المصادر باللغة العربية:

46ـ الأندلسي (أبو حامد)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة المغرب، ط الثانية 1993.

47ـ ابن إبراهيم (عباس)، الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، ط 1977.

48ـ ابن إسحاق (خليل)، مختصر العلامة خليل، أشرف على تصحيحه والتعليق عليه أحمد نصر، دار الشهاب باتنة الجزائر، د ت.

49ـ الأشعري (أبو الحسن)، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان دمشق ومكتبة المؤيد الطائف السعودية، ط الثالثة 1990.

50ـ ابن بابه (محمد فال)، التكملة في تاريخ إمارتي البراكنة والترارزة، تحقيق أحمد ولد الحسن، بيت الحكمة تونس، ط 1986.

51ـ بابه (سيديا)، إمارتا إدوعيش ومشظوف، دراسة وتحقيق إزيد بية بن محمد محمود، المعهد التربوي الوطني وشركة الكتب الإسلامية موريتانيا، ط الثانية 1994.

52ـ الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب)، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط 1987.

53ـ الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب)، التقريب والإرشاد، تحقيق عبد الرحمن على أبو زيد، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 1993.

54ـ ابن عبد البر (أبو عمر يوسف)، جامع بيان العلم وفضله، دار الفكر بيروت، د ت.

55ـ البرتلي (محمد الولاتي)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 19881.

56ـ البرزلي (أبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي)، فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 2002.

57ـ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)، رحلة ابن بطوطة، تحقيق محمد عبد الرحيم، مؤسسة الكتب الثقافية ودار الفكر بيروت، ط الأولى 2003.

58ـ البكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات تونس، ط 1992.

59ـ بلو (محمد الفلاني)، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ط الأولى 1996.

60ـ البغدادي (عبد القاهر)، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تحقيق لحنة إحياء التراث العربي، دار الجيل ودار الأفاق الجديدة بيروت، ط 1987.

61ـ البغوي (الحسن)، شرح السنة، حققه علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1992.

62ـ التكني (أحمد بلعراف)، إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط، دراسة وتحقيق، الهادي المبروك الدالي، دون دار الطبع، د ت.

63ـ التنبكتي (أحمد بابا)، معراج الصعود، تحقيق فاطمة الحراق وجون هانويك، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ط الأولى 2000.

64ـ التفتازاني (سعد الدين) ، شرح المقاصد، تحقيق عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب بيروت ومكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، ط الأولى 1989.

65ـ الثعالبي (أبو منصور)، تحفة الوزراء، تحقيق ودراسة سعد أبو دية، دار البشير عمان الأردن، ط الأولى 1994.

66ـ ابن جزي (محمد)، القوانين الفقهية، دار الكتاب العربي بيروت، ط الثانية 1989.

67ـ ابن الجوزي (عبد الرحمن)، سيرة عمر بن عبد العزيز، دار الفجر للتراث القاهرة، ط الأولى 1999.

68ـ الجويني (عبد الملك)، كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1995.

69ـ ابن الحاج (محمد)، المدخل، ضبطه وخرج أحاديثه توفيق حمدان، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1995.

70ـ ابن الحاج (عبد الله)، نشر البنود على مراقي السعود، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ط 1977.

71ـ ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني)، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، تحقيق محمد بيومي، دار الغد الجديد المنصورة مصر، ط الأولى 2005.

72ـ ابن حزم (علي)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن بن عميرة، دار الجيل بيروت، د ت.

73ـ الحطاب (محمد)، تحرير المقالة في شرح نظائر الرسالة، دراسة وتحقيق أحمد سحنون، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ط 1988.

74ـ الحطاب (محمد)، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، مطبعة دار السعادة مصر، ط 1328 هـ.

75ـ ابن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ ابن خلدون، ضبط الحواشي والفهارس خليل شحادة، مرجعة سهيل زكار، دار الفكر العربي بيروت، ط 2001.

76ـ ابن خلدون (عبد الرحمان)، شفاء السائل لتهذيب المسائل، دراسة وتحقيق أبو يعرب المرزوقي، المطبعة العربية تونس، ط 1991.

77ـ ابن خلكان (أبي العباس أحمد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، د ت.

78ـ دنية (محمد بن علي)، النسمات الندية، المطبعة الاقتصادية الرباط، ط 1355 هـ.

79ـ الديماني (آمحمد بن أحمد يوره)، إخبار الأخبار بأخبار الآبار، تحقيق، أحمد ولد الحسن، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط 1992.

80ـ الرازي (الفخر)، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي بيروت، د ت.

81ـ الزياني (أبو القاسم)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، حققه عبد الكريم الفيلالي، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ط 1991.

82ـ ابن أبي زيد (عبد الله)، الرسالة، مطبعة مصطفى الحلبي القاهرة، ط 1338 هـ.

83ـ ابن زيدان (عبد الرحمن)، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية بالرباط، ط الثالثة، د ت.

84ـ ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي حلب، ط الأولى 1997.

85ـ الكانوني (محمد)، جواهر الكمال في تراجم الرجال، القسم المنشور في المطبعة العربية برحبة الزرع القديمة بالدار البيضاء المغرب، ط 1937.

86ـ الكلاباذي (أبي بكر)، التعرف لمذهب أهل التصوف، ضبطه وعلق عليه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1993.

87ـ الكنتي (محمد الخليفة)، أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام، حققه بادي بن باي بن باب، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر جدة، ط 1421 هـ.

88ـ الكنتي (محمد الخليفة)، الرسالة الغلاوية، تحقيق حماه الله ولد السالم، مطبعة كوثر الرباط، ط الأولى 2003.

89ـ الكنتي (المختار الكبير)، فتح الودود شرح المقصور والممدود، تحقيق مأمون محمد أحمد، مطبعة الكاتب العربي دمشق، ط الثانية 1991.

90ـ كعت (محمود)، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، حققه هوداس، طبعة بردين باريس، ط 1913.

91ـ المبرد (أبي العباس)، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف بيروت، د ت.

92ـ مجهول، تاريخ ولاته، تحقيق رحال بوبريك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة الرباط، ط الأولى 2002.

93ـ مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية الدار البيضاء، ط 1985.

94ـ المحجوبي (المصطفى)، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور، دارسة وتحقيق الهادي المبروك الدالي، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط 2001.

95ـ المرادي (محمد بن الحسن)، الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق سامي النشار، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء المغرب، ط الأولى 1981.

96ـ ابن مليح (محمد)، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس فاس المغرب، ط 1970.

97ـ المغيلي (محمد بن عبد الكريم)، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، دراسة وتحقيق عبد القادر زبادية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1989.

98ـ الناصري (محمد بن عبد السلام)، المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 2003.

99ـ ابن عمر (محمد التونسي)، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، مطبعة كيبلين الحجرية باريس، ط 1850.

100ـ العمري (ابن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية، ط 1924.

101ـ ابن عسكر (محمد)، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبعة الكرامة الرباط، ط الثالثة 2003.

102ـ عياض (أبو الفضل بن موسى اليحصبي)، ترتيب المدارك، تحقيق مجموعة من الباحثين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية الرباط، ط 1968.

103ـ الغزالي (أبي حامد)، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا، مكتبة الجندي مصر، ط 1972.

104ـ الغزالي (أبي حامد)، معيار العلم، شرح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1990.

105ـ الغلاوي (محمد النابغة)، بوطليحية، تحقيق ودراسة يحي بن البراء، المكتبة المكية ومؤسسة الريان بيروت، ط الثانية 2004.

106ـ الفارابي وأبي القاسم المغربي وابن سينا، مجموع في السياسة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.

107ـ الفاسي (عبد القادر بن علي)، الإجازة الكبرى والصغرى، تحقيق محمد بن عزوز، دار ابن حزم بيروت، ط الأولى 2003.

108ـ الفراء (أبي يعلى)، الأحكام السلطانية، صححه وعلق عله محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية بيروت، ط 2000.

109ـ الفلاني (صالح بن محمد)، قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، تحقيق عامر حسن صبري، دار الشروق جدة، ط الأولى 1984.

110ـ ابن فودي (عثمان)، إحياء السنة وإخماد البدعة، نشر الحاج طن أغي طابيريرو، دار الكتب المصرية القاهرة، ط 1981.

111ـ القادري (محمد بن الطيب)، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط أولى 1983.

112ـ ابن القاضي (أحمد المكناسي)، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور الرباط، ط 1974.

113ـ ابن القاضي (أحمد المكناسي)، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة والمكتبة العتيقة تونس، ط 1970.

114ـ ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)، أدب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة مصر، ط الرابعة 1963.

115ـ ابن قنفذ (أحمد القسنطيني)، أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وأدولف فور، مطبعة أكدال الرباط، ط 1965.

116ـ ابن القيم الجوزية (محمد)، الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق مسعد بن فريد الأشموني، دار الغد الجديد المنصورة مصر، ط الأولى 2003.

117ـ السنوسي (محمد)، شرح أم البراهين في علم الكلام، تحقيق وتعليق مصطفى محمد الغماري، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1989.

118ـ السعدي (عبد الرحمان)، تاريخ السودان، وقف على طبعه هوداس، مطبعة الأمريكان والشرق باريس، د ت.

119ـ ابن سودة (عبد السلام بن عبد القادر)، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1980.

120ـ ابن سيديا (هارون)، كتاب الأخبار، تحقيق باب بن هارون، نشر المطبعة السريعة نواكشوط، ط 1998.

121ـ السيوطي (جلال الدين)، الأشباه والنظائر في النحو، دار الكتب العلمية بيروت، د ت.

122ـ ابن هشام (عبد الملك)، السيرة النبوية، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر بيروت، ط 2003.

123ـ الواداني (ابن طوير الجنة)، تاريخ ابن طوير الجنة، تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ط 1995.

124ـ الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط، ط الثانية 1983.

125ـ اليدالي (محمد)، نصوص من التاريخ الموريتاني، تحقيق محمذن ولد باباه، بيت الحكمة تونس، ط 1990.

ـ المراجع باللغة العربية:

126ـ إبراهيم حسن (حسن)، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ط الثانية 1963.

127ـ إبراهيم حسن (حسن)، انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربها، مطبعة لجنة البيان العربي القاهرة، ط 1957.

128ـ إبراهيم حسن (حسن) وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ط 1970.

129ـ إبراهيم عبد الرحمن (محمد)، التفسير النبوي للقرآن الكريم وموقف المفسرين منه، دار المناهل بولاق القاهرة، ط 1995.

130ـ الألوري (آدم عبد الله)، موجز تاريخ نيجيريا، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ط 1965.

131ـ انطونيوس (جورج)، يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين بيروت، ط الثامنة 1987.

132ـ أفرت (اليزا)، مبادئ علم الهيئة، طبع في بيروت، ط 1875.

133ـ إسماعيل (محمود)، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح الكويت، ط الثالثة 1992.

134ـ إسماعيل (محمود)، قضايا في التاريخ الإسلامي منهج وتطبيق، دار الثقافة الدار البيضاء المغرب، ط الثانية 1981.

135ـ الأشقر (عمر سليمان)، القضاء والقدر، دار النفائس عمان، ط الرابعة 1999.

136ـ بدوي (عبد الرحمن)، شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات الكويت، ط الثالثة 1978.

137ـ بل (ألفرد)، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الثالثة 1987.

138ـ بلاشير (رجيس)، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1986.

139ـ بوبريك (رحال)، المدينة في مجتمع البداوة التاريخ الاجتماعي لولاته خلال القرنين 18 و19، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط ، ط 2000.

140ـ البوطي (محمد سعيد رمضان)، اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية، دار الهدى عين مليلة الجزائر، ط 1990.

141ـ بونت (بيير)، إمارة أدرار، ترجمة بوبة ولد محمد نافع، المركز الإفريقي للأركيولوجيا نواكشوط، ط 2002.

142ـ بوقلي حسن (جمال الدين)، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1985.

143ـ بن بيه (محمد محمود عبد الله) ، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، دار الأندلس الخضراء جدة ودار ابن حزم بيروت، ط الأولى 2000.

144ـ الجكاني (عبد العزيز بن الشيخ)، ثمرات الجنان في شعراء بني جاكان، دار المحبة دمشق ودار آية بيروت، ط الأولى 2005.

145ـ جلال شرف (محمد)، دراسات في التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب، دار النهضة العربية بيروت، ط 1984.

146ـ جمعة عبد الله (محمد) ، الكواكب الدّرية في فقه المالكية، دار التوفيق النموذجية القاهرة، ط 1993.

147ـ ولد حامد (المختار)، التاريخ السياسي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 2000.

148ـ ولد حامد (المختار)، حياة موريتانيا الجغرافيا، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1994.

149ـ بن حدة (عبد المجيد)، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشاعرة، دار الغرب تونس، ط 1686.

150ـ الحجوي (محمد بن الحسن)، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة إدارة المعارف بالرباط، ط 1340 هـ.

151ـ حجي (محمد)، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ط 1977.

152ـ حجي (محمد)، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط 1988.

153ـ الحريري (محمد عيسى)، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر المريني، دار القلم الكويت، ط الثانية 1987.

154ـ ولد الحسين (الناني)، صحراء الملثمين، دار المدار الإسلامي بيروت، ط 2007.

155ـ الحشائشي (محمد بن عثمان)، الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق، قدم لها وعلق عليها محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، ط 1988.

156ـ حوراني (ألبرت)، تاريخ الشعوب العربية، تعريب أسعد صقر، دار طلاس دمشق، ط الأولى 1997.

157ـ الدالي (الهادي المبروك)، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما الصحراء، مطابع الوحدة العربية الزاوية ليبيا، ط الأولى 2000.

158ـ الدالي (الهادي المبروك)، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط الأولى 1999.

159ـ درنيقة (محمد أحمد)، السيد محمد رشيد رضا إصلاحاته الاجتماعية والدينية، مؤسسة الرسالة بيروت ودار الإيمان طرابلس لبنان، ط الأولى 1986.

160ـ عبد الرازق أحمد (أحمد)، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار الفكر العربي القاهرة، ط 1990.

161ـ الرفاعي (أنور)، النظم الإسلامية، دار الفكر دمشق، ط 1992.

162ـ روجي إدريس (الهادي)، الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1992.

163ـ زغلول (الشحات) ، من مناهج التفسير، دار المعرفة الجامعية السويس مصر، ط 1996.

164ـ زيادة (نقولا)، المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبي، بيروت، ط 1967.

165ـ زيعور (علي)، الكرامة الصوفية والأسطورة القطاع اللاواعي في الذات العربية، دار الأندلس بيروت، ط الثانية 1984.

166ـ الطهطاوي (رفاعة)، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، دار الهلال القاهرة، ط 2001.

167ـ الكتاني (عبد الحي)، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 2001.

168ـ عبد اللطيف (علي محمد)، تنبكتو أسطورة التاريخ، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط الأولى 2001.

169ـ بن عبد الله (عبد العزيز)، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، ط 1977.

170ـ مارتي (بول)، البرابيش بنو حسان، ترجمة محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق، ط 1985.

171ـ مارتي (بول)، كنتة الشرقيون، عربه محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق، د ت.

172ـ ماكيفيدي (كولين)، أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار السويفي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2002.

173ـ محمود (عبد الحليم)، المنقذ من الضلال، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط الثانية 1985.

174ـ محمود (حسن أحمد)، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي القاهرة، ط 2001.

175ـ محمود (حسن أحمد)، قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي القاهرة، د ت.

176ـ المليجي (سامي قاسم أمين)، الوهابية، مكتبة مدبولي القاهرة، ط الأولى 2006.

177ـ بن مليح (عبد الإله)، ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب.

178ـ مونكومري (وات)، البدو، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط الأولى 1981.

179ـ مؤنس (حسين)، الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام، مكتبة الثقافة الدينية مصر، ط الأولى 2000.

180ـ المصري (عبد السميع)، التجارة في الإسلام، دار النهضة القاهرة، ط 1976.

181ـ ميراندا (أمبروسيو هويثي)، التاريخ السياسي للإمبراطوية الموحدية، ترجمة عبد الواحد أكمير، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط الأولى 2004.

182ـ الميلي (مبارك بن محمد)، رسالة الشرك ومظاهره، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 2000.

183ـ ميقا (أبو بكر إسماعيل)، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من 400 هـ إلى 1100 هـ، مكتبة التوبة الرياض، ط الأولى 1997.

184ـ ناعمي (مصطفى)، الصحراء من خلال بلاد تكنة، مطبعة عكاظ الرباط، ط 1988.

185ـ النجار (عبد المجيد عمر)، مشاريع الإشهاد الحضاري، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 1999.

186ـ النمر (عبد المنعم)، علم التفسير، دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت، ط الأولى 1985.

187ـ نوري (دريد عبد القادر)، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن 4-10 هـ/ 10- 16 م، المكتبة الوطنية بغداد، ط 1985.

188ـ الصابوني (محمد علي) وصالح أحمد رضا، مختصر تفسير الطبري، مكتبة رحاب الجزائر، ط الثانية 1987.

189ـ الصويان (أحمد عبد الرحمن)، منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، مكتبة الملك فهد الرياض، ط الثالثة 2001.

190ـ بن عاشور (الطاهر) ، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط 1984.

191ـ العربي (إسماعيل)، تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1986.

192ـ العماري (أحمد)، نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار المغرب نموذجا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ط 1993.

193ـ أبو عمران (الشيخ)، قضايا في الثقافة والتاريخ، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى الجزائر، ط 2003.

194ـ عمر دمه (باحمد)، الزوايا الكنتية أعلاما وجغرافية، مطبعة البركة نيامي النيجر، د ت.

195ـ الغربي (محمد)، بداية الحكم المغربي قي إفريقيا فيما وراء الصحراء، دار الرشيد بغداد، ط 1982.

196ـ غريستر (جورج)، الصحراء الكبرى، تعريب خيري حماد، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع بيروت، ط الأولى 1961.

197ـ أبو فارس (حمزة)، أضواء على جوانب من حياة ليبيا العلمية، منشورات فاليتا ماطا، ط 2001.

198ـ الفوزان (صالح)، شرح كتاب كشف الشبهات، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الأولى 2000.

199ـ الفيتوري (عطية مخزوم)، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط الأولى 1998.

200ـ فيصل (شكري)، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول نشأتها مقوماتها تطورها اللغوي والأدبي، دار العلم للملايين بيروت، ط الخامسة 1981.

201ـ القطان (مناع)، تاريخ التشريع الإسلامي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الرابعة عشرة 1996.

202ـ القشاط (محمد سعيد)، أعلام من الصحراء، مؤسسة ذي قار ليبيا، ط الثانية 1999.

203ـ القشاط (محمد سعيد)، التوارق عرب الصحراء، مركز شؤون وأبحاث الصحراء طرابلس، ط الثانية 1989.

204ـ ولد السعد (محمد المختار)، إمارة الترارزة وعلاقاتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703 إلى 1860 ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط، ط 2002.

205ـ ولد السعد (محمد المختار)، الفتاوى والتاريخ، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 2000.

206ـ سوندرز (جون)، العالم الإسلامي عشية توسع أوروبة، ترجمة محمد ظافر الصواف، دار البشير عَمَّان ومؤسسة الرسالة بيروت، ط الأولى 1994.

207ـ سيسوكو (سينكي مودي)، الصنغاي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، المطبعة الكاثولكية بيروت، ط 1988.

208 ـ بن شريفة (محمد)، من أعلام التواصل بين بلاد المغرب وبلاد السودان، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط الأولى 1999.

209ـ الشنقيطي (أحمد بن الأمين)، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء ومؤسسة الخانجي بمصر، ط الثانية 1958.

210ـ شودكيفيتش (ميشيل)، الولاية، ترجمة أحمد الطيب، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط 1999.

211ـ الشويعر (محمد بن سعد)، تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية، مطابع الحميضي مكة المكرمة، ط الأولى 2001.

212ـ هوبكنز(توني)، التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية القاهرة، ط 1998.

213ـ هوبكنز (توني)، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة أمين توفيق الطيبي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط 1999.

214ـ وبريل إشتين (سام)، الصحراء، ترجمة مصطفى بدران، دار المعارف مصر، ط الثانية 1966.

215ـ بن يعيش (محمد)، الإمام أبو يوسف بن عبد البر حياته وآثاره ومنهجه في فقه السنة، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ط 1990.

ـ المراجع باللغات الأجنبية:

216_ ABITBOL (M), Tombouctou et les Armas, Maisonneuve et La Rose, Paris.,1979.

217_ BA KONARE (A), Les relations politique et culturelles enter le Maroc et le Mali à travers les ages. IMP. NAJAH ELJADIDA CASABLANCA., 1991.

218_ BATRAN (A), the qadiryya brotherhood in west Africa and the western Sahara the life and times of shaykh al-mukhtar al-kunti, Imprimerie Kawthar Rabat., 2001.

219_ BOSWRTH (C.E). VANDONZEL (E). B.LEWIS and PELLAT (CH), The encyclopedia of Islam. . LEIDEN., E. J. Brill (1986). V 5.

220_ BOUBRIK (R), fondateur et héritier: la gestion d'une succession confrérique (Mauritanie), Cahiers d'Etudes Africaines, 159, XL_ 3, 2000.

221_ BOURGEOT (A), Les Sociétés Touaregues. Edition kart hala Paris., 1995.

222_ BRENNER (L), Du kuttab a la madrasa , Considération historique à propos de L'Enseignement islamique au Mali , IMP . ELMAARIF AL JADIDA RABAT., 1994.

223_ BRENNER (L), Introduction: Essai socio-historique sur l'enseignement Islamique au Mali. Editions Jamana Bamako., 1991.

224_ CARDAIRE (M) , L'Islam et terroir Africain, Bamako., IFAN, 1954.

225_ DESCHAMPS (H), Histoire Générale de l'AFrique Noire. Paris., 1971.

226_ DESIRE (V), La Mauritanie du 19 Siècle à l'Indépendance, Paris., 1979.

227_ DUMONT (F), Lanti-sultan ou al-hajj Omar tal du fouta combattant de la foi. Les nouvelles éditions africaines Dakar Abidjan., 1974.

228_ FOUREAU (F), mission chez les touareg, librairie maritime et colonial Paris., 1985.

229_ FROELICH (J.C), Les Musulmans d'Afrique noire, Paris, èd. De L'Orante., 1962.

230_ GAUDIO (A), les civilisation du Sahara, Gérard Verviers Belgique., 1967.

231_ GAUTIER (E. F). le sahara. Payot Paris., 1950.

232_ GUOTIER (E.F). Et CHUDEAU (R), Sahara Soudanais. librairies Armond Colin. Paris., T 2. 1909.

233_ KANE (O), l'enseignement islamique dans les mederasas du mali, éditions jamana Bamako., 1991.

234_ LE CHATELIER (A), l'Islam dans l'Afrique occidentale, Paris. Steinheil., 1899.

235_ LE CHATELIER (A), Touat, Sahara, et Frontière marocaine. Paris, Challamel., 1901.

236_ LEHURAUX (C), Les Français au Sahara, Edition Les Territoires du Sud. Alger., 1937.

237_ LHOTE (H), les touaregs du Hoggar, Payot Paris., 1955.

238_ MARTY (P), Etudes sur L'islam et les tribus Maures, Les Brakna, Paris., 1921.

239_ MAUNY (R.), Tableau géographique de L'Ouest Africain au moyen Age. Dakar., 1961.

240_ MONTEIL (V), Le Monde musulman, Paris., 1963.

241_ MONTEIL (V), L'islam noir. Editions du seuil Paris., 1964.

242_ MURPHY (E. J.), History of African civilization, New York., 1972.

243_ SABATIER (C), Touat, Sahara et Soudan. Société . dédisions scientifiques. Paris., 1891.

244_ TANGI (F), Histoire de la Mauritanie orientale à travers deux manuscrits arabes, Paris., 1993.

245_ TRIMINGHAM (J.S), the influence of Islam upon Africa. London., 1980.

246_ YACONO (X), Histoire de la colonisation Française , 2 eme éd . Paris., 1988 .

ـ المقالات باللغة العربية:

247ـ إخوان الشادلي (زهراء) ، «الصلات الثقافية بين المغـرب والمـشرق خـلال القرنين 10 ـ 11 هـ / 16 ـ 17 م»، مجلة دعوة الحق، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط المملكة المغربية، عدد 370، أكتوبر ـ نوفمبر ـ دجنبـر 2002، مطبعة فضالة المحمدية المغرب. (ص ص 86 ـ 112).

248ـ بوتشيش (إبراهيم القادري)، «الخطاب الاجتمـاعي فـي الكرامـة الـصوفية بالمغرب خلال عصري المرابطين والموحدين مساهمة في دراسة الفكـر الاجتمـاعي للبلدان المتوسطية»، ضمن ندوة جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة مولاي إسماعيل مكناس، مطبعـة فضالة المحمدية المغرب، ط 1991. (ص ص 98 ـ 111).

249ـ التازي (عبد الهادي)، «زيري بن عطية وسياسته الخارجية»، نـدوة المغـرب الشرقي بين الماضي والحاضر، جامعة محمد الأول وجدة، أيام 13ـ 14ـ 15 مارس 1986، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط 1988. (ص ص 217 ـ 237).

250ـ ولد حبيب الله (أحمد)، «النثر الأدبي الشنقيطي نشأة وتطورا»، نـدوة الـذكرى الثمانين للشيخ محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي، نواكـشوط 20/18 يونيـو 1996، منشأة المعارف الإسكندرية، ط 2002. (ص ص 125 ـ 140)

251ـ بن الحسين (الناني)، «المرابطون والذاكرة الجمعية الشنقيطية»، أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم التاريخ جامعة نواكشوط مخبر الدراسات والبحوث التاريخية، من 15 إلى 17 أبريل 1996. (ص ص 129 ـ 156).

252ـ بن محمد محمود (إزيد بيه)، «أضواء على رحلة يحي بن إبراهيم الكدالي»، أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين، جامعة نواكشوط قسم التاريخ، من 15 إلى 17أبريل 1996. (ص ص 23 ـ 30).

253ـ المنوني (محمد)، «المدرسة الكنتية كأبرز قناة بين الإفريقيتين في العصر الحديث»، ضمن ندوة العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، المنعقد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سنة 1992، منشورات عكاظ الرباط، ط 1992. (ص ص 61 ـ 97).

254ـ المعزوزي (محمد)، «الأمير المجاهد يوسف بن تاشفين والممالك الأندلسية»، ندوة يوسف بن تاشفين، مؤسسة البشير للتعليم مراكش، يومي 2 ـ 3 محرم 1421 هـ / 7ـ 8 أفريل 2000. (ص ص 97 ـ 115).

255ـ العلوي (سعيد بنسعيد)، «سبل التحديث ومسالك الاجتهاد وقفات في أصول الفكر السلفي في المغرب»، مجلة الاجتهاد، تصدر عن دار الاجتهاد بيروت، العددان العاشر والحادي عشر شتاء وربيع 1991. (ص ص 173 ـ 201).

256ـ العماري (أحمد)، «رسالة الوتري في محاكمة السلفية بالمغرب»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد 2، 1985. (ص ص 355 ـ 402).

257ـ العيساوي (فاطمة)، «كلف البوادي في القرن التاسع عشر»، ندوة البادية المغربية عبر التاريخ، المنعقدة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سنة 1999. (ص ص 133 ـ 148).

258ـ ولد السالم (حماه الله)، «الإطار الفكري للحركة المرابطية»، أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين، من 15 إلى 17 ابريل 1996م، جامعة نواكشوط، قسم التاريخ، 1999م. (ص ص 41 ـ 79)

259ـ ولد السالم (حماه الله)، «مظاهر الصلات العربية الإفريقية من خلال ركاب الحاج والأوقاف في الفترة الحديثة»، مجلة مصادر، يصدرها مخبر الدراسات والبحوث التاريخية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، مطبعة ميسك نواكشوط 2004. (ص ص 53 ـ 70).

260ـ الشيخ (أبو عمران)، « فلسفة محمد إقبال الدينية والسياسية »، مجلة الدراسات الإسلامية، مجلة نصف شهرية تصدر عن المجلس الإسلامي الأعلى الجزائر، عدد 4 شوال 1424 هـ/ ديسمبر 2003 م. (ص ص 11 ـ 31).

261ـ الشيخلي (صباح)، «ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء»، مجلة أفاق الثقافة والتراث، مجلة فصلية ثقافية تراثية تصدر عن قسم الدراسات والمجلة بمركز جمعة الماجد لثقافة والتراث، دولة الإمارات العربية المتحدة، السنة العاشرة العدد 38، ربيع الآخرة 1423هـ/يوليو2002م. (ص ص 18 ـ 27).

262ـ ولد الهاشم (ددود ولد عبد الله)، «جوانب من الصراع الفكري في بلاد شنقيط خلال القرن الثاني عشر /18 م»، ندوة دور موريتانيا في التواصل الفكري المشرقي المغربي، ندوة الذكرى الثمانين للشيخ محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي، نواكشوط 18 ـ 20 يونيو 1996، شركة الجلال للطباعة الإسكندرية مصر، ط 2002. (ص ص 63 ـ 81).

263ـ الهيلة (محمد)، «الزاوية وأثرها في المجتمع»، بحث منشور في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية تونس، عدد 40- 43، سنة 1975. (ص ص 94 ـ 103)

264ـ يفوت (سالم)، «الأشعرية في المغرب»، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 68 ـ 69 ، سبتمبر 1986. (ص ص 291 ـ 305).

265ـ بن يوسف (سليمان داود)، «انتشار الحضارة الإسلامية في إفريقيا السوداء»، محاضرات الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي، تمنغست 7 ـ 16 شوال 1399 هـ / 30 أغسطس 8 سبتمبر 1979 م، كتاب الأصالة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الرغاية الجزائر، ط 1995. (ص ص 119 ـ 179).

ـ المقالات باللغة الأجنبية:

266_ DE CHAM BONNEAU (L.M), Histoire du Toubenan ou changement de Souverains". In BIFAN, T. XXX, série B, N 1, 1968. (pp 331 _ 346).

267_ DE LA CHAPELLE (F), Esquisse d 'une histoire de Sahara occidental , Hesperis., année 1913 T . XI. (pp 19 _36).

268_ DESTAING (E), notes sur des Manuscrits Arabes de L'Afrique Occidental,Revue Africaine, n 56, Office des publications universitaires Alger., 1912.(pp 442 _ 467).

269_ DEVORS (P), Le Touat. étude géographique et médical. Archives de l'Institut Pasteur d'Algérie T. 25, n° 3- 4, Septembre-Decembre 1947. (pp 223 _ 274).

270_ FERNANDES (V), Description de la cote d'Afrique de Ceuta au Sénégal (1506- 1507) Publ. Ce nival et Th. Morod, R.H.S.A.,série A N 6, 1938. (pp 92 _ 108).

271_ LERICHE (A) , les Haratin , Bul, de I. R. S. Alger., n° 6, 1951.(pp 46 – 56).

272_ PROVENÇAL (L), Un nouveau récit de la conquête de l' Afrique du nord par les arabe. Dans Arabica., T1. 1954. (pp 19 _ 53).

273_ REBOUL (E) , Le Gourara. Etude historique, géographique et médicale. Archive de l'Institut Pasteur d'Algérie., T. 31, n° 2, Juin 1953.(pp 164 _ 246).

ـ الرسائل الجامعية:

274ـ الأزمي (أحمد)، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، رسالة دكتوراه بجامعة محمد بن عبد الله بفاس، بإشراف لحسن أغزادي نوقشت 20 أبريل 2000.

275ـ حوتية (محمد)، قبيلة كنته بين إقليمي توات والأزواد دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ق 18 ـ 19 م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، المشرف ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر معهد التاريخ سنة 1992 ـ 1993.

276ـ المهداوي (محمد)، الشيخ المختار الكنتي حياته وتأليفه: نزهة الراوي وبغية الحاوي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة، دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا الرباط، المشرف محمد يسف، سنة 2003/ 2004.

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

المقدمة..... أ

الباب الأول:أزواد والمختار الكبير الكنتي

الفصل الأول: أزواد وأوضاعها في عهد المختار

أزواد وموقعها..... 4

انتشار الإسلام بأزواد..... 11

الكشف الجغرافي بأزواد..... 16

أوضاع أزواد السياسية..... 17

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية..... 35

الفصل الثاني: الحياة العلمية بأزواد قبيل فترة المختار

المقررات العلمية..... 48

العلوم النقلية والعقلية..... 49

المساجد ودورها بأزواد..... 66

رحلات الحجاج وتنقلات العلماء..... 71

الوظائف الدينية..... 75

الفصل الثالث: قبيلة كنته والمختار الكنتي

أصل كنته وانتشارها..... 84

الفترات التاريخية لتشكيل قبيلة كنته..... 92

المختار الكبير وطلبه العلم..... 98

زواج المختار وأولاده..... 106
أسانيد المختار العلمية وتلامذته..... 109

الباب الثاني: مساهمة المختار في العلوم الشرعية

الفصل الأول: جهود المختار العلمية في العقيدة الإسلامية

الإيمان بالله وبصفاته..... 127
فيما يجوز على الله وأفعال العباد..... 139
الشرك وما يتعلق به..... 141
الإيمان وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم..... 143
موقف المختار من الوهابية..... 146

الفصل الثاني: الإنتاج الفكري للمختار في التفسير والفقه

المسائل التفسيرية التي تناولها..... 169
مصادره في التفسير..... 180
المصادر المالكية المعتمدة..... 189
القضايا الفقهية التي اهتم بها المختار..... 196

الفصل الثالث: الإطار الفكري لتصوف المختار

الأسانيد الصوفية..... 216
طريقة كنته البكائية..... 219
المريد وصفاته في فكر المختار الصوفي..... 224
الولاية والأولياء..... 244
الكرامات..... 255

الباب الثالث: مساهمة المختار في التاريخ واللغة وآدابها

الفصل الأول: الأهمية التاريخية لكتابات المختار

تاريخ المشرق العربي..... 265
تاريخ المغرب والأندلس..... 269
تاريخ أزواد..... 273
نسب بني حسان..... 293

الفصل الثاني: النظم الإسلامية من خلال كتابات المختار

النظام السياسي..... 301
النظام الإداري..... 310
النظام القضائي..... 316
النظام المالي..... 326
الأزياء واللباس بأزواد..... 338

الفصل الثالث: اللغة وآدابها عند المختار

المواضيع اللغوية التي اهتم بها..... 343
النثر الفني..... 349
القصة على لسان الجماد..... 358
الشعر وأغراضه..... 363
الفصاحة والإيجاز في القرآن الكريم..... 374
الخاتمة..... 376
الملاحق..... 385
المصادر والمراجع..... 406